الفصل الثالث

سياسة نور الدين الخارجية

المبحث الأول
علاقته مع الخلافة العباسية

عاصر نور الدين محمود انتعاش مؤسسة الخلافة العباسية إبان المقتفي لأمر الله سنة (530هـ - 555هـ/ 1136 -1160م)، والمستنجد بالله سنة (555 - 566هـ/ 1160 - 1170م) والمستضيء بالله سنة (566 - 575هـ/ 1171 - 1180م) إذ اتسم حكمهم بالحرص الشديد على استعادة التوازن السياسي مع السلاجقة في العراق وإيران على نحو خاص، ومن بعد ذلك، كافة البقاع الإسلامية الأخرى[1]، وقد ساعد على تمتع الخلافة العباسية بالنفوذ في هذه المرحلة وجود الوزير الصالح العالم الرباني عون الدين يحيى بن هبيرة، وتعتبر قوة مؤسسة الخلافة وانتزاع صلاحياتها من السلاجقة في هذه الفترة من أسباب النهوض، فقد ساهمت مؤسسة الخلافة في المقاومة للغزو الصليبي متمثلاً ذلك في دعم نور الدين في أرض الثغور ببلاد الشام دينياً واقتصادياً وسياسياً. . إلخ متوازياً ذلك الدعم مع الضخ الكبير لمعاني الإسلام والإيمان والإحسان في قطاعات وجماهير الأمة في عاصمة الدولة العباسية وغيرها، وكان من أبرز قيادات الحركة الشعبية الروحية الإيمانية الشيخ عبد القادر الجيلاني، لقد كانت عوامل النهوض، عديدة منها: روح جديدة في مؤسسة الخلافة والوزارة، وقيادة رشيدة في ساحات الوغى، وزعامة شعبية روحية مخلصة لدين الله ساهمت في تقوية المقاومة للصليبيين، وأمدت الأمة بقدرات مادية ومعنوية للتصدي للغزاة وتحقيق التوازن العسكري ثم التفوق عليهم وفق رؤية نهضوية متكاملة وضع خطوطها العريضة القادة السياسيون والعسكريون والعلماء الربانيون.

أولاً: الخليفة المقتفي لأمر الله: هو:

أمير المؤمنين، أبو عبد الله، محمد بن المستظهر بالله أحمد بن المقتدي بالله عبد الله

---

(1) فن الصراع الإسلامي الصليبي، ص: 58.

ابن الذخيرة محمد بن القائم بأمر الله بن القادر بالله أحمد بن الأمير إسحاق بن المقتدر، الهاشمي العباسي البغددي الحبشيُّ الأم، وقد بويع بالخلافة في سادس عشر ذي القعدة سنة ثلاثين وخمس مئة[1].

كان المقتفي عاقلاً لبيباً، عاملاً مهيباً، صارماً، جواداً، محباً للحديث والعلم، مكرماً لأهله، وكان حميد السيرة، يرجع إلى تدين وحسن سياسة، جدّد معالم الخلافة، وباشر المهمات بنفسه، وغزا في جيوشه[2]، وأقام حشمة الخلافة وقطع عنها أطماع السلاطين السلجوقيين وغيرهم، وكان من السلاطين خلافته صاحب خراسان سنجر بن ملكشاه، والملك نورالدين صاحب الشام، وأبوه قسيم الدولة[3]. ولقب: بالمقتفي؛ لأنَّه يقال: إنه رأى النبي ﷺ وهو في المنام وهو يقول له: سيصل هذا الأمر إليك فاقتف بي، فصار إليه بعد ستة أيام فُلقِّبَ بذلك لذلك[4].

1 ـ سياسته الحكيمة:

لم يكن الخليفة المقتفي لأمر الله أكثر حظاً من سلفه من حيث معاملة السلاجقة له إلا أنه كان دون شك أكثر قابلية ودهاء من الخليفة الراشد بالله، لقد حاول الخليفة المقتفي لأمر الله سياسة اقتناص الفرص من أجل تأكيد سلطة الخلافة، والقضاء على النفوذ السلجوقي، كما أنه لم يذعن لطلبات السلطان مسعود بن محمد بن ملك شاه بن أرسلان، وقال له عندما أرسل وزيره يطلب منه مائة ألف دينار: ما رأينا أعجب من أمرك، أنت تعلم أن المسترشد سار إليك بأمواله فجرى ما جرى، وإن الراشد ولي ففعل ما فعل ورحل وأخذ ما تبقى ولم يبق إلا الأثاث فأخذته كله! وتصرفت في دار الضرب، وأخذت التركات والجوالي، فمن أي وجه نقيم لك هذا المال؟ وما بقي إلا أن نخرج من الدار ونُسلمها فإني عاهدت الله لا آخذ من المسلمين حبة ظلماً، فترك السلطان الأخذ من الخليفة، وعندما نشب الخلاف بين أمراء السلاجقة استغله الخليفة لصالحه، واستطاع أن يحصل على موافقة السلطان مسعود السلجوقي بإنشاء جيش في بغداد تابع للخلافة مباشرة، وكان ذلك إنجازاً كبيراً للخليفة المقتفي، ثم جاءت وفاة السلطان السلجوقي مسعود سنة 547هـ فارتفعت معنويات أهل العراق وأطلقت يد الخليفة لكي يثبت مركزه ويوسع دائرة نفوذه الذي امتد ليشمل الحلة والكوفة وواسط والبصرة ثم تكريت، وتفرغ الخليفة لأحوال العراق الداخلية، فأصلح سور بغداد، ورمم مواضعها الدفاعية، واسترد الإقطاعات السلجوقية، وخرج بنفسه يُقاتل مَن عاداه،

(1) سير أعلام النبلاء (20/ 398).
(2) المصدر نفسه (20/ 400).
(3) المصدر نفسه (20/ 401).
(4) البداية والنهاية (16/ 310).

يساعده في ذلك وزيره المعروف: عون الدين بن هبيرة[1]، فنجح الخليفة الذي دام حكمه 24 سنة في إزالة الكثير من النفوذ السلجوقي في العراق، وعمل على تقوية الجيش، وحفظ الأمن والاستقرار، وأصبح هو الذي يختار من يشاء من الأمراء للسلطة[2]، ويقول ابن الأثير أن الخليفة المقتفي أول من استبد بالعراق منفرداً عن سلطان يكون معه من أول أيام الديلم إلى الآن (زمن القائل) وأول خليفة تمكن من الخلافة وحكم على عسكره وأصحابه[3].

ومن هنا يتضح أن الخليفة أصبحت بيده السلطة الحقيقية وأن الخلافة علت مكانتها وهيبتها، وزاد احترام الأمراء وولاة الأقاليم لها[4] ومن أراد التوسع في جهود المقتفي لإنهاء التسلط السلجوقي واقتلاعه من العراق وإرجاع الهيبة والقوة والسطوة لمؤسسة الخليفة، فليراجع كتاب الخلافة العباسية دراسة في الأحوال السياسية والإدارية والاقتصادية للأستاذ محمد حسون الجبوري[5].

2 ـ وفاة الخليفة المقتفي لأمر الله:

قال ابن كثير في أحداث سنة 555هـ: فيها كانت وفاة الخليفة المقتفي لأمر الله أبي عبد الله محمد بن المستظهر بالله، وأمه نسيم، المدعوة: ستّ السادة، سمراء من خيار الجواري؛ مرض بالتراقي، وقيل: بدُمَّل خرج من حَلْقِه. فمات ليلة الأحد ثاني ربيع الأوَّل من هذه السنة عن سِتّ وستين سنة إلا ثمانية وعشرين يوماً، وكانت خلافته أربعاً وعشرين سنة وثلاثة أشهر وستة عشر يوماً، ودفن بدار الخلافة ثم نقل إلى التراب، وقد كان شجاعاً مقداماً، يباشر الحروب بنفسه، وشاهد الحروب ويبذل الأموال الكثيرة لأصحابه الأخيار، وهو أوَّلُ من استبدَّ بالعراق منفرداً عن السلاطين، من أوّل أيام الديلم إلى أيامه، وتمكن من الخلافة وحكم على العسكر والأمراء[6].

ثانياً: الوزير يحيى بن هبيرة:

الوزير الكامل، الإمام العالم العادل عون الدين، يمين الخلافة، أبو المُظفَّر يحيى بن محمد بن هبيرة بن سعيد بن الحسن بن جهم، الشيباني الدوريُّ العراقي الحنبلي صاحب التصانيف. ولد عام 499هـ ودخل بغداد في صباه، وطلب العلم، وجالس الفقهاء، وتفقه بأبي

(1) سياسة الخليفة الناصر لدين الله الداخلية، ص: 14، نقلاً عن الكامل في التاريخ.
(2) الكامل في التاريخ نقلاً عن سياسة الخليفة الناصر لدين الله، ص: 14.
(3) المصدر نفسه، ص: 14.
(4) سياسة الخليفة الناصر لدين الله الداخلية، ص: 14.
(5) الخلافة العباسية دراسة في الأحوال السياسية، محمد الجبوري، ص: 17 إلى 31.
(6) البداية والنهاية (16/ 393).

الحسين بن القاضي أبي يعلى والأدباء، وسمع الحديث، وتلا بالسَّبع وشارك في علوم الإسلام ومهر في اللغة، وكان يعرف المذهب والعربيّة والعروض، سلفياً أثرياً، ثم أمضَّه الفقر، فتعرض للكتابة، وتقدّم وترقّى، وصار على مشارف الخزانة، ثم ولي ديوان الزِّمام للمقتفي لأمر الله ثم وزر له في سنة (544هـ)، واستمر، ووزر من بعده لابنه المستنجد[1]، وكان ديناً خيِّراً متعبداً عاقلاً وقوراً متواضعاً، جزيل الرأي بارًا بالعلماء، مكباً مع أعباء الوزارة على العلم وتدوينه، كبير الشأن، حسنة الزمان[2].

1 ـ سعيه لتقوية مؤسسة الخلافة:

كان مبالغاً في تحصيل التعظيم للدولة، قامعاً للمخالفين بأنواع الحيل، وحسم أمور السلاطين السَّلجوقيين[3]. وقد أورد المؤرخون عدة أسباب لتولي ابن هبيرة الوزارة منها: أن الخليفة المقتفي لأمر الله كان معجباً بكفايته وشهامته وإخلاصه في أداء عمله[4]، ومنها أن الخليفة أمر ابن هبيرة ـ وكان يتولى ديوان الزمام ـ أن يكتب للسلطان السلجوقي مسعود شكوى في شحنكة بغداد الذي لم يكن على وفاق مع الخليفة، فكتب ابن هبيرة رسالة طويلة للسلطان السلجوقي ذكر فيها ما عرف عن سلاطين السلاجقة من حسن الطاعة، والتأدب مع الخلفاء، والحرص على الذب عنهم ممن يحاول النيل منهم، وأشار إلى شكوى الخليفة المقتفي لأمر الله بألا يؤدي أي مبلغ من المال لمحمد شاه بن السلطان محمود، مقابل رفع حصاره عن بغداد، لأن هذا سيكون حافزاً للسلاجقة للمطالبة بالمزيد، وأشار بصرف المبلغ المطلوب، وقدره ثلاثين ألف دينار، في إعداد جيش للخلافة من الترك والأكراد وأهل بغداد وأعمال العراق لصد قوات محمد شاه، فقبل الخليفة رأي ابن هبيرة وفوضه في إعداد هذا الجيش، فلم تمض أيام قليلة حتى اجتمع عسكر كثير، فخرج به ابن هبيرة لقتال محمد شاه وأصحابه، فهزمهم، فلما أيقن الخليفة بحسن رأي ابن هبيرة استدعاه وولاه الوزارة سنة (544هـ/ 1149م)[5].

قال ابن الجوزي: كان يجتهد في اتباع الصواب، ويحذر من الظلم ولا يلبس الحرير، قال لي: لما رجعت من الحِلَّة، دخلت على المقتفي، فقال لي: ادخل هذا البيت، وغيّر ثيابك، فدخلت فإذا خادم وفرّاش معهم خلع الحرير، فقلت، والله ما ألبَسُها. فخرج الخادم، فأخبر الخليفة، فسمعت صوته يقول: قد والله قلتُ: إنه ما يلبسه. وكان المقتفي

---

(1) سير أعلام النبلاء (20/ 426).
(2) المصدر نفسه (20/ 427).
(3) المصدر نفسه (20/ 428).
(4) ذيل طبقة الحنابلة (2/ 253)، نظام الوزارة في الدولة العباسية، ص: 160.
(5) نظام الوزارة في الدولة العباسية، ص: 161.

معجباً به[1]، وقام هذا الوزير بدور كبير في تخليص الخلافة العباسية من النفوذ السلجوقي واستعادة سلطة الخلفاء العباسيين في الدولة، وقد استطاع بمساعدة الجيش الذي أعده تخليص العراق وجميع أعماله من سيطرة السلاجقة[2].

2 ـ خوفه من ظلم العباد:

وسأل الوزير ابن هبيرة يوماً الشريف مجد الدين أحمد بن علي الحسيني نقيب نقباء الطالبيين عرض رقعة له على الخليفة، وأن لايهملها، وأن يراجعه فيها فقال: والله ما أهملت لأحد قط رقعة ولا حاجة حضرني ذكرها مُنذ وقفت على ما رواه أبو علي مسكويه أنه رفعت رقعة عن بعض المتظلمين إلى أبي الفضل بن العميد، فوعد رافعها بالنظر في ظلامته فمطله، ثم عاوده، فمطله ثم عاوده فَسوَّفه، فقال له المتظلم: هذا كلام مَن لا يعرف دبيب الساعات في انخرام الدول، فارتاع أبو الفضل بن العميد لذلك واتعظ به ولان قلبه، وقال: لله درك كيف قلت؟ فأعاد عليه القول، فوقع له بما أراد وآلى أن يرفع ظلامات المتظلمين، وقال: لله درك يا فلان فما نصح لي غيرك، وإنما مثلنا فيما نحن فيه من الأمور السلطانية وما عمر فيها من أهوالها الملهية التي رانت على قلوبنا وأشغلتنا عن حظوظنا مثل مريض ملكته العلة وقسمت قلبه ومنعته عن النظر لنفسه، فيحتاج إلى طبيب حاذق يعنف في موضع العنف ويرفق في موضع الرفق، فقد قالت الحكماء والأطباء: إذا رأيت صاحب الخواطر والهموم وقد استفرغه الهواجس، فَصِخ به صيحة تزعجه وتلهيه عما اجتمع له من المواد السوداوية[3] وقال: العجب ممن ينظر قبل أن يفعل في النجوم، ويحك انظر وما ترومه فإن كان طلب دنيا فهو فانٍ، وإن كان طلب آخرة فهو باقٍ، وإن كان حسنة فثمرتها السلامة، وإن كان سيئة فثمرتها الندامة[4].

وقال: شدة الغضب إنما تكون لقوة ذكاء الحواس لأن الذكي يدرك الأسباب الموجبة للغضب بسرعة، فيحتاج إلى زيادة قهر لنفسه في الغضب، وعدم الغضب على الإطلاق عيب؛ لأن الإنسان يجب أن يغضب لله ﷻ[5]. قال عنه ابن كثير: كان من خيار الوزراء وأحسنهم سيرة وأبعدهم عن الظلم، وكان على مذهب السلف في الاعتقاد[6]، وقال عنه ابن العماد: وكان شامة بين الوزراء لعدله ودينه، وتواضعه ومعرفته[7]، وقال عنه ابن الأثير: كان حنبلي المذهب، ديِّناً خيراً، عالماً، يسمع حديث النبي ﷺ، وله في التصانيف الحسنة وكان ذا رأي سديد[8].

---

(1) سير أعلام النبلاء (20/ 427).
(2) نظام الوزارة في الدولة العباسية، ص: 161.
(3) أخبار الدول المنقطعة، ص: 359.
(4) المصدر نفسه، ص: 359.
(5) المصدر نفسه، ص: 359.
(6) المصدر نفسه، ص: 359.
(7) شذرات الذهب (4/ 191).
(8) الكامل في التاريخ، نقلاً عن جهود علماء السلف، ص: 638.

3 ـ جهوده في خدمة العلم والعلماء:

قام الوزير ابن هبيرة بعمارة مدرسة بناها بباب البصرة تكاملت في سنة 557هـ وأقام فيها الفقهاء ورتب لهم الجراية، وكان مدرّسهم أبو الحسن البراندسي[1]، وكان يكثر مجالسة العلماء والفقراء ويبذل لهم الأموال فكانت السنة تدور وعليه ديون، وقال: وما وجبت عليَّ زكاة قط، وكان إذا استفاد شيئاً من العلم، قال: أفادنيه فُلان فكان ينسب العلم لأهله، وهذا من بركة العلم ومن الأمانة العلمية. قال ابن الجوزي: وقد أفدته معنى حديث، فكان يقول: أفادنيه ابن الجوزي، فكنت أستحي، وجعل لي مجلساً في داره كل جمعة، ويأذن للعامة في الحضور، وكان بعض الفقراء يقرأ عنده كثيراً، فأعجبه، وقال لزوجته: أريد أن أزوّجه بابنتي، فغضبت الأمُّ. وكان يُقرأ عنده الحديث كل يوم بعد العصر، فحضر فقيه مالكي، فذكرت مسألة فخالف فيها الجمع، وأصرَّ، فقال الوزير: أحمار أنت أما ترى الكُلَّ يخالفونك؟ فلما كان من الغد، قال للجماعة: إنه جرى مني بالأمس في حق هذا الرجل ما لا يليق، فليقُل لي كما قلت له، فما أنا إلا كأحِدكم فضجّ المجلس بالبكاء، واعتذر الفقيه، قال: أنا أولى بالاعتذار، وجعل يقول: القِصاصَ القِصاصَ فلم يزل حتى قال يوسف الدِّمشقي: إذ أبى القصاص فالفداء، فقال الوزير: له حكمه. فقال الفقيه: نِعمك عليَّ كثيرة، فأي حكم بقي لي؟ قال: لابُدَّ. قال: عليَّ دين مئة دينار. فأعطاه مئتي دينار، وقال: مئة لإبراء ذِمَّتِه، ومئة لإبراء ذمَّتي[2].

قال ابن الجوزي: كان الوزير يتأسَّفُ على ما مضى، ويندم على ما دخل فيه، ولقد قال لي: كان عندنا بالقرية مسجدٌ فيه نخلة تحمل ألف رطل، فحدثتُ نفسي أن أقيم في ذلك المسجد، وقلت لأخي مجد الدين: أقعُدُ أنا وأنت وحاصلها يكفينا، ثم انظر إلى ما صِرتُ[3]، وكانت لابن هبيرة جهود علمية ومن أشهرها: تأليفه كتاب الإفصاح عن معاني الصحاح شرح فيه صحيحي البخاري ومسلم، ومن شروحه الجميلة في هذا التصنيف شرحه للحديث القدسي، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الله قال: مَن عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرَّب إليَّ عبدي أحبَّ إليَّ مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به»**[4]. فقد قال في قوله: **«ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته»**؛ لأن

---

(1) جهود علماء السلف في القرن السادس الهجري ص117.

(2) سير أعلام النبلاء (20/ 429).

(3) المصدر نفسه (20/ 429).

(4) البخاري، كتاب الرقائق، باب: التواضع (7/ 190).

التقرب بالنوافل يكون تلو أداء الفرائض، بدليل أنها ذكرت بعد ذكر الفرائض، يعني إذا أدام العبد التقرب بالنوافل أفضى ذلك إلى أن يحبه الله. ثم قال سبحانه: «فإذا أحببته كنت سمعه» وهذا لا أراه إلا أنه علامة، وأنه لمن يكون الله قد أحبه أن يكون هو سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وتصوير ذلك أنه لا يسمع ما لم يأذن الشرع في سماعه، ولا يبصر ما لم يأذن الشرع في إبصاره، ولا يمد يداً إلى ما لم يأذن الشرع له في مدها إليه، ولا يسعى برجل إلا فيما أذن الشرع له في السعي بها إليه، فهذا هو الأصل، إلا أنه قد يغلب على عبد ذكر الله حتى يعرف بذلك، فإذ خوطب بغيره لم يكد يسمع لمن خاطبه حتى يتقرب إليه بذكر الله، غير أهل ذكر الله؛ توصلاً إلى أن يسمع لهم، وكذلك المبصرات والمتناولات والسعي إليها وتلك طبقة عالية نسأل الله أن يجعلنا من أهلها[1].

4 ـ تواصله مع نور الدين زنكي:

كان ابن هبيرة مهتماً بدعم نور الدين في جهوده ضد الصليبيين، وكان يتابع عن كثب المشروع النوري لفتح مصر، وقد حكى ابن المارستانية في سيرة ابن هبيرة الوزير قال: إنه من عجيب ما جرى في أمر المصريين: أنه رأى إنسان من أهل بغداد في سنة خمس وخمسين وخمس مئة كأن قمرين أحدهما أَنْوَرُ من الآخر، والأنور منهما مُسامت للقبلة وله لحية سوداء فيها طُول، ويهبُّ أدنى نسيم فيحرِّكُها، وأثر حركتها وظلها في الأرض، وكان الرجل يتعجَّب من ذلك، وكأنه سمع أصوات جماعة يقرؤون بألحان وأصوات لم يسمع قط مثلها وكأنه سأل بعض من حضر فقال: ما هذا؟ فقالوا: قد استبدل النّاس بإمامهم. قال الرجل: قد استقبل القبلة وهو يدعو الله أن يجعله إماماً برًّا تقيًّا، واستيقظ الرّجل وبلغ هذا المنام ابن هبيرة الوزير إذ ذاك ببغداد، فعبَّر المنام بأنَّ الإمام الذي بمصر يُسْتبدل به، وتكون لبني العباس لمكان اللِّحية السوداء، وقوي هذا عنده حتى كاتب نور الدين حين دخل أسد الدِّين إلى مصر في أوَّل مرة بأنه يظفر بمصر، وتكون الخطبة لبني العباس بها على يده[2].

5 ـ وفاته وهو ساجد:

كان ابن هبيرة يسأل الله الشهادة ويتعرض لأسبابها، وفي ليلة ثالث عشرة جُمادى الأولى سنة ستين وخمس مئة استيقظ وقت السَّحَر، فقاء، فحضر طبيبُهُ ابن رشادة، فسقاه شيئاً، فيقال: إنه سمَّه فمات، وسُقي الطبيب بعده بنصف سنة سُمًّا، فكان يقول: سَقَيْتُ

(1) الإفصاح عن معاني الصحاح (7/ 303، 304). (2) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (2/ 201).

فسُقيت[1]. قال ابن الجوزي: . . ورأيتُ أنا وقت الفجر كأني في دار الوزير وهو جالس، فدخل رجل بيده حربة، فضربه بها، فخرج الدم كالفوَّارة، فالتفتُّ فإذا خاتم ذهب، فأخذته، وقلت: لمن أُعطيه؟ أنتظر خادماً يخرج فأسلِّمهُ إليه، فانتبهت فأخبرت مَن كان معي، فما استتممت الحديث حتى جاء رجل، فقال الرجل: هذا محال، أنا فارقته في عافية أمس العصر، فنفَّذوا إليَّ، وقال لي ولده: لا بد أن تغسله فغسلته، ورفعت يده ليدخل الماء في مغابنه، فسقط الخاتم من يده حيث رأيت ذلك الخاتم، ورأيت آثاراً بجسده ووجهه تدلُّ على أنه مسموم، وحُملت جنازته إلى جامع القصر، وخرج معه جمع لم نره لمخلوق قط وكثر البكاء عليه لما كان يفعله من البِرِّ والعدل، ورثته الشعراء[2]. وذكر أبو شامة بأنه توفي وهو ساجد في صلاة الصبح[3]. وقال عنه: وهو الذي محا رسوم سلاطين العجم من العراق وأجلاهم عن خطتها بحسن تدبيره. ومن كلامه لبعض من كان يأمر بالمعروف: اجتهد أن تستر العُصاة فإن ظهور معاصيهم عيب في الإسلام، وأولى الأمور ستر العيوب[4]. وقال ابن كثير في أحداث سنة إحدى وستين وخمسمائة: وفيها أظهر الرّوافض سبَّ الصحابة وتظاهروا بأشياء منكرة ولم يكونوا يتمكَّنون منها في هذه الأعصار المتقدِّمة؛ خوفاً من ابنِ هبيرة[5]. رحم الله ابن هبيرة وَكَثَّر الله من أمثاله في عصرنا. . . آمين.

ثالثاً: الخليفة المستنجد بالله:

الخليفة أبو المظفَّر يوسف ابن المقتفي لأمر الله محمد ابن المستظهر ابن المقتدي العباسي، عقد له أبوه بولاية العهد في سنة سبع وأربعين، وعمره يومئذ تسع وعشرون سنة[6]. ولما توفي أبوه بويع له في صبيحة يوم الأحد ثاني ربيع الأوّل من سنة خمس وخمسين وخمسمائة، بايعه أشراف بني العباس، ثم الوزير والقضاة والعلماء والأمراء وعمره يومئذ خمس وأربعون سنة، وكان رجلاً صالحاً، وكان ولي عهد أبيه مدة متطاولة ثم عُمل عزاء أبيه، ولمَّا خطب له يوم الجمعة نُثرت الدّراهم والدنانير على الناس، وفرح المسلمون به بعد أبيه، وأقرَّ الوزير ابن هبيرة على منصبه ووعده بذلك إلى الممات، وعزل قاضي القضاة ابن الدامغانيَّ ووَلَّى مكانه أبا جعفر عبد الواحد الثقفي[7]، قال ابن النجار: حكى ابن صفية: أنَّ المقتفي رأى ابنه يوسف في الحرّ، فقال: أيش في فمك، قال: خاتم يَزْدَن عليه أسماء

(1) سير أعلام النبلاء (20/ 429).
(2) المصدر نفسه (20/ 430)، المنتظم (1/ 217).
(3) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (1/ 440).
(4) المصدر نفسه (1/ 441).
(5) البداية والنهاية (16/ 418).
(6) سير أعلام النبلاء (20/ 412).
(7) البداية والنهاية (16/ 394).

الاثني عشر، وذلك يسكّن العطش. قال: ويلك يريد يَزْدَن أن يصيرك رافضياً، سيد الاثني عشر الحسين رضي الله عنه، ومات عطشان.

ومن شعر المستنجد قوله:

عيَّرتني بالشَّيْبِ وهو وَقَار ... ليتها عيَّرتني بما هو عار

إن تكن شابت الذُّوائب مِنِّي ... فالليالي تزينها الأقمار[1]

وقال ابن الجوزي: حدثني الوزير ابن هبيرة، حدثني المستنجد، قال: رأيت رسول الله ﷺ في النوم مُنذ خمس عشرة سنة، فقال لي: «**يبقى أخوك في الخلافة خمساً وعشرين سنة**»، فكان كما قال، فرأيته قبل أبي بأربعة أشهر، فدخل بي من باب كبير، ثم ارتفعنا إلى رأس جبل، وصلى بي ركعتين، وألبسني قميصاً، ثم قال لي: قل اللهمَّ اهدني فيمن هديت[2]، وقال ابن الجوزي: أقرّ المستنجد أرباب الولايات، وأزال المكوس والضرائب[3]، وكان موصوفاً بالعدل والرفق، وأطلق المكوس بحيث إنه لم يترك بالعراق مُكساً وكان شديداً على المفسدين[4]، وقد شفع بعض أصحابه في رجلٍ شرير، وبذل فيه عشرة آلاف دينار، فقال له الخليفة: أنا أعطيك عشرة آلاف دينار وائتني بمثله لأُريح المسلمين من شرّه[5].

وفاته:

توفي في ثامن ربيع الآخر سنة ستٍّ وستين وخمس مئة[6]، وكان سبب موته أن خافه أستاذ الدار عضُد الدولة ابن رئيس الرؤساء وقايماز المُقتفوي كبيرا الأمراء، فواضعا الطبيب على أذيَّته فوصف له الحمّامُ، فامتنع لضعفه، ثم أدخل الحمام، وأغلق عليه، فتلف[7]، وصُلِّي عليه يوم الأحد، ودفن بدار الخلافة، ونقل إلى التُراب من الرُصافة[8].

رابعاً: الخليفة المستضيء بالله:

الخليفة أبو محمد الحسن ابن المستنجد بالله يوسف ابن المقتفي محمد ابن المستظهر

(1) سير أعلام النبلاء (20/ 413).
(2) المنتظم (10/ 193).
(3) المصدر نفسه (10/ 193)، سير أعلام النبلاء (20/ 414).
(4) سير أعلام النبلاء (20/ 414).
(5) البداية والنهاية (16/ 444).
(6) سير أعلام النبلاء (20/ 418).
(7) المصدر نفسه (20/ 414).
(8) البداية والنهاية (16/ 445).

أحمد ابن المقتدي الهاشمي العباسي بويع بالخلافة وقت موت أبيه في ربيع الآخر سنة ست وستين وخمس مئة، وقام بأمر البيعة عضد الدين أبو الفرج ابن رئيس الرؤساء فاستوزره يومئذ[1]، وكان ذا حل وأناة ورأفة وبرّ وصدقات[2]. قال ابن الجوزي: بويع، فنودي برفع المكوس، ورد المظالم وأظهر العدل والكرم ما لم نراه من أعمارنا، وفرّق مالاً عظيماً على الهاشميّين[3] وفي خلافته زالت دولة العبيدية بمصر، وخُطب له بها، وجاء الخبر فغلقت الأسواق للمسرَّة[4]، وخطب له باليمن، وبرقة، وتوزَرَ وإلى بلاد الترك، ودانت له الملوك، وكان يطلب ابن الجوزي ويأمره أن يعظ بحيث يسمع، ويميل إلى مذهب الحنابلة، وضعُف بدولته الرّفض ببغداد، وبمصر وظهرت السنة وحصل الأمن ولله المنّة[5].

وفاته:

كان ابتداء مرضه في أوائل شوّال من هذه السنة فأرادت زوجته أن تكتم ذلك فلم يمكنها، ووقعت فتنة كبيرة ببغداد ونهبت العوامُّ دُوراً كثيرة وأموالاً جزيلة، فلمَّا كان يوم الجمعة الثاني والعشرين من شوَّال خُطب لولي العهد أبي العباس أحمد ابن المستضيء وهو الخليفة الناصر لدين الله، وكان يوماً مشهوداً نُثر الذهب فيه على الخطباء والمؤذّنينَ ومن حضر ذلك عند ذكره على المنبر والتنويه باسمه[6]، فلما كان يوم السبت سلخ شوّال مات الخليفة المستضيء بأمر الله، وكان مرضه بالحُمى ابتدأ بها في يوم عيد الفطر، ولم يزل الأمر يتزايد به حتى استكمل في مرضه شهراً، فمات رَحِمَهُ اللَّهُ سلخ شوال، وله من العمر تسع وثلاثون سنة، وكانت مدة خلافته تسع سنين وثلاثة أشهر وسبعة عشر يوماً، وغُسّل وصُلّي عليه من الغد[7]، وكان من خيار الخلفاء أمّاراً بالمعروف نهّاءً عن المنكر، وضع عن الناس المكوسات والضرائب، ودرأ عنهم البدع والمصائب، وكان حليماً وقوراً كريماً، فرحمه الله تعالى، وبلَّ ثراه وجعل الجنة مأواه، وبويع بالخلافة من بعده لولده الناصر[8]. وقد كتب ابن الجوزي كتابه المصباح المضيء في خلافة المستضيء ووجهه إلى الخليفة العباسي المستضيء بأمر الله بهدف التذكير والوعظ والنصيحة باعتباره الشخص الأول في الدولة العباسية[9].

---

(1) سير أعلام النبلاء (21/ 68).
(2) المصدر نفسه (21/ 68).
(3) المصدر نفسه (21/ 68).
(4) المصدر نفسه (21/ 70).
(5) المصدر نفسه (21/ 70).
(6) البداية والنهاية (16/ 540).
(7) المصدر نفسه (16/ 540).
(8) المصدر نفسه (16/ 541).
(9) المصباح المضيء في خلافة المستضيء، ص: 9.

خامساً: تعاون نور الدين محمود مع الخلفاء العباسيين:

خالف نور الدين محمود سياسة والده عماد الدين زنكي بخصوص العلاقة مع الخلافة العباسية، فقد ساءت علاقة عماد الدين زنكي بالخلافة العباسية في أغلب سنوات حكمه، ونشبت الحرب بين الطرفين أكثر من مرّة، ولكن نور الدين محمود وطّد علاقته بالخلافة العباسية مُنذ بداية حكمه، وتوثقت هذه العلاقة على مرّ السنين حتى نهاية حكمه، ويرجع الاختلاف في هذه السياسة بين نور الدين محمود ووالده إلى عدة أمور أهمها:

ـ **طبيعة تقاسم السلطة بين نور الدين وأخيه سيف الدين بعد موت والدهما**، فقد تولى سيف الدين غازي (الأكبر) حكم الموصل، فورث ما كان لوالده من علاقات مع الخلافة العباسية وسلطنة السلاجقة بسلبياتها وإيجابياتها، بينما تولى نور الدين محمود حكم حلب فورث عن والده الجانب المتعلق بالجهاد ضد الفرنجة، الأمر الذي يعتبر مصلحة مشتركة بينه وبين الخلافة العباسية على حد سواء، وكان أمر سلاطين السلاجقة قد ضعف خاصة بعد موت السلطان مسعود بن محمد عام (547هـ/ 1152م) وبدأت الخلافة العباسية تستعيد نشاطها في عهد الخليفة المقتفي لأمر الله سنة (531هـ ـ 555هـ/ 1139 ـ 1160م)[1].

ـ **والأمر الثاني**: هو أن نور الدين كان يعتبر الخلافة العباسية رمزاً لوحدة المسلمين التي وضعها على رأس قائمة أهدافه الاستراتيجية وهو يدرك ما للخلافة من أثر في نفوس المسلمين، ولذلك سعى لنيل تأييد الخلافة ليضفي على أعماله العسكرية شرعية دينية تساعده في تحقيق وحدة بلاد الشام ومصر وشمال العراق، وفي تحرير سواحل بلاد الشام من الفرنجة المحتلين. من جهة أخرى كانت الخلافة العباسية ترى في نور الدين محمود الذي اشتهر بحرصه الشديد على تطبيق الشريعة الإسلامية على أصول منهج أهل السنة والجماعة ناصرها وأملها في القضاء على الدولة الفاطمية[2]، وقد مرت العلاقات بين الجانبين بعدة أطوار على المستويات السياسية، والعسكرية، والاقتصادية والثقافية[3].

1 ـ الصعيد السياسي:

يلاحظ أن كلاً من الطرفين وجدت لديه دوافع لتوطيد علاقته السياسية بالآخر، وإذا احتاجت الدولة النورية من الخلافة تأييد حكمها للمناطق الخاضعة لها في بلاد الشام والجزيرة، إذ أن تأييد الخلافة لذلك يدعم حكم نور الدين، ويكسبه صفة المشروعية أمام

---

(1) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة، ص: 163. ص: 290.

(2) الجهاد ضد الصليبيين في الشرق الإسلامي، (3) فن الصراع الإسلامي الصليبي، ص: 62.

رعاياه في تلك المناطق، ولذلك فقد حرص أشد الحرص على الحصول على تقاليد سيادته السياسية، ومن جهة الخلافة العباسية رأت في الدولة النورية قوة سياسية فعالة في المنطقة، من الممكن أن تجني من ورائها الكثير بتوطيد علاقاتها معها، وحيث إنها صارعت الصليبيين، فإن تأييد الخليفة العباسي لنور الدين كان يجعله محط تقدير بالغ لرعاياه في العراق وخارجه، وعملت الدولة النورية على توطيد علاقاتها السياسية بالخلافة العباسية عن طريق السفارات الدبلوماسية المتبادلة، وقد حرص نور الدين على اختيار السفراء الذين توافرت فيهم بعض الشروط العقلية والجسمانية، خاصة من عناصر أرباب الأقلام من الفقهاء والعلماء، ومنهم من كان من أصل عراقي، لكي يدعم أكثر من غيره الصلات بين الجانبين، وقد حمل أولئك السفراء الرسائل والهدايا لمخاطبة ود خليفة بغداد، واحتوت الرسائل على بعض المطالب أو إظهار الولاء أو التهنئة بمناسبة تولية الخليفة إلى نحو ذلك، ولدينا العديد من أسماء السفراء الذين ترددوا بين العراق والشام، وهؤلاء جميعاً مثلوا عدداً من قيادات الدولة النورية لاسيما في جهازها الإداري[1].

ومن وراء تلك الاتصالات الدبلوماسية، قام ديوان الإنشاء النوري بدور كبير في إعداد الرسائل المناسبة لكل موقف، ولا نزاع أن ذلك الديوان تزايد دوره تعاظماً من خلال خدمته للسياسة الخارجية للدولة، ووجود شخصية مثل: العماد الكاتب الأصفهاني على رأسه يدل على مدى نشاطه[2]، ومن أمثلة الاتصالات الدبلوماسية بين الجانبين أن نور الدين عندما أخضع دمشق لسيطرته عام (549هـ/1152م) محققاً بذلك أحد أكبر انتصاراته العسكرية بعث الخليفة إليه عهداً بالسلطة وإقراراً بسيادته عليها[3]، ولا شك أن العباسيين اعتقدوا أن الأسرة البورية السابقة لم تكن تفعل شيئاً معبراً عنهم بفضل مهادنتها لمملكة بيت المقدس الصليبية، كذلك حثَّ الخليفة العباسي نور الدين على السير إلى مصر، لانتزاعها من الفاطميين[4]، أعداء أهل السنة التقليديين، وذلك في وقت كانت فيه مصر في وهن بالغ من جراء سياسة الوزراء العظام الخرقاء، ويقرر البعض أن الخليفة المقتفي ووزيره ابن هبيرة أرسل إليه عهداً بتولية مصر وأعمالها في وقت كانت فيه الدولة الفاطمية لا تزال قائمة[5]، ومنطقيّ أن الخلافة العباسية أدركت أن سيطرة نور الدين على حلب ودمشق، تمكنه من تحقيق أهدافها في القضاء على الفاطميين، ومعنى ذلك أن بلاد الشام نفسها كانت ميداناً رحباً لاختبار قدرة الدولة النورية على التغيير السياسي في المنطقة، خاصة في مصر، ولا مراء في أن النجاحات النورية

---

(1) من أمثلتهم، العماد الأصفهاني، وكمال الدين الشهرزوري.

(2) فن الصراع الإسلامي الصليبي، ص: 63.

(3) حسن المحاضرة (2/ 3)، فن الصراع الإسلامي الصليبي، ص: 64.

(4) فن الصراع الإسلامي الصليبي، ص: 64.

(5) العلاقات بين الشرق والغرب، ص: 66.

هناك أكدت للعباسيين أن تلك الدولة الفتية، بإمكانها أن تحقق طموحات خلفاء بغداد في تقويض حكم زعماء القاهرة[1]، ومن بعد ذلك استمرت العلاقات السياسية قوية بين الجانبين، واهتبل نور الدين فرصة انتصاره على الصليبيين في عام (552هـ/ 1157م)، فأرسل إلى بغداد تحفاً وهدايا ورؤوس قتلى الصليبيين وأسلحتهم[2]، إشارة إلى تأديته لدوره القتالي ضد أعداء المسلمين لكسب دعم العباسيين، وفي أعقاب الظفر على أعدائه في حارم عام (559هـ/ 1164م)، أرسل إلى الخليفة أخبار انتصاره[3]، وتكرر ذات الأمر عندما سقوط الخلافة الفاطمية عام (567هـ/ 1171م)[4].

وقد عكس الإنجاز الأخير مدى نجاح التحالف النوري ـ العباسي في تحقيق الإنجازات الكبرى ضد أعداء العباسيين، وقد استفاد العباسيون من نور الدين محمود، عندما سعوا إلى إعلام دولته بأخبار تولية الخلفاء الجدد، من أجل الحصول على مبايعته لهم، فعندما تولى المستضيء أرسل إلى نور الدين يخبره بذلك ويطلب مبايعته[5]، وحرص نور الدين على الحصول على تقليد توليه على أملاك مصر والشام وبلاد الجزيرة وتم له ما أراد، فالوضع السابق دل على علاقة الدولة النورية الوثيقة بالعباسيين، وتدعم ذلك من خلال النقوش، إذ وردت على جدران الآثار التي شيدت في عهد الدولة النورية، بعض التعبيرات الدالة على قوة الصلات بين الحليفين، إذ وصف نور الدين في نقش يرجع إلى شوال 543هـ فبراير ـ مارس 1149م في المدرسة الحلاوية بحلب بأنه «رضي الخلافة»، وكذلك وصف بأنه «خليل أمير المؤمنين» من نقش يرجع إلى عام (559هـ ـ 560هـ/ 1163 ـ 1164م) على باب شرق من أبواب مدينة دمشق[6]. ووجه تعبير «نصير أمير المؤمنين» في نقش على جامع بمدينة الرقة يرجع إلى عام (561هـ/ 1165م)[7] وكذلك تعبير «ناصر أمير المؤمنين» في نقش على قلعة حلب[8]. وأيضاً في المدرسة النورية بدمشق، يرجع إلى عام (569هـ/ 1173م)، وفي قلعة جعبر[9].

واستمرت العلاقة السياسية بين الدولة النورية والخلافة العباسية نحو ثلاثين عاماً دون خصومه، بل توطدت باستمرار فأفاد كل طرف من الآخر، ولم تكن لنور الدين تطلعات إلى أملاك الخلافة[10]، وتبلورت العلاقات النورية ـ العباسية في تحالف سياسي قوي أكده بصورة جلية توجيه الخلافة العباسية للسياسة الخارجية النورية، وهذا ما نجده ممثلاً في إسقاط

(1) فن الصراع الإسلامي الصليبي، ص: 64.
(2) المنتظم (9/ 176).
(3) سنا البرق الشامي، ص: 75.
(4) كتاب الروضتين، نقلاً عن فن الصراع الإسلامي الصليبي، ص: 65.
(5) مرآة الزمان، نقلاً عن فن الصراع الإسلامي، ص: 65.
(6) فن الصراع الإسلامي الصليبي، ص: 65.
(7) المصدر نفسه، ص: 65.
(8) المصدر نفسه، ص: 65.
(9) المصدر نفسه، ص: 65.
(10) المصدر نفسه، ص: 67.

الخلافة الفاطمية، إذ أرسل المستنجد بالله إلى نور الدين في عام (565هـ/ 1169م) يستحثه على الإسراع في القضاء عليها[1]، وقد تكرر ذات الموقف من جانب المستضيء[2]، ثم دعم العباسيون التوسعات النورية[3].

ويلاحظ أن ذلك التحالف بين القوتين كان أمراً ضرورياً، ولم يحدث عشوائياً بل إن بغداد وجدت في سلطان حلب أكبر قوة سياسية مسلمة مجاورة لها يمكن أن تحقق أهدافها، خاصة مع عدم تواجد تطلعات مشرقية له، وأفادت الدولة النورية من ذلك التحالف كما أفاد العباسيون، واستمر التحالف بين الجانبين على امتداد نحو الثلاثين عاماً مع تعدد الخلفاء العباسيين، وذلك لا يخلو من دلالة هامة، وهي أنه كان حيوياً لهم، وأن نورالدين لم يجد منهم ما يجعله ينقض ذلك التحالف بل عمل على دعمه طالما أن الخلافة ساعدته على توسعاته الخارجية، وأنه صار رجل الدولة العباسية في المنطقة[4].

كان السعي لوحدة بلاد الشام ومصر أمراً مقرراً في خطط نور الدين وواضحاً في ذهنه مُنذ بداية حكمه، بل إن توجهات نور الدين وأفكاره كانت تذهب إلى ما هو أبعد من ذلك، فقد كان هدفه الاستراتيجي الأكبر إقامة الدولة الإسلامية الكبرى التي تعيد للإسلام دوره في هداية البشر وتحقيق الحياة الكريمة لجميع الناس[5]، وحتى يتحقق هذا الهدف فلا بد من تحقيق الهدف الإستراتيجي الأقرب وهو تحرير بلاد الشام من الاحتلال الفرنجي، وحتى يتحقق هذا الهدف الثاني لابد من تحقيق هدف ثالث استراتيجي أيضاً، وهو توحيد الدول والإمارات الإسلامية المواجهة للفرنجة في دولة واحدة. هكذا رتّب نور الدين محمود أهدافه وأخذ ينفذها حَسب أولوياتها وكانت الأولوية بطبيعة الحال لهدف تحقيق الوحدة، ولكن سعيه لتحقيق الوحدة في المقام الأول لم يمنعه من شن حرب استنزاف مستمرة ضد الفرنجة في الوقت نفسه[6].

2 ـ الصعيد العسكري:

على المستوى العسكري أفاد نور الدين محمود من نفوذ العباسيين للضغط على أمراء المشرق الإسلامي لمعاونته ضد أعدائه الصليبيين، فمعلوم أن الجيش النوري اعتمد أساساً على الدعم الحربي المقدم من أمراء المشرق[7]، لاسيما في العراق، ويلاحظ أن الثقل السياسي للخلافة أجبر أولئك الأمراء على المبادرة بتقديم عونهم الحربي، كما أن نور الدين

(1) كتاب الروضتين، نقلاً عن فن الصراع الإسلامي الصليبي، ص: 68.
(2) المصدر نفسه، ص: 68.
(3) فن الصراع الإسلامي الصليبي، ص: 68.
(4) المصدر نفسه، ص: 68.
(5) دور نور الدين في نهضة الأمة، ص: 164.
(6) المصدر نفسه، ص: 138.
(7) فن الصراع الإسلامي الصليبي، ص: 68.

نفسه اتجه إلى مراسلة الفقهاء والمتصوفة في تلك الأقاليم من أجل الدعاية السياسية، وتوضيح حاجته إلى العون الحربي من أولئك الأمراء على نحو مثّل «ضغطاً شعبياً» عليهم[1]، ونجد في كافة المعارك الحربية الكبرى التي خاض غمارها الجيش النوري، أشارت المصادر إلى مقدم قوات المشرق وعلى رأسها الأمراء حكام أربيل، وسنجار، ومنبج وغيرهم[2]، فالدور العباسي في استقدام جيوش المشرق وحث أمرائه على دعم نور الدين لا يستهان به[3].

2 ـ الصعيد الاقتصادي:

ارتبط الجانبان بعلاقات طيبة، فمعلوم أن العالم الإسلامي توقف ازدهاره على مدى سيطرته على محاور التجارة العالمية كذا منافذها، إذ شكلت التجارة معظم دخل العالم الإسلامي، ومن الثابت أن معابر التجارة العالمية بين الشرق والغرب وقعت في مناطق خاضعة لسيادة العباسيين، إذ قدمت التجارة من الشرق الأقصى وتدفقت سلعها عبر الخليج العربي إلى شمال العراق ومنه إلى شمال الشام ثم الإمبراطورية البيزنطية[4] وأوروبا، كذلك ارتبط شمال الشام بشمال العراق بطرق تجارية[5] عديدة، لاسيما بين حلب والموصل، وعملت الدولة النورية على انتعاش حركة التجارة بين العراق والشام، من خلال إزالة جانب من المكوس على التجار المسافرين بين الإقليمين لتشجيعهم على المتاجرة[6]، فقد اهتمت الدولة النورية بإنعاش التجارة مع مناطق العباسيين والإفادة من ثراء التجار العراقيين، وتشجيعهم على المتاجرة مع الأسواق الشامية، ولا شك أنها جنت من وراء ذلك مكوساً وفيرة[7].

ومن جهة أخرى، اتجهت الدولة النورية في بعض الأحيان إلى طلب المساعدة المالية من الخلافة العباسية للإنفاق على مرافق البلاد، ونجد مثالاً دالاً على ذلك عندما وقعت أحداث زلزال عام (565هـ/ 1170م)، والذي اجتاح بلاد الشام، خاصة مدن حلب، وبعلبك، وحمص وحماه، وشيزر، وبعرين، وتهدمت أسوارها وقلاعها، وتأثرت به مدينة حلب أكثر من غيرها بمظاهر الخراب والدمار[8]، وعلى الرغم من أن نور الدين أخرج من الأموال ما لايقدر بقدر[9]، من أجل ترميم ما تهدم، إلا أن ذلك لم يكف، فاتجه إلى طلب عون الخلافة، ففي نص أورده ابن الفرات، شرح نور الدين للخليفة المستنجد بالله ما حل بمناطق

---

(1) زبدة الحلب (2/ 319).
(2) فن الصراع الإسلامي الصليبي، ص: 69.
(3) المصدر نفسه، ص: 69.
(4) المصدر نفسه، ص: 69.
(5) الرحلة لابن جبير، ص: 210.
(6) فن الصراع الإسلامي الصليبي، ص: 70.
(7) المصدر نفسه، ص: 70.
(8) الباهر، ص: 155، دول الإسلام (1/ 78).
(9) كتاب الروضتين، نقلاً عن فن الصراع الإسلامي، ص: 71.

دولته من دمار بالغ على نحوٍ أثّر على دفاعاتها في مواجهة الصليبيين، واستصراخه أن يقدم له العون المالي اللازم[1]، ولا ريب في أن الخلافة العباسية كانت تحرص على دعم الدولة النورية مالياً، لتواجه أعداءها من الصليبيين، ولذلك فإنها بادرت بتقديم مساعدتها، والمرجح أن ذلك تم بسرعة واضحة لتدارك خطر تهدم أسوار وقلاع مدن الدولة النورية، خوفاً من هجوم صليبي مفاجئ عليها اغتناماً للموقف[2].

ومن جهة أخرى قدمت الدولة النورية للخلافة العباسية الأموال اللازمة التي كانت بدورها تطلبها، كدليل على الولاء، ونجد أنها عندما أقدمت في بعض الأحيان على إنقاض المكوس المفروضة على النشاط التجاري، راسل نور الدين محمود الخليفة ليوضح له الأمر، وليطلب منه تقليل ما كان يحصل عليه من قبل[3].

إن تلك العلاقات المالية تدل بوضوح على خصوصية علاقة الخلافة العباسية بالدولة النورية في بلاد الشام والجزيرة، وحرص الخلافة على دعمها وحمايتها من الخطر الخارجي بتوفير الدعم المالي لها عندما احتاجت إليه[4].

4 ـ الصعيد الثقافي والمذهبي:

كان الهدف المشترك الكبير بين نور الدين والدولة العباسية إعادة نشر المذهب السني في بلاد الشام ومصر والوقوف أمام المذهب الشيعي الرافضي الإسماعيلي الذي كانت تتبناه الدولة الفاطمية في مصر، وكذلك الوقوف أمام المذهب الشيعي الإمامي، وكانت نظرة نور الدين محمود الإستراتيجية تعتبر وحدة العقيدة ركناً أساسياً في وحدة المسلمين السياسية، ولتحقيق وحدة العقيدة في بلاده سلك طريق العلم والإقناع بالمنطق وإقامة الحجة والبرهان، فأنشأ المدارس التي تدرس الشريعة على حسب مذاهب السنة مُركزاً على المذهبين الشافعي والحنفي، واستقدم أشهر العلماء والفقهاء للتدريس فيها، ولتتولى الحوار مع علماء الشيعة على أساس الكتاب (القرآن الكريم) والسنة الشريفة، ولكنه لم يتردد في اتباع طريق الحزم لوقف التجاوزات والمخالفات التي دأب الشيعة الرافضة على ارتكابها بحق بعض الصحابة، فأمر بمنع شتم أبي بكر وعمر وعثمان ﷺ، وكان ذلك شائعاً في مجتمع الشيعة الرافضة في حلب، كما أمر بوقف الأذان حسب الصيغة التي استحدثها الشيعة (أضافوا فقرة حي على خير العمل، محمد وعلي خير البشر)[5]، وإعادته حسب الصيغة الصحيحة التي عرفت في

---

(1) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص72.
(2) المصدر نفسه، ص: 72.
(3) المصدر نفسه، ص: 72.
(4) المصدر نفسه، ص: 72.
(5) دور نور الدين في نهضة الأمة، ص: 116.

زمن الرسول ﷺ، وعندما حاول زعماء الشيعة في حلب عدم الامتثال لأوامر نور الدين عاقبهم ونفى بعضهم خارج حلب[1]. فرضخوا وامتثلوا وتحوّل مجتمع حلب مع مرور السنين إلى مجتمع سني بالكامل، وكذلك باقي مدن بلاد الشام وإنما كان التركيز على مدينة حلب؛ لأنها كانت مركزاً للشيعة الرافضة في بلاد الشام.

أما في مصر، فقد بدأت عملية التغيير من خلال الدولة النورية ـ مباشرة بعد الاستيلاء عليها ـ وكانت توجيهات نور الدين في هذا المجال واضحة لصلاح الدين لتغيير نظام القضاء من المذهب الإسماعيلي الشيعي الرافضي إلى المذهب السني، وإنشاء المدارس السنية، وكان التغيير تدريجياً حتى بداية عام (567هـ/ 1172م) عندما أعلنت نهاية الدولة الفاطمية، وأقيمت الدعوة للخلافة العباسية، فصار التغيير سريعاً وشاملاً، فكانت المصالح المشتركة بين نور الدين والخلافة العباسية قربت بينهما وأثمرت علاقتهما الطيبة بما عاد عليهما وعلى المسلمين بالخير والفائدة العظيمة، فحركة الإحياء السني التي تبناها نور الدين محمود، لقيت الدعم العباسي الكامل، ومن الممكن تصور أن الإنجاز الذي حققته حركة الإحياء السني في عهد الدولة النورية لم يكن من الممكن أن تتحقق بتلك الصورة من النجاح، بدون المساعدة الرسمية الكاملة من العباسيين، ومن الصلات التي وجدت بين الجانبين استمرار اتصال المتصوفة العراقيين بالشاميين، وقد ارتحل العديد من زعماء التصوف بين الإقليميين لينضم إليهم الأتباع والمريدون[2]، وقد بينا ذلك فيما سبق ولله الحمد.

ويتصل بالصلات المذهبية الاهتمام المشترك من جانب الخلافة العباسية والدولة النورية بالحج، والإعداد لموكبه وتأمين خطوط سيره. وقد كان هناك موكب للحجاج الشاميين وآخر للعراقيين اتخذ كلٌ طريقه الخاص إلى الأماكن الإسلامية المقدسة، وحَرص نور الدين محمود على أن يظهر أمام خلفاء بغداد بمظهر الراعي لتلك الأماكن، إذ عمل على تأمين طريق الحجاج الشاميين عن طريق تقديم الإقطاعات للقبائل العربية التي سكنت نواحي الأردن وشمال الجزيرة حتى لا تتعرض للحجاج، وساهم في تعمير المسجد النبوي وعمل خندقاً حول الحجرة النبوية مملوءاً بالرصاص عام (557هـ/ 1162م) وكان هذا الاتجاه هدفاً مشتركاً بين الخلافة العباسية والدولة النورية، وقال عنه ابن الجوزي: وكان سيرته أصلح من كثير من الولاة والطرق في أيامه آمنة والمحامد له كثيرة، وكان يتدين بطاعة الخلافة[3].

---

(1) فن الصراع الإسلامي الصليبي، ص: 74.
(2) المصدر نفسه، ص: 75.
(3) المنتظم (18/ 210).

المبحث الثاني
تصدي نور الدين محمود للحملة الصليبية الثانية وسياسته في ضم دمشق

كان نور الدين محمود مُنذ توليه الحكم وهو في الثلاثين من عمره، واضح الرؤية والهدف مُنذ أن تسلم الحكم حتى يوم وفاته، إذ كان عليه واجب الجهاد لتحرير الأرض من الصليبيين المعتدين وعلى رأسها بيت المقدس، وتوفير الأمان للناس، وأدرك أن الانتصار على الصليبيين لا يتحقق إلا بعد جهاد طويل ومرير، حافل بالتضحيات في خطوات متتابعة تقرّب كل منهما يوم الحسم، فالخطوة الأولى كان قد بدأها والده عماد الدين حين حرّر إمارة الرها التي تشكل تداخلاً مع الأراضي الإسلامية، فتمكّن بذلك من تطهير الأرض الداخلية، وحصر الوجود الصليبي في الشريط الساحلي، وعليه أن يخطو الخطوة الثانية، لذلك وضع أسس سياسة متكاملة تتضمّن توحيد بلاد الشام أولاً، ثم توحيد بلاد الشام ومصر التي كانت تعاني من الاضطرابات وفوضى الحكم ثانياً، وطرد الصليبيين في المنطقة ثالثاً. وكان التوحيد في نظره يتضمن توحيد الصف والهدف في آن واحد، فأما توحيد الهدف فهو جمع المسلمين تحت راية مذهب واحد، وهو مذهب أهل السنة، وكان كلما توغل في خضمّ الجهاد وتقدم به الزمان يزداد اقتناعاً بصوابية هذه السياسة، وكان سبيله إلى ذلك مزيجاً من العمل السياسي والمعارك العسكرية ـ والنشاط الثقافي العلمي التربوي ـ التي تخدم توحيد الصف والهدف[1].

أولاً: القضاء على تمرد ثورة الرهاويين:

أتاحت وفاة عماد الدين زنكي وتقسيم مملكته بين ولديه فرصة طيبة لأعدائها للإقدام على غزوها، ففي الجنوب تطلع معين الدين أنر، صاحب السلطة الفعلية في دمشق إلى السيطرة على بعلبك وحمص وحماه، وفي الشرق، حاول الملك ألب أرسلان السلجوقي فرض سيطرته على الأملاك الزنكية، غير أنه باء بالفشل، واستردَّ الأراتقة المدن التي سبق أن ضمّها عماد الدين زنكي من ديار بكر، وفي شمال الشام، مضى ريموند بواتييه، أمير أنطاكية، في غاراته حتى بلغ أسوار حلب، وكان الناس آمنين، فقتل وسبى عدداً كثيراً من المسلمين، وتمادى في غاراته حتى بلغ صلدى ونهبها، ولما وصل الخبر إلى حلب خرج أسد الدين شيركوه على رأس قوة عسكرية للتصدي له، فأدرك فرقة صليبية استاقت بعض الأسرى،

(1) صلاح الدين بين التاريخ والملحمة الأسطورية، ص: 285، ص: 286، تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام، ص: 252.

فاصطدم بها وحرّر الأسرى، ثم شنَّ الغارة على أرتاح[1]، قبل أن يعود إلى حلب[2]. وظل جوسلين الثاني أمير الرها قابعاً في تل باشر، إلا أنه أعدّ خطة لإعادة احتلال الرها[3]. ولعل جوسلين الثاني هذا، كان أشد أعداء الدولة الزنكية خطراً عند وفاة عماد الدين زنكي، لأن استرداد الرها من الصليبيين كان أهم ما قام به عماد الدين في حياته وهو العامل الرئيسي الذي أضفى عليه وعلى دولته أهمية خاصة في التاريخ، فكان نجاح الصليبيين في استرداد الرها إذا ما حصل يُعد ضربة قاسية لأبنائه الذين سيفقدون المجد الذي حقَّقه والدهم[4].

والأهم من ذلك الأثر المعنوي السلبي الكبير في نفوس المسلمين لم يكن بقلعة الرها سوى حامية قليلة العدد، فاستغل الأرمن هذه الفرصة، وكانوا شديدي الميل للصليبيين ودبَّروا مؤامرة للتخلص من الحكم الإسلامي، وطرد المسلمين من المدينة، ووقف جوسلين الثاني على تلك النزعة فيهم فشجَّعهم على التمرد وتسليم البلد إليه، ووعدهم بتقديم المساعدة[5]، وخرج جوسلين الثاني على رأس قوة عسكرية ميمِّماً وجهه شطر الرها وهو عازم على استعادتها وسانده بلدوين حاكم مرعش[6] وكيسوم في حين رفض ريموند بواتييه ـ حاكم أنطاكية ـ تقديم المساعدة[7]. ويبدو أن رفضه ناتج عن التخطيط غير السليم للحملة[8]، وكان جوسلين الثاني يأمل في مباغتة الحامية الإسلامية ويهاجمها على حين غفلة من أمرها، إلا أنها تلقَّت إنذاراً مبكراً بهذا الهجوم، فاستعدَّت لصدِّه.

وصل جوسلين الثاني إلى أسوار المدينة، شهر ربيع الآخر عام 541هـ شهر أيلول عام 1146م ونجح في دخول البلدة، لكن امتنعت عليه القلعة وقد احتمت بها الحامية الإسلامية[9]. وجد جوسلين الثاني نفسه أسيراً، هو ورجاله، داخل المدينة، ولما كانت قواته قليلة العدد لا يمكنها اقتحام القلعة، استنجد بأميري: أنطاكية وطرابلس والوصية على عرش مملكة بيت المقدس، وأرسلت الحامية من جهتها تطلب مساعدة نور الدين محمود في حلب، وكان جيشه آنذاك في مهمة جهادية في أنطاكية، عدّ صاحب نور الدين محاولة جوسلين الثاني هذه تحدياً له، ورأى ضرورة القضاء عليه قبل وصول النجدات الصليبية، فخرج من حلب في شهر جمادى الآخرة/ شهر تشرين الثاني على رأس جيش كثيف بلغ

---

(1) أرتاح: اسم حصن منيع، كان من العواصم من أعمال حلب.

(2) تاريخ الزنكيين في الموصل، ص: 253.

(3) المصدر نفسه، ص: 253.

(4) المصدر نفسه، ص: 253.

(5) المصدر نفسه، ص: 253.

(6) مرعش: مدينة في الثغور بين الشام وبلاد الروم، معجم البلدان (5/ 107).

(7) تاريخ الزنكيين في الموصل، ص: 253.

(8) المصدر نفسه، ص: 253.

(9) المصدر نفسه، ص: 254.

تعداده عشرة آلاف فارس غير المشاة والطلائع، وظهر أمام أسوار المدينة[1]، وقع جوسلين الثاني بين شقي الرحى؛ الحامية من الداخل وجيش نور الدين محمود من الخارج، فلم يقو على ملاقاة هذه الجموع داخل الرها وخارجها، فأسقط في يده، وأدرك أن لا سبيل إلى النجاة إلا بالهرب، فتسلَّل أثناء الليل إلى خارج المدينة، واتخذ طريقه صوب الفرات[2]. لكن هذه العملية لم تتم بسهولة فقد طارده نور الدين محمود واقتفى أثره، واشتبك معه في اليوم التالي وتغلَّب عليه، إلا أنه استطاع الفرار إلى سميساط بصعوبة بالغة بعدما أصيب في رقبته، وكان بلدوين حاكم مرعش من بين القتلى، كما قتل باسيل أسقف اليعاقبة، ووقع يوحنا أسقف الأرمن في الأسر[3].

خرج الأرمن من الرها بعد أن أدركوا ما ينتظرهم إذا ظلوا فيها، وقد أضرموا النيران في كثير من البيوت، لكن أكثرهم لم يتمكن من النجاة، ووقعوا تحت ضربات المسلمين[4]، وكان من الطبيعي أن يحل العقاب بمن بقي من أهل الرها كالنصارى الذين غدروا بالمسلمين بعدما تخلَّى جوسلين الثاني عنهم[5]، فقد أراد نور الدين أن يجعل من عصيان الرها وتمردها درساً للآخرين، فأباحها لجيشه وسبى أهلها وأجلى من كان بها من الفرنج، وكانت الأخبار قد وصلت إلى الموصل بعصيان الرها وعودة جوسلين إليها، فأرسل سيف الدين غازي جيشاً لاستعادتها، ولكن هذا الجيش رجع قبل وصوله للرها عندما علم باستعادة نور الدين للمدينة، وأقر سيف الدين غازي أخاه نور الدين في عمله[6].

وكانت حادثة عصيان الرها واسترجاعها من قبل نور الدين محمود مع ما رافق ذلك من نهبها وسبي أهلها، وقتل الغالبية من جيش جوسلين أثناء هربه منها، ثم سكوت سيف الدين غازي عن احتلال أخيه نور الدين محمود للمدينة، كان كل ذلك بمثابة خيبة أمل كبيرة للفرنجة الطامعين في اندلاع الحرب بين الأمراء المسلمين، الذين فرحوا بوفاة عماد الدين زنكي وزوال خطره، ولكنهم أدركوا أن ابنه نور الدين محمود لا يقل خطورة عن أبيه، ثم تعززت خيبة الأمل لدى أولئك الأعداء بعد التقاء سيف الدين غازي بأخيه نور الدين محمود واتفاق الأخوين على التعاون فيما بينهم ضد الطامعين بملك أبيهم وملكهم[7].

وهذا أول فتح لنور الدين رَحِمَهُ اللَّهُ، وفيه يقول ابن منير من قصيدة:

---

(1) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام، ص: 254.

(2) الكامل في التاريخ، نقلاً عن تاريخ الزنكيين، ص: 254.

(3) تاريخ الزنكيين، ص: 254.

(4) المصدر نفسه، ص: 255.

(5) المصدر نفسه، ص: 255.

(6) دور نور الدين في نهضة الأمة، ص: 92.

(7) الباهر، ص: 87، دور نور الدين في نهضة الأمة، ص: 92.

تلك بكر الفتوح فالشام منها شامه والعراق بعد عِراقُهُ

وقال ابن القيسراني:

فإن يك فتح الرُها لُجّة فساحلها القدس والساحل

فهل علمت علم تلك الديار أن المقيم بها راحل[1]

ـ **مساندة نور الدين لحاكم دمشق في حوران:** في عام (541هـ/ ربيع عام 1147م) خرج التونتاش أمير بصرى وصرخد في إقليم حوران على حكمه، وأعلن استقلاله عن دمشق، وحتى يدعم موقفه التفت إلى مملكة بيت المقدس في محاولة لاستقطاب حكامها. وكان الذي شجعه على ذلك اعتقاده بأن سياسة المسالمة التي اتبعها الملك فولك نحو دمشق قد انتهت بوفاته في «شهر تشرين الثاني عام 1142م» وأن الحكام الجدد سوف يلتزمون سياسة مغايرة وبخاصة أنه قدّم إليهم في شهر ذي الحجة عام (541هـ/ شهر آيار عام 1147م) عرضاً سخياً يتضمّن التنازل لهم عن بصرى وصرخد مقابل مساعدتهم له في الاستقلال بحوران[2]، وتردّد بارونات بيت المقدس وحكامها في قبول هذا العرض المغري الذي سيتيح لهم استغلال إقليم حوران، كما أن السيطرة على هذا الإقليم تجعل دمشق تحت رحمتهم، ويبدو أنهم أدركوا المخاطر الناتجة عن تفكيك عرى التحالف مع دمشق في ظل تربص نور الدين محمود، وللخروج من هذا المأزق تصرفوا على محورين:

الأول: أنهم أمروا بحشد الجيش في طبرية استعداداً لمساعدة التونتاش عند الضرورة[3].

الثاني: أنهم أرسلوا إلى أنر يطلبون منه إعادة التونتاش إلى حاكمية حوران.

استشاط أنر غضباً من هذا التدخل السافر في شؤونه الداخلية غير أنه أراد أن يتجنّب نقض التحالف مع الصليبيين خشية من قوة نور الدين محمود، فأرسل يذكّر حكام بيت المقدس بالحلف المعقود بينهم وبين حكّام دمشق، والذي يعود على الجانبين بالفائدة ويحذّرهم أن سياستهم هذه ستؤدي به إلى محالفة نور الدين محمود مما يعرّضهم لخطر جسيم، وعرض أن يؤدي نفقات الحملة التي جُهّزت لمساندة التونتاش. والواقع أن أنر أدرك أن تحالفه مع الصليبيين رغم ما فيه من المهانة لكرامته في أعين المسلمين، أسلم عاقبة من بقائه وحيداً أمام نور الدين محمود[4]. إلا أن الصليبيين لا عهود لهم ولا مواثيق، فقد هدد

(1) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (1/ 177).
(2) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام، ص: 257.
(3) المصدر نفسه، ص: 257.
(4) المصدر نفسه، ص: 257.

الفرنج دمشق ووصل جيشهم بقيادة ملك القدس إلى أطراف حوران، فاضطر معين الدين أنر مقدم العساكر في دمشق والحاكم الفعلي إلى الاستنجاد بنور الدين الذي بادر بنفسه للمساعدة، وتقابل مع أنر بالقرب من بصرى للتصدي للفرنجة الذين فوجئوا بظهور نور الدين محمود مع معين الدين أنر، واضطروا للانسحاب جنوباً ـ ومؤخرات جيشهم تتعرض لغارات المسلمين ـ حتى عبروا نهر الأردن[1]، وتحسنت العلاقات بين نور الدين محمود ومعين الدين أنر بعد ذلك، وتوثقت أكثر بزواج نور الدين محمود من ابنة معين الدين، ورافق هذا الزواج إعادة مدينة حماة التي كان معين الدين أنر احتلها بعد مقتل عماد الدين زنكي إلى نور الدين محمود[2].

في السنة التالية 542هـ/ 1148م تمكن نور الدين محمود من الاستيلاء على عدة حصون ومواقع تتبع لإمارة أنطاكية منها أرتاح وباراه، وكفر لاثا[3]، وجميع هذه المواقع والحصون كانت من أعمال حلب سابقاً استولى عليها الفرنجة خلال فترة مدينة حلب وتوسع الإمارات الفرنجية في بداية القرن، ويلاحظ أن نور الدين محمود وضع في قمة أولوياته إبعاد الخطر الفرنجي عن مدينة حلب، وهذا يعني التركيز على إمارة أنطاكية وتجريدها من كل ما استولت عليه في الماضي من الحصون والمواقع والبلدان التابعة لحلب حسب منهجه في ترتيب أولوياته، فقد أخذت الأخبار تتوارد من القسطنطينية وآسيا الصغرى عن تقدم جيوش فرنجية كبيرة جداً تتجه نحو المشرق الإسلامي لدعم وتعزيز الإمارات الفرنجية القائمة فيه، واستعادة مدينة الرها التي كان عماد الدين زنكي استولى عليها عام (539هـ/ 1144م)[4]، واحتلال ما يقدرون على احتلاله من بلاد المسلمين. وأخذت الدول والإمارات في المنطقة سواء كانت إسلامية أم فرنجية تعد نفسها وتضع في حسابها الصدام الكبير المقبل[5].

ثانياً: الحملة الصليبية الثانية:

كان لسقوط الرها في أيدي المسلمين ردة فعل عنيفة في الغرب الأوروبي وباعثاً على السرعة في إرسال حملة صليبية جديدة، بعد أن أثار سقوطها الرعب في النفوس، لا بسبب المكانة الدينية التي تتمتع بها هذه المدينة في تاريخ النصرانية فحسب، بل لأنها كانت أيضاً أول إمارة أسسها الصليبيون في الشرق الأدنى، فجاء سقوطها إيذاناً بتزعزع البناء الكبير الذي شيده الصليبيون في الحملة الصليبية الأولى في الشرق الأدنى، وأدرك الغرب الأوروبي أنه إذا

(1) عيون الروضتين (2/ 202 ، 203).
(2) ذيل تاريخ دمشق، ص: 289.
(3) زبدة الحلب (2/ 291)، دور نور الدين في نهضة الأمة، ص: 93.
(4) دور نور الدين في نهضة الأمة، ص: 93.
(5) المصدر نفسه، ص: 93.

لم يسارع إلى ترميم ذلك البناء فإنه لن يلبث أن ينهار[1] وكانت نداءات الاستغاثة قد وصلت إلى البابا يوجنيوس الثالث من فرنج الشرق، فقد بعثت ملكة بيت المقدس بوفد رفيع المستوى إلى البابا لطلب النجدة بعد سقوط الرها[2]، وأرسل البابا رسلاً إلى إمبراطور ألمانيا وملك فرنسا يحثهما على الإسراع لنجدة فرنج الشرق من خطر المسلمين، وفي الوقت نفسه كلف أحد رجال الدين المشهورين في فرنسا اسمه: برنارد بالدعوة للحرب ضد المسلمين في الشرق، فقام هذا القس بالدور الذي قام به البابا أوربان الثاني عام (490هـ/ 1095م) أثناء الدعوة للحملة الفرنجية الأولى[3]، لبى الإمبراطور كونراد الثالث ولويس السابع ملك فرنسا، دعوة البابا وخرجا كلٌّ بجيشه عبر أوروبا باتجاه القسطنطينية، ومن هناك عبرا مضيق البوسفور إلى آسيا الصغرى[4].

1 ـ السلاجقة في آسيا الصغرى يقضون على الجيش الألماني:

كان الجيش الألماني يتقدم الجيش الفرنسي عدة أيام، وعندما بلغ منطقة دوريليوم شرق مدينة نيقيه نفس الموقع الذي انتصر فيه فرنج الحملة الأولى على السلاجقة بقيادة قلج أرسلان قبل خمسين عاماً، وقع الجيش الألماني في قبضة جيش السلطان مسعود أمير سلاجقة الروم في آسيا، فقد تراجع السلطان مسعود وفق خطة عسكرية ذكية حتى واصل الجيش الألماني تقدمه إلى قلب فريجيا، وكان السلطان مسعود قد نشر قواته على قمم الجبال المحيطة بهم ولمَّا وصل الجنود الألمان إلى نهر باتيس قرب دوريليوم داهمهم الجيش السلجوقي، وكان قد استبد بهم التعب والظمأ فاختلت قيادتهم، وحاولوا الاحتماء في شعاب الجبال، لكن السلاجقة أحاطوا بهم وأمطروهم وابلاً من السهام، وفقد الجنود الألمان ميزة استعمال السهام لإبعاد الأتراك في حين افتقرت خيالتهم إلى العلف، عندئذ قرَّر كونراد الثالث الانسحاب والعودة من حيث أتى، لكن السلاجقة لم يتركوه وشأنه فهاجموا مؤخرة جيشه ومقدمته وقلبه، فدبَّت الفوضى في صفوفه وتعرَّض أفراده لأفدح الخسائر بين قتل وأسر، والواقع أن القتال لم يكن سوى مذبحة مروعة، قتل فيها تسعة أعشار الجيش، وأصيب كونراد الثالث نفسه بجرحين أحدهما في رأسه[5]، وقد حاول كونراد الثالث، عبثاً جمع شتات جيشه إلا أنه ترك ساحة المعركة عند المساء ممعناً في الفرار مع من تبقَّى من رجاله، وقليل ما هم، عائدين إلى نيقيه،

(1) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام، ص: 171.
(2) دور نور الدين في نهضة الأمة، ص: 94.
(3) المصدر نفسه، ص: 94.
(4) المصدر نفسه، ص: 94.
(5) تاريخ سلاجقة الروم في آسيا الصغرى، ص: 146.

في حين غنم السلاجقة كميات لا حصر لها من الغنائم[1]، فقد غنموا كل ما في معسكرهم من مواد وخيول وأسروا أعداداً كبيرة منهم، وظلت الغنائم تباع في أسواق المدن الإسلامية عدة شهور.[2] وبهذه الهزيمة الساحقة يمكننا التأكيد بأن الجيش الألماني قد فشل في تحقيق الغاية التي أتى من أجلها إلى الشرق، مما سيكون له أثر سيىء على الحملة الصليبية الثانية[3].

2 ـ سلاجقة الروم يعرقلون تقدم الجيش الفرنسي:

خرج الجيش الفرنسي بقيادة الملك لويس السابع متأخراً عن الجيش الألماني، وكانت القوات الفرنسية مساوية في العدد تقريباً للجيش الألماني إنما كان أكثر تنظيماً، واصطحب لويس السابع معه زوجته إليانور[4]، وفي الوقت الذي كان يجري فيه القتال بين السلاجقة والقوات الألمانية، عبرت القوات الفرنسية البوسفور إلى آسيا الصغرى، ووصلت إلى نيقيه، وعلم الملك الفرنسي بهزيمة الإمبراطور الألماني، فأسرع لمواساته ومساعدته[5] وعلى الرغم من الاحتياطات التي اتَّخذها الملك الفرنسي، فقد فاجأه السلطان السلجوقي مسعود في مدينة ديكيرفيوم قرب أنطاكية وراح يناوئ الصليبيين حتى بلغ الجسر المقام على النهر، ونشبت في هذا المكان ـ رحى ـ معركة قاسية استطاع الصليبيون خلالها شق طريق لهم على الجسر. عند ذاك تراجع مسعود إلى داخل أسوار المدينة، وتمكَّن الصليبيون بعدها من متابعة طريقهم، ولم يغامر مسعود بالهبوط إلى السهل لمطاردتهم، إلا أن القبائل التركمانية البدوية الضاربة في المناطق الحدودية، تصدَّت لهم وأمطرتهم وابلاً من السهام، كما طاردتهم وتخطَّفت بالقتل جنود المؤخرة والشاردين والمرضى، ولم يُنجِ الجيش الصليبي من الفناء الشامل سوى هبوط الظلام حيث انسحب التركمان[6]، ولم يصل الجيش الفرنسي إلى أنطاكية إلا بعد أن تكبَّد خسائر هائلة، وبعد أن شفي الإمبراطور الألماني من مرضه أكمل رحلته إلى فلسطين بحراً على سفن الأسطول البيزنطي[7]، والتقى الإمبراطور الألماني والملك الفرنسي في القدس مع الملك بلدوين الثالث ملك القدس وأمه مليزاند وكبار القادة ورجال الدين في مملكة القدس، وبحث الجميع موضوع الهدف الذي ستتوجه الحملة لاحتلاله وقرروا أن يكون هدفهم الأول دمشق[8].

---

(1) تاريخ سلاجقة الروم في آسيا الصغرى، ص: 146.
(2) ذيل تاريخ دمشق، ص: 297.
(3) تاريخ سلاجقة الروم في آسيا الصغرى، ص: 146.
(4) المصدر نفسه، ص: 147.
(5) المصدر نفسه، ص: 147.
(6) تاريخ سلاجقة الروم في آسيا الصغرى، ص: 147.
(7) دور نور الدين في نهضة الأمة، ص: 95.
(8) المصدر نفسه، ص: 95.

3 ـ الهجوم الصليبي على دمشق:

توجهت الجيوش الفرنجية المتحالفة نحو دمشق التي كان يحكمها آنذاك معين الدين أنر أتابك الملك مجير الدين أبق بن محمد بن بوري، الذي كان أكثر الأمراء المسلمين قرباً من الفرنج وتعاوناً معهم[1]، ولذلك لم يكن يتوقع أن يكون الضحية الأولى لهذه الجيوش الفرنجية الضخمة، لكنه لما علم بنوايا الفرنجة ومسيرهم نحو دمشق اتخذ جميع الإجراءات اللازمة للدفاع عن المدينة، وأرسل يسأل المساعدة من نور الدين محمود وسيف الدين غازي[2]. كان من عادة نور الدين محمود تحليل الأوضاع الدولية والإقليمية ومتابعة الأحداث الجارية وتحليلها بعمق، ثم يخرج بالدروس والعبر التي تفيده في تقرير سياسته المستقبلية، وقد شكلت الحملة الصليبية الثانية الحدث الأكبر في المنطقة والعالم كله عام (543هـ/ 1148م) وكانت بالنسبة لنور الدين محمود الحدث الأول من نوعه بعد توليه الحكم عام (541هـ/ 1146م) والذي يمارس عليه سياسته المذكورة، فقد كان نور الدين يتوقع أن تكون إمارته (حلب) الهدف الأول لهذه الحملة، لأنها تشكلت وتوجهت للشرق على خلفية سقوط مدينة الرها عاصمة إمارة الرها الفرنجية عام (539هـ/ 1144م)، على يد عماد الدين، ولكن الذي حصل أن الحملة غيّرت هدفها المتوقع وتوجهت إلى دمشق وحاصرتها محاولة احتلالها، وكان هذا التغيير مفاجأة كبيرة لنور الدين، ومفاجأة أكبر لمجير الدين آبق حاكم دمشق وأتابكه معين الدين أنر المدبر الحقيقي لشؤون إمارة دمشق، كانت مفاجأة نور الدين معروفة الأسباب، أما مفاجأة حكام إمارة دمشق فلأنهم كانوا أصدقاء الفرنجة الوحيدين من المسلمين في المنطقة وجرى بين الطرفين تعاون وثيق ضد عماد الدين زنكي عندما كان يحاول الاستيلاء على دمشق، ولم يكن متوقعاً من الفرنجة مهاجمة أصدقائهم في دمشق وترك عدوهم الأول في حلب، ولكن نور الدين محمود استفاد من هذا التغيير المفاجئ في هدف الحملة الذي لم يحصل ارتجالاً ولم يكن حماقة كما يذكر بعض المؤرخين[3] بل جاء بعد دراسة وتحليل للأوضاع في المنطقة قام بها قادة الحملة في اجتماعات مكثفة اشترك بها ملك بيت المقدس وقادته في مدينة عكا قبل الهجوم على دمشق[4].

لقد تأكد لنور الدين محمود المغزى الحقيقي لغزو الفرنجة السابق في الحملة الأولى، والحالي في الحملة الثانية، والذي لا يمت بصلة إلى استرجاع قبر المسيح ﷺ من المسلمين

---

(1) دور نور الدين في نهضة الأمة، ص: 96.

(2) المصدر نفسه، ص: 96.

(3) تاريخ الحروب الصليبية، رنسيمان، ص: 523.

(4) نور الدين محمود سيرة مجاهد صادق، ص: 212، 213.

وتأمين طريق الحج إلى القدس على طوال الساحل شمالاً إلى القسطنطينية، كما كان يزعم زعماء الدين المسيحي الذين خططوا لهذه الحروب، كما أن الهدف الحقيقي للحملة الفرنجية الثانية أبعد ما يكون عن الانتقام لسقوط الرها؛ لأن الحملة توجهت إلى دمشق حليف الفرنجة في المنطقة، ولم تتوجه إلى حلب أو الرها حيث يوجد من يتوجَّب الانتقام منه، فقد أدرك نور الدين محمود أن هدف الفرنجة الحقيقي هو احتلال المشرق الإسلامي والسيطرة عليه، كما كانت الإمبراطورية الرومانية تسيطر عليه قبل الإسلام، وأنهم لا يميِّزون في عملهم لتحقيق هذا الهدف بين إمارات ودول المسلمين، فالحليف المتعاون معهم سواء عندهم مع المقاوم لسيطرتهم وتوسعهم، والمجاهد لتحرير البلاد من احتلالهم، فهم يقصدون احتلال بلاد الجميع والسيطرة على الجميع، وعلى هذا الأساس فإنه من الأفضل لهم البدء بدمشق التي تعتبر قلب بلاد الشام وأكثر الإمارات الإسلامية فيها مساحة وموارد، ولكونها الأضعف عسكرياً، ثم يتم بعد ذلك التحول إلى حلب والرها والموصل وغيرها.

فالأمر إذن حرب شاملة لن يسلم منها المراقب عن بعد ظناً منه أن الخطر بعيد عنه، فدوره قادم ولو بعد حين، وإذا كان الأمر كذلك فإن نور الدين بما اشتهر به من سياسة بعيدة النظر، لا بد أن يخوض هذه الحرب من بدايتها فدمشق بالنسبة له كحلب تماماً، وهي في الوضع الراهن تشكل الخط الأول للدفاع عن حلب والموصل وباقي بلاد المسلمين، ولذلك نراه يحشد جيشه إلى جانب جيش أخيه سيف الدين غازي أمير الموصل بالقرب من حمص وبعلبك لإجراء التنسيق اللازم مع حكام دمشق حول العمل المشترك لمواجهة الغزو الأجنبي، وكان لهذا الحشد الأثر الرئيسي في فشل الهجوم الصليبي على دمشق.

وقد خرج نور الدين محمود من هذا الحدث الكبير بدروس مهمة تؤكد قناعاته وتوجهاته السابقة. من هذه الدروس: الأهمية القصوى للوحدة بين الإمارات الإسلامية لمواجهة الخطر الفرنجي وتحرير البلاد من احتلالهم، ثم الأهمية الإستراتيجية لإمارة دمشق في المواجهة مع الفرنجة، وضرورة الاستيلاء عليها بأي ثمن، ومنها وضع التدخل الأوروبي في الصراع مع الإمارات الفرنجية في الاعتبار[1].

4 ـ موقف رجال الدين المسيحي من الحملة الصليبية الثانية:

أما عن موقف رجال الدين المسيحي من خروج الحملة الصليبية الثانية إلى الشرق، فإنه لم يكد نبأ سقوط الرها ـ في يد عماد الدين زنكي سنة (539هـ/ 1144م) ـ يتردد في عواصم غرب أوروبا حتى أثار مخاوفَ وقلقاً شديدين، وأدرك الصليبيون أن ذلك يمثل بداية النهاية لبقية الإمارات الصليبية في الأراضي المقدسة تحتاج مراجعة المسؤولين عن إمارة

(1) دور نور الدين في نهضة الأمة، : ص151.

أنطاكية، واستقر الرأي على إرسال وفد إلى البابا يوجنيوس الثالث (540هـ ـ 548هـ/ 1145 ـ 1153م) ليدعو إلى حملة صليبية جديدة، فقامت بالفعل في أوروبا حركة كبيرة تدعو بكل حماس إلى سرعة القيام بهذه الحملة لإعادة إمارة الرها إلى المسيحيين، وبادر البابا يوجنيوس الثالث بدعوة لويس السابع ملك فرنسا، وكونراد الثالث إمبراطور ألمانيا ليتزعما تلك الحملة.

وقد رحب لويس السابع بطلب البابا، ودعا أتباعه للاجتماع به للنظر فيما يتخذ من الترتيبات، ولما لم يبد هؤلاء أي حماس للاشتراك في هذه الحملة، قرر الملك لويس السابع تأجيل تنفيذ دعوة البابا لمدة ثلاثة شهور، ولجأ إلى أحد أعلام الدين المسيحي في مملكته، وهو القديس برنارد، رئيس دير كليرفو الذي كان يتمتع بشهرة كبيرة ويفوق الملك في السلطة ـ على حد تعبير المؤرخ الإنجليزي رانسيمان ـ فقد كان له قدرة عظيمة على الإقناع والتأثير في الناس، ولم يكد الملك لويس السابع والبابا يوجنيوس يطلبان منه القيام بالدعوة للحملة الصليبية حتى أسرع القديس برنارد لتلبية هذا الطلب والعمل بكل قواه من أجل إنجاح هذا المسعى[1]، وكما وقف البابا أوربان الثاني في كليرمونت يدعو للحملة الصليبية الأولى قبل ذلك بخمسين سنة، وقف القديس برنارد خارج كنيسة فيزيليه في شوال سنة (540هـ/ مارس 1146م) يدعو للحملة الصليبية الثانية، ونفذ ببلاغته إلى قلوب متعطشة للحرب والمغامرة فتشتعل ناراً، فلما استمع الناس لسحر بيانه وبلاغته وفصاحته، أخذوا يصيحون طالبين الصلبان، وعندئذ خلع القديس برنارد أرديته الخارجية فقطعت وحيكت صلباناً، وظل هذا القديس ومساعدوه يخيطون الصلبان لكل الذين تطوعوا للاشتراك في هذه الحملة[2].

وبعد عدة أيام كتب القديس برنارد رسالة إلى البابا يتضح منها مدى تأثير رجال الدين المسيحيين في الناس ومدى طاعة الناس لهم ـ في ذلك الوقت ـ فيقول فيها: «لقد أمرتم، فأطعت، وما كان لمن أصدر الأمر من سلطة، جعلت طاعتي مثمرة، فلم أكد أفتح فمي وأتحدث حتى تكاثر الصليبيون، فلا حصر لعددهم، فالقرى والمدن هجرها سكانها، فلا تكاد تجد رجلاً واحداً لكل سبع نساء ويصادفك في كل مكان الأرامل اللائي لا زال أزواجهن أحياء»[3]. وبعد ذلك أخذ الحماس يزداد عند القديس برنارد بعد النجاح الذي أحرزه في فرنسا، فأخذ يطوف أقاليم ألمانيا مؤملاً أن يجتذب الألمان للاشتراك في هذه الحملة، وقد نجح إلى حد كبير في التأثير على كونراد الثالث ملك ألمانيا للانضمام إلى الحرب المقدسة، ويطلب منهم أن يقوموا بشرح الإعلان البابوي الذي بعث به البابا إلى

---

(1) تاريخ الحروب الصليبية، رنسيمان (2/ 407، 409).

(2) دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الشرق الأدنى، ص: 254.

(3) المصدر نفسه، ص: 255.

كافة مدن أوروبا من أجل أن يتحمل الجميع مسؤولية مساعدة الأرض المقدسة بفلسطين والعمل على تحريرها[1].

واستقر رأي المشاركين في هذه الحملة على مهاجمة دمشق واحتلالها، واشترك رجال الدين المسيحي جنباً إلى جنب مع الجند في حصار دمشق، فكان مع الملك الألماني كونراد قسيس عجوز يدعى: إلياس، طويل اللحية، يعتقدون به، فلما حاصروا دمشق، ركب هذا القسيس حماره وعلق على عنقه صليباً وحمل في يده صليباً وجمع القساوسة بالصلبان وركب الملوك والفرسان بين يديه، ولم يتخلف من الصليبيين المشاركين في الحصار أحد إلا من تركوه لحفظ الخيام. ووقف هذا القسيس أمام الجميع وهو يتقدمهم قائلاً: لقد وعدني المسيح أني أفتح اليوم دمشق ولا يردني أحد. ولكن باءت نبوءته بالفشل إذ هاجمه أحد شباب المجاهدين فقتله وقتل حماره[2].

5 ـ انتصار دمشق على الحملة الصليبية الثانية:

في ربيع الأول سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة نازلت الفرنج دمشق في عشرة آلاف فارس وستين ألف راجل، فخرج المسلمون في دمشق للمصاف فكانوا مائة وثلاثين ألف رجل وعسكر البلد، فاستشهد جماعة، وقتل من الفرنج عدد كثير، فلما كان في اليوم الخامس وصل غازي بن أتابك، وأخوه نور الدين في عشرين ألف إلى حماه، وكان أهل دمشق في الاستغاثة والتضرّع إلى الله تعالى، وأخرجوا المصحف العثماني إلى صحن الجامع، وضجّ الناس والنساء والأطفال، مكشوفي الرؤوس، وصدقوا الافتقار إلى الله، فأغاثهم[3]، وقال تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ [النمل: 62]، وكان من أسباب الله التي جعل فيها النصر لأهل دمشق: وصول جيوش الموصل وحلب في الوقت المناسب، فقد اتصل كل من سيف الدين غازي وأخوه نور الدين بمعين الدين أنر لتنسيق التعاون بينهم ضد الفرنجة، وكان معين الدين أنر حاكم دمشق لم يكن يرغب بدخول سيف الدين ونور الدين دمشق، وكان في الوقت نفسه يهدد الفرنجة بتسليم دمشق لسيف الدين أو لنور الدين إذا حاولوا اقتحامها، وراسل حكام القدس ووعدهم بتسليم حصن بنياس لهم إذا أقنعوا الإمبراطور كونراد والملك لويس بالانسحاب عن دمشق، وترافقت هذه الاتصالات مع حدوث خلاف بين الفرنجة أنفسهم حول من سيحكم دمشق بعد احتلالها[4]، قبلَ حكامُ القدس عرضَ معين الدين أنر، وأقنعوا الإمبراطور كونراد والملك لويس بضرورة الانسحاب عن دمشق خوفاً من تسليمها لسيف الدين غازي «ملك الشرق»[5]، الذي إن تسلمها طمع باحتلال القدس وباقي الإمارات الفرنجية

(1) دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الشرق الأدنى، ص: 255.
(2) المصدر نفسه، ص: 255.
(3) شذرات الذهب (6/ 219).
(4) تاريخ الحروب الصليبية (2/ 255).
(5) الباهر، ص: 89، دور نور الدين في نهضة الأمة، ص: 96.

فيما بعد، فيزول الوجود المسيحي كله من الشرق، انسحبت جيوش الفرنجة إلى فلسطين ومنها غادر الإمبراطور كونراد عن طريق البحر إلى القسطنطينية في طريق عودته لألمانيا، بينما تأخر الملك لويس عدة أشهر ثم غادر بطريق البحر إلى فرنسا[1].

وهكذا انتهت أكبر حملة فرنجية إلى الفشل الذريع بسبب تضامن الإمارات الإسلامية، كالموصل وحلب مع دمشق وسلاجقة الروم في وجه العدوان، وبسبب توفر إرادة المقاومة والقتال في نفوس القادة، بعكس الوضع الذي حصل خلال الحملة الفرنجية الأولى التي حققت أهدافها باحتلال معظم بلاد الشام بسبب اختلاف هذه الإمارات وعدم توفر إرادة القتال وضعف روح المقاومة في نفوس الحكام.

كان نور الدين محمود المستفيد الرئيسي من فشل الحملة الفرنجية الثانية «بعد حاكم دمشق» فقد برزت أهمية الدور الذي قام به وأخوه سيف الدين غازي في إرغام الفرنجة على الانسحاب عن دمشق خائبين، وظهرت بالتالي أهمية التعاون والتضامن بين الإمارات الإسلامية في حمايتها من أطماع الفرنجة، وهذا ما كان نور الدين محمود يسعى لتحقيقه باعتباره الخطوة الأولى على طريق الوحدة التي كانت تمثل الهدف الإستراتيجي له في سبيل تحرير البلاد من الاحتلال الفرنجي، أدرك نور الدين محمود بعد فشل الحملة الفرنجية الثانية الأهمية الكبيرة لدمشق في مواجهة الفرنجة، سواء من حيث موقعها الجغرافي المواجه الأكبر وأقوى الإمارات الفرنجة (مملكة القدس) أم من حيث إمكانياتها وكثرة مواردها وقوتها البشرية، فترسخت فكرة الاستيلاء عليها في نفسه وأخذ يسعى لتحقيق ذلك معتمداً الوسائل السلمية ومستفيداً من تجربة والده في هذا المجال[2].

6 ـ مشاركة فقهاء المغاربة للدفاع عن دمشق:

لم تقتصر المشاركة الفعلية للفقهاء في القتال على فقهاء مدن بلاد الشام وحدهم، إذ تشير بعض الروايات إلى مشاركة أولئك الفقهاء المغاربة والأندلسيين الذين كانوا يقيمون ببلاد الشام في تلك المعارك، فعندما تعرضت مدينة دمشق عام (543هـ/1147م) للغزو الصليبي شارك أولئك الفقهاء جيوش مدينة دمشق لمواجهة ذلك الغزو؛ وكان منهم الفقيه المغربي حجة الإسلام أبو الحجاج يوسف بن دوناس الفندلاوي المالكي، والشيخ عبد الرحمٰن الحلحوني[3] وكان الشيخ الفندلاوي كبيراً زاهداً عابداً خرج راجلاً، فرآه معين الدين ـ حاكم دمشق ـ فقصده وسلّم عليه وقال له: يا شيخ، أنت معذور، ونحن نكفيك، وليس بك قوّة على القتال، فقال: قد بعت واشترى، فلا نُقيلهُ ولا نستقيله. يعني قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ [التوبة: 111] وتقدّم فقاتل الفرنج

(1) نور الدين محمود، حسين مؤنس، ص: 96.

(2) دور نور الدين في نهضة الأمة، ص: 97.

(3) موقف فقهاء الشام وقضاتها من الغزو الصليبي، ص: 125.

حتى قتل رَحِمَهُ اللَّهُ شهيداً[1]. واستشهد الشيخ الحلحوني بعد قتال واستبسال[2]. ورؤي الشيخ الفندلاوي في المنام بعد استشهاده فقيل له: أين أنت؟ قال: في جنات عدن على سُرر متقابلين[3].

7 ـ ما قيل من شعر:

قال أبو الندى حسان بن نمير الكلبي في مدح مجير الدين صاحب دمشق:

عَرِّجْ على نَجْدٍ لعلَّكَ مُنْجِدي ... بنسيمها وبذكر سُعْدى مُسْعِدي

من قاتل الإفرنج ديناً غيره ... والخيلُ مثل السيل عند المشهد

ردَّ الأمانَ بكلِّ نِذْب باسل ... ومن الجياد بُكلِّ نهد أجْرَدِ

ومن السيوف بكلِّ عَضْب أبيض ... ومن العَجَاج بكلِّ نقع أسود

حتى لوى الإسلام تحت لوائه ... وغدا بحمد من شريعة أحمد[4]

ثالثاً: نتائج الحملة الصليبية الثانية:

هناك مجموعة من النتائج تمخضت عنها الحملة الصليبية الثانية منها:

1 ـ أججت العداء الغرب أوروبي: تجاه الإمبراطورية البيزنطية، إذ أن المعاناة التي لقيها الإمبراطور الألماني كونراد الثالث وكذلك الملك الفرنسي لويس السابع من خلال الطريق البري الذي مر بمناطق بيزنطية أكد العداء المتأصل بين الطرفين، وهو عداء سيتراكم طوال القرن الثاني عشر الميلادي/ السادس الهجري حتى يصل إلى ذروته مع مطلع القرن الثالث عشر الميلادي/ السابع الهجري.

2 ـ أثرت تلك الحملة على طبيعة الوجود الصليبي في الشرق، فالملاحظ أن الحركة الصليبية ارتبطت بحلف دفاعي إستراتيجي مع الغرب الأوروبي، الذي وفر لها كل دعم مادي ومعنوي من أجل القيام والنمو والازدهار، بل وفر لها كل حماية ممكنة وسط المحيط الإسلامي المعادي، والآن بعد المصير الذي وصلت إليه الحملة الثانية بكل الآمال التي علقت على نجاحها، اتضح لنا بجلاء أن اعتماد الصليبيين على الدعم الأوروبي الخارجي خلال تلك

(1) أخبار الروضتين (1/ 190).
(2) دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الشرق الأدنى، ص: 117.
(3) أخبار الروضتين (1/ 191).
(4) المصدر نفسه (1/ 193).

الحملة الفاشلة، لم يغنيهم شيئاً، بل لم يضمن لهم الاستمرار بقوة من احتلال مناطق المسلمين طالما أن أطماعهم لا تحد، وجشعهم ليس له حدود، لقد ظل الوجود الصليبي في الشرق أشبه شيء برضيع لم يكتب له النمو الطبيعي من خلال ارتباطه المرضي بالوطن الأم في أوروبا، وظل الاعتماد على ذلك الوطن نقطة ضعف لذلك الوليد ليس لها حل حقيقي في آلية الصراع الصليبي الإسلامي[1]. وهذا ما ينطبق على الكيان الصهيوني في فلسطين في هذا العصر.

3 ـ **عجز الكيان الصليبي بإمكاناته المحلية** عن تغيير واقع عام (539هـ/ 1144م)، وحتى مع الاعتماد على الوطن الأم عجز أيضاً، وتعليل ذلك إلى جانب أخطاء الصليبيين القاتلة، أن حركة الجهاد الإسلامي حينذاك وصلت إلى درجة لن تستطيع أن تعود معها عقارب الساعة إلى الوراء فقاموا بالإنجاز وراء الآخر حتى تم طرد الصليبيين نهائياً من المنطقة لتصحيح خطأ الانقسام الإسلامي الذي مهد للغزاة القدوم إلى المنطقة.

4 ـ **بروز نجم نور الدين محمود**: فالحملة المذكورة دعمت وجود نور الدين محمود في حلب إلى حد كبير، فعلى الرغم من خشية الدماشقة من تطلعاته السياسية، إلا أنهم صاروا على علاقات ودية معه أفضل من قبل تلك الأحداث[2]، وتدعم وضعه السياسي في شمال الشام، بصورة أقوى، فقد اعترف الدماشقة ضمنياً بقوة نفوذه السياسي، وطلبوا منه العون ضد مملكة بيت المقدس، حليفة الأمس[3].

5 ـ **ضعف حكام دمشق**: والحملة المذكورة تلقي الضوء على مدى الضعف الذي وصلت إليه أتابكية دمشق، إذ أنها لم تتمكن من مواجهة الزحف الصليبي عليها، ولذلك طلبت العون العسكري الخارجي، ولا ريب في أن ذلك الوهن أدركه نور الدين محمود بصورة مؤكدة على نحو جعله يخطط أكثر من ذي قبل من أجل توحيد الجبهة الإسلامية وضم دمشق[4].

6 ـ **تدمير حصن العريمة**: استغل نور الدين محمود أول فرصة سنحت له للعمل المشترك مع معين الدين أنر، فقد استعان رايموند أمير طرابلس بنور الدين ومعين الدين ضد أحد أمراء الفرنجة الذين حضروا مع الحملة الفرنجية الثانية من ضمن الجيش الفرنسي هو برتراند كونت تولوز، لم يرجع هذا الأمير مع الجيش الفرنسي إلى فرنسا بعد انتهاء الحملة،

---

(1) الحروب الصليبية العلاقات بين الشرق والغرب، ص: 184.

(2) المصدر نفسه، ص: 185.

(3) المصدر نفسه، ص: 185.

(4) المصدر نفسه، ص: 185.

وإنما توجه إلى الشمال في البحر محاذياً للشاطئ حتى صار بمحاذاة إمارة طرابلس، نزل إلى البر ومعه فرسانه، فاقتحم حصن العريمة التابع لإمارة طرابلس، وتحصن فيه، وأعلن نيته في الاستيلاء على طرابلس معتبراً نفسه أحق بها من أميرها رايموند، ولم يتمكن رايموند أمير طرابلس من التغلب عليه، فحاول الاستعانة بباقي الإمارات الفرنجية، وعندما لم يجد منهم استجابة بعث يستنجد بنور الدين ومعين الدين اللذين بادرا بسرعة لحصار الحصن بقواتهما واستوليا عليه، وأسرا كل مَن كان فيه، ثم دمرا الحصن حتى استوى مع الأرض، وعاد كل منهم إلى مدينته[1]، وتدل هذه الحادثة على مدى الأثر السيىء الذي أحدثه فشل الحملة الفرنجية الثانية على وضع الإمارات الفرنجية في المشرق الإسلامي[2].

7 ـ **كسر هيبة الصليبيين في نفوس المسلمين**: يعتبر العديد من المؤرخين فشل الحملة الصليبية الثانية تلك نقطة تحول في تاريخ الصراع الإسلامي ـ المسيحي، فبالإضافة إلى أنها أدت إلى انحطاط هيبة الصليبيين في الشام مما شجع القوى الإسلامية على الغارة بجرأة على الإمارات الصليبية، ثم إنها كانت المناسبة التي ظهر فيها نجم آخر من نجوم الجهاد الصليبي هو نور الدين محمود زنكي، الذي أحيا مشروع أبيه لتوحيد الجبهة الإسلامية ضد الصليبيين وهو المشروع الذي سيستكمله صلاح الدين، فينجح في التمهيد لإنهاء الحروب الصليبية، ولقد نجح نور الدين في استغلال الظروف التي أعقبت فشل الحملة الصليبية الثانية في توحيد الشام تحت قيادته هذه المرة على حساب حاكم دمشق، ثم استأنف جهاده للصليبيين بنجاح مما شجع القوى الإسلامية الأخرى مثل سلاجقة الروم والأراتقة والتركمان على التقدم لمواجهة الصليبيين خاصة في الرها وأنطاكية، بل وتحالفوا أيضاً في جهودهم حتى استطاع نور الدين زنكي أن يوحد بلاد الشام كلها تحت قيادته من الرها شمالاً حتى حوران جنوباً، فقامت دولة إسلامية موحدة مركزها دمشق، وكانت هذه هي الخطوة الأولى نحو تكوين الجبهة التي ستمتد من الفرات إلى النيل للتصدي بحق لهذا الخطر الصليبي[3] هذه هي أهم النتائج.

رابعاً: سياسة نور الدين محمود في ضم دمشق:

كان نور الدين يحاول التقرب من أهل دمشق وكسب ثقتهم ويستغل كل فرصة تحقق له ذلك؛ سعياً منه لتحقيق هدفه الرئيسي بضم دمشق دون حرب، وقد وصلته أخبار في نهاية عام (544هـ/ 1149م) عن أعمال نهب وتخريب يقوم بها الفرنجة في مناطق حوران التابعة لدمشق دون أن يردعهم أحد[4]، وكان المطر قد انحبس حتى ذلك الوقت، وعانى الناس من

---

(1) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة، ص: 97.
(2) المصدر نفسه، ص: 98.
(3) السقوط، ص: 136.
(4) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة، ص: 100.

القحط، فتوجه نور الدين بجيشه حتى وصل بعلبك، وراسل مجير الدين آبق حاكم دمشق، يقول له: إنني ما قصدت بنزولي هنا طلباً لمحاربتكم، وإنما دعاني لهذا الأمر كثرة شكاية أهل حوران بأن الفلاحين أخذت أموالهم، وسبيت نساؤهم وأطفالهم بيد الفرنج، وعدم الناصر لهم، ولا يسعني مع ما أعطاني الله تعالى، وله الحمد من الاقتدار على نصرة المسلمين وجهاد المشركين، وكثرة المال والرجال، أن أقعد عنهم ولا أنتصر لهم مع معرفتي بعجزكم عن حفظ أعمالكم والذب عنها، والتقصير الذي دعاكم إلى الاستصراخ بالفرنج على محاربتي وبذلك لهم أموال الضعفاء والمساكين من الرعية، ظلماً لهم وتعدياً عليهم، وهذا ما لا يرضي الله ولا أحداً من المسلمين، ولا بد من المعونة بألف فارس تجرّد مع من يوثق بشجاعته من المقدمين لتخليص ثغر عسقلان وغزة[1].

فهذه الكلمات خرجت من قلب مكلوم، يرى الفرنج يتداعون على المسلمين كما تتداعى الأكلة على قصعتها، وأولو الأمر يقفون مكتوفي الأيدي، فلا يذبون عن أمتهم، ولا يدافعون عن رعيتهم، بل ويصل الأمر إلى أنهم يبذلون أموال المسلمين لأعداء الإسلام، مع أنه لا يجوز إعطاء الكافرين أموال المسلمين وأرضهم، فكان لا بد وأن يتحرك الأبرار الشرفاء.

إن نور الدين في هذه الرسالة غير حريص على قتال إخوانه في الإسلام، وأن الذي دفعه إلى الخروج، والنزول حول دمشق، هو إغاثة المكلومين الذين ابتلوا بالفرنج، ولا طاقة لهم في دفعهم، مع قعود مجير الدين صاحب دمشق عن نصرتهم، ابتغاء مرضاة الله، وقياماً بواجب عجز حكام دمشق عن القيام به، كما أنه لا يحل لمسلم أعطاه الله القدرة على نصرة المسلمين وجهاد أعدائهم، ولا ينصرهم، وفي هذه الرسالة يرسي نور الدين معالم على طريق التحرير لعل حكام المسلمين يَعون ما فيها، حينما يذكر أن التمكين في الأرض نعمة، وكثرة المال، وكثرة الرجال نعمة، تستحق الشكر لله ﷻ، وتوظيفها في طاعة الله ﷻ، أي لا بد هنا من توظيفها في الجهاد في سبيل الله، ولا يحل لمسلم أعطاه الله ﷻ هذه النعم أن يقعد عن نصرة إخوانه في الإسلام ومجاهدة الأعداء، لهذا قرر نور الدين محمود أن يهب لنجدة إخوانه سكان دمشق[2].

كان الجواب الذي تسلمه نور الدين من حاكم دمشق: ليس بيننا وبينك إلا السيف وسيوفنا من الفرنج ما يُعيننا على دفعك إن قصدتنا ونزلت علينا[3]، وهنا قرّر نور الدين التوجه إلى دمشق ومحاصرتها، ولكن أمطاراً غزيرة جداً سقطت واستمرت أسبوعاً، فغير رأيه حقناً لدماء المسلمين، ولهج أهل دمشق وحوران بالدعاء له واعتبروا نزول المطر ببركته[4]، وقرّر نور الدين أن يستولي على المدينة بطريقة سلمية، وكان هذا القرار يتناسب مع عقيدة نور

(1) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة، ص: 100.
(2) الطريق إلى بيت المقدس، د. جمال عبد الهادي، ص: 83.
(3) ذيل تاريخ دمشق، ص: 308، 309.
(4) عيون الروضتين، نقلاً عن دور نور الدين، ص: 100.

الدين محمود وطبيعته، فهو يكره سفك دماء المسلمين، ويبذل قصارى جهده ليتجنب قتال المسلمين وعُرف عنه قوله: إني أرفّه المسلمين ليكون بذل نفوسهم في مجاهدة أعدائهم. كانت خطة نور الدين محمود للاستيلاء على دمشق سلمياً تقتضي العمل على ثلاثة محاور:

المحور الأول:

يتمثل العمل على توجيه حملة دعائية عامة إلى أهالي دمشق يتم خلالها إبراز الأحوال السيئة والأوضاع المتردية التي تسود إمارتهم بسبب سوء إدارة حكامها وفسادهم وتعاملهم مع الأعداء، وبالمقابل إبراز ما ينتظرهم من نور الدين محمود، وكانت القواعد والأسس اللازمة لمثل هذه الحملة متوافرة وموجودة أصلاً من خلال الواقع الذي يعيشه أهالي مدينة حلب وغيرهم، من رعايا نور الدين محمود، ومن خلال ما تناقله الناس عن عدله وحسن سيرته وجهاده، ولكنه أراد أن يخصَّ أهل دمشق بمزيد من الاهتمام والرعاية في هذا المجال، فكان يوصي جنوده في كل مرّة يدخل فيها أراضي الإمارة أن يحسنوا معاملة الفلاحين ومن يلقونهم من أهالي دمشق وألا يُحدِثوا أية أضرار في الممتلكات والمزارع، وعندما علم باعتداءات الفرنجة على حوران (جنوب دمشق) وقَتْلهم للمسلمين وسَبيهم للنساء والأطفال ونَهْبهم للمواشي، دون خروج حاكم دمشق لدفعهم، بادر بالتوجه بجيشه إلى دمشق، وعندما اقترب من المدينة... أرسل إلى حاكمها الرسالة الآنفة الذكر وعندما علم نور الدين أن حاكم دمشق طلب مساعدة الفرنجة، أجرى تعديلاً على توزيع مواقع قواته للتعامل مع الموقف الجديد.

التقى مجير الدين آبق مع قادة الفرنجة وأكد معهم اتفاقه القديم، ولكن أدرك فيما بعد عزم نور الدين وتصميمه على احتلال المدينة، فأرسل إليه يطلب الاجتماع به وإعلان الطاعة له، وذكر اسمه في الخطبة وصك اسمه على النقود مقابل بقائه حاكماً على المدينة، فقبل نور الدين بهذا العرض، وتم الاجتماع في معسكر نور الدين، وخرج أغلب أهل دمشق إلى معسكر نور الدين ليملؤوا عيونهم من طلعة نور الدين[1] وانتهز نور الدين محمود الفرصة فحرص على لقاء العلماء وطلبة العلم وقُراء القرآن، وأكرمهم كما أحسن إلى الفقراء والضعفاء وشملهم بعطفه، مما ترك أحسن الأثر في نفوس الناس، ومع أن مجير الدين آبق نقض اتفاقه مع نور الدين وأعاد علاقته بالفرنجة كما كانت في السابق، إلا أن نور الدين كان قد تملك قلوب الرعية في دمشق وحقق نجاحاً كاملاً على المحور الأول من خطته.

المحور الثاني:

كان العمل يشتمل على الاتصال سراً بوجوه مدينة دمشق وأعيانها من كبار التجار

---

(1) ذيل تاريخ دمشق، ص: 309، دور نور الدين في نهضة الأمة، ص: 141.

والقضاة والعلماء وبعض قادة الجند، وقادة التنظيمات الشعبية[1]، لاستغلال نفوذهم وتأثيرهم لصالح التغيير المطلوب في الوقت المناسب، وكان من أشهر العاملين على هذا المحور القائد المشهور أسد الدين شيركوه وأخوه نجم الدين أيوب (والد صلاح الدين)، فقد كان الأخير من سكان دمشق ومن أشهر وجهائها[2]، بينما كان أسد الدين من أكبر القادة العسكريين العاملين مع نور الدين محمود، فاستغل نور الدين هذا الوضع وأوعز إلى قائده أسد الدين بمراسلة أخيه نجم الدين وتحريضه على الإطاحة بمجير الدين آبق، وتسهيل تسليم المدينة لنور الدين بدون قتال في الوقت المناسب، فاستجاب نجم الدين وبذل في هذا المجال جهوداً كبيرة أثمرت في نهاية الأمر حتى أخذ أعيان دمشق يراسلون نور الدين يطلبون حضوره معلنين عن استعدادهم لحصر مجير الدين آبق في قلعة دمشق، وتسليم المدينة له دون قتال[3]. وهكذا كان النجاح على هذا المحور كاملاً كما هو على المحور الأول.

المحور الثالث:

كان المحور الثالث من اختصاص نور الدين نفسه، فقد استطاع بخبرته ومقدرته على تحليل النفوس البشرية، النفاذ إلى شخصية مجير الدين آبق وتحليلها، ومعرفة ميوله ورغباته وتعامل معه على هذا الأساس، فأخذ يراسله ويستشيره في أمور المسلمين ويتقرب إليه بالهدايا حتى أطمأن إليه ووثق به، ثم أخذ يوقع بينه وبين قادته وأمرائه، فيكتب له عن بعض أمرائه وقادته بأنهم يراسلونه[4]، (أي يراسلون نور الدين) فيقبض مجير الدين عليهم أو يجرّدهم من مناصبهم أو يقتلهم، حتى لم يبق من كبار قادته وأمرائه مَن يعتمد عليه في ضبط أمور الجيش وإدارة القتال[5]، وأصبح مكروهاً من الرعية معزولاً عن الأعيان والوجهاء مجرداً من القادة الأكفاء، عندها حانت الفرصة المناسبة، وأصبحت دمشق كالثمرة الناضجة، فسار نور الدين محمود إليها بجيشه وأوعز إلى أنصاره فيها لتنفيذ ما اتفق عليه، فثاروا وهاجموا أبواب المدينة من الداخل وفتحوها أمام جيش نور الدين بينما تحصّن مجير الدين آبق مع مَن بقي معه من الجند في قلعة المدينة وطلب النجدة من الفرنجة الذين سارعوا إليها، ولكن نور الدين كان أسرع منهم فرجعوا خائبين، ثم أرسل نور الدين إلى مجير الدين يؤمنه على نفسه وعلى مَن معه من الجند، ويعده بإقطاعه مدينة حمص إذا استسلم وخرج من القلعة، فقبل وحقق له نور

---

(1) الباهر، ص: 107، دور نور الدين في نهضة الأمة، ص: 141.

(2) الكواكب، ص: 122، المصدر نفسه، ص: 141.

(3) الباهر، ص: 107، المصدر نفسه، ص: 141.

(4) ذيل تاريخ دمشق، ص: 325، المصدر نفسه، ص: 142.

(5) المصدر نفسه، ص: 142.

الدين وعده ولكن أبدله بحمص مدينة بالس على نهر الفرات في الشرق[1]. وهكذا نجحت خطة نور الدين في ضم دمشق إلى دولته بدون قتال نجاحاً كاملاً ـ بفضل الله ـ ثم حنكته السياسية ومقدرته على تأليف القلوب واستمالتها بالإضافة إلى قوة عزمه وتصميمه على الهدف وصبره وَتَرَوِّيه في التعامل مع الأمراء المنحرفين عن جادة الصواب[2].

ولقد تمكن نور الدين من ضم دمشق في صفر عام (549هـ/ أبريل 1154م)[3]، ويعد ضم دمشق من أهم إنجازات السياسة الخارجية النورية، وبذلك تحقق حلماً طالما راود الزنكيين، وقد عده البعض أعظم إنجازاته على الإطلاق، وأنه نقطة تحول في تاريخ الحروب الصليبية[4]، حيث غدت بلاد الشام والجزيرة تحت سيطرته، وصار الصليبيون بذلك يواجهون عدواً خطيراً[5]، وإذا كان بلدوين الثالث بإسقاطه عسقلان عام (548هـ/ 1153م) أكمل مد النفوذ الصليبي على كافة أنحاء الساحل الشامي من الإسكندرية شمالاً إلى غزة جنوباً؛ فإن استيلاء نور الدين على دمشق جعل داخلية بلاد الشام من الفرات حتى بردى في قبضة قوة إسلامية موحدة[6]، وتلك هي المرة الأولى التي تتوحد فيها الشام مُنذ العهد السلجوقي، وصار بإمكان نور الدين محمود أن يوجه ضرباته لأعدائه في الشمال صوب أنطاكية، وفي الجنوب صوب منطقة الجبل الأعلى والحدود الشمالية للمملكة اللاتينية، كذلك أدى إسقاط دمشق إلى فتح الطريق نحو القاهرة، التي غدت محط أطماع متبادلة من جانب نور الدين والصليبيين على حد سواء[7].

خامساً: أهم نتائج ضم دمشق:

ترتب على ضم دمشق عدة نتائج كانت لصالح المسلمين لعل أهمها:

1 ـ قضى نور الدين محمود على الأسرة البورية التي حكمت دمشق مُنذ عام (497هـ/ 1103م) وآلت هذه الأتابكية بجندها وإقطاعاتها إليه، فكان ذلك فتح الفتوح وأضحت الدولة النورية قطعة متصلة من الشمال إلى الجنوب.

2 ـ صفت الممالك بالشام لنور الدين محمود، وألقى الإسلام بدمشق جرانه، وثبَّت أوتاده، وذلك إشارة إلى أن دمشق كانت في ظل حكم الأسرة البورية تحت حماية الصليبيين.

(1) ذيل تاريخ دمشق، ص: 327، 328.
(2) دور نور الدين في نهضة الأمة، ص: 142.
(3) فن الصراع الإسلامي الصليبي، ص: 114.
(4) الشرق الأوسط للعريني، ص: 299، الجهاد ضد الصليبيين، ص: 280.
(5) فن الصراع الإسلامي الصليبي، ص: 115.
(6) المصدر نفسه، ص: 115.
(7) المصدر نفسه، ص: 115.

3 ـ قامت لأول مرة في بلاد الشام مُنذ أن وطئها الصليبيون دولة إسلامية متحدة مركزها دمشق، وقد أفزع هذا الصليبيين، فعلّق المؤرخ وليم الصوري قائلاً: كان هذا التغير مشؤوماً بالنسبة لمصالح مملكة بيت المقدس؛ لأنه وضع الصليبيين في مواجهة خصم عنيد في شدته محل رجل مسلوب الإرادة ـ إشارة إلى مجير الدين أبق ـ قد جرَّده ضعفه من أن يكون مصدر أذى عليهم، كما أنه ظلّ حتى ذلك الوقت يدفع لهم الجزية سنوياً شأنه في ذلك شأن التابع لهم[1]. وفي رأينا أن التغيير المشؤوم بالنسبة لمملكة بيت المقدس هو نفسه التغيير المبارك بالنسبة للمسلمين هو توحد عدة مدن كانت دويلات في دولة واحد قوية، وتوحيد جيوشها المبعثرة في جيش واحد قوي على رأسه قيادة ربانية كنور الدين زنكي استطاعت أن تعطي هيبة وقوة للدولة.

4 ـ شَكَّل ضمُّ دمشق إلى حلب نقطة تحول هامة في تاريخ الحروب الصليبية بفعل أنه ترتب على هذا التحول وحدة بلاد الشام الإسلامية تحت زعامة نور الدين محمود، فمن الرها شمالاً حتى حوران جنوباً امتدت دولة إسلامية واحدة مركزها دمشق، فقبل ذلك الوقت كان المسلمون في الشرق الأدنى الإسلامي منقسمين إلى قسمين منفصلين، قسم في الجنوب أي مصر، وقسم في الشمال أي شمال الشام والعراق، وقد استطاع الصليبيون بفضل موقف حكام دمشق توجيه الضربات لكل قسم من هذين القسمين على انفراد دون أن يتمكَّن القسم الآخر من دفع خطرهم[2].

5 ـ حقَّق ضم دمشق نوعاً من التوازن بين المسلمين والصَّليبيين في بلاد الشام، بل فاق في كفة المسلمين رجحانه، فإذا كان الصليبيون قد حقّقوا السيطرة على جميع ساحل بلاد الشام من الإسكندرونة إلى غزة، فإن ضمَّ نور الدين محمود لدمشق جعل بلاد الشام الداخلية من الفرات حتى نهر بردى في قبضة إسلامية واحدة، وإذا كان الصليبيون في الشمال قد نجحوا في الاستيلاء على حارم، وعلى الضفة الشرقية لنهر العاصي، فإن ضياع هذه القلعة من المسلمين لا يعادل بأي حال الأهمية العسكرية والمعنوية لدخول نور الدين محمود دمشق[3].

6 ـ تحقَّق بضمِّ دمشق جانب كبير من أهداف نور الدين محمود الرامية إلى توحيد الجبهة الإسلامية، وكان قد أمَّن المركز المسيطر على طريق وادي العاصي المؤدي إلى

---

(1) تاريخ الأعمال المنجزة فيما وراء البحار (2/ 815).

(2) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام، ص: 289.

(3) الكامل في التاريخ، نقلاً عن تاريخ الزنكيين، ص: 289.

أنطاكية، فأضحى بإمكانه عند نشوب الحرب بينه وبين الصليبيين أن يسدِّد ضرباته وفق رغبته إلى الشمال والجنوب بعد أن انهار الحاجز المنيع الذي كان يفصل حلب عن بيت المقدس، وبعبارة أخرى، أضحت بيت المقدس في متناول يده.

7 ـ على الرغم من أن ممتلكات الصليبيين تفوق في المساحة وفي الثروة ممتلكات نور الدين محمود، فقد كان له ميزة توحيد الممتلكات تحت زعامة واحدة يقلُّ عن سائر أمراء الصليبيين المتشرذمين، فيما يتعرض له من مناوأة من قِبل أتباعه الطموحين[1].

8 ـ أخذ نجم نور الدين محمود في الصعود، غير أنه كان شديد الحذر، مما منعه في المضي في استكمال انتصاراته، لذلك أكَّد من جديد ما كان قائماً من تحالف بين دمشق وبيت المقدس، فقد جدَّد في عام (551هـ/ 1156م) الهدنة لمدة سنتين[2]. لم تأخذ نور الدين نشوة الانتصار وعاطفة العوام ولم يتأثر بغرور الانتصار، وإنما عالج الوضع بعقلية القائد المحنك واهتم نور الدين بالأمور الإدارية والحضارية والسعي لتعزيز المذهب السني بدمشق وعمارة الاستحكامات وأسوار المدن[3].

ـ ما قيل من الشعر في حصار دمشق عام 546هـ: في عام 546هـ حاصر نور الدين محمود دمشق فمدحه ابن المنير بقصيدة يحرضه على حكام دمشق فقال:

أخليفةَ الله الذي ضَمِنَتْ ... تصديقَ واصفهِ سَراةُ المِنْبَرِ
لا المستطيل بمصر ظلَّ قُصُوره ... والمستطال إليه شُقَّة صَرْصَرِ
يا نور دين الله وابن عِماده ... والكوثر بن الكوثر بن الكوثر
صفِّر بحدِّ السَّيْف دار أشائب ... عقلوا جيادك عن بنات الأصفر
هم شَيَّدُوا صرح النِّفاق وأوقدوا ... ناراً تُحَشُّ بهم غداً في المحشر

إلى أن قال:

يا أيها الملك المنادِي جُودُه ... في سائر الآفاق هل من معسر
إن القصائد أصبحت أبكارُها ... في ظل ملكك غاليات الأمهر[4]

(1) تاريخ الزنكيين في الموصل، ص: 290.
(2) المصدر نفسه، ص: 290.
(3) فن الصراع الإسلامي الصليبي، ص: 261.
(4) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (1/ 260، 261).

المبحث الثالث
العلاقات مع القوى الإسلامية في بلاد الشام والجزيرة والأناضول:

أولاً: الأسر الحاكمة في المدن والبقاع الشمالية من بلاد الشام:

إن حرص الدولة النورية على ضم وسط الشام إلى حلب لم يجعلها تتناسى أهمية إسقاط نفوذ الأسر الحاكمة في المدن والبقاع الشمالية، إذ أن ذلك يُعَدُّ تدعيماً حقيقياً لسلطانها في حلب ذاتها[1].

1 ـ العلاقة مع شيزر:

كان نور الدين قبل سنة 552هـ لا يهاجم شيزر؛ لانشغاله عنها لجهاد الإفرنج وخوفاً من أن يسلمها صاحبها إلى الصليبيين، ولكنه أصيب في هذا العام سنة (552هـ) بزلزلة وانهدم الحصن، وقتل جميع آل منقذ الموجودين[2] فيه، فبادر إليها بعض أُمراء نور الدين، وقصد إليها وجدد أسوارها فعادت جديدة[3]، ودخلت شيزر في دولة نور الدين وحقق ضمها مكاسب تجارية وسياسية واستراتيجية للزنكيين، فقد كانت تقع على خطوط التجارة بين حلب ودمشق وحمص، بحيث جعلت لمن يحكم قبضته عليها حق جباية المكوس، ومن جهة أخرى صار إخضاعها أمراً تمليه الأحداث بعد أن طمع الصليبيون في الاستيلاء عليها، حيث أنهم بادروا إلى ذلك في نفس العام[4]، ولا شك في أن محاولة الصليبيين قد جعلت الدولة النورية تدرك أكثر من أي وقت مضى أهمية إخضاع شيزر، لأن استيلاءهم عليها يشكل خطراً داهماً خاصة على مدينة حلب قلب الدولة النورية في مرحلتها الباكرة[5].

إن نجاح الدولة النورية في السيطرة على شيزر، بمثل تلك السهولة التي توردها المصادر دلالة واضحة على أن النفوذ السياسي لبني منقذ حينذاك، انتهى بصورة فعلية على نحو لم يشكلوا معه أية معارضة حقيقية للسياسة الخارجية النورية، ولذا جاءت أحداث الزلازل المذكورة لتعطي لنور الدين الحافز القوي للإجهاز على كيان سياسي محلي متلاشٍ[6]، وهذا يذكرنا بسنة من سنن الله في خلقه وهي: إذا أراد الله أمراً هيأ له أسبابه، وقد تحدث الأمير أسامة بن منقذ عن ما حدث لقومه من زَلزلة عظيمة في شيزر، ودمرت حصنها على واليها تاج الدولة بن أبي العساكر بن منقذ وقتل عدد كثير من بني منقذ في هذه الزلزلة، وقد حزن أسامة كثيراً على وفاة أقاربه فقال في رثائهم:

---

(1) فن الصراع الإسلامي الصليبي، ص: 115.
(2) الحروب الصليبية والأسرة الزنكية، ص: 235.
(3) المصدر نفسه، ص: 235.
(4) فن الصراع الإسلامي الصليبي، ص: 116.
(5) المصدر نفسه، ص: 116.
(6) المصدر نفسه، ص: 116.

ما استدرج الموت قومي في هلاكهم ولا تخرَّمهم مثني ووحدانا
فكنت أصبرُ عنهم صبر محتسب وأحمد الخطب فيهم عَزَّ أوهانا
وأقتدي بالورى قبلي فكم فقدوا أخاً وكم فارقوا أهلاً وجيرانا
ماتوا جميعاً كرجع الطرف وانقرضوا هل ما ترى تارك للحين إنسانا
ما يتركِ الدهُر لي من بعد فقدهم قلباً أُجَشِّمه صبراً وسلوانا
فلو رأوني لقالوا مات أسعدُنا وعاش للهمِّ والأحزان أشقانا
هذي قصورهم أمست قبورهم كذاك كانوا بها من قبل سكانا
بنو أبي وبنو عمي دمي دَمهم وإن أَرُوْني مناواة وشنآنا
يُطيِّبُ النفس عنهم أنهم رحلوا وخلفوني على الآثار عجْلانا[1]

ورثى أسامة كذلك ولده عتيق وبكاه في أكثر من قصيدة، وكان حزنه لموته شديداً فمما قال فيه:

غَالَبتْني عليك أيدي المنايا ولها في النفوس أمر مطاع
فتخليت عنك عجزاً ولو أغنى دفاعي لطال عنك الدفاع
وأرادت جميل صبري فرامت مطلباً في الخطوب لا يُستطاع[2]

ونلاحظ في رثاء الشاعر لأهله وولده أنه كان متأثراً إلى حد بعيد بفاجعته فيهما، وكانت قصائده تصور هذا الحزن العميق، والفاجعة الأليمة، وحيث أن رثاءه كان صادقاً ومعبراً عن حقيقة ما يُشعر به تجاه هؤلاء الأقارب، فإن كلمته كانت صادقة ومؤثرة، وبعيدة عن التصنع والتكلف[3].

2 ـ الأسرة الجندلية في بعلبك:

وامتداداً لسياسة تحجيم الأسر الحاكمة المحلية وإضعافها، حتى لا تنافس الدولة النورية في حلب ودمشق، سعت الدولة النورية إلى مواجهة الأسرة الجندلية التي سيطرت على

(1) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (1/ 337، 338).
(2) الديوان، ص: 526.
(3) شعر الجهاد في الحروب الصليبية في بلاد الشام، ص: 301.

بعلبك، وترأسها الضحاك بن جندل البقاعي، ودانت بالمذهب الدرزي، ولا شك أن الأقليات الدينية خاصة الدرزية شعرت بصفة مستمرة برغبة في التكتل من خلال تواجدها وسط محيط سني متحمس للكتاب والسنة والعقيدة الصحيحة، ومناوىء للبدع الشيعية الرافضية الباطنية. وكان الضحاك بن جندل تابعاً لأتابكية دمشق، وأدرك خطورة سيطرة الدولة النورية على دمشق عام (549هـ/ 1154م)، وأعلن عصيانه على نور الدين، وقد خشي الأخير أن يصطدم به حتى لا يطلب عون الصليبيين، خاصة ما عرف عنه من مناورات سياسية، حيث تأرجح بين الولاء للمسلمين السنة تارة، والصليبيين تارة أخرى[1]، ليضمن بقاء كيانه السياسي بمنأى عن الاندحار وسط كيانات أكبر من أن يواجهها منفرداً[2].

ولا مراء في أن الدولة النورية السنية نظرت بارتياب إلى وجود كيان محلي درزي في تلك المنطقة المهمة في سهل البقاع بالقرب من الوجود الصليبي، وعلى الرغم من أن الأسرة الجندلية لم تكن تمثل قوة سياسية كبيرة، فإن نور الدين محمود حاذر من تصعيد الصدام مع الضحاك البقاعي، ولا أدل على ذلك من أنه أخذه بالملاينة لنحو ثلاث سنوات، حتى تمكن من إخضاع بعلبك لسيطرته عام (552هـ/ 1157م)[3]، وكان ذلك بعد المهادنة والاتفاقية بين نور الدين والملك الصليبي، ولم يُظهر الضحاك مقاومة، وأجاب أمر نور الدين، وهكذا شهد عام (552هـ/ 1157م) تأميناً لحلب في شمال الشام بإخضاع شيزر، ثم بتدعيم السيادة النورية في سهل البقاع بانتزاع بعلبك من السيطرة الدرزية، وبالتالي صار الطريق من دمشق إلى بعلبك مهيأ أكثر من ذي قبل لشن هجمات حربية تجاه المناطق الصليبية، ولم يعد سهل البقاع يحوي قوة تمثل موضعاً مضاداً للنفوذ النوري[4].

3 ـ ضم حرّان:

اتجهت السياسة الخارجية النورية إلى ضم حران بعد أن خضعت للأخ الأصغر لنور الدين نصرة الدين أمير ميران[5] ومن المعروف أنه اتخذها مقراً له، وقد اتسمت العلاقات بين الجانبين بالود في بادئ الأمر، حتى أن نور الدين عندما وقع فريسة للمرض عام (552هـ/ 1157م) أوصى أن يكون نصرة الدين خليفته على عرش الدولة النورية، غير أن العلاقات تدهورت بعد أن غدت حران أقل من الطموحات السياسية الجامحة لنصرة الدين الذي تطلع إلى حلب ذات الثراء التجاري العريض، ولذا اغتنم فرصة مرض أخيه ليستولي على السلطة ويبدو أنه تحصَّل على دعم من الشيعة الإسماعيلية وأنهم عاونوه على تحقيق مراميه، وطبيعي

(1) فن الصراع الإسلامي الصليبي، ص: 117.
(2) المصدر نفسه، ص: 117.
(3) ذيل تاريخ دمشق، ص: 331، فن الصراع الإسلامي الصليبي، ص: 118.
(4) فن الصراع الإسلامي الصليبي، ص: 118.
(5) المصدر نفسه، ص: 118.

أن سبب دعمهم لحركته عداء الدولة النورية لهم وحرمانهم من النفوذ السياسي الذي تمتع به السنة، ويبدو أنهم وجدوا فيه ورقة رابحة لضمان نفوذهم في الدولة النورية، وتمكن نصرة الدين من الاستيلاء على المدينة غير أن قلعتها استعصت عليه، ويبدو أن ذلك مَثَّل أهم عوامل فشل المحاولة، على الرغم من وجود تنسيق بين المتآمرين في كل من حلب ودمشق من أجل السيطرة على المركزين الرئيسين للدولة سياسياً واقتصادياً، وضمان إخضاع باقي الأقاليم بلا عناء كبير، ومن الواضح أن شرطة الدولة النورية تمتعت بيقظة كبيرة، إذ المتآمرين سعوا إلى الاتصال وتنظيم المحاولة بالرسائل، غير أنها سقطت في أيدي الشحنكية، وأدى ذلك إلى إلقاء القبض عليهم، وقد مثلوا عناصر فعالة في الجهاز الإداري للدولة[1]، وأمام تلك الأحداث، قرر نور الدين إخضاع حران لسيادته نهائياً وإقصاء أخيه عنها، وحاصرها بالفعل لمدة شهرين وأسقطها عام (554هـ/ 1159م)[2]، ولاذ نصرة الدين بالفرار، ولا نزاع في أن الاستيلاء على حران دعم قبضة الدولة النورية في مناطق الجزيرة، وأفادها داخلياً بتحجيم خطر الشيعة الإسماعيلية بالقضاء على نفوذ نصرة الدين وإيقاف دعمه لهم، ومع ذلك فإن نور الدين أدرك بثاقب بصره إمكانية الإفادة من مهارات أخيه الحربية بالرغم مما حدث، فتحسنت العلاقات بينهم[3]، بعد انقشاع سحب النزاع السابق واشترك معه في بعض المعارك المهمة ضد الصليبيين في حارم عام (559هـ/ 1164م)[4]، وبانياس عام (560هـ/ 1165م)[5].

4 ـ منبج:

حاول الأمير غازي بن حسان المنبجي الاستقلال بمنبج، وهي التي آلت إليه، بعد وفاة والده، وأمام ذلك لم يكن بوسع نور الدين محمود إلا إرجاع الأمور إلى نصابها بالتدخل العسكري، لقمع حركته حتى لا تستشري عدوى الاستقلال لدى الأمراء المقطعين على حدود الدولة النورية، وفي مناطق الحدود والأطراف بين العراق وشمال الشام، وبالفعل أخمد حركته في عام (562هـ/ 1167م)[6]، وأقطع منبج لأخيه قطب الدين ينال بن حسان، وتدل سياسة نور الدين تجاه منبج، ومن قبل حران، على أن الاهتمام بالتوسع والسيطرة لم يكن يقتصر على مناطق وسط الشام وشماله، بل أيضاً الجزيرة الفراتية والمنطقة الواقعة فيما بين العراق وشمال

---

(1) فن الصراع الإسلامي الصليبي، ص: 119.

(2) المصدر نفسه، ص: 119.

(3) زبدة الحلب (2/ 321) فن الصراع الإسلامي، ص: 120.

(4) البستان الجامع للأصفهاني، ص: 145، فن الصراع، ص: 120.

(5) شذرات الذهب، نقلاً عن فن الصراع الإسلامي، ص: 120.

(6) الباهر، ص: 134، 135، فن الصراع الإسلامي، ص: 120.

الشام، وقد دفعه إلى الاهتمام بتلك المناطق بعض الدوافع، فهو بالإضافة إلى رغبته في تجنب امتداد مثل ذلك الصراع إلى عقر داره في داخل بلاد الشام، فإنه أيضاً لم يشأ أن يجعل نفوذاً لبعض القوى السياسية المحلية المسلمة بجوار الخلافة العباسية في العراق، على نحو يثير له المتاعب من جهة، ويضعف من هيبة حكمه لدى بغداد من جهة أخرى، وطبيعي أنه سار وفق خطة قائمة على توحيد المدن الإسلامية، ولم تكن مجهوداته في هذا الصدد بصورة عشوائية[1].

وقال العماد الأصفهاني في فتح منبج عام 563هـ قصيدة جاء فيها:

بشرى الممالكِ فتحُ قلعةِ منبج ... فليُهنِ هذا النصرُ كل متوَّج

أُعطيت هذا الفتحَ مفتاحاً به ... في الملك يفتح كلَّ باب مُرْتجِ

وافى يُبَشِّرُ بالفتوح وراءه ... فانهض إليها بالجيوش وعَرِّجِ

أبشر فبيتُ القدسِ يتلو منبجاً ... ولمنبجٌ لسواه كالأنموذَج

ما أعجزَتْكَ الشُّهبُ في أبراجها ... طلباً فكيف خوارجٌ في أبْرُجِ

ولقدرُ من يعصيك أحقر أن يَرى ... أثر العُبوسِ بوجهكَ المُتَبلِّجِ

لكن تهذُّبُ من عصَاكَ سياسة ... في ضمنها تقويمُ كلَّ مُعَوَّج

فانهد إلى البيت المقدس غازياً ... وعلى طرابُلس ونابُلس عرِّج

قد سِرتَ في الإسلام أحسنَ سيرة ... مأثورة وسلكت أوضح منهج

وجميع ما استقريت من سُننَ الهُدى ... جَدَّدْت منه كلَّ رسم منهَجِ[2]

5 ـ فتح قلعة جعبر:

وأما سياسة الدولة تجاه قلعة جعبر، فإنها لم تشأ أن تجعل من مناطق الحدود بين العراق والشام مراكز قوية قد تعاديه يوماً، فقد كانت قلعة جعبر تقع على نهر الفرات وامتازت بحصانتها المنيعة، وقد اهتم عماد الدين زنكي بفتحها، وقد قتل وهو يحاصرها عام (541هـ/1146م) وقد استخدم نور الدين محمود الطرق السلمية مع شهاب الدين العقيلي، فبعد أن أسره على أيدي أعراب بني كلاب، عمل على إكرامه في أسره وملاينته

(1) فن الصراع الإسلامي الصليبي، ص: 121. (2) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (2/ 33).

لتسليم القلعة غير أنه رفض[1]، وعندما أدرك عدم جدوى الملاينة سعى إلى حصارها، بَيْد أنه عجز عن ذلك، فعاد مرة أخرى لملاطفته وعوضه عنها بمناطق سروج وأعمالها ومنطقة الملاحة من أعمال حلب وباب بزاغة[2]، وهي مناطق ثرية بمواردها الزراعية، كذلك أسال لعابه عندما وهبه عشرين ألف دينار، وهكذا تمكّن من الاستيلاء عليها (عام 564هـ/ 1168م)[3].

وهكذا فإن لكل ولاية نهاية، يؤتي الله الملك من يشاء وينزعه ممن يشاء، وكان آخر أمر بني مالك حكام قلعة جعبر، وكان آخر أمرائهم شهاب الدين مالك بن علي بن مالك العُقيلي من آل عقيل من بني المسيِّب، وكانت بيده ويد آبائه من قبل من أيام السلطان ملكشاه[4]. وقيل لشهاب الدين: أيما أحب إليك وأحسن مقاماً، أسروج والشَّام أم القلعة؟ فقال: هذا أكثر مالاً، والعِزُّ بالقلعة فارقناه[5] وقال العماد الأصفهاني قصيدة أنشدها لنور الدين لقلعة جعبر جاء فيها:

أسلم لبكر الفتُوح مُفتَرِعا ... وَدُمْ لمُلك البلاد منتزِعا

فإنَّ أولى الورى بها مَلِكٌ ... غدا بعبء الخُطُوب مضطلِعا

إن ضاق أمر فغير همته ... لكشفِ ضيقِ الأمور لن يَسَعا

يا محيي العدل بعد مِيْتتِه ... ورافع الحقِّ بعدما القَنَعا

ونور دين الهدى الذي قمع ... الشرك وعفَّى الضَّلال والبِدَعا

أنت سليمان في العفاف وفي ... الملكِ وتحكي بزهدك اليَسَعا

وحُزت التُّقى والحياء والكرم ... المحضَ وحُسنَ اليقينِ والوَرَعا

أسقطت أقساط ما وجدت ... من المَكْسِ بعدلٍ والقاسطُ ارتدعا

إلى أن قال:

ومالك حين رُمت قَلْعَتَهُ ... غدا مطيعاً للأمر مُتَّبِعا

عنا خشوعاً لربِّ مملكةٍ ... لغير ربِّ السماء ما خشعا[6]

وفي سابع عشر صفر من سنة 564هـ توفي بها عمر أخو مجد الدين ابن الدّاية، وفيه وفي إخوته يقول العماد الكاتب من قصيدة:

---

(1) نهاية الأرب، نقلاً عن فن الصراع، ص: 122.
(2) البستان الجامع، نقلاً عن فن الصراع، ص: 122.
(3) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (2/ 42).
(4) المصدر نفسه (1/ 41، 42، 43).
(5) المصدر نفسه (1/ 43).
(6) المصدر نفسه (1/ 44).

أنتم لمحمودٍ كآلِ محمدٍ ... متصادفي الأفعال والأسماء
يتلو أبا بكر على حسناته ... عُمر الممدَّحُ في سناً وسناء
ويليه عثمانُ المرجَّى للعُلا ... وعليٌّ المأمولُ في اللأواء
ويقبِّلُ الحسنَ الممجَّدَ مجدهم ... فهمُ ذوو الإحسان والنُّعماء
فرعت بمجد الدين إخوته الذُّرى ... دون الورى في المجد والعلياء
من سابق كرماً وشمس سيادةٍ ... شرفاً وبدر دُجُنَّةٍ وبهاء
سُرُجُ الهدى سُحُبُ النَّدى شُهُب النُّهى ... أسدُ الحروب ضراغمُ الهيجاء

يريد سابق الدين عثمان، وشمس الدين علياً، وبدر الدين حسناً، وبهاء الدين عمر، ومجد الدين الأكبر، فهم خمسة رحمهم الله تعالى[1].

ثانياً: ضم الموصل:

انتهت بوفاة قطب الدين مودود في شهر ذي الحجة عام (565هـ/ شهر آب عام 1170م) مرحلة مهمة من مراحل التعاون بين إمارتي الموصل وحلب. فقد كان قطب الدين مودود حسن الاتفاق مع أخيه، وعلى تفاهم معه، كثير المساعدة له، والإنجاد بنفسه وعسكره وأمواله، حضر معه المصاف بحارم وفتحها، وفتح بانياس، وكان يخطب له في بلاده باختياره من غير خوف[2]، وأوصى قطب الدين مودود بالملك من بعده لابنه الأكبر عماد الدين زنكي، إلا أن نائبه فخر الدين عبد المسيح استطاع بالاتفاق مع زوجته الخاتون أن يحول دون توليته، وأخذ العهد لولدها سيف الدين غازي الثاني[3]، ويبدو أن النائب خشي من تأثير نور الدين محمود على ابن أخيه عماد الدين زنكي نظراً لطول إقامته عنده وزواجه من ابنته. وكان نور الدين محمود يكرهه: لظلم كان فيه، ويلوم أخاه قطب الدين مودوداً على توليته الأمور[4]. وفعلاً استقر الأمر لسيف الدين غازي الثاني، وأضحى فخر الدين عبد المسيح المتصرف في أمور البلاد، وليس للأتابك من الأمر إلا الاسم[5]. أدَّت التغييرات التي شهدتها دولة الموصل، بعد وفاة قطب الدين مودود، وردة الفعل المناهضة لها من قبل نور الدين محمود إلى ما يلي:

---

(1) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين 02/ 45).
(2) الباهر، ص: 149، تاريخ الزنكيين في الموصل، ص: 183.
(3) المصدر نفسه، ص: 146، تاريخ الزنكيين، ص: 183.
(4) الباهر، نقلاً عن تاريخ الزنكيين، ص: 183.
(5) تاريخ الزنكيين في الموصل، ص: 183.

ـ خضوعها لنفوذ نور الدين محمود المباشر.

ـ تقلص رقعتها بسبب اقتطاع بعض أجزائها.

والواقع أن نور الدين محمود أَنِف من ازدياد نفوذ عبد المسيح وتحكُّمه بأمور الموصل على حساب ابن أخيه سيف الدين غازي الثاني الذي نازع أخاه الأكبر على الحكم، وشقَّ عليه إبعاد عماد الدين زنكي عن خلافة والده، وقال: أنا أولى بتدبير بني أخي وملكهم[1]. لذلك قرَّر التوجه إلى الموصل لتسوية المشكلة وفقاً لمصلحته، وأرسل إلى الخليفة العباسي الحسن أبي محمد المستضيء بأمر الله سنة (566هـ ـ 575هـ/ 1170 ـ 1180م) يشرح له الهدف من هذا التوجه مؤكداً شرعيته، وقال: «إني قصدت بيتي وبيت والدي، فأنا كبيره ووارثه» وأوصى رسوله إليه بأن يأخذ له إذناً في ذلك، وأنه ممتثل لما يرد عليه منه[2].

وعبر نور الدين محمود الفرات عند قلعة جَعْبَر في شهر محرم عام (566هـ/ شهر أيلول عام 1170م) قاصداً الرقة، وكانت من أملاك أخيه سيف الدين غازي الأول، فأذعن نائبها له، وسلمه إياها[3]. ثم تابع زحفه نحو الموصل، فانتزع الخابور كله، وأخذ نصيبين، فأقام بها يحشد العساكر من الأطراف، وانضمَّ إليه نور الدين محمد بن قرا أرسلان الأرتقي صاحب حصن كيفا، ثم توجه إلى سنجار، وبها حامية من الموصل، فحاصرها، وأقام المجانيق عليها. ووفد عليه أثناء الحصار عدد من أمراء الموصل يستحثونه على القدوم عليه حتى سقطت في يده، فأعطاها إلى ابن أخيه عماد الدين زنكي الذي كان يرافقه في هذه الحملة، ووصلت إليه أثناء الحصار خلعة الخليفة والإذن له بدخول الموصل والجزيرة، وتابع نور الدين محمود زحفه باتجاه الموصل، فوصل إلى بلده وعبر دجلة إلى الجانب الشرقي، ألقى نفسه عند حصن نينوى شرقي الموصل بحيث أضحى لا يفصله عنها سوى النهر. وحتى يبرِّر تقدمه، أرسل إلى ابن أخيه سيف الدين غازي الثاني يوضِّح له أن الهدف من حملته حفظ المدينة، وإبعاد فخر الدين عبد المسيح عن ولاية المسلمين بوصفه نصرانياً، بالإضافة إلى أن تصرفاته الخشنة نفَّرت منه الأمراء[4].

والواقع أن عبد المسيح كان عاجزاً عن الوقوف في وجه نور الدين محمود، كما أنه وقف على مؤامرة دبَّرها أمراء الموصل ضده لإبعاده عن الحكم، وتسليمه الموصل، فأراد

(1) الباهر، ص: 152، تاريخ الزنكيين، ص: 183.
(2) البرق الشامي، ص: 94.
(3) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام، ص: 184.
(4) المصدر نفسه، ص: 184.

تقوية موقفه، فاستنجد بالأتابك شمس الدين إيلدكز، صاحب بلاد الجبل، وأذربيجان، الذي أرسل بدوره رسولاً إلى نور الدين محمود، وكان حينئذ بسنجار، ينهاه عن التعرض للموصل، لكن نور الدين محمود أهمل الرسالة، وقال للرسول: قل لصاحبك، أنا أرفق ببني أخي منك، فلِمَ تُدخل نفسك بيننا؟ ثم هدّده بالزحف على بلاده وانتزاعها منه؛ لأنه أهمل حفظ البلد من تعديات الكرج[1]، واضطر عبد المسيح أخيراً للجنوح إلى السلم، واشترط على نور الدين محمود أن:

- تبقى الموصل بيد سيف الدين غازي الثاني.
- يعطيه لنفسه وأهله.
- يمنحه إقطاعاً.

وقد استجاب نور الدين محمود لطلب الصلح، إلا أنه أصرّ على خروج عبد المسيح من الموصل، ومرافقته إلى البلاد الشام[2]، ودخل صاحب حلب الموصل في شهر جمادى الأولى (عام 566هـ شهر كانون الثاني عام 1171م) من باب السر[3]، واتخذ عدة إجراءات تنفيذية لترتيب أوضاعها منها:

- أقرّ سيف الدين غازي الثاني على الموصل وجزيرة ابن عمر.
- ولّى مملوكه سعد الدين كمشتكين نائباً عنه في القلعة.
- أمر سيف الدين غازي الثاني بالعودة إليه في تدبير الأمور.
- أهدى ابن أخيه خلعة الخليفة المستضيء وألبسه إياها وزوّجه ابنته.
- أبطل المكوس من البلاد.
- أمر ببناء الجامع النوري.
- انتزع حرّان ونصيبين والخابور والمجدل، من إمارة الموصل، وأقطعها لأمراء

(1) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام، ص: 185.
(2) المصدر نفسه، ص: 185.
(3) المصدر نفسه، ص: 185.

عسكره، ثم عاد إلى بلاد الشام مصطحباً معه فخر الدين عبد المسيح وغيَّر له اسمه، وسمّاه: عبد الله، وأقطعه إقطاعاً كبيراً[1].

غيَّرت هذه الترتيبات الإدارية التي نفّذها نور الدين محمود، في الوضع الجغرافي لدولة الموصل كما تراجع نفوذها القيادي بعد أن خسرت سنجار لصالح عماد الدين زنكي، ونصيبين والخابور اللذين تولاهما نور الدين محمد بن قرا أرسلان الأرتقي، فخضعت خضوعاً تاماً لنور الدين محمود، وأضحى سيف الدين غازي الثاني مجرد حاكم تابع له، يعمل تحت إشراف نائبه كمشتكين صاحب السلطة الفعلية. وتدليلاً على هيمنته على الإمارة فقد أُعلِنت الخطبة في جميع مساجد الموصل وأعمالها لنور الدين محمود وضربت السكة باسمه[2]، وأرسل نور الدين القاضي كمال الدين الشهرزوري إلى الخليفة المستضيء بأمر الله يطلب تقليده ما بيده من بلاد مصر والشام والجزيرة والموصل، والبلاد التي دخلت في طاعته في ديار بكر وخلاط وبلاد قلج أرسلان سلطان سلاجقة الروم، فوافق الخليفة على ذلك وأرسل له التقليد بحكم هذه البلاد جميعها[3]، وحرص نور الدين محمود على أن تسود العلاقات الطيبة بينه وبين ابن أخيه في الموصل. ففي عام (569هـ/ 1173م) أرسل إليه هدية نفيسة هي عبارة عن تحف نادرة كان صلاح الدين الأيوبي قد انتخبها من خزائن القصر الفاطمي، بالإضافة إلى هدايا أخرى تشتمل على منسوجات وعود وعنبر[4].

حين دخل نور الدين الموصل خرج إليه ابن أخيه، فوقف بين يديه، فأكرمه وأحسن إليه، وألبسَه خِلعة جاءته من الخليفة، فدخل بها إلى البلد في أبهة عظيمة، ولم يدخل نور الدين الموصل حتى قوِي الشتاء، فأقام بها أربعة وعشرين يوماً، فلما كانت آخرُ ليلة أقام بها رأى رسول الله ﷺ في المنام يقول له: «طابت لك بلدُكَ وتركت الجهاد وقتال أعداء الله». فنهض من فوره إلى السَّفر، وما أصبح إلّا وهو سائر إلى الشام واستقضى الشيخ شرف الدين ابن أبي عصرون، وكان معه على سنجار ونصيبين والخابور، فاستناب بها ابنُ أبي عصرون نوّاباً وأصحاباً[5].

2 ـ بشرى لنور الدين من رسول الله ﷺ:

قال أبو شامة: وبلغني من شدة اهتمام نور الدين رحمه الله بأمر المسلمين حين نزل الفرنج على دمياط أنه قرئ عليه جُزء من حديث كان له به رواية، فجاء في جملة تلك الأحاديث حديث مسلسل بالتبسم، فطلب منه بعض طلبة الحديث أن يَتبسَّم لتتم السلسلة

(1) تاريخ الزنكيين في الموصل، ص: 185.
(2) المصدر نفسه، ص: 186.
(3) المصدر نفسه، ص: 186.
(4) المصدر نفسه، ص: 186.
(5) البداية والنهاية (16/ 447).

على ما عُرف من عادة أهل الحديث، فغضب من ذلك وقال: إني لأستحي من الله تعالى أن يراني متبسماً والمسلمون محاصرون بالفرنج[1]. وبلغني أن إماماً لنور الدين رأى ليلة رحيل الفرنج عن دمياط في منامه النبي ﷺ وقال له: **«أعْلِمْ نور الدين أن الفرنج رحلوا عن دمياط في هذه الليلة»**، فقال: يا رسول الله، ربما لا يصدِّقني، فاذكر لي علامة يعرفها فقال: **«قل له بعلامة ما سجدت على تل حارِم، وقلت: يا رب انصر دينك ولا تنصر محموداً، من هو محمود الكلب حتى ينصر»**. قال: فانتبهت ونزلت إلى المسجد، وكان من عادة نور الدين أنه ينزل إليه بغلس، ولا يزل يتركّع فيه، حتى يصلّي الصبح، قال: فتعرَّضتُ له، فسألني عن أمري، فأخبرته بالمنام وذكرت له العلامة، إلا أنني لم أذكر لفظة الكلب، فقال نور الدين رحمه الله تعالى: اذكر العلامة كلَّها. وألحَّ علي في ذلك، فقلتها فبكى رحمه الله وصدَّق الرؤيا، وأُرّخت تلك الليلة، فجاء الخبر برحيل الفرنج بعد ذلك في تلك[2] الليلة.

وجاء في رواية سبط ابن الجوزي: حكى لي نجم الدين بن سلام عن والده أن الفرنج لما نزلت على دمياط، ما زال نور الدين عشرين يوماً يصوم ولا يفطر إلا الماء، فضعف وكاد يتلف، وكان مهيباً، ما يجسر أحد يخاطبه في ذلك، فقال إمامه يحيى: إنه رأى النبي ﷺ في النوم يقول: **«يا يحيى بشّر نور الدين برحيل الفرنج عن دمياط»**. فقلت: يا رسول الله، ربمّا لا يصدّقني فقال: قل له: **«بعلامة يوم حارم»**. وانتبه يحيى، فلما صلى نور الدين الصبح، وشرع يدعو، هابه يحيى، فقال له: يا يحيى أنا أُحدّثُك، رأيتَ النبي ﷺ هذه الليلة، وقال لك كذا وكذا. قال: نعم فبالله يا مولانا، ما معنى قوله: بعلامة يوم حارم؟ فقال: لمّا التقينا العدو، خفت على الإسلام، فانفردت، ونزلت، ومرّغت وجهي على التراب، وقلت: يا سيدي: اللهم انصر دينك، ولا تنصر محموداً «يعني نفسه» ومن هو محمود الكلب حتى ينصر؟ الدين دينُك، والجند جندُك، وهذا اليوم افْعَلْ ما يليق بكرمك، قال: فنصرنا الله عليهم[3].

3 ـ رؤية نور الدين المتعلقة بالقبر الشريف:

هناك قصة شائعة على ألسنة الناس، وهي أن نور الدين رأى فيما يرى النائم النبي ﷺ يطلب منه أن ينقذه من رجلين أشقرين ـ وأشار إلى شخصين تجاهه ـ فاستدعى نور الدين وزيره فعبَّره له بأن في المدينة المنورة حدثاً، فخرج نور الدين إلى المدينة واستعرض سكانها للصدقة، فأتى كلهم إلا رجلين مجاورين من أهل الأندلس، فأمر بإحضارهما، فإذا هما

(1) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (2/ 143).
(2) المصدر نفسه (2/ 143، 144).
(3) مرآة الزمان (8/ 199/ 200)، من أجل فلسطين مواقف عبر التاريخ الإسلامي، حسني أدهم جرار، ص: 39.

اللذان رآهما في منامه، فسألهما عن حالهما وما جاء بهما، فأقرّا بأنهما من الفرنجة، وصلا لكي ينقلا النبي ﷺ من الحجرة الشريفة، ووجدهما قد حفرا نقباً تحت الأرض من تحت حائط المسجد، فضرب أعناقهما، ثم أحرقهما بالنار، وركب عائداً إلى الشام، فاستغاث به أهل المدينة أن يبني لهم سوراً حولها، فأمر ببنائه، فبني سنة (558هـ)، وكتب اسم نور الدين على باب البقيع[1].

وقد علق الأستاذ إبراهيم الزيبق على هذه القصة في تحقيقه لكتاب «الروضتين في أخبار الدولتين النورية ـ والصلاحية» فقال: وهذه القصة لا تثبت لدى المنهج العلمي، إذ إن أول من رواها هو محمد بن أحمد المطري، مؤذن الحرم النبوي، المتوفى سنة (741هـ) في كتابه «التعريف بما أنستِ الهجرة من معالم دار الهجرة»، وبينه وبين نور الدين مئة واثنتان وسبعون سنة، ثم إن إسناد هذه القصة مسلسل بالمجاهيل، فقد سمعها المطري من طالب علم من المجاورين، وهو يعقوب بن أبي بكر ـ وكان أبوه فراشاً من قوام المسجد الشريف ـ وقد سمعها يعقوب ممن حدَّثه من أكابر مَن أدرك، ولم يجزم المطري بصحتها، فقال: هكذا حدَّثني عمن حدثه، وروى نحوها جمال الدين الأسنوي المتوفى سنة (772هـ) في رسالة له دون إسناد نقلها عنه السمهودي في «وفاء الوفاء»[2]، وهذا يعني أن القصة قد ذاعت بعد وفاة نور الدين، إذ لم يذكرها أحد ممن عاصر نور الدين من المؤرخين الملازمين له، كابن عساكر وابن منقذ، والعماد الأصفهاني الكاتب، ولا من المتتبعين لسيرته كابن الأثير وأبي شامة مع شدة حرصهم على استقصاء أخباره وتحليتها بكل جميل، بل إنه لم يذكرها من أرخ للمدينة المنورة ممن عاصر تلك الفترة كابن النجار في «الدرة الثمينة»، وقد نقلها عن المطري من جاء بعده من المؤرخين كالمراغي في «تحقيق النصرة»، وابن قاضي شهبة في «الكواكب الدرية»، والسمهودي في «وفاء الوفاء»، وابن العماد في «شذرات الذهب»، والبرزنجي في «نزهة الناظرين»[3]. ثم إن المطريَّ ذكر أن القصة وقعت سنة (557هـ) ولم يذكر أحد من المؤرخين أن نور الدين زار المدينة في تلك السنة، بل لم يذكروا أنه زارها في أي من سني حكمه، بل إنهم لم يذكروا أنه حج أبداً، فقد شغله جهاد الفرنج عن الحج، كما شغل صلاح الدين بعده، ولا عبرة بما ذكره الفاسي في شفاء الغرام[4] من أن نور الدين حجَّ سنة (556هـ) فقد وهم في ذلك، إذ أن الذي حج هو أسد الدين شيركوه، وقد خرج نور الدين إلى لقائه يوم رجوعه[5].

وقد يتساءل المرء: ما الباعث لهذه القصة؟ فأقول: ربما أثارت تكملة نور الدين لسور المدينة وكتابة اسمه عليه فكرة قدومه للمدينة، ثم اختلط هذا مع ما سيأتي ـ بإذن الله ـ من

(1) شذرات الذهب (6/ 380) الوجيز في الشام، ص: 52.
(2) وفاء الوفاء (2/ 648، 650).
(3) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (2/ 317).
(4) المصدر نفسه (2/ 317).
(5) كتاب الروضتين أخبار الدولتين (2/ 317).

محاولة الصليبيين الاستيلاء على المدينة وذلك سنة (578هـ) فقد أشيع وقتها أنهم كانوا يريدون نقل الجسد الشريف إلى فلسطين فيما ذكر ابن جبير في رحلته والمقريزي في خططه، فدمج الخيال بين الحدثين في حدث واحد؛ ليكشف عن هاجس أقلق بال المسلمين وقتئذ وهو أن ما فشل الصليبيون في تحقيقه في العلن سيحاولونه في الخفاء، فكانت هذه القصة والله أعلم[1].

ثالثاً: سياسة نور الدين مع سلاجقة الروم:

كان نور الدين محمود يتابع الأحداث الجارية في المنطقة ويستغل الفرصة المتاحة لتحقيق أهدافه، من ذلك ما حدث عام (568هـ/ 1173م) عندما هاجم قلج أرسلان سلطان السلاجقة في آسيا الصغرى إمارة ذي النون بن دانشمند التي تتألف من ملطية وسيواس جنوب شرق الأناضول واحتلها، فلجأ ذو النون إلى نور الدين مستنجداً، فأرسل نور الدين إلى قلج أرسلان يطلب منه رد بلاد ذي النون عليه فرفض، فسار بجيشه إلى المنطقة واحتل مدنها مما أجبر قلج أرسلان لطلب الصلح بالشروط التي يفرضها نور الدين، فأرسل إليه نور الدين رسالة منها: إنني أريد منك أموراً وقواعد، ومهما تركت منها فلا أترك ثلاثة أشياء: **أحدها**: أنك تجدّد إسلامك على يد رسولي حتى يحل لي إقرارك على بلاد الإسلام، فإنني لا أعتقدك مؤمناً، **والثاني**: إذا طلبت عسكرك إلى الغزاة تُسيّره، فإنك قد ملكت طرفاً كبيراً من بلاد الإسلام، وتركت الروم وجهادهم وهادنتهم، فإمّا أن تنجدني بعسكرك لأقاتل بهم الإفرنج، وإما أن تجاهد مَن يجاورك من الروم وتبذل الوسع في جهادهم، **والثالث**: أن تزوج ابنتك بسيف الدين غازي ولد أخي، فلما سمع قلج أرسلان الرسالة، قال: ما قصد نور الدين إلا الشناعة عليَّ بالزندقة، وقد أجبته إلى ما طلب، أنا أجدد إسلامي على يد رسوله[2].

واستقر الصلح بعد أن عادت بلاد ذي النون إليه مع بقائها تحت حماية نور الدين، وما يهمنا من هذه الحادثة هو ما يظهر في ثناياها من سعي نور الدين لتحقيق هدفه الإستراتيجي الأكبر الذي سبق وذكرناه، وهو إقامة الدولة الإسلامية الكبرى التي تعيد للإسلام دوره في تحقيق الهداية والعدالة والحياة الكريمة لجميع الناس[3]، ومع أنه لم يكمل بعد تحقيق هدفه الإستراتيجي الثاني المتمثل بالقضاء على الفرنج، وتحرير سواحل بلاد الشام من احتلالهم إلا أنه حقق هدفه الإستراتيجي الأول، وهو وحدة الدول والإمارات الإسلامية

---

(1) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (2/ 317).

(2) الباهر، ص: 160، 160، دور نور الدين في نهضة الأمة، ص: 153.

(3) دور نور الدين في نهضة الأمة، ص: 153.

المواجهة للفرنجة، وأصبح القضاء على الفرنجة مسألة وقت فقط، فلا بأس إذن من استغلال فرصة سانحة للسير، ولو بضع خطوات باتجاه الهدف الإستراتيجي الأكبر المذكور أعلاه، وما يدلنا على قصد نور الدين في هذا المعنى طلبه من قلج أرسلان في رسالته إليه تجديد إسلامه على يد رسول نور الدين ليحلّ لنور الدين إقراره على بلاد الإسلام، ويفرض عليه إما مجاهدة الروم المجاورين له، أو إرسال جنده إليه ليجاهد بهم الإفرنج، في هذا الموقف يجعل نور الدين من نفسه مسؤولاً عن جميع المسلمين وعن بلادهم، ويتوجب عليه بناءً على هذه المسؤولية ألا يسمح بتولي حاكم غير مؤمن على بلاد المسلمين، ويجدر بنا أن نوضح هنا أن نور الدين كان يصدر في هذا الإحساس بالمسؤولية عن فهمه الصحيح للشريعة الإسلامية، فهو يعتبر نفسه جندياً في خدمة الدين، وروي عنه قوله: نحن شحنٌ لها «للشريعة» نُمضي أوامرها[1]. وهذا القول ينطبق مع تفسير الإمام أبي حامد الغزالي للعلاقة بين الملك والدين حيث يقول: «الملك والدين توأمان، فالدين أصل والسلطان حارس، وما لا أصل له فمهدوم، وما لا حارس له فضائع»[2].

وقد تقدم أن نور الدين كان عارفاً بالفقه على مذهب أبي حنيفة رَحِمَهُ اللَّهُ، ولكن الأمر لا يقتصر على إحساس نور الدين بالمسؤولية، وقد عبّر عن ذلك في رسالته لمجير الدين آبق حاكم دمشق بقوله: «.. ولا يسعني مع ما أعطاني الله وله الحمد من الاقتدار على نصرة المسلمين وجهاد المشركين وكثرة المال والرجال أن أقعد عنهم ولا أنتصر لهم مع معرفتي بعجزكم عن حفظ أعمالكم والذّبّ عنها»[3]. فهو يعتبر أن توافر القدرة والإمكانية لديه يفرض عليه نصرة المسلمين والدفاع عنهم أينما كانوا، ويتكرر مثل هذا الموقف عام (566هـ/ 1171م) في رسالته لشمس الدين إيلدكز صاحب بلاد الجبل وأذربيجان[4].

يتبين من هذه المواقف الثلاثة التي وقعت في تواريخ مختلفة ومتباعدة خلال فترة حكم نور الدين، الحادث **الأول**: مع حاكم دمشق عام (544هـ/ 1149م)، **والثاني**: مع حاكم أذربيجان وأصفهان عام (566هـ/ 1171م)، **والثالث**: مع سلطان سلاجقة الروم آسيا الصغرى عام (568هـ/ 1173م)، أنه وضع أهدافه وقرر سياسته مُنذ بداية حكمه، ولم يغيّرها حتى نهاية حكمه، وأنه كان يسير حسب خطة محكمة تتألف من مراحل منسّقة، لكل مرحلة هدفها، وأنه كان يتابع الأحداث الجارية، ويقتنص الفرصة المتاحة دون أن يؤثر ذلك على خطته الرئيسية وأهدافه الإستراتيجية[5].

---

(1) عيون الروضتين، نقلاً عن دور نور الدين في نهضة الأمة، ص: 154.

(2) إحياء علوم الدين (1/ 17).

(3) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة، ص: 154.

(4) المصدر نفسه، ص: 154.

(5) المصدر نفسه، ص: 155.

المبحث الرابع
سياسة الدولة النورية تجاه القوى المسيحية

أولاً: العلاقات مع مملكة بيت المقدس:

عاصر عهد الدولة النورية اثنان من أقوى ملوك بيت المقدس، بلدوين الثالث سنة (539هـ ـ 557هـ / 1144م ـ 1162م)، وعموري الأول سنة (568هـ/ 1162/ 1174م) ويعد بلدوين الثالث أول الملوك الصليبيين الذين ولدوا على أرض المملكة، وقد سيطرت عليه والدته ميلزندا، وتمكن من توسيع حدود المملكة وأمكنه الاستيلاء على عسقلان عام (548هـ/ 1153م) وَأَمَّن بالتالي حدوده الجنوبية، كذلك عمل على تشييد عدة قلاع وحصون من أجل تدعيم مناطق سيادته في مواجهة أعدائه المسلمين، وأيضاً سعى إلى حماية إمارتي طرابلس وأنطاكية من خطر الفوضى الداخلية[1] والأخطار الخارجية، وهدف إلى كسب عون الإمبراطورية البيزنطية لتساعده في مواجهة الأحداث في شمال الشام.

أما الملك عموري الأول، فإنه أراد توسيع حدود المملكة هو الآخر وعمل على غزو مصر وإخضاعها لسيطرته دون جدوى، وسعى إلى طلب العون البيزنطي في مشاريعه التوسعية خاصة ضد مصر[2]، وقد عمل نور الدين محمود للتصدي لمشاريع مملكة بيت المقدس التوسعية، وكان دافعه المحرك في ذلك هو عقيدة الجهاد في سبيل الله لا كما يزعم بعض الباحثين، لاسيما من الغربيين الذين أنكروا ذلك الاتجاه لأسباب استشراقية تعصبية لا تخفى على أحد، وفي مقدمتهم المؤرخ الأمريكي جون لامونت الذي أنكر الطابع الديني لحروب نور الدين محمود، وفضل الأخذ بالدوافع السياسية، ورأى أنه لم يكن مهتماً بالحروب الدينية اهتماماً خاصاً، وأنه حارب الصليبيين على أساس أنهم وجدوا في مجال توسعه الطبيعي[3]، وأن رغبته في توسيع رقعة مملكته في الاتجاه الوحيد الممكن هي التي أملت عليه السياسة التي اتبعها في علاقاته مع جيرانه اللاتين، ويذكر أنه لم يكن للدين دخل في ذلك، وأن مراجعة أعماله الحربية توضح أن دافعه الرئيسي كان سياسياً[4].

والواقع أن الرغبة في القضاء على عقيدة الجهاد الإسلامي التي ازدهرت في مرحلة الحروب الصليبية كان أحد الأهداف الأساسية للمستشرقين الذين تناولوا بالدراسة تلك المرحلة، وذلك من أجل القضاء على النماذج التاريخية لفكرة الجهاد الإسلامي، واقتلاعها

---

(1) فن الصراع الإسلامي الصليبي، ص: 137.
(2) المصدر نفسه، ص: 138.
(3) الحروب الصليبية والجهاد، لامونت، نقلاً عن فن الصراع، ص: 139.
(4) فن الصراع الإسلامي الصليبي، ص: 139.

من أساسها، خاصة أنها فكرة محورية في الإسلام[1]. ولا شك أن عقيدة الجهاد وتحرير المقدسات من الاحتلال الصليبي كان المحرك لحركة المقاومة للمسلمين في عهد الزنكيين والأيوبيين والمماليك، وما يجري اليوم في أفغانستان والعراق وفلسطين.

وقد كان تحرك نور الدين محمود ضد مملكة بيت المقدس يستهدف تحقيق انتصارات في المجال الاقتصادي والسياسي والعسكري، بالقتال أحياناً وبالمفاوضات أحياناً أخرى.

ـ **المجال الاقتصادي**: فقد وصفت الدولة النورية بأنها دولة داخلية حبيسة دون نطاق ساحلي، والمنافذ البحرية على امتداد الساحل الشامي، تمّ إخضاعها للسيادة الصليبية حيث أدرك الصليبيون أهميتها الكبيرة لاستمرار اتصالهم بأوروبا وحصولهم على الدعم البشري والمالي والمعنوي، وكان تصريف قسم مهم من تجارة الدولة النورية يتم من خلال موانئ شرق البحر المتوسط الصليبية، كذلك أرادت تلك الدولة الحفاظ على سلامة الطرق التجارية بين دمشق ذات الأهمية التجارية ومنطقة الجبل الأعلى في شمال فلسطين بوصفها حلقة وصول إلى الساحل الشامي البالغ الحيوية[2].

ـ **المجال السياسي**: مثّل الصراع مع تلك المملكة أهمية خاصة للدولة النورية، ولا نزاع في أن مواصلة الصراع الحربي معها كان ضرورياً، من أجل أن يقوم نور الدين محمود بدوره في مجاهدة الكفار، ومثل هذا واجباً شرعياً ضرورياً لدعم حكمه وتوفير الاستقرار السياسي له وعدم قدرة المعارضة على كسب أعوان لها طالما أنه يقوم بتأكيد هذا الدور الشرعي الحيوي، أضف إلى ذلك؛ أن الدولة النورية بعد نجاحها في توحيد بلاد الشام والجزيرة بقبضة واحدة مثلت مملكة بيت المقدس منافساً سياسياً خطيراً لها، فإذا أضفنا إلى ذلك أن ذلك المنافس كان كياناً دخيلاً وافداً على المنطقة ـ ولا يملك وجوده أصلاً ـ أدركنا حتمية الصراع بين الطرفين لكافة الدوافع السابقة سواء الدينية أو السياسية أو الاقتصادية[3].

ـ **المجال العسكري**: فقد أدركت الدولة النورية أن تجييش الجيوش ضد مملكة بيت المقدس الصليبية خير وسيلة من أجل تحقيق باقي الدوافع السابقة، وكانت هناك صلة وثيقة بين آلة الحرب للدولة النورية وتحركاتها السياسية، وقد حرصت الدولة النورية على الاستيلاء على عدد من القلاع والحصون الاستراتيجية من أجل إضعاف فعاليات المملكة الصليبية عسكرياً، ولتأمين حدود الدولة النورية، ولإيجاد توازن عسكري مع المملكة الصليبية يتطور

---

(1) فن الصراع الإسلامي الصليبي، ص: 139.
(2) الرحلة، لابن جبير، ص: 253.
(3) فن الصراع الإسلامي الصليبي، ص: 140.

مستقبلاً إلى ما هو أبعد من هذا في سبيل تحقيق التفوق العسكري على الوجود الصليبي وهو ما تحقق في عهد السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي[1].

1 ـ المشكلة الحورانية:

تعد المشكلة الحورانية من أهم الأحداث السياسية التي جعلت نور الدين محمود يواجه بدعمه العسكري مملكة بيت المقدس ومطامعها في دمشق؛ إذ تمرد الأمير الأرمني الأصل التونتاش[2]، وهو غلام أمين الدولة كمشتكين التركي، والذي تولى حكم بصرى وصرخد[3]، تمرد على سيده معين الدين أنر أتابك دمشق[4]، وقد تحدثت عن جهود نور الدين في دعم حاكم دمشق ضد هذا المتمرد الذي استعان بالصليبيين في بيت المقدس، وطلب منهم العون الحربي، وأن يستولوا على بصرى وصرخد في حالة تدخلهم العسكري في مقابل أن يكون سيداً على إقليم حوران[5]، فقد تصاهر نور الدين محمود من ابنة معين الدين أنر أتابك دمشق، وجعلت منه هذه الزيجة بمثابة عون سياسي وعسكري لدمشق، وفي نفس الحين حرصت أتابكية دمشق على التحالف مع الصليبيين لخوفها من طموحاته الكبيرة، ورغبته في ضمها إلى أملاكه في شمال الشام، بل إن دمشق عقدت هدنة مع المملكة الصليبية وأمام دعم الصليبيين للتونتاش أرسل معين الدين أنر يطلب مساعدة صهره ضدهم، وقد تقدم نور الدين وما معه من قوات حتى بلغ دمشق[6]، وتوجه إلى صرخد، ولم يشاهد أحسن من عسكره وهيئته وعُدّته ووفور عِدَّته، واجتمع العسكران، وأرسل مَن بصرخد إليهما يلتمسون الأمان والمهلة أياماً وتسلمُ المكان، وكان ذلك منهم على سبيل المغالطة والمخاتلة إلى أن يصل عسكر الإفرنج لترحيلهم. وقضى الله تعالى بوصول من أخبر لتجمع الفرنج واحتشادهم، ونهوضهم في فارسهم وراجلهم مجدِّين السير إلى ناحية بصرى، وعليها فرقة وافرة من العسكر محاصرة لها، فنهض العسكر في الحال إلى ناحية بُصْرى، فسبقوا الفرنج إليها، فحالوا بينهم وبينها، ووقعت العين على العين، فانهزم الكُفَّار وولّوا الأدبار، وتسلّم معين الدين بُصْرى، وعاد إلى صرخد فتسلمها، وعاد العسكران إلى دمشق فوصلاها يوم الأحد السَّابع والعشرين من المحرّم، وفي هذا الوقت وصل التونتاش ـ الذي خرج من صَرْخَد

---

(1) فن الصراع الإسلامي الصليبي، ص: 140.

(2) كتاب الروضتين، نقلاً عن فن الصراع الإسلامي الصليبي، ص: 140.

(3) تبعد بصرى مسافة 141كلم عن دمشق، وعُدَّت قصبة إقليم حوران أما صرخد فبعدت عن السويداء بنحو 31 كلم.

(4) فن الصراع الإسلامي الصليبي، ص: 141.

(5) المصدر نفسه، ص: 141.

(6) مرآة الزمان، نقلاً عن فن الصراع الإسلامي، ص: 143.

إلى الفرنج بجهله وسخافة عقله إلى دمشق من بلاد الفرنج من غير أمان، ولا تقرير واستئذان، توهُماً منه أن يُكرم ويصطنع بعد الإساءة القبيحة، فاعتقل في الحال، وطالبه أخوه خطلخ بما جناه عليه من سَمْل عينيه، وعقد لهما مجلس حضره الفقهاء والقضاة وأوجبوا عليه القصاص، فسُمل كما سَمَل أخاه، وأطلق إلى دار له بدمشق، فأقام بها[1].

وتعتبر المشكلة الحورانية هي التي جعلت نور الدين محمود يواجه لأول مرّة خلال تلك المرحلة من حكمه في حلب مملكة بيت المقدس، كذلك أثبتت الأحداث مدى أهمية دعمه العسكري لأتابكية دمشق، إذ لم تكن لتستطيع صد الهجوم الصليبي بدون عونه الحربي، وأظهره ذلك على مسرح الأحداث السياسية بصورة أكبر من ذي قبل على نحو دعم مركزه أمام رعاياه خلال تلك المرحلة الأولى من حكمه، وعلى المستوى الصليبي؛ كشفت المشكلة الحورانية أن القيادة الصليبية بدأت عهدها بإظهار عدم الحنكة السياسية، إذ أنها اتجهت إلى محاربة أحد حلفائها من أجل أمير شق عصا الطاعة عليه، وأوضح موقفها أن مطامعها السافرة في إقليم حوران التابع لدمشق كانت أكبر من أية تحالفات سياسية معها، ولا شك في أن تلك الأحداث وجهت لطمة قوية للتحالف الدمشقي الصليبي، وجاءت أحداث الحملة الصليبية الثانية لتوجيه لطمة مجهزة لذلك التحالف الهش[2].

2 ـ الحملة الصليبية الثانية:

وعلى الرغم من العلاقات القائمة بين أتابكية دمشق ومملكة بيت المقدس، إلا أن الصليبيين قرروا غزوها، وقد تحدثت عن الحملة الصليبية الثانية فيما مضى من الصفحات ودعم نور الدين وأخيه سيف الدين غازي لدمشق، ويمكننا أن نقول: إن نور الدين اتجه إلى مقاتلة مملكة بيت المقدس عن طريق دعم دمشق[3].

3 ـ سقوط عسقلان:

حدث تطور كبير على جانب كبير من الأهمية وقع جنوب بلاد الشام لا سيما على الساحل في صورة عسقلان التي تمكّن الصليبيون في عهد الملك الطموح بلدوين الثالث من إسقاط عسقلان في عام (548هـ/ 1153م)[4]، وجاء ذلك في وقت ضعفت فيه الدولة الفاطمية في ظل تغلب الوزراء العظام، وحقق الصليبيون بذلك انتصاراً مزدوجاً على نور الدين محمود

---

(1) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين، ص: 181.
(2) فن الصراع الإسلامي الصليبي، ص: 144.
(3) المصدر نفسه، ص: 145 إلى 127.
(4) فن الصراع الإسلامي، ص: 148، الباهر، ص: 106.

والفاطميين وانتصارهم على نور الدين تفوق على انتصارهم على الدولة الفاطمية، لأن الأخيرين كانوا قد وهنوا، ولم تعد دولتهم تمثل خطراً بالغاً على الوجود الصليبي، بينما نور الدين مثّل قوة سياسية وحربية متوثبة في شمال الشام تطمع في دمشق[1]، وتأتي أهمية الانتصار الصليبي من خلال إدراك أهمية عسقلان نفسها، فقد مثلت مركزاً تجارياً هاماً على الساحل الفلسطيني، وقاعدة للأسطول الفاطمي، وبسقوطها سقطت آخر المعاقل الفاطمية في الشام، وبذلك امتدت السيادة الصليبية على طول الساحل الشامي من الإسكندرية حتى غزة جنوباً، ومهد بذلك السبيل أمام الصليبيين لغزو مصر[2].

وعلى أية حال لم يكن لنور الدين محمود زنكي أن يقف دون أن يحرك ساكناً أمام التحرك الصليبي في الجبهة الجنوبية، وسرعان ما أتى الرد دون تأخير، فتمكن نور الدين محمود بالفعل من الاستيلاء على دمشق عام (549هـ/1154م) أي في العام التالي مباشرة وبذلك حقق مكاسب أكبر من أن تحصى، فقد مد حدوده إلى الجنوب، ولم يعد منعزلاً في الشمال، وقد تمكن بذلك الإنجاز من تهديد حدود مملكة بيت المقدس ذاتها، ولم يعد أمامه إلا نطاق جغرافي ضيق محدود لكي يوجه ضرباته إلى الجليل بصورة لم تكن متوافرة له من قبل، وشتان بين توجيه الضربات في الأطراف والوصول إلى قرب القلب الصليبي[3]، ولا تغفل أنه بإخضاع دمشق؛ صار نور الدين محمود يسيطر بصورة أو بأخرى على ثلاثة مدن رئيسية يمكن أن توصف بأنها مدن الظهير الإسلامي في الجزيرة وبلاد الشام وهي: الموصل ـ التي دانت له بالولاء ـ وحلب ودمشق، وهي مدن ذات كثافة سكانية فاعلة وأهمية اقتصادية حيوية من خلال وقوعها على خطوط التجارة الدولية، فإذا لم يغب عن ذهننا أننا أمام قائد للجهاد نذر نفسه له، أدركنا كم كانت المكاسب كبيرة للمسلمين بضم عاصمة الأمويين من قبل دمشق، خاصة مع عدم إغفال أنها المرة الأولى التي اتحدت فيها حلب ودمشق مُنذ العصر السلجوقي تحت سيطرة سيد واحد[4].

ومن الزوايا ذات الأهمية البالغة: إدراك أن توجيه ضربات فاعلة للصليبيين تؤثر على قلبهم في بيت المقدس، لن يكون إلا بإخضاع المدن الأربعة المؤثرة في قبضة الدولة النورية، وهي: الموصل، حلب، دمشق، والقاهرة وهكذا لم تعد هناك إلا مدينة واحدة هي القاهرة، قلب الوجود الفاطمي الذي بلغ من الكبر عتياً، ويلاحظ أن ضمها لشقيقاتها الثلاثة سيتأخر من خلال اعتبارات عديدة[5] يأتي بيانها وتفصيلها في محله بإذن الله تعالى. على أية حال من

(1) فن الصراع الإسلامي الصليبي، ص: 148. والغرب، ص: 186.
(2) التنظيمات الدينية، مؤنس عوض، ص: 148. (4) المصدر نفسه، ص: 187.
(3) الحروب الصليبية والعلاقات بين الشرق (5) المصدر نفسه، ص: 187.

الممكن تناول قضية مهمة وهي أيهما حقق مكاسب سياسية حربية أخطر: بلدوين الثالث باستيلائه على عسقلان عام (548هـ/ 1153م) أم نور الدين محمود باستيلائه على دمشق عام (549هـ/ 1154م)؟ إن إسقاط عسقلان كان بمثابة إسقاط إحدى المدن الشامية الساحلية وربما كان له تأثيراته الكبيرة في حالة عدم تمكن ذلك الحاكم المسلم من انتزاع دمشق من قبضة البوربين، إذ أنه اكتسب العديد من المميزات، وأدى ذلك إلى نقله لمجال جديد أرحب من ذي قبل، ويلاحظ أنه إذا كان الصليبيون باستيلائهم على عسقلان انفتحت أمامهم الأبواب نحو مصر، على اعتبار أن عسقلان عدت بوابتها، إلا أن الاستيلاء على دمشق فتح الطريق هو الآخر أمام نور الدين محمود نحو ذات الهدف، ومن ثم سيحدث فيما بعد التسابق بينه وبين الصليبيين لإسقاط مصر الفاطمية، وهكذا نصل إلى حقيقة مفادها: أن استيلاء بلدوين الثالث على عسقلان، كان من الممكن أن يكون على أكبر قدر من المكاسب في حالة استمرار الوضع القائم في صورة ارتباط نور الدين محمود بحلب في شمال الشام، أما الآن بعد الاتجاه جنوباً نحو دمشق، تأكد للصليبيين أن سيد حلب صار سيد حلب ودمشق معاً. ويكفي أن نطالع ما سطره مؤرخ الصليبيين البارز وليم الصوري كي ندرك كيف أن إخضاع عاصمة الشام عُدّ أحد مظاهر الخطر الإسلامي القادم في الأفق على نحو ينذر بأوخم العواقب على الصليبيين والمسلمين يؤدي إلى مرحلة جديدة اتسمت باحتدام الصراع بينهما، والتسابق على مناطق نفوذ جديدة بقوة عسكرية أكبر، وكأننا أمام استعراض عسكري للقوة من كل من الطرفين المتنافسين، وواقع الأمر أن التسابق على ضم مصر لأحد الجانبين لم يكن ليبدأ دون تلك الخطوة التكتيكية المحورية في صورة إسقاط الصليبيين لعسقلان، والرد من جانب نور الدين بالاستيلاء على دمشق[1].

4 ـ معركة بانياس:

شهدت العلاقات بين الدولة النورية ومملكة بيت المقدس نشوب معركة بانياس عام (552هـ/ 1157م)، والتي وقعت في وقت كانت تنفذ فيه معاهدة سلمية بين الجانبين، إلا أن الملك بلدوين الثالث خرقها، وتتجلى بوضوح أهمية ثروات المنطقة من الناحية الزراعية والرعوية وميزتها الإستراتيجية، كعوامل دفعت بالصليبيين إلى نقض شروط المعاهدة، وإعلان الحرب على الدولة النورية، فقد توافرت في بانياس المراعي الغنية بقطعان الماشية[2]، كذلك عرفت بأهمية إنتاجها الزراعي حيث وجد الفلاحون والرعاة الذين طمع الصليبيون في أسرهم

(1) الحروب الصليبية العلاقات بين الشرق والغرب، (2) المصدر نفسه، ص: 188.
ص: 188.

واسترقاقهم للإفادة من طاقاتهم الإنتاجية، وهذا يفسر عمليات الاسترقاق التي حرص الصليبيون عليها عندما هاجموا المنطقة، كذلك احتلت بانياس أهمية استراتيجية متميزة إذ وقعت بالقرب من دمشق وفي المنطقة الواقعة بينها وبين الجليل الأعلى بشمال فلسطين، وإذا اعتبرنا عسقلان بوابة مصر فإن بانياس عدت بوابة دمشق[1]، ولا شك أن كافة تلك المغريات لعبت دورها في إغراء الملك بلدوين الثالث على شن هجومه على بانياس، وكان الرعاة والفلاحون المسلمون في المنطقة قد ارتكنوا إلى وجود معاهدة السلام مع الصليبيين، وبينما هم منهمكون في عملهم هاجمت القوات الصليبية المنطقة بالقرب من بحيرة الحولة، وقد قتل وجرح العديدون، وتم سلب قطعان الماشية وأسر العديدين ويبدو أن الصليبيين أرادوا تحقيق انتصار كبير في حملتهم بدليل إشراكهم لأكبر العناصر لديهم قوة ونعني بهم الإسبتارية والداوية[2].

ومما تجدر الإشارة إليه أن مؤرخ المملكة الرسمي وليم الصوري، أقر واعترف صراحة بأن حملة بلدوين الثالث على بانياس كانت خرقاً للاتفاقية المعقودة مع نور الدين، وأن الأمر كان أبعد من أن يكون مجداً عسكرياً للمملكة الصليبية[3]، ولم يكن هناك مفر من الرد العسكري النوري، وقد قام المسلمون بنصب كمين للقوات الصليبية كُلل بالنجاح، وقتل منهم الكثيرون، وعلى حد قول ابن القلانسي: صاروا بأجمعهم بين قتيل وجريح ومسلوب وأسير وطريح[4] وغنائم وفيرة، وأمكنهم احتلال بانياس[5]، غير أن بلدوين الثالث تمكن من استردادها في نفس العام[6]، وعاد نور الدين وفرض سيطرته عليها عام (560هـ/ 1164م)[7] وكان قد سار إليها بعد عوده من فتح حارم، وأذِن لعسكر الموصل وديار بكر بالعود إلى بلادهم، وأظهر أنه يريد طبريَّة، فجعل مَن بقي من الفرنج همهم حفظها وتقويتها، فسار نور الدين مجدًّا إلى بانياس لعلمه بقلَّة مَن فيها من الحماة الممانعين عنها، ونازلها وضيَّق عليها وقاتلها، وكان في جملة عسكره أخوه نُصرة الدين أمير أميران، فأصابه سهم أذهب إحدى عينيه، فلما رآه نور الدين قال له: لو كُشف لك عن الأجر الذي أُعِدَّ لك لتمنيت أن تذهب الأخرى[8]، ولما فتح نور الدِّين حِصن بانياسِ، كان ولد معين الدين أنُر الذي سلَّم بانياس إلى الإفرنج قائماً على رأسه، فالتفت إليه وقال له: للناس بهذا الفتح فرحة واحدة، ولك فرحتان. فقال: كيف ذاك؟ قال: لأن الله تعالى اليوم برَّد جلدة والدك من نار جهنم[9].

---

(1) فن الصراع الإسلامي الصليبي، ص: 149.
(2) المصدر نفسه، ص: 149.
(3) المصدر نفسه، ص: 151.
(4) ذيل تاريخ دمشق، ص: 339.
(5) الحركة الصليبية، عاشور (2/ 668).
(6) المصدر نفسه (2/ 668).
(7) شذرات الذهب، نقلاً عن فن الصراع الإسلامي الصليبي، ص: 152.
(8) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (1/ 437).
(9) المصدر نفسه (1/ 440).

5 ـ اتفاقيات وهدنة قصيرة:

وعلى الرغم من تلك المعارك شبه المستمرة، لاحت في الأفق أضواء باهتة لسلام شاحب متمثل في اتفاقيات هدنة قصيرة تراوحت بين الثلاثة أشهر والعامين وقعت بين الطرفين، ومن الأهمية بمكان دراسة دوافع السياسة السلمية التي اتبعها نور الدين محمود في بعض الأحيان تجاه مملكة بيت المقدس، وتتمثل في أبعاد اقتصادية وعسكرية واستراتيجية. وكانت الدولة النورية تهتم بالعلاقات التجارية مع القوى الصليبية في بلاد الشام لعدة اعتبارات منها: أن بعض المواد الخام وجدت في أرض أعدائها وكانت في حاجة إليها من أجل عمليات التصنيع، ثم إن بعض الطرق التجارية الدولية التي مرت ببلاد الشام كانت منافذها في المناطق الساحلية الصليبية، وكان تصريف الدولة النورية يحتّم ضرورة وجود صلات ما، من أجل ضمان وصول السلع إلى شاطئ البحر المتوسط ومنه إلى أوروبا، كذلك فإن المتاجرة مع مملكة بيت القدس كانت تدر على الدولة أرباحاً طائلة من عائد ـ العشور ـ على نحو يدعم ميزانيتها، وتوجد إشارات إلى وجود علاقات وثيقة بين الجانبين على المستوى التجاري، ويقرر ابن جبير أن: اختلاف القوافل من مصر إلى دمشق على بلاد الإفرنج غير منقطع، واختلاف المسلمين من دمشق إلى مكة كذلك وتجار النصارى أيضاً لا يمنع أحدهم ولا يعترض.

ويضيف أن قوافل المسلمين تخرج إلى بلاد الفرنج وسبيهم يدخل إلى بلاد المسلمين[1]. وإذا كان نص ابن جبير المذكور يرجع إلى العصر الأيوبي، فإنه يعد امتداداً طبيعياً لما هو موجود بصورة فعلية من قبل في عهد الدولة النورية[2]، ومن جهة أخرى، فبالنسبة للصليبيين، نعرف أنهم كانوا يدخلون إلى دمشق وغيرها من المدن المسلمة من حين لآخر من أجل «قضاء حوائجهم»[3]، وطبيعي أن من بينها عمليات الشراء والمتاجرة مثلما حدث عام (546هـ/ 1151م)[4]. ولا شك في أن الدولة النورية عندما كانت تهادن القوى الصليبية، كانت تضع نصب عينيها المصالح التجارية، بل إن تلك المصالح هي التي حددت ـ في بعض الأحيان ـ موقفها السياسي من أعدائها[5].

وأما الجانب العسكري، فتمثل في أن الحروب التي خاض غمارها الجيش النوري ضد مملكة بيت المقدس كانت حروباً موسمية في الغالب، ولم يكن يستطيع أن يواصل الحرب على مدى العام بأكمله، واحتاج إلى أن تكون هناك بضعة أشهر لإراحة القوات من عناء القتال، ثم إن الحرب نفسها ضد الصليبيين كانت باهظة التكاليف من حيث الأسلحة،

---

(1) الرحلة لابن جبير، ص: 253.
(2) فن الصراع الإسلامي الصليبي، ص: 154.
(3) ذيل تاريخ دمشق، ص: 314.
(4) فن الصراع الإسلامي الصليبي، ص: 155.
(5) المصدر نفسه، ص: 155

وإعداد الجند وتوفير التموين اللازم وإعداد الدواب إلى غير ذلك، ثم إنها مثلت استهلاكاً لموارد الدولة على نحو هددها اقتصادياً، وأمام تلك الاعتبارات كان الاتجاه السلمي مطلباً ضرورياً من وجهة النظر النورية، ولا نغفل أيضاً أنها اتجهت إلى مهادنة مملكة بيت المقدس لكي تتفرغ للحرب في الجبهة الشمالية حيث إمارة أنطاكية أو لكي تواجه سلاجقة الروم، وكان أخوف ما تخافه أن تقع بين شقي الرحى: إمارة أنطاكية، وهي تشن هجماتها الحربية على مركز الدولة التجاري في حلب، ومملكة بيت المقدس تهاجم مركزها التجاري والصناعي في الجنوب أي في دمشق، إذ أن ذلك كان يعني استهلاكاً أكبر لطاقاتها البشرية والمادية على نحو أدى إلى تشتيت قدراتها وعدم تحقيقها لإنجازات كبيرة على أي من الجبهتين[1].

ونجد أن نور الدين اتجه إلى مهادنة المملكة سنة (550هـ/ 1155م) لمدة عام وفي العام التالي (551هـ/ 1156م)[2]، تجددت الموادعة حيث تم إرسال قطيعة للصليبيين قدرها ثمانية آلاف من الدنانير الصورية[3]، وفي نهاية المعاهدة خرقت عندما هاجم بلدوين الثالث مراعي بانياس، كذلك عقدت معاهدة بين الطرفين لمدة عامين في عام (556هـ/ 1160م) وعلى أثر الزلازل التي اجتاحت بلاد الشام عام (566هـ/ 1170م) اتجه نور الدين إلى عقد هدنة مع عموري الأول، ويضاف إلى ذلك أنه تم عقد هدنة قصيرة مدتها ثلاثة أشهر في عام (568هـ/ 1173م)[4] تركزت المعاهدات والهدنات التي وقعتها الدولة النورية مع المملكة اللاتينية في المدة من عام (550هـ/ 1155م) وعام (568هـ/ 1173م) وطبيعي أن عقد الهدنات تطلب جهداً دبلوماسياً مكثفاً[5].

كان هدف نور الدين توحيد القوى الإسلامية في بلاد الشام والجزيرة ومصر ضد الصليبيين، وكانت سياسته قائمة على إيجاد توازن حقيقي في القوى مع أعدائه، على أن يكون القضاء عليهم في مرحلة تالية، وقد تكفل بها الأيوبيون ومن بعدهم المماليك، ويظهر دهاء نور الدين في استخدام عقد الهدنات مع الصليبيين حتى يريح قواته من عناء الحرب ويدعم قواته في آن واحد، ولم تشهد ساحات الصراع بينه وبين مملكة بيت المقدس الصليبية معارك مندفعة يقضي فيها على قواته قضاءً مبرماً، وحق للمؤرخ السرياني المجهول، ووليم الصوري أن يصفاه بالدهاء والحكمة[6]، ويلاحظ أنه لم يسع إلى نقل الصراع مع المملكة اللاتينية إلى نطاق النشاط الاقتصادي لاسيما التجاري، إذ قصر الحرب على ساحاتها دون مجال التبادل السلعي، وأفاد من حركة القوافل الصليبية في فرض العشور على نحو دعم اقتصاديات دولته

(1) فن الصراع الإسلامي الصليبي، ص: 156.
(2) ذيل تاريخ دمشق، نقلاً عن فن الصراع الإسلامي، ص: 156.
(3) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام، ص: 291.
(4) فن الصراع الإسلامي الصليبي، ص: 157.
(5) المصدر نفسه، ص: 158.
(6) المصدر نفسه، ص: 159.

وأمدها بالأموال اللازمة لاستمرار صراعها مع الصليبيين[1]. وهناك من تصور أن نور الدين قد عجز عن تحقيق نتائج حاسمة في صراعه ضد الصليبيين، ووجد من المستشرقين من تحامل عليه فهاجمه ـ سمايل ـ واتهمه بانعدام نشاطه المضاد لهم، وأرجع ذلك إلى جُبْنه وانعدام روح المبادرة لديه، وخوفه من التدخل البيزنطي لصالح الدول اللاتينية، وأن الغزوات في عهده لم تكن تتسم بالطموح، والواقع أن استعراض مراحل صراعه مع المملكة الصليبية تعكس لنا صورة مغايرة لذلك، فالاستيلاء على دمشق عام (549هـ/ 1154م)، حسم أمرها تماماً لصالح السيادة الإسلامية، ولم تستطع المملكة اللاتينية أن تفرض سيطرتها عليها، لذلك فإن إخضاع مصر عام (567هـ/ 1171م) لسيادته حسم الصراع حولها والذي استهلك جهداً كبيراً من الجانبين المتحاربين، وكان نور الدين يحارب في جبهات عديدة في وقت واحد سواء بالنسبة للمسلمين أو الصليبيين، ثم إن المرحلة نفسها كانت مرحلة الصراع من أجل توازن القوى بينه وبين المملكة الصليبية، وقد ساهمت جهود نور الدين محمود وصراعه مع مملكة بيت المقدس لتمهيد السبيل لصلاح الدين الذي استطاع إسقاط مملكة بيت المقدس عام (583هـ/ 1187م)، وقد امتدت ساحة صراع نور الدين مع الصليبيين من إمارة الرها إلى أنطاكية ثم طرابلس وبيت المقدس، وأسقط ما يزيد على الخمسين من الحصون والمعاقل، وتصارع مع جبهتين شمالية وجنوبية في آن واحد، وارتبطت طموحاته بحكمته ودهائه السياسي وحافظ على طاقاته وإنجازاته[2].

6 ـ الرصيد الأخلاقي في قتال نور الدين للأعداء:

يُروى أنه لما بلغ نعي الملك بلدوين مسامع القادة المسلمين وهم يعدون العدة لغارات جديدة، عقدوا مجلساً للمداولة في ما بينهم، وقالوا لنور الدين: إننا نستعد لمهاجمة ميناء عسقلان التي هي من المملكة بمثابة الرئة من الجسد، فالفرصة سانحة الآن للقيام بهجوم خاطف على المدينة، ثم لمواصلة الزحف نحو الموانئ الأخرى ونحو بيت المقدس والحصون الجبلية للاستيلاء عليها قبل أن تجف دموع الصليبيين وقبل أن يصحوا من ذهولهم، فلنضربهم ضربة قاضية، وهم في هذه الحالة من التضعضع والضعف، إن حزنهم وحدادهم حليفان لنا في هذه الحرب؛ فلم يشاطرهم نور الدين الرأي وقال لهم: إن مهاجمة الصليبيين وهم على هذه الحالة من الخور والقلق، عمل لا يليق بي وبكم، بل يلحق بنا جميعاً وصمة عار لن تمحوها الأيام المقبلة، فلو فعلنا لكان هجومنا عليهم أشبه بعمل فارس جبان يجهز على خصم سقط عن جواده مثخناً بالجراح، إن أعداءنا لا يقوون اليوم على الدفاع عن

(1) فن الصراع الإسلامي الصليبي، ص: 159. (2) المصدر نفسه، ص: 159، 160.

أنفسهم، وقد أحاط قوادهم بجثة مليكهم يبكونه ويترحمون عليه، وعندما يصبحون من جديد قادرين على الدفاع سنهاجمهم ونخرجهم من أرض نعدّها ملكاً لنا، ونرفع عليها أعلامنا. أما اليوم، فإني سأبعث إليهم بوفد من أبطالنا، لا للتحدي ولكن للتعزية. وما لبث أن أرسل إلى القدس وفداً من خيرة فرسانه فقابل الملكة الأرملة[1]، معزياً إياها بوفاة العاهل الراحل، وقدم إليها رسول نور الدين عقداً ثميناً كان الإمبراطور البيزنطي قد أرسله هدية لها، فوقع في يد نور الدين مع غنائم أخرى فحزنت على ضياعه كثيراً، وأكد لها الرسول أن نور الدين لن يشرع في وجوه الصليبيين سلاحاً، ما دامت مملكة القدس بلا ملك وما دامت جيوشها بلا قائد، فتأثرت الملكة الحزينة لشهامة نور الدين وبعثت إليه مع رسوله منديلها الحريري مبللاً بدموعها اعترافاً بجميله[2] ومروءته.

ثانياً: العلاقات مع الإمارات الصليبية:

من المعروف أن الحملة الصليبية الأولى نجحت في إقامة ثلاث إمارات: هي الرها في أعلى نهر الفرات، وأنطاكية في أقصى شمال الشام، وطرابلس على الساحل اللبناني، وقد ارتبطت تلك الإمارات ارتباطاً وثيقاً مع بعضها البعض، وكذلك مع مملكة بيت المقدس اللاتينية[3].

1 ـ إمارة الرها:

حاول جوسلين الثاني استرداد إمارته المفقودة في عام (542هـ/ 1147م) وذلك بعد مقتل زنكي، بمساعدة العناصر الأرمينية بداخلها[4]، وأمكنه عبور نهر الفرات في ربيع الثاني من عام (542هـ/ أكتوبر 1147م) وساعده الأرمن على فتح أبوابها والاستيلاء عليها، وإن عجز عن قلعتها[5]، نظراً لمناعتها وتجهيزاتها بالمعدات والرجال، وعدم جلبه لآلات الحصار اللازمة لاقتحامها[6]، أمام ذلك الموقف، هب نور الدين إلى إنقاذ الرها، وعندما اقتربت قواته منها لاذ جوسلين بالفرار، وقد تمكن الجيش النوري من إلحاق الهزيمة بالصليبيين، وأصيب

---

(1) هي الأميرة البيزنطية تيودورا، وكانت قد زفت إلى بلدوين الثالث سنة 553هـ/ 1185م وهي في الثالث عشر من عمرها، وقد بلغت يوم وفاة زوجها سن السابعة عشرة.

(2) صلاح الدين الأيوبي، قدري قلعجي، ص: 113، الجنة في ظلال السيوف، ص: 75، 77 حبيب جاماتي.

(3) فن الصراع الإسلامي الصليبي، ص: 161.

(4) المصدر نفسه، ص: 164.

(5) المصدر نفسه، ص: 165.

(6) المصدر نفسه، ص: 165.

جوسلين نفسه وقتل فيمن قتل بلدوين صاحب مرعش[1]، وقام الأول بعبور الفرات مسرعاً حتى بلغ سميساط وفرَّ من كان معه في اتجاهات متفرقة، وقامت القوات النورية بسلب المدينة ونهبها، كعقاب لأهلها على تمردهم وغنمت من وراء ذلك الغنائم الوفيرة[2]، ووجدت لدى نور الدين محمود عدة اعتبارات دفعته إلى الإسراع نحو القضاء على محاولة جوسلين الثاني استرداد الرها، إذ أنه أراد إنقاذ الإنجاز الكبير الذي حققه والده زنكي بإخضاع أولى الإمارات الصليبية وما غنمه المسلمون من وراء ذلك من مغانم إستراتيجية كبرى، كذلك أراد أن يوقف أية توسعات صليبية في المنطقة الممتدة في شمال العراق، كذلك فإن عودة السيادة الصليبية للرها كان من شأنه توجيه ضربة قوية لخط الدفاع الاستراتيجي القائم بين المدينتين، والذي حرص نور الدين على عدم خضوعه لسيطرة الصليبيين بأية صورة[3].

أ ـ هزيمة نور الدين: سار نور الدين إلى بلاد جوسلين وهي القلاع الواقعة شمالي حلب، منها: تل باشر، وعين تاب، وَعزَاز وغيرها من الحصون، فجمع جوسلين الفرنج فارسهم وراجلهم، ولقوا نور الدين، وكانت بينهم حرب شديدة أجلت عن انهزام المسلمين وظفر الفرنج، وأخذ جوسلين سلاح دار[4] كان لنور الدين أسيراً، وأخذ ما معه من السِّلاح فأنفذه إلى السلطان مسعود بن قلج أرسلان السلجوقي صاحب قونية وأقصر وغيرهما من تلك الأعمال، وأرسل مع السلاح إليه يقول: قد أنفذت لك سلاح صهرك، وسيأتيك بعد هذا غيره[5].

ب ـ أعمال نور الدين للحيلة ووقوع جوسلين في الأسر: عظمت هذه الحادثة على نور الدين وأعمل الحيلة على جوسلين، وعلم أنه إن هو جمع العساكر الإسلامية لقصده جمع جوسلين الفرنج وحذر وامتنع، فأحضر نور الدين جماعة من التركمان، وبذل لهم الرغائب من الإقطاع والأموال إن هم ظفروا بجوسلين إما قتلاً وإما أسراً، فاتَّفق أن جوسلين خرج في عشرة، وأغار على طائفة من التركمان فنهب وسبى، فاستحسن من السَّبي امرأة منهم فخلا معها تحت شجرة، فعاجله التركمان، فركب فرسه ليقاتلهم فأخذوه أسيراً. . وكان أسره من أعظم الفتوح على المسلمين، فإنه كان شيطاناً عاتياً من شياطين الفرنج شديد العداوة للمسلمين، وكان هو يتقدم على الفرنج في حروبهم لما يعلمون من شجاعته وجودة رأيه، وشدة عداوته للملّة الإسلامية، وقسوة قلبه على أهلها، وأصيبت النصرانية كافَّة بأسره،

---

(1) فن الصراع الإسلامي الصليبي، ص: 166.
(2) المصدر نفسه، ص: 166.
(3) المصدر نفسه، ص: 166.
(4) سلاح دار: معناه ممسك السلاح.
(5) كتاب الروضتين (1/ 246).

وعظمت المصيبة عليهم بفقده، وخلت بلادهم من حاميها وثغورهم من حافظها، وسهل أمرهم على المسلمين بعده، وكان كثير الغدر والمكر، لا يقف على يمين ولا يفي بعهد، طالما صالحه نور الدين وهادنه، فإذا أَمِنَ جانبه بالعهود والمواثيق نكث وغدر، فلقيه غدره، وحاق به مكره، قال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: 43]. فلما أسر تيسَّر فتح كثير من بلادهم وقلاعهم، فمنها عين تاب، وعزاز، قُورُس والرَّاوندان، وحصن البارة، وتل خالد، وكفر لاثا، وكفر سود، وحصن بسرفوت بجبل بني عُليم ودُلُوك، ومرعش، ونهر الجوز، وبرج الرصاص[1]. وكان نور الدين رَحِمَهُ اللَّهُ إذا فتح حصناً لا يرحل عنه حتى يملأه رجالاً وذخائر تكفيه عشر سنين، خوفاً من نُصرة تتجدّد للفرنج على المسلمين، فتكون الحصون مستعدة غير محتاجة إلى شيء[2].

لقد رغب نور الدين محمود زنكي في تأمين خطوط التجارة بين حلب والموصل، وبين حلب ودولة سلاجقة الروم والإمبراطورية البيزنطية، ووقوعها غرب نهر الفرات له أهمية كبيرة، إذ أنها على ما يبدو فرضت نوعاً من السيطرة على حركة التجارة بين شرق الفرات وغربه، وبالذات في الجزء الشمالي لبلاد الشام، أما الدوافع الإستراتيجية العسكرية فتمثلت في رغبة نور الدين الأكيدة في تأمين الخط الدفاعي الحربي الواقع بين الموصل وحلب، إذ أن خضوع تلك القلاع والحصون في أيدي الصليبيين هدد ذلك الخط تهديداً كاملاً، ويمكن تلخيص سياسة نور الدين تجاه إمارة الرها، تمثلت في القضاء على محاولة أميرها السابق استردادها، ثم اتجاهه إلى أسره وإسقاط أملاكه، وطبيعي أن ندرك أن دوره في هذا المجال كان المحافظة على ما أمكن إنجازه في عهد والده والقضاء على المراكز الحصينة التي سيطر عليها جوسلين الثاني، ويلاحظ أن جهوده نحوها لم تكن على ذلك المستوى الكبير الذي حظيت به إمارة أنطاكية مثلاً، نظراً لانتهاء قوة الرها الصليبية الفعلية في عهده[3]، ولقد أصبحت انتصارات نور الدين يتغنى بها الشعراء فقال ابن منير:

لقد أشعرت دين الله عِزًّا ... تتيه له المشاعر والحجونُ

وقام بنصره والناسُ فوضى ... قويُّ منك في الجُلَّى أمين

رجعت ملوكهم وهم خيوف ... أسير في صفادك أو كنين

فَبَرَنَسْتَ البرنسَ لقاع خسف ... وجُرِّعَ مُرَّ جوسك جوسلين[4]

(1) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (1/ 246).

(2) المصدر نفسه (1/ 247).

(3) فن الصراع الإسلامي الصليبي، ص: 169.

(4) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (1/ 270، 271).

2 ـ إمارة أنطاكية:

تولى حكم إمارة أنطاكية خلال عهد نور الدين محمود ثلاثة من الأمراء: ريموند دي بواتيه سنة (519 ـ 543هـ/ 1136 ـ 1149م) وقد اتجه إلى محاولة طلب عون الحملة الصليبية الثانية عندما قدمت إلى الشام من أجل مساعدته في استرداد أملاكه المفقودة شرق نهر العاصي. ورينو دي شاتيون أو أرناط في المصادر العربية سنة (548 ـ557هـ/ 1153 ـ 1162م)، فقد شن هجماته على الأعمال الحلبية ووصف بالاندفاع والتهور، وجرّت تصرفاته على الصليبيين في بلاد الشام بصفة عامة أوخم العواقب، وقد عمل نور الدين على أسره، وتمكّن بالفعل من ذلك، ومكث في السجن سبعة عشر عاماً خرج بعدها يقاتل المسلمين بضراوة. وتولى بوهيمند الثالث سنة (558 ـ 595هـ/ 1163 ـ 1200م) عرش الإمارة تحت وصاية الأميرة كونستانس أرملة ريموند دي بواتيه، ويلاحظ أنه أسر في معركة حارم عام (559هـ/ 1164م)[1] وقد كانت سياسة نور الدين محمود تجاه إمارة أنطاكية، قد امتازت بتعدد المعارك الكبيرة التي خاضها ضدها على نحو لم تجده بالنسبة لغيرها من الإمارات الصليبية الأخرى[2]، ومن أشهر هذه المعارك:

أ ـ معركة يغرى: في سنة 543هـ سار نور الدين إلى يَغْرى، وقد اجتمع بها الفرنج وقد جاؤوا بقضّهم وقضيضهم، وقد عزموا على الاستيلاء على بلاد الإسلام، فالتقى بهم هنالك، واقتتلوا أشدَّ قتال ثم أنزل الله نصره على المسلمين وانهزم الفرنج، وكانوا بين قتيل وأسير، وفي هذه الوقعة قال القيسراني:

وكيف لا تُثني على عيشنا ... المحمود والسلطان محمود

فليشكر الناسُ ظلالَ المنى ... إن رِواقَ العدل ممدود

ونيّرات الملك وهّاجة ... وطالع الدولة مسعود

وصارمُ الإسلام لا ينثني ... إلا وثِلْوُ الكُفر مقدود

مناقب لم تك موجودة ... إلا ونور الدين موجود

مُظَفَّر في درعه ضَيْغَمُ ... عليه تاج الملك معقود

نال المعالي حاكماً مالكاً ... فهو سليمان وداود

ترتشِفُ الأفواه أسيافهُ ... إنّ رُضاب العِزّ مورود

وكم له من وقعة يومها ... عند ملوك الشرك مشهود

---

(1) فن الصراع الإسلامي الصليبي، ص: 169. (2) المصدر نفسه، ص: 170.

والـقـوم إمـا مُـزهَـقٌ صُـرعَـةٌ ... أو مُـوثَـقٌ بـالـقـدِّ مَـشـدُودُ
حـتـى إذا عـادوا إلـى مـثـلـهـا ... قـالـت لـهـم هـيـبـتـه عـودوا
والـكـر والـفَـرُّ سِـجـال الـوغـى ... فـطـار وطـوراً ومـطـرود
وإنـمَّـا الإفـرنـج مـن لِـغْـيـهـا ... عـادٌ وقـد عـاد لـهـا هُـودُ
قـد حـصـحـص الـحـق فـمـا جـاحـد ... فـي قـلـبـه بـأسـك مـجـحـود
فـكـل مِـصـرٍ بـك مُـسـتـفـتِـحٌ ... وكـل ثَـغـر بـك مـسـدود[1]

ب ـ معركة إنب: وقعت معركة إنب في (صفر 544هـ/ يونيو ـ حزيران 1149م) وقد حقق الجيش النوري فيها انتصاراً كبيراً، وتم قتل ريموند دي بواتيه، وعدد كبير من كبار قادة الصليبيين، ويلاحظ أن الشيعة الإسماعيلية النزارية وقفوا خلال المعركة إلى جانب الصليبيين؛ مما كشف بجلاء عن حقيقة دورهم خلال تلك المرحلة، ولقي قائدهم علي بن وفا مصرعه على نحو دلّ على التواطؤ والتعاون مع أعداء الإسلام[2] والارتماء في أحضان الصليبيين ضد القيادة السنية المجاهدة[3]. وقد قال ابن منير في مدح نور الدين قصيدة جاء فيها:

تـفـي بـضـمـانـهـا الـبـيـضُ الـحِـدادُ ... وتـقْـضـي دَيْـنَـهـا الـسُّـمْـرُ الـصِّـعـاد
وتـدركُ ثـارهـا مـن كـلِّ بـاغ ... فـوارس مـن عـزائـمـهـا الـجـلاد
ويَـغْـشـى حَـوْمَـةَ الـهـيـجـا هُـمـامٌ ... تَـشُـدُّ بـضـبـعِـهِ الـسَّـبْـعُ الـشِّـداد
أظـنُّـوا أنّ نـارَ الـحـرب تـخـبـو ... ونـور الـديـن فـي يـده الـزِّنـادُ
وجُـنـدٌ كـالـصـقـور عـلـى صـقـور ... إذا انـقـضـوا عـلـى الأبـطـال صـادوا
إذا أخـفـوا مـكـيـدتـهـم أخـافـوا ... وإن أَبـدوا عـداوتـهـم أبـادوا
ونـصـرة دولـة حـامـيـت عـنـهـا ... وهـل تـخـشـى وأنـت لـهـا عـمـاد
وإن نُـثْـلِ الـقـوافـي مـا تَـلَـثْـهُ ... بـإنْـب مـا يُـؤَبِّـنُـهـا سِـنـادُ
جـرت بـالـنـصـر أقـلام الـعـوالـي ... ولـيـس سـوى الـنـجـيـع لـهـا مِـدَاد
وطـالـت أرؤس الأعـلاج خـصـبـاً ... فـنـادى الـسـيـف قـد وقـع الـحـصـاد
أحـطـت بـهـم فـكـان الـقـتـل صـبـراً ... ولا طـعـن هـنـاك ولا طِـراد

---

(1) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (1/ 200).
(2) الحروب الصليبية والعلاقات بين الشرق والغرب، ص: 175.
(3) فن الصراع الإسلامي الصليبي، ص: 171.

ولـلإبـرنـز فـوق الـرمـح رأس تـوسّـد والـسّـنـان لـه وسـاد

إلى أن قال:

وأذعـنـتِ الـمـمـالـك واسـتـجـابـت مُـلـبّـيـةً لـدعـوتـكَ الـعـبـادُ[1]

ومما قال ابن القيسراني:

هـذا الـعـزائـمُ لامـا تـدّعـي الـقـضـبُ وذي الـمـكـارم لا مـا قـالـت الـكُـتُـبُ

وهـذه الـهِـمَـمُ الـلاتـي مـتـى خَـطُـبـت تـعـثّـرت خـلـفـهـا الأشـعـار والـخُـطَـبُ

صـافـحـت يـا ابـنَ عـمـاد الـديـن ذُرْوَتَـهـا بـراحـة لـلـمـسـاعـي دونـهـا تـعـب

وهي قصيدة طويلة جاء فيها:

أبـنـاء مـلـحـمـةٍ لـو أنـهـا ذكـرت فـيـمـا مـضـى نـسـيـت أيـامـهـا الـعَـرب

مـن كـان يـغـزو بـلاد الـشّـرك مـكـتـسـباً مـن الـمـلـوك فـنـور الـديـن مُـكـتَـسِـبُ

ذو غـرة مـا سـمـت والـلـيـل مـعـتـكـر إلا تـمـزق عـن شـمـس الـضـحـى الـحُـجُـبُ

أفـعـالـه كـاسـمـه فـي كـل حـادثـةٍ ووجـهـه نـائـبٌ عـن وصـفِـهِ الـلّـقـبُ

فـي كـلّ يـوم لـفـكـري مـن وقـائـعـه شـغـل فـكـل مـديـحـي فـيـه مُـقْـتَـضَـبُ

مـن بـاتـتِ الأُسْـدُ أسـرى فـي سـلاسـلـه هـل يـأسـر الـغُـلْـبَ إلا مـن لـه الـغَـلَـبُ[2]

إلى أن قال:

هـذا وهـل كـان فـي الإسـلام مـكـرمـة إلا شـهِـدتَ وعُـبّـادُ الـهـوى غَـيَـبُ

وقيل فيه قصائد كثيرة من شعراء عصره بسبب فتوحاته ومعاركه التي خاضها مع الصليبيين. وعلى أثر مقتل ريموند دي بواتيه، اضطربت الأوضاع السياسية في أنطاكية، وحلّت الفوضى بها واستولى الهلع على كافة الناس، وصارت الأرض ممهدة أمام قوات نور الدين، لأن الحرب أخذت زهرة الجيش، وأمير البلاد، ولم يعد هناك من يقدم حماية قوية ضد الأخطار التي هددتهم، وطبيعي أن سعى نور الدين إلى الإفادة من انتصاره فعمل على الاستيلاء على عدد من الحصون الأنطاكية في كل الوادي الأوسط لنهر العاصي، ومنها أزمان وإنب، وعم، واجتاح سهل أنطاكية حتى بلغ ميناء السويدية (سان سيمون)، وبذلك قضى على المراكز

(1) كتاب الروضتين (1/ 201).

(2) المصدر نفسه (1/ 175).

الصليبية الأمامية الواقعة بين حلب وأنطاكية، بل إنه هدد أنطاكية نفسها وحاصرها، واتفقت معه المدينة على الاستسلام في حالة عدم مقدم الملك الصليبي بلدوين الثالث، وبالفعل حضر وفرض حصاره على حصن حارم، ولما باء بالفشل، عاد أدراجه إلى أنطاكية وعقد هدنة مع نور الدين[1]. واتجه نور الدين محمود إلى أسر أمير أنطاكية رينو دي شاتيون مثلما فعل ذلك من قبل مع جوسلين الثاني، وبالفعل تم أسره حوالي عام (558هـ/ 1162م) على نحوٍ بَعَثَ الاضطراب في تلك الإمارة الصليبية، وبصورة عكست أسلوب أسر حكام الإمارات الصليبية، مثل أفضل الأساليب حينذاك التي من خلالها يتم إضعاف ذلك الكيان الصليبي وبعث الاضطراب والفوضى في صفوف أبنائه بصورة أو بأخرى[2].

ج ـ **الاستيلاء على أفاميه**: سار نور الدين إلى حصن أفاميه سنة 544هـ وكان حصناً منيعاً على تل مرتفع عال من أحصن القلاع وأمنعها، وكان من به من الفرنج يغيرون على أعمال حماة وشيزر وينهبونها، فأهل تلك الأعمال معهم تحت الذل والصغار، فسار نور الدين إليه، وحصره وضيّق عليه، ومنع مَن به من الفرار ليلاً ونهاراً، وتابع عليهم القتال ليمنعوا الاستراحة، فاجتمعت الفرنج من سائر بلادها وساروا نحوه ليزحزحوه عنها، فلم يصلوا إليه إلا وقد ملك الحصن وملأه ذخائر؛ من طعام ومال وسلاح ورجال، وجميع ما يحتاج إليه، فلما بلغه قرب الفرنج سار نحوهم، فحين رأوْا جدّه في لقائهم رجعوا واجتمعوا ببلادهم، وكان قُصَاراهم أن صالحوه على ما أخذ، ومدحه الشعراء وأكثروا[3].

د ـ **حصار حارم**: في عام 557هـ جمع نور الدين العساكر بحلب، وسار إلى قلعة حارم وحصرها وجَدَّ في قتالها، فامتنعت عليه لحصانتها وكثرة من بها من فرسان الفرنج وشجعانهم، واجتمع الفرنج من سائر البلاد، وساروا نحوه ليرحّلوه عنها، فلما قاربوه طلب منهم المصافَّ، فلم يجيبوه إلى ذلك، وراسلوه وتلطّفوا الحال معه، فعاد إلى بلاده، وممن كان معه في هذه الغَزَاة: الأمير مُؤيد الدولة أسامة بن مرشد بن منقذ، وكان من الشجاعة في الغاية التي لا مزيد عليها، فلما عاد إلى حلب دخل إلى مسجد سيرين، وكان قد دخله في العام الماضي سائراً إلى الحج، فلما دخله يومئذ كتب على حائطه[4]:

لـك الـحـمـدُ يـا مـولاي كـم لـك مِـنَّـةً عـلـيَّ وفـضـل لا يـحـيـط بـه شُـكـري

---

(1) إمارة أنطاكية الصليبية، حسين عطية، ص: 236.

(2) فن الصراع الإسلامي الصليبي، ص: 174.

(3) كتاب الروضتين (1/ 217).

(4) المصدر نفسه (1/ 396).

نـزلـتُ بـهـذا الـمـسـجـد الـعـام قـافـلاً ... مـن الـغـزو مـوفـورَ الـنَّـصـيـب مـن الأجـر
ومـنـه رحـلـت الـعِـيـسـى فـي عـامـي الـذي ... مـضـى نـحـو بـيـت الله ذي الـرُّكـن والـحِـجـر
فـأدَّيـت مـفـروضـي وأسـقـطـت ثـقـل مـا ... تـحـمـلـت مـن وزر الـشَّـبـيـبـة عـن ظـهـري

قال أبو شامة: أذكرني هذا ما كتبه أسامة بمدينة صور، وقد دخل دار أبي عقيل فرآها وقد تهدَّمت وتغيَّرت زخرفتها، فكتب على لوح من رخام:

أحـــذر الـــدنـــيـــا ولا ... تـغـتـر بـالـعـمـر الـقـصـيـر
وانـــظـــر إلـــى آثـــارِ مَـــن ... صَـرَعـتْـهُ مـنَّـا بـالـغُـرورِ
عـــمـــروا وشـــادوا مـــا تـــراه ... مـــن الـمـنـازل والـقُـصُـور
وتـــحـــوّلـــوا مـــن بـــعـــد ... سـكـنـاهـا إلـى سُـكـنـى الـقـبـور[1]

هـ ـ معركة حارم: وفي سنة 559هـ اغتنم نور الدين خُلُوَّ الشَّام من الفرنج وقَصَدهم، واجتمعوا على حارم فضرب معهم المصافَّ، فرزقه الله تعالى الانتقام منهم، فأسرهم، وقتلهم ووقع في الإسار إبرنس أنطاكية، وقومص طرابلس وابن لجوسلين ودُوك الروم، وذلك في رمضان[2]. وقد اشترك في هذه الغزوة ضد نور الدين، القوى الصليبية والبيزنطية والأرمينية[3] وسبب الانتصار لنور الدين أنه لما عاد منهزماً في معركة حصن الأكراد، أقبل على الجد والاجتهاد والاستعداد للجهاد والأخذ بثأره وثأر الإسلام، وغزو العدوّ في عقر داره، ليرتق ذلك الفتق، ويمحو سِمة الوهن ويعيد رونق الملك، فراسل أخاه قطب الدين بالموصل وفخر الدين قرا أرسلان بالحصن ـ أي حصن كيفا ـ ونجم الدين ألبي بماردين وغيرهم من أصحاب الأطراف، فأما قطب الدين أتابك جمع عساكره، وسار مجداً، وعلى مقدّمة عسكره زين الدين نائبه. وأما فخر الدين قرا أرسلان فإنه بلغني عنه أنه قال له خواصّه: على أي شيء عزمت؟ فقال: على القعود، فإن نور الدين قد تحشَّف من كثرة الصَّوْم والصلاة، فهو يلقي نفسه والناس معه في المهالك وكلهم وافقه على ذلك، فلما كان الغد أمر بالنداء في العسكر بالتجهز للغزاة، فقال له أولئك: ما عدا مما بدا ! فارقناك بالأمس على حال ونرى الآن ضدّها ! فقال: إن نورالدين قد سلك معي طريقاً إن لم أنجده خرج أهل بلادي عن طاعتي، وأخرجوا البلاد من يدي، فإنه كاتب زُهّادها وعُبّادها والمنقطعين عن الدنيا، يذكر لهم ما لقي المسلمون من الفرنج، وما نالهم من القتل والأسر والنّهب، ويستمد منهم الدعاء ويطلب منهم

(1) كتاب الروضتين (1/ 397).
(2) المصدر نفسه (1/ 416).
(3) فن الصراع البيزنطي الإسلامي، ص: 175.

أن يحثُّوا المسلمين على الغَزَاة، فقد قعد كلُّ واحد من أولئك ومعه أتباعه وأصحابه وهم يقرؤون كُتُبَ نور الدين ويبكون ويلعنونني ويدعون عليَّ، فلابدَّ من إجابة دعوته، ثم تجهَّز أيضاً وسار إلى نور الدين بنفسه، وأما نجم الدين ألبي فإنه سيَّر عسكراً، فلما اجتمعت العساكر سار نحو حارم، فنزل عليها وحاصرها، وبلغ الخبر إلى من بقي من الفرنج بالسَّاحل ممن لم يسر إلى مصر، فحشدوا وجاؤوا، فقدّم الفرنج البرنس صاحب أنطاكية والقمص صاحب طرابلس وأعمالها، وابن جوسلين وهو من مشاهير الفرنج وأبطالها، والدوك معهم وهو رئيس الرُّوم ومقدَّمُها، وجمعوا من الرَّاجل ما لا يقع عليه الإحصاء، ملؤوا الأرض وحجَبُوا بقسطهم السماء، فحرَّض نور الدين أصحابه، وفرَّق نفائس الأموال على شجعان الرجال، فلما قاربه الفرنج رحل عن حارم إلى أرْتاح[1] وهو إلى لقائهم مرتاح، وإنما رحل طمعاً أن يتبعوه، ويتمكن منهم إذا لقوه.

فساروا حتى نزلوا على عِمَّ[2]، وتيقَّنوا أنهم لا طاقة لهم بقتاله ولا قدرة لهم على نزاله، فعادوا إلى حارم وقد حرمتهم كلَّ خير، وتبعهم نور الدين، فلما تقاربوا اصطفُّوا للقتال، وبدأت الفرنج بالحملة على ميمنة المسلمين، وبها عسكر حلب وفخر الدين، فبدَّدوا نظامهم، وزلزلوا أقدامهم، وولُّوا الأدبار وتبعهم الفرنج، وكانت تلك الضَّرَّة من الميمنة عن اتفاق ورأي دَبَّروه، ومكرٍ بالعدو مكروه، وهو أن يبعد عن راجلهم، فيميل عليهم من بقي من المسلمين، ويضعوا فيهم السيوف، ويرغموا منهم الأنوف، فإذا عاد فرسانهم من أثر المنهزمين لم يلقوا راجلاً يلجؤون إليه، ويعود المنهزمون في آثارهم وتأخذهم سيوف الله من بين أيديهم ومن خلفهم، فكان الأمر على ما دبَّروا، فإن الفرنج لما تبعوا المنهزمين عطف زين الدين في عسكر الموصل على راجلهم، فأفناهم قتلاً وأسراً، وعادت خيَّالتهم ولم يُمعِنوا في الطلب، خوفاً على راجلهم من العطب، فصادفوا راجلهم على الصعيد معفَّرين، وبدمائهم مضرَّجين، فسقط في أيديهم، ورأوا أنَّهم قد ضلُّوا، وخضعت رقابهم وذلُّوا، فلما رجعوا عطف المنهزمون أعنَّتهم، وعادوا، فبقي العدو في الوسط وقد أحدق بهم المسلمون من كلِّ جانب، فحينئذ حمي الوطيس، وباشر الحرب المرؤوس والرئيس، وقاتل الفرنج قتال من يرجو بإقدامه النجاة، وحاربوا حرب من أيس من الحياة، وانقضَّت العساكر الإسلامية عليهم انقضاض الصُّقور على بُغَاة الطيور، فمزَّقوهم بدَداً وجعلوهم قِدَداً، فألقى الفرنج بأيديهم إلى الإسار وعجزوا عن الهزيمة والفرار، وأكثر المسلمون فيهم القتل وزادت عدة القتلى على عشرة آلاف[3].

وقال الذهبي: . . ثم التقاهُم في سنة (559هـ) فطحنهم وأسر ملوكهم، وقتل منهم

(1) كتاب الروضتين (1/ 417).
(2) المصدر نفسه (1/ 418).
(3) المصدر نفسه (1/ 418).

عشرة آلاف بحارم[1]. وأما ما أسروا وهم الذين من قبل ذُكروا[2]. وسار نور الدين بعد الكسرة إلى حارم فملكها في الحادي والعشرين من رمضان، وأشار أصحابه عليه بالمسير إلى أنطاكية ليملكها، لخلوّها ممن يحميها ويدفع عنها، فلم يفعل. وقال: أما المدينة فأمرها سهل، وأما القلعة التي لها، فهي منيعة لا تؤخذ إلا بعد طول حصار، وإذا ضيقنا عليهم أرسلوا إلى صاحب القسطنطينية وسلّموها إليه، ومجاورة بوهيمند أحبُّ إليَّ من مجاورة ملك الروم وبث سراياه في تلك الأعمال والولايات فنهبوا وسبوا، وأوغلوا في البلاد حتى بلغوا اللاذقية والسّويداء وغير ذلك وعادوا سالمين، ثم إن نور الدين أطلق بوهيمند صاحب أنطاكية بمال جزيل أخذه منه، وأسرى كثيرة من المسلمين أطلقهم[3].

تلك كانت أهم ملامح العلاقات النورية الأنطاكية انتصارات تلو انتصارات بلغت ذروتها في حارم، ومع ذلك لم تسفر عن تغير حاسم، وكأن الأحداث أثبتت أن جبهة شمال الشام منغلقة أمام أية توسعات نورية حاسمة مستقبلية طالما أن الإمبراطورية البيزنطية تقف حائلاً دون ذلك، ويلاحظ أن الأخيرة كانت حريصة على إضعاف الصليبيين وتفوقها هي عليهم، غير أنها في نفس الوقت لم تكن لتقبل بانتصار حاسم لنور الدين بل أرادت أن يكون الجميع في موقف ضعف حتى يحتاجوا إليها[4].

3 ـ إمارة طرابلس:

عاصر نور الدين محمود اثنان من أمراء طرابلس، ريموند الثاني سنة (532هـ ـ 547هـ/ 1137 ـ 1151 ـ 1152م)، وريموند الثالث سنة (547 ـ 583هـ/ 1187م) في وقت اتسمت الدولة النورية تجاه إمارة طرابلس بصراع عنيف لإسقاط حصونها وقلاعها، واحتلت تلك الإمارة الصليبية أهمية متميزة لديها نظراً لتصريف التجارة الشامية عبر موانيها إلى عالم البحر المتوسط، ودخلت إمارة طرابلس في صراع مصالح مع الشيعة الإسماعيلية بسبب وقوع قلاع الدعوة الشيعية الإسماعيلية في مناطق إمارة طرابلس، وحيث أن الاغتيال كان سلاح الشيعة الإسماعيلية الرهيب الذي أشهرته في وجوه خصومها، فإن أمير طرابلس ريموند الثاني لم يسلم منه، فقد تمَّ اغتياله[5].

أ ـ حصن أنطرسوس: ورد الخبر في المحرَّم من عام سبع وأربعين وخمس مئة بنزول نور الدين على حِصن أنطرسوس في عسكره وافتتاحه وقتل مَن كان فيه من الإفرنج، وطلب

(1) سير أعلام النبلاء (20/ 415).
(2) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (1/ 4198).
(3) المصدر نفسه (1/ 419).
(4) فن الصراع الإسلامي الصليبي، ص: 177.
(5) المصدر نفسه، ص: 179.

الباقون الأمان على النفوس فأجيبوا إلى ذلك، ورتب فيه الحفظة وعاد عنه وملك عِدَّة من الحصون بالسَّبْي والسَّيف والإخراب والإحراق والأمان[1]. وقال ابن المنير قصيدة يمدح نور الدين ويهنِّئه بفتح أنطرْسوس وغيرها فقال:

أبداً تباشر وجه غزوك ضاحكاً ... وتؤوب منه مؤيداً منصورا

تُدْني لك الأمل البعيد سَواهُم ... مُحِقت أهِلَّتُها وكنَّ بُدُورا

وجاء فيها:

هَتَمتْ طرابلساً فأصبح ثَغْرُها ... البَسَّامُ من عِزِّ الثغور تغيرا

ضحكت لك الأيام واكتأب العِدَى ... قلقاً فجئت مبشراً ونذيرا

لا سُلك إلا ملك محمود الذي ... اتَّخذَ الكِتابَ مظاهراً ووزيرا

تمشي وراء حُدُودِه أحكامه ... تأتُمهنَّ فَيُحكمُ التَّقديرا

يقظان ينشر عدله في دولة ... جاءت لمطوِيِّ السِّماحِ نشورا[2]

وأنشده بحلب في هذه السنة قصيدة اخترت منها هذه الأبيات:

مَلكٌ تكنَّف دين أحمد كِنَّه ... فأضاء نيرهُ وصاب شهابه

فالعدل حيث تصرَّفت أحكامه ... والأمن حيث تصرَّمت أسرابه

متهلِّلٌ والموت في نَبَراته ... يُرجى ويُرْهَبُ خوفه وعقابه

طَبَع الحديدَ فكان منه جَنَانُه ... وسِنَانُه وإهابه وثيابُهُ

ويهش إن كَبَتِ الوجوه كأنما ... أعداؤه تحت الوغى أحبابه

نُشِرت بمحمود شريعة أحمد ... وأرى الصَّحابة ما احتذاه صحابه[3]

ب ـ حصن الأكراد: في عام (558هـ) جمع نور الدين عساكره، ودخل بلاد الفرنج، فنزل بالبقيعة تحت حصن الأكراد، وهو للفرنج عازماً على دخول بلادهم ومنازلة طرابلس فبينما النَّاس في بعض الأيام في خيامهم وسط النهار، لم يرعهم إلا ظهور صُلبان الفرنج من وراء الجبل الذي عليه الحصن فكبسوهم، فأراد المسلمون دفعهم، فلم يطيقوا، فانهزموا،

(1) كتاب الروضتين (1/ 280).
(2) المصدر نفسه (1/ 282).
(3) المصدر نفسه (1/ 282).

ووضع الفرنج السيف، وأكثروا القتل والأسر، وقصدوا خيمة الملك العادل فخرج من ظهر خيمته عجلاً بغير قَبَاء، فركب فرساً هنالك للنوبة، ولسرعته ركبه وفي رجْله شِبْحة[1] فنزل إنسان من الأكراد فقطعها، فنجا نور الدين وقُتل الكردي، فسأل نور الدين عن مخلِّصي ذلك الكردي، فأحسن إليهم جزاءً لفعله، وكان أكثر القتل في السُّوقة والغِلمان.

وسار نور الدين إلى مدينة حمص، فأقام بظاهرها، وأحضر منها ما فيها من الخيام ونصبها على بحيرة قَدسَ على فرسخ من حمص وبينهما وبين مكان الوقعة أربعة فراسخ، وكان النَّاس يظنون أنه لا يقف دون حلب، وكان رحمه الله تعالى أشجع من ذلك وأقوى عزماً، ولما نزل على بحيرة قدس اجتمع إليه كل من نجا من المعركة، فقال له بعض أصحابه: ليس من الرأي أن تقيم ههنا، فإن الفرنج ربما حملهم الطمع على المجيء إلينا ونحن على هذه الحال. فوبَّخه وأسكته وقال: إذا كان معي ألف فارس فلا أبالي بهم قلُّوا أو كثروا، ووالله لا أستظلُ بجدار حتى آخذ بثأر الإسلام وثأري، ثم إنه أرسل إلى حلب ودمشق وأحضر الأموال والدَّواب والأسلحة والخيام، وسائر ما يحتاج إليه الجُنْد، فأكثر وفرّق ذلك جميعه على من سَلم، وأما من قُتل فإنه أقرَّ إقطاعه على أولاده، فإن لم يكن له ولد فعلى بعض أهله، فعاد العسكر كأنه لم يُفقد منه أحد.

وأما الفرنج فإنهم كانوا عازمين على قصد حمص بعد الهزيمة، لأنها أقرب البلاد إليهم، فلما بلغهم مقام نور الدين عندها قالوا: إنه لم يفعل هذا إلا وعنده من القوَّة أن يمنعنا، وكان نور الدين رحمه الله تعالى قد أكثر ـ العطايا ـ إلى أن قَسَمَ في يوم واحد مئتي ألف دينار، سوى غيرها من الدوابِّ والخيام، والسلاح وغير ذلك؛ وتقدَّم إلى ديوانه أن يحضروا الجند ويسألوا كل واحد منهم عن الذي أخذ منه، فكلُّ من ذكر شيئاً كثيراً علم بعض النواب كذبه فيما ادَّعاه لمعرفتهم بحاله، فأرسلوا إلى نور الدين يُنهون إليه القضية، ويستأذنونه في تحليف الجندي على ما ادَّعاه، فأعاد الجواب: لا تكدِّروا عطاءنا فإني أرجو الثواب والأجر على قليله وكثيره[2]. وقال له أصحابه: إن لك في بلادك إدراراتٍ كثيرة وصلات عظيمة للفقهاء والفقراء والصُّوفية والقُرَّاء، فلو استعنت بها الآن لكان أمثل، فغضب من هذا وقال: والله إني لا أرجو النصر إلا بأولئك: فإنما تُرزقون وتُنصرون بضعفائكم. كيف أقطع صِلات قوم يقاتلون عني، وأنا نائم في فراشي بسهام لا تخطئ، وأصرفها إلى من يقاتل عني إذا رآني بسهام قد تخطئ وتصيب! ثم هؤلاء القوم لهم نصيب في بيت المال أصرفه إليهم، كيف أعطيه غيرهم؟ فسكتوا. ثم إن الفرنج أرسلوا إلى نور الدين في المهادنة فلم يجبهم إليها، فتركوا عند الحصن مَن يحميه، وعادوا إلى بلادهم وتفرَّقوا[3]. ومما يذكر في هذه الهزيمة موقف الشيخ

(1) هي التي تربط يد الفرس إلى رجله من لباد ونحوه. (3) المصدر نفسه (1/ 399).
(2) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (1/ 399).

البرهان البلخي حيث قال: أتريدون أن تنصروا وفي عسكركم الخمور والطبول والزمور، كلا. . . . وكلاماً مع هذا، فلما سمع نور الدين ذلك، قام ونزع عنه ثيابه تلك، وعاهد الله تعالى على التوبة، وشرع في إبطال المكوس إلى أن خرج في نوبة حارم وكسر الفرنج[1].

ج ـ فتح حصن المنيطرة وبعض الحصون: اتجه الجيش النوري إلى الاستيلاء على حصن المنيطرة في عام (561هـ/ 1165م) وغنم الغنائم الوفيرة وفي العام التالي (562هـ/ 1166م) تمت مهاجمة المناطق المحيطة بحصن الأكراد، وسلب الغنائم، كذلك تمَّ الاستيلاء على حصن صافيتا والعريمة وهما من حصون الإمارة المنيعة، ووقع صدام بين الجيش النوري، وجيش إمارة طرابلس سنة (565هـ/ 1169م) فيما عرف بمعركة اللبوة، وبعد عامين أي في عام (567هـ/ 1171م) واصل نفس السياسة وتم إرسال القوات لمحاصرة حصن عرقة، واستولت عليه عام (567هـ/ 1171م) واحتوى على جميع ما فيه وغنم الناس غنيمة عظيمة[2]. كانت سياسة نور الدين تجاه إمارة طرابلس تتمثل في الرغبة في السيطرة على قلاعها وحصونها، ولم تحدث معارك كبرى في إمارة طرابلس كالتي حدثت في مواجهة أنطاكية[3]، ومما تجدر الإشارة إليه أن صراع الدولة النورية مع تلك الإمارات قد شهد نوعين من الاحتكاك العسكري، معارك كبيرة مثل: يغرى، وإنب، وحارم، ثم معارك محدودة من أجل إخضاع بعض القلاع والحصون، مثل: المنيطرة، وأنطرطوس، وغيرها[4]. وكانت المعارك جميعها برية ولم تحدث أية معركة بحرية، وقد غدت تلك الناحية عامل ضعف مؤثر في صراع نور الدين محمود ضد الإمارات الصليبية، خاصة إمارتَي أنطاكية وطرابلس اللتين امتلكتا ساحلاً ممتداً من السويدية شمالاً إلى ميناء جونيه جنوباً، ونلاحظ أن محاولات نور الدين محمود لإخضاع ميناء السويدية (سان سيمون) باءت بالفشل، بسبب تصدي مملكة بيت المقدس والإمبراطورية البيزنطية لتوسعات الدولة الطموحة في ذلك الاتجاه، وأدى ذلك إلى عدم تملك الدولة النورية أية موانٍ[5].

ثالثاً: العلاقات النورية ـ البيزنطية:

عاصر عهد نور الدين محمود في بلاد الشام عهد الإمبراطور البيزنطي مانويل كومنين سنة (540 ـ 575هـ/ 1145 ـ 1180)[6]، الذي تولى عرش الإمبراطورية خلفاً لحنا كومتين، وقد

(1) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (1/ 380).
(2) المصدر نفسه (1/ 224).
(3) فن الصراع الإسلامي الصليبي، ص: 183.
(4) المصدر نفسه، ص: 184.
(5) المصدر نفسه، ص: 184
(6) المصدر نفسه، ص: 184.

كان مانويل إمبراطوراً يؤمن بفكرة السيادة العالمية، وساعده على تحقيق ذلك أنه كان دبلوماسياً ماهراً ورجل دولة قديراً، وقد كانت له سياسته في الشرق والغرب معاً، ورغب مثل أسلافه في فرض سلطته على روما سواء إذا كان ذلك عن طريق القوة أو بالاتفاق والتعاون مع البابوية[1]، وأراد القضاء على الإمبراطورية الغربية التي نظر إليها البيزنطيون على أنها مغتصبة لحقوقهم، ولذا فقد اتخذ موقفاً عدائياً من الإمبراطور الألماني فردريك باربا روسيا، وقد توجهت سياسة الدولة النورية نحو الإمبراطورية البيزنطية من خلال دوافع اقتصادية وسياسية واستراتيجية عسكرية[2].

ـ **أما الدوافع الاقتصادية**: فتمثلت في رغبة نور الدين محمود في استمرار الصلات التجارية بين الطرفين، فمعلوم أن الإمبراطورية البيزنطية عُدت سوقاً رائجة لمنتجات الشرق التي دخلت الدولة النورية طرفاً هَاماً في عملية استيرادها وتصديرها من بعد ذلك للقوى الأوروبية ومنها الإمبراطورية البيزنطية، وقد دعم الصلات التجارية بين الجانبين مرور أحد الطرق التجارية الدولية المهمة بمناطقها، ونعني به طريق الشرق الأقصى ـ الخليج العربي ـ الشام، وقد بدأ من رأس الخليج العربي إلى البصرة ثم بغداد واتخذ اتجاهين صوب الشمال نحو ديار بكر والثاني باتجاه غربي نحو دمشق، ومنها إلى موانئ شرق البحر المتوسط مثل: اللاذقية، وطرطوس، وعكا، وغيرها، ومن تلك الموانىء شرق البحر المتوسط مثلت دور الوسيط التجاري بين الدولة النورية والإمبراطورية البيزنطية[3].

ـ **وأما الدوافع السياسية**: حاول نور الدين محمود استثمار الخلافات القائمة بين الجانبين من أجل محاولة إيجاد توازن في علاقات الإمبراطورية البيزنطية بدولته وبالكيان الصليبي في بلاد الشام، وساعده على ذلك أن تلك الإمبراطورية احتاجت إلى قوته من أجل استمرار الصراع مع الصليبيين وإلحاق الخسائر بهم، على نحو يجعلهم يطلبون عون البيزنطيين ولا تغيب سطوتهم عن بلاد الشام وهذا ما هدفوا إليه. ومن أجل تحقيق سياسة توازن القوى في المنطقة، وعدم ارتماء بيزنطة بثقلها في دعم الصليبيين، نجد أن نور الدين عمل على تبادل السفارات مع الإمبراطور البيزنطي، وكذلك الهدايا، ثم لم يجهر بالعداء تجاه تلك الإمبراطورية، بل حاول أن يكسب صداقتها بقدر الإمكان، ونجد ذلك واضحاً بالنسبة للغة المصادر الرسمية، فعلى حين أشارت بالعداء الكامل تجاه الصليبيين، فإنها كانت أقل حدة عندما أشارت إلى الروم أي البيزنطيين[4]، ولا مراء في أن الدولة النورية نجحت في تحقيق

(1) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين، ص: 186.
(2) المصدر نفسه، ص: 188.
(3) فن الصراع الإسلامي الصليبي، ص: 188.
(4) المصدر نفسه، ص: 189، ذيل تاريخ دمشق، ص: 357.

تلك السياسة التي مارستها أيضاً الإمبراطورية البيزنطية، وهي التي رأت أن دبلوماسيتها ينبغي أن تقوم على أساس شغل القوى السياسية المجاورة بصراعاتها لإضعافها، من أجل أن تقوى الإمبراطورية نفسها، ولا شك في أنها هدفت إلى استمرار صراع الدولة النورية مع الصليبيين[1].

ـ **وأما الدوافع الاستراتيجية العسكرية**: فيمكن ملاحظاتها من خلال أن الإمبراطورية البيزنطية شكلت قوة عسكرية كبيرة في المنطقة، وقد فاقت قوة الدولة النورية بصورة كبيرة ويمكن إدراك ذلك من خلال إشارات المصادر عن حجم الهلع الذي انتشر في الأعمال الإسلامية الشامية[2] خلال مقدم مانويل كومنين بقواته مشاركاً الصليبيين، لقد حرصت الدولة النورية على تجنب الصدام العسكري مع البيزنطيين بمفردهم أو من خلال تحالفهم مع الصليبيين، فمختصر سياسة نور الدين تجاه الدولة البيزنطية يهدف إلى تحييدها وعزلها عن بقية القوى الصليبية في المنطقة في بلاد الشام وفي الاتجاه الجنوبي الغربي صوب الدولة الفاطمية[3].

1 ـ تجديد التحالف بين مملكة بيت المقدس والإمبراطورية البيزنطية:

كانت الخطة التي وضعها بلدوين الثالث لاستقطاب مانويل هي المصاهرة، فأرسل لهذا الغرض سفارة إلى البلاط البيزنطي في منتصف عام (552هـ/ صيف عام 1157م) برئاسة أرتارد رئيس أساقفة الناصرة، الذي توفي في الطريق، وعضوية كل من همفري الثاني سيد تبنين[4]، وجوسلين بسيليوس ووليم دي باري، لطلب يد الأميرة تيودورة ابنة إسحاق أخي الإمبراطور[5]، أحسن مانويل استقبال السفارة، وكان أن تمّت الصفقة على أن تكون هدية الزواج التي يقدمها بلدوين الثالث لعروسه مدينة عكا وما يتبعها من أراضٍ، والراجح أن المفاوضات تطرقت إلى أوضاع الصليبيين المتردية مقابلة بتعاظم قوة نور الدين محمود، وما يمكن أن يقدمه الإمبراطور من مساعدة. ومن الواضح أن مانويل استغل هذه الزيجة التي تمت في شهر رجب عام (553هـ/ شهر آب عام 1158م) للقيام بمحاولة أخرى يسترد بها حقوق الإمبراطورية في كيليكية وأنطاكية، ويبدو أنه وعد الملك الصليبي بالاشتراك في حلف لمناهضة نور الدين محمود وتأديب رينولد شاتيون صاحب أنطاكية، وكان هذا الأخير قد

(1) فن الصراع الإسلامي الصليبي، ص: 189.
(2) ذيل تاريخ دمشق، ص: 357، فن الصراع الإسلامي الصليبي، ص: 190.
(3) فن الصراع الإسلامي الصليبي، ص: 190.
(4) تبنين: بلدة في جبال بني عامر المطلة على بانياس بين دمشق وصور.
(5) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام، ص: 307.

حالف ثوروس الثاني صاحب أرمينية الصغرى ضد سلاجقة الروم والدولة البيزنطية معاً، في الوقت الذي اتخذ فيه الإمبراطور البيزنطي من سلاجقة الروم حاجزاً يقي أملاكه في آسيا الصغرى من تضخُم نفوذ الأمير الأرميني[1].

2 ـ مانويل يغزو كيلكية:

لم تكد الأميرة البيزنطية تيودورة تغادر القسطنطينية في صيف عام (553هـ/ 1158م) متوجهة إلى بيت المقدس، حتى خرج مانويل على رأس جيش يقدر بخمسين ألف جندي، متوجهاً إلى كيلكية ليسترد حقوق الإمبراطورية، ومن ثمّ سيتوجه إلى أنطاكية لإخضاعها وتأديب حاكمها رينولد شاتيون[2]، وكان أن عبر مانويل آسيا الصغرى من شمالها الغربي إلى جنوبها الشرقي متظاهراً بمحاربة السلاجقة حتى يُموِّه على أهداف حملته، واتسم خروجه بالسرية التامة، وكان الأمير الأرميني ثوروس الثاني آنذاك في طرسوس، ولم يساوره أي شك في إمكانية حصول غزو بيزنطي لأراضيه، حتى علم فجأة ذات يوم من شهر رمضان/ شهر تشرين الأول بأن العساكر البيزنطية شوهدت على مسيرة يوم واحد من طرسوس، فهرب إلى الجبال ثم دخل مانويل سهل كيليكية واحتلّ بعض المدن والقلاع الكبرى مثل: طرسوس، وتل حمدون وعين زربة والمعيصة التي اتخذ مقامه فيها، وأضحت كيليكية في قبضته، ولاذ ثوروس بالفرار من مكان إلى آخر[3]، وأرسل مانويل إلى رينولد شاتيون في أنطاكية يستدعيه لمحاسبته على ما فعل بجزيرة قبرص، ويبدو أن حاكم أنطاكية انزعج لقدوم الإمبراطور الذي رابط على حدود إمارته إذ أدرك أنه ليس بوسعه أن يتصدَّى للجيش الإمبراطوري الكثيف، فطلب مساعدة بلدوين الثالث متجاهلاً أن ملك بيت المقدس لا يقلُّ استياء على الإمبراطور، وأخّر مثوله أمام الإمبراطور بانتظار وصوله إلى أنطاكية حيث كان في طريقه إليها، لكن بطانته نصحوه بالإذعان، وعرض على مانويل تسليمه قلعة أنطاكية، ورأى الإمبراطور أن ذلك ليس كافياً، وأصرّ على أن يحضر رينولد شاتيون إلى مجلسه ليقدم خضوعه وولاءه، فاضطر إلى إجابة الطلب فعجّل بالمسير إلى معسكر الإمبراطور خارج أسوار مدينة المعيصة وأعلن خضوعه له[4].

3 ـ مانويل في أنطاكية:

ما إن علم بلدوين الثالث باقتراب مانويل من أنطاكية، حتى عجّل بالمسير نحو الشمال

(1) وليم الصوري (2/ 859)، تاريخ الزنكيين، ص: 307.

(2) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام، ص: 308.

(3) المصدر نفسه، ص: 308، وليم الصوري (2/ 862، 861).

(4) تاريخ الزنكيين في الموصل، ص: 308.

يرافقه أخوه عموري والبطريرك إيمري، فبلغ المدينة عقب عودة رينولد شاتيون إليها، وإذ أظهر ملك بيت المقدس شيئاً من الامتعاض عندما سمع بنبإ العفو عن رينولد شاتيون، بادر فوراً إلى طلب الاجتماع بالإمبراطور، ونتيجة للمباحثات التي جرت بينهما تمَّ الاتفاق على ما يلي:

أ ـ عقد تحالف بين الطرفين.

ب ـ تسوية علاقات بلدوين الثالث برينولد شاتيون، وحصل الأول بالمقابل على وعد من الإمبراطور بالعفو عن ثوروس الثاني، دخل مانويل بعد ذلك مدينة أنطاكية في شهر ربيع الآخر عام (554هـ شهر نيسان/ 1159م) وأجرى مفاوضات أخرى مع بلدوين الثالث ورينولد شاتيون اتسمت بالسرية التامة، اتفق فيها الأطراف الثلاثة على القيام بحملة كبرى ضد المسلمين على أن تكون وجهتها مدينة حلب[1]، ولم تذكر المصادر المعاصرة أن بلدوين الثالث اعترف في تلك المباحثات بسيادة الإمبراطور البيزنطي على الصليبيين في بلاد الشام[2]. والواضح أنَّ ما طرأ من أحداث ترجع على ما يبدو إلى إلحاح الصليبيين على مانويل بهدف القضاء على القوة الإسلامية المتعاظمة التي يقودها نور الدين محمود الذي كان آنذاك يعمل على تقوية نفوذه في بلاد الشام، وأصبح يشكل خطراً على الإمارات الصليبية، وربما كان ما قام به وقتذاك من الموافقة على الدعوة لمهاجمة أملاك نور الدين محمود إنما قصد به صرف أنظار الصليبيين عن التفكير فيما حدث بأنطاكية[3].

4 ـ مانويل في بلاد الشام:

وبدأت الحشود الصليبية والبيزنطية تتحرك باتجاه الطرف الإسلامي، وقد أثارت مخاوف نور الدين، فكتب إلى ولاة الأعمال والمعاقل بإعلامهم ما حدث من الروم، ويبعثهم على استعمال التيقظ والتأهب للجهاد فيهم والاستعداد للنكاية بمن يظفر منهم[4]. ثم مضى إلى حلب والمناطق الشامية الأخرى يشحذ الهمم ويبعث الطمأنينة في نفوس السكان[5]، وبدأت رسل نور الدين تتردد على معسكر الإمبراطور في عمل دبلوماسي سياسي كبير، مع استعداده في نفس الوقت للحرب وتواصل قدوم الأمراء وولاة الأعمال بجنودهم، ومع هذه

---

(1) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام، ص: 308، 309.

(2) المصدر نفسه، ص: 309.

(3) المصدر نفسه، ص: 309.

(4) ذيل تاريخ دمشق، ص: 540، 541، تاريخ الزنكيين، ص: 309.

(5) تاريخ الزنكيين في الموصل، ص: 309.

الكثرة العددية إلا أن نور الدين استهدف العمل على زعزعة الحلف البيزنطي مع مملكة بيت المقدس وأنطاكية ضده، وحتى لا يجعل دولته بين عدوين: الصليبيين في الجنوب والبيزنطيين في الشمال، واستطاعت دبلوماسية الدولة النورية أن تصل إلى صلح مع الدولة البيزنطية، ومعلوم أن البيزنطيين كان لهم باعهم الطويل في شأن الدبلوماسية، وكذلك الحال بالنسبة للدولة النورية التي اتصلت دبلوماسياً بالعباسيين، والفاطميين ومملكة بيت المقدس الصليبية، أي بكافة القوى الكبرى في المنطقة سواء الإسلامية أو المسيحية[1]. والملاحظة المهمة في فقه نور الدين زنكي المثابر في المفاوضات مع الاستعداد الكبير لحشد الجيوش والاستعداد للقتال واستنفار الأمة للتصدي، وقد تخلل الاتصالات الدبلوماسية تبادل هدايا ومحاولة توطيد الصلات السياسية بين حلب والقسطنطينية[2] ومهما يكن من أمر، فإن الاتفاق بين الطرفين احتوى على:

أ ـ إطلاق نور الدين محمود سراح ستة آلاف من الأسرى النصارى الذين كانوا معتقلين بسجونه مُنذ الحرب الصليبية الثانية[3].

ب ـ تعهده بمساندة مانويل في حروبه ضد سلاجقة الروم[4]. وقد اتفقت المصادر العربية والبيزنطية والصليبية الشرط الثاني[5]، وقد فرح المسلمون بهذا الاتفاق وبرحيل الإمبراطور بعد الصلح إلى بلاده، مشكوراً محموداً ولم يؤذ أحداً من المسلمين[6] وقد ترتب على هذا الصلح نتائج إيجابية منها:

ـ أنها أنهت التحالف البيزنطي الصليبي، وكان على الصليبيين أن يعتمدوا على أنفسهم أو على مساعدات أوروبا في صراعهم مع الزنكيين.

ـ أنها حفظت وحدة الشام، والتي تعد الأساس الهام لأي وحدة بينها وبين مصر.

ـ أنها أعادت التوازن بين الصليبيين والزنكيين بخروج البيزنطيين من الساحة ومن ثَمَّ عاد النزاع بينهما على مصر متوازناً مرة أخرى[7].

لقد استطاعت المهارة السياسية الزنكية أن تدق إسفيناً بين التحالف البيزنطي والصليبي

---

(1) فن الصراع الإسلامي الصليبي، ص: 196.
(2) المصدر نفسه، ص: 197.
(3) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام، ص: 310.
(4) المصدر نفسه، ص: 310.
(5) المصدر نفسه، ص: 310.
(6) ذيل تاريخ دمشق، ص: 310، تاريخ الزنكيين، ص: 310.
(7) الدولة العباسية من التخلي عن سياسات الفتح إلى السقوط، ص: 137.

وهذا لم يأتِ بدون دفع ثمن وإنما لتنازلات غير عادية، فقد اتخذ نور الدين خطوة يصعب تقييمها إلا بوصفها من قبيل القرارات الصعبة المصيرية، فلعلم نور الدين محمود بعداء البيزنطيين للروم السلاجقة، ولتقديره أن معركته الحالية والمرحلية ضد الصليبيين وليست ضد البيزنطيين، فإنه وازن بين الإطاحة بمشروعاته على يد الحملة الصليبية البيزنطية، وبين الوقوف ضد سلاجقة الروم، فاختار الخيار الثاني وتفاهم مع الإمبراطور البيزنطي ضد السلاجقة، فقبل الإمبراطور وانسحب من الحلف الصليبي، فأوقف الحملة وزال الخطر، وكان من أعظم النتائج التي ترتبت على هذه الخطوة أن تم استبعاد السلاجقة الروم من الصراع الدائر في المشرق، ذلك أن الإمبراطور البيزنطي سرعان ما قام بحملة ضد السلاجقة وتعرض قلج أرسلان الثاني لضغط ثلاثي من ياغي أرسلان الدشمند والزنكيين والدولة البيزنطية، ولما لم يكن باستطاعته أن يحارب على جميع الجبهات جنح إلى السلم وبدأ بالجانب الإسلامي، وتمّ الصلح أولاً بينه وبين نور الدين محمود[1].

وقد أحسن نور الدين في الأداء السياسي مع مانويل، وقد تمثل دهاء نور الدين محمود السياسي في عدم إثارته للصراع مع الإمبراطورية البيزنطية، واتجاهه إلى عقد اتفاق سلمي معها، وذلك من أجل تجنب تحالف صليبي ـ بيزنطي ضد دولته على نحو يؤدي إلى خسائر فادحة تلحق بهما، ولا شك أنه استغل خبرة دولته الدبلوماسية من أجل إجراء تلك المفاوضات، واستطاع تحجيم خطرها من خلال الاتصالات الدبلوماسية، وقد ساند النجاح السياسي الكبير قوة عسكرية ضارية استطاعت مواجهة التحالف العسكري البيزنطي ـ الصليبي ومعه الأرمن في معركة حارم عام (559هـ/ 1164م)[2].

إن مقاومة الغزاة تحتاج لمشروع نهضوي إسلامي على أصول أهل السنة يستوعب طاقات الأمة ويكون للقيادة القدرة على الاستفادة من إمكانياتها الكبيرة في المجال العسكري والسياسي، والاقتصادي والتربوي والاجتماعي، والعلمي، والإعلامي.. إلخ.

رابعاً: أهم الدروس والعبر والفوائد:

في هذا الفصل كثير من الدروس والعبر والفوائد منها:

1 ـ التفكير الاستراتيجي عند نور الدين:

بعد أن تولى نور الدين الحكم كرّس جهوده وإمكانيات دولته لحرب الصليبيين وجعل

(1) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام، ص: 206. (2) فن الصراع الإسلامي الصليبي، ص: 312.

القضاء على ممالكهم وإماراتهم وتحرير البلاد من احتلالهم من أهدافه الاستراتيجية، وسعى لتحقيق ذلك بكل ما يملك من قوة، وخاض ضدهم معارك عديدة قتلوا وأسروا خلالها أمراءهم وقادتهم وعشرات الآلاف من رجالهم، واستعاد أكثر من خمسين موقعاً وبلدة ومدينة منهم، ونور الدين محمود لم يكن قائداً عسكرياً فقط، بل كان زعيماً سياسياً يعلم أن للسياسة الدور الأكبر في مواجهة العدو، وأن استخدام القوة العسكرية وخوض العمليات العسكرية إنما يكون لتحقيق الأهداف السياسية، فإذا أمكن تحقيق هذه الأهداف دون الحاجة إلى استخدام القوة العسكرية أو باستخدامها، كتهديد فقط دون التورط في القتال، فإن ذلك أفضل وأوفر للرجال والمال، ومع أن تطبيق هذا المبدإ على حالة المسلمين مع الفرنجة لا يستقيم، لأن النزاع بينهما في بلاد الشام هو نزاع وجود، فلا تتحقق أهداف المسلمين إلا بالقضاء على الفرنجة، وهذا لا يتم إلا باستخدام القوة العسكرية في نهاية الأمر، إلا أن النزاع طويل ولابد أن تتخلّله فترات هدوء يتم فيها الاستعداد والتحضير للجولات القادمة، أو التحول من جبهة إلى أخرى، كانت فترات الهدوء تحصل في بعض الأحيان بالاتفاق بين الطرفين على هدنة محددة المدة، لسنتين أو ثلاث سنوات، لا تجري فيها عمليات عسكرية بين الطرفين.

وكان نور الدين لا يوافق على هدنة مع إحدى الإمارات الفرنجية إلا إذا كان ينوي التركيز على المواجهة مع إمارة أخرى، أو التفرغ لمعالجة بعض القضايا الداخلية، ففي عام (543هـ/ 1148م) اضطر إلى منح جوسلين أمير تل باشر هدنة لمدة عامين، لأنه لجأ إلى معسكره رافعاً الرايات البيض مستجيراً وطالباً حماية نور الدين واعتبر نفسه تابعاً له[1]، كان الموقف محرجاً لنور الدين فهو لا يرغب منح جوسلين حمايته واعتباره أحد أتباعه، ولا يستطيع ردّه خائباً عملاً بآداب العقيدة السمحة وتقاليد الفروسية التي كان يتمثل بها ويحرص عليها، فكانت الهدنة لمدة سنتين حلاً وسطاً بين الحالتين.

وفي عام (544هـ/ 1149م) حاصر نور الدين مدينة أنطاكية وطال الحصار دون أن يتمكن من فتحها، فعرض عليه الفرنجة أموالاً وهدايا وطلبوا منه مهلة يقررون خلالها أمرهم، فأمهلهم وسار إلى حصن أفاميا القريب من أنطاكية، وكانت تحت الحصار أيضاً فافتتحه وعاد إلى أنطاكية يطلب من أهلها الاستسلام ويعرض عليهم الأمان لأنفسهم إذا استسلموا، ولكنّهم تحصّنوا بالمدينة ورفضوا العرض، وكان نور الدين قد علم بقدوم جيش الفرنجة من الجنوب لنجدة المدينة، كما وصلته أخبار عن معارك بين جوسلين أمير تل باشر وقلج أرسلان سلطان سلاجقة آسيا الصغرى، فاضطر إلى الاتفاق مع فرنجة أنطاكية على أن تكون المواقع القريبة

(1) نور الدين، د. حسين مؤنس، ص: 230.

من المدينة فقط تابعة لهم، وأن تكون باقي المناطق باتجاه الشرق تابعة لحلب، ورفع الحصار عن المدينة متوجهاً نحو الشرق ليراقب الأحداث الجارية على الحدود الشرقية لمملكته[1].

وفي عام (549هـ/ 1154م) بعد استيلائه على دمشق التزم نور الدين بالهدنة التي كانت قائمة بين مجير الدين آبق حاكم دمشق وملك بيت المقدس وحدّدها عام (551هـ/ 1156م) لمدة عامين آخرين ليتفرغ لعلاقاته مع جيرانه في الشمال سلاجقة آسيا الصغرى والأراتقة في الجزيرة الفراتية[2]. ولكن ملك بيت المقدس نقض الهدنة في العام التالي واعتدى على بعض المواقع والبلدان التابعة لدمشق ونهبها، فانتقم منه نور الدين وانتصر عليه في عدة مواقع[3].

وفي عام (554هـ/ 1159م) وَقّع نور الدين هدنة طويلة الأجل مع إمبراطور القسطنطينية مانويل كومنين الذي وصل على رأس جيش كبير إلى أنطاكية وحاول أمراء الفرنجة معه من أجل توريطه غزو حلب، فراسله نور الدين واتفق معه على هدنة طويلة الأجل، وأطلق سراح بعض الأسرى النصارى، الذين أسرهم نور الدين وأرسل الإمبراطور لنور الدين هدايا كثيرة وثمينة، الأمر الذي أغاظ أمراء الفرنجة، وأفشل مساعيهم وجهودهم للتحالف مع الإمبراطور ضد نور الدين[4].

وفي عام (567هـ/ 1172م) كان تركيز نور الدين على الجبهة الجنوبية مع مملكة بيت المقدس، فقد كان يعتقد أن الوقت قد حان لتوجيه الضربة القاضية لها، بعد ضم مصر واستقرار الأوضاع فيها، فوقّع هدنة مع إمارتَي طرابلس وأنطاكية ليتفرغ لأمر مملكة القدس... ولكن توفي قبل أن يحقق ذلك[5].

كان الدور السياسي لنور الدين محمود أهم الأدوار في حياته، فقد حقّق من خلاله أعظم إنجازاته بتوحيد المشرق الإسلامي، بلاد الشام ومصر وشمال العراق وشبه جزيرة العرب في دولة واحدة بزعامته، فكان هذا الإنجاز المرحلة الأساسية في مقاومة غزو الفرنجة والقضاء عليهم فيما بعد، وقد بذل نور الدين جهوداً مضنية في سبيل تحقيق هذا الإنجاز. ظهرت من خلالها حكمته ومهارته السياسية، لقد كان واضح الرؤية مُنذ بداية حكمه حتى نهايته، فقرَّر أهدافه الإستراتيجية الرئيسية وحدّد أولوياتها، ووضع الخطط المحكمة لتنفيذها فكان كما قيل: عبقرياً في التخطيط والتنفيذ[6]، قضى أولاً على إمارة الرها التي كانت تشكل

(1) عيون الروضتين، نقلاً عن دور نور الدين في نهضة الأمة، ص: 167.
(2) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة، ص: 167.
(3) المصدر نفسه، ص: 167.
(4) المصدر نفسه، ص: 167.
(5) الباهر، ص: 154، دور نور الدين محمود في نهضة الأمة، ص: 168.
(6) الصراع الإسلامي الفرنجي على فلسطين، هادية الدجاني، ص: 283.

تهديداً خطيراً لدولته من جهة الشرق، فلا يستطيع أن يتوجّه غرباً أو جنوباً دون أن يحسب حسابها، ثم ركّز على إمارتي أنطاكية وطرابلس فجردها من جميع المواقع شرق نهر العاصي، وحصرهما في شريط ضيق على البحر، وأصبحا لا يشكلان خطراً كبيراً على دولته، وتفرّغ بعد ذلك لضمّ دمشق، فاستولى عليها دون إراقة دماء في خطة رائعة كانت مزيجاً من الدهاء والتهديد والترغيب، ومن بعد ذلك تطلع إلى مصر وأخذ يتهيأ لضمها، وعندما سنحت الفرصة لذلك أظهر من العزم والتصميم والصبر والمرونة ما حقق له الفوز على الفرنجة وحليفهم الوزير المصري شاور، وعندما لاحت الفرصة لضم شمال العراق عام (566هـ/ 1171م) لم يتردد في اغتنامها فاستولى على الموصل دون إراقة دماء أيضاً بفضل ما يكنُّه أهلها له من حب واحترام[1].

كان نور الدين حاكماً عظيماً، واكتسب احترام رعاياه وأعدائه على حد سواء[2]، وكان دوره السياسي سلسلة من النجاحات والإنجازات العظيمة المتوالية التي وضعته عن جدارة واستحقاق في مكان الصدارة بين الزعماء السياسيين في زمنه، وجعلت منه مثالاً رائعاً للقيادة السياسية الحكيمة الناجحة على مدى الأزمان من بعده[3].

2 ـ أهمية صلاح أولي الأمر:

ورد ذكر أولي الأمر في القرآن الكريم أكثر من مرة، وفرض طاعتهم على المؤمنين وقرنها بطاعته وطاعة رسوله ﷺ، كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: 59]. وقال في آية أخرى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ [النساء: 83].

و﴿أُوْلِي ٱلْأَمْرِ﴾ صنفان: الأمراء والعلماء وقدّمهم على الحكام بقوله: ليس شيء أعز من العلم؛ الملوك حكام الناس والعلماء حكام الملوك[4]. ويعتبر العلماء أهل الفكر بينما يعتبر الحكام أهل السياسة، ولابد أن يعمل أهل الفكر وأهل السياسة معاً حتى تتحقق مواصفات القيادة الصالحة للأمة[5]، يقول الإمام الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا المعنى: الملك والدين توأمان، الدين أصل والسلطان حارس، وما لا أصل له فمهدوم، وما لا حارس له فضائع[6]. ونتذكر هنا قول السلطان نور الدين محمود: إنما نحن شحن للشريعة نمضي أوامرها[7]. وقوله: نحن نحفظ الطرق من لص وقاطع طرق، والأذى الحاصل منهما قريب، أفلا نحفظ الدين ونمنع عنه ما يناقضه[8]. وقد رحم الله الأمة بأن هيأ لها قيادة صالحة تمثلت

(1) دور نور الدين محمود في غزو الأمة، ص: 168.
(2) تاريخ الحروب الصليبية (4/ 613)، ستيفن رنسيمان.
(3) دور نور الدين في نهضة الأمة، ص: 169.
(4) السياسة الشرعية، ص: 159.
(5) إحياء علوم الدين (1/ 7)، دور نور الدين محمود في نهضة الأمة، ص: 232.
(6) إحياء علوم الدين (1/ 17).
(7) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة، ص: 232.
(8) الكواكب الدرية في السيرة النورية، ص: 232.

في السلطان نور الدين محمود الذي جمع من حوله العلماء والفقهاء وأشركهم في السلطة وأعاد لهم اعتبارهم الذي يستحقونه، وسار على طريق الخلفاء الراشدين، فنهضت الأمة من جديد، وتعافت من جراحها واستعادت قوّتها وأرضها ومقدساتها وكرامتها[1]، وصدق الشاعر عندما قال:

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم ولا سراة إذا جهالهم سادوا

والبيت لا يبتني إلا على عمد ولا عماد إذا لم ترس أوتاد

فإن تجمع أوتاد وأعمدة ويوماً فقد بلغوا الأمر الذي كادوا[2]

وحتى تخرج الأمة من أزمتها الراهنة لا بد من صلاح أولي الأمر بصنفيهم: الحكام والعلماء، ولا بد من تعاونهم ليكونوا فريقاً واحداً في قيادة واحدة تسير على نهج السلف الصالح، وللأمة في تاريخها خير عظة وعبرة، ولها العبرة كذلك من الدول المتقدمة في الوقت الحاضر حيث تشكل مراكز البحوث والدراسات الكثيرة المختلفة الأغراض مرجعاً للحكام في تلك الدول، لتنفيذ سياستهم وتحقيق مصالح بلادهم، وفي دولة العدو (إسرائيل) يضع أهل الفكر من العلماء الخطوط العريضة التي تسير عليها حكومتهم في جميع المجالات[3].

3 ـ الاستفادة من المسيحيين:

قال الذهبي في أحداث سنة 567هـ: وفيها هزم مليح بن لاون الأرمني السِّيسِينيُّ عسكر صاحب الروم، وكان مصافياً لنور الدين، يبالغ في خدمته ويحارب معه الإفرنج، ولما عوتب نور الدين في إعطائه سيْسَ، قال: أستعين به على قتال أهل ملته، وأُرِيحُ طائفة من جندي، وهو سدٌّ بيني وبين صاحب قسطنطينية[4]، وفي رواية لابن الأثير توضح بُعد نظر نور الدين وحسن سياسته في هذا المجال فيقول: ومن جيد الرأي ما سلكه مع مليح بن ليون ملك الأرمن صاحب الدروب، فإنه ما زال يخدعه ويستميله حتى جعله في خدمته سفراً وحضراً، وكان يقاتل به الفرنج، وكان يقول: إنما حملني على استمالته أن بلاده حصينة وعرة المسالك، وقلاعه منيعة وليس لنا إليها طريق، وهو يخرج منها إذا أراد فينال من بلاد الإسلام، فإذا طُلب انحجز فيها فلا يقدر عليه، فلما رأيت الحال هكذا بذلت له شيئاً من الإقطاع على سبيل التآلف حتى أجاب إلى طاعتنا وخدمتنا وساعدنا على الفرنج.

وحين توفي نور الدين وسلك مَن بعده غير هذا الطريق، ملك المتولي للأرمن بعد

(1) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة، ص: 232.
(2) الشهب اللامعة، ص: 237..
(3) دور نور الدين في نهضة الأمة، ص: 233.
(4) سير أعلام النبلاء (21/ 72).

مليح كثيراً من بلاد المسلمين وحصونهم، وصار منه ضرر عظيم وخرق واسع لا يمكن رقعه[1]، وبذلك استطاع نور الدين أن يستفيد من الخلاف بين أرمينية وبيزنطة، وحقق كسباً عسكرياً، وكفل للمسلمين حقن دمائهم وجنب المسلمين معارك رآها خاسرة بعد دراستها، فهو ربيب «الموصل» ذات الجغرافية التي تدخل الجبال تضاريسها الشمالية، وحرب الجبال كما هو معروف غاية في الصعوبة، ومن هنا ضن بدماء المسلمين في غير ضرورة[2].

4 ـ شن حرب استنزاف مستمرة ضد الفرنج:

أعطى نور الدين محمود الأولوية في أهدافه الاستراتيجية من حيث التنفيذ لهدف تحقيق الوحدة بين الدول والإمارات الإسلامية المواجهة للفرنجة، مصر وبلاد الشام، لأنه أدرك من خلال تحليله للموقف الدولي والإقليمي أنه لن يتمكّن من القضاء على دول الفرنجة في بلاد الشام، وخاصة مملكة بيت المقدس قبل تحقيق الوحدة مع مصر[3] وإزالة الجسم الغريب في الأمة المتمثل في الدولة الفاطمية الشيعية الرافضية الباطنية، ثم الاستفادة من الطاقات الكامنة في الشعب المصري ومن إمكانياته الكبيرة في المواجهة الأخيرة التي لا بد أن تشترك فيها دول أوروبا إلى جانب الفرنجة في الشام، وقد حصل هذا بالفعل فيما بعد في زمن صلاح الدين، وثبتت صحة الإستراتيجية التي وضعها نور الدين وبدأ بتنفيذها، ولكنه توفي قبل أن يكملها[4].

ولذلك اتخذ نور الدين قراراً سياسياً في منشئه عسكرياً في طبيعة تنفيذه، وهو يقصد من خلاله إضعاف قوّة الإمارات الفرنجية وكسر شوكتها، وتحطيم معنويات قادتها وأفرادها واسترداد ما يمكن استرداده من المواقع والحصون والقلاع منها، وقتل أكبر عدد ممكن من رجالها، وهذا هو مفهوم حرب الاستنزاف والغاية منها، حتى إذا ما تحققت الوحدة بين بلاد الشام ومصر وتوافرت الإمكانيات العسكرية الكافية تم القضاء على الإمارات الفرنجية وإزالتها من الوجود، ومواجهة كل ما يمكن أن يتبع ذلك من تدخل أوروبي. يظهر صحة هذا التحليل من موقف نور الدين بعد انتصاره الكبير في معركة حارم عام (559هـ/ 1164م) حيث تم إبادة وأسر أغلب الجيش الفرنجي، وكان من بين الأسرى قادة الفرنجة الثلاثة: أمير أنطاكية، وأمير طرابلس، وقائد الحامية البيزنطية في المنطقة، وأصبحت أنطاكية بعد المعركة هدفاً سهلاً، فلما طلب قادة نور الدين محمود منه مهاجمتها واحتلالها قال: أما المدينة فأمرها سهل، وأما القلعة التي لها فهي منيعة لا تؤخذ إلا بعد حصار طويل، وإذا ضيّقنا عليهم أرسلوا إلى

---

(1) الباهر، ص: 169، دور نور الدين في نهضة الأمة، ص: 149.

(2) الحروب الصليبية مواقف وتحديات، ص: 73.

(3) دور نور الدين في نهضة الأمة، ص: 146.

(4) المصدر نفسه، ص: 146.

صاحب القسطنطينية وملكوه إياها، ومجاورة بوهيموند أمير أنطاكية أحب إليَّ من مجاورة ملك الروم[1]، وقبل ذلك عام (544هـ/ 1149م) قضى نور الدين محمود على جيش أنطاكية وقتل أميرها في معركة إنَّب[2]، ثم تقدم إلى أنطاكية وحاصرها فامتنعت ولم يضيِّق عليها الحصار بل تركها بعد أن جرّدها من أغلب حصونها الشرقية.

وفي عام (554هـ/ 1159م) وصل إمبراطور القسطنطينية بجيشه الكبير إلى أنطاكية في عرض واضح للقوة، وحاول أمراء الفرنجة استغلال وجوده مع جيشه الكبير فحرّضوه على مهاجمة حلب واحتلالها، وكان نور الدين محمود يتابع الأحداث، فأرسل سفارة إلى الإمبراطور، واتفق معه على هدنة طويلة بين الطرفين، كما تم تبادل الهدايا، وأطلق نور الدين بعض الأسرى النصارى.

وتدل هذه الحوادث الثلاثة على أن نور الدين محمود كان يتجنب إثارة إمبراطور القسطنطينية حتى لا يضطر إلى مواجهة عدوَّين في وقت واحد، وأنه كان يسعى لتحييد الإمبراطورية البيزنطية ودول أوروبا جميعها حتى تتغيَّر الأوضاع، وتتوافر له الإمكانيات الكافية لمواجهة هذه الأطراف إذا تدخلت، عندها يحوّل حرب الاستنزاف إلى حرب تحرير شاملة يقضي من خلالها على إمارات الفرنجة في بلاد الشام، ويؤكد وجود هذه الاستراتيجية عند نور الدين محمود قوله عندما أرسل له صلاح الدين الأيوبي هدايا من الجواهر والتحف التي استولى عليها من قصور الفاطميين بعد إسقاط دولتهم عام (567هـ/ 1172م) فقد قال: والله ما كان لنا حاجة إلى هذا، وما وصل إلينا عشر معشار ما أنفقناه في العساكر التي جهزناها إلى مصر، وما قصدنا بفتحها إلا فتوح الساحل[3].

وقد حقق نور الدين فوائد كثيرة وإنجازات كبيرة من خلال حرب الاستنزاف التي شنها على الفرنجة طول فترة حكمه سنة (541هـ ـ569هـ) فقد استرجع منهم أكثر من خمسين مدينة وموقعاً وحصناً[4]، وجرّد إمارتي أنطاكية وطرابلس من جميع المواقع والحصون التي كانت لهما شرق نهر العاصي، وجعلهما شريطاً ضيقاً على امتداد الساحل، واسترد بعض المواقع والحصون من مملكة بيت المقدس أهمها حصن بانياس جنوب غرب دمشق[5]، وألحق بالفرنج هزائم منكرة قتل فيها عشرات الآلاف من رجالهم وقادتهم وأمرائهم وأسر أكثر من ذلك، فانخفضت معنوياتهم، وصار هَمَّهم المحافظة على ما بأيديهم، بعد أن كانوا يطمحون للتوسع على حساب بلاد المسلمين[6]، وكان من أهم الإنجازات القضاء على إمارة الرها

(1) عيون الروضتين، نقلاً عن دور نور الدين في نهضة الأمة، ص: 146.
(2) ذيل تاريخ دمشق، ص: 304.
(3) سنا البرق الشامي، ص: 65، دور نور الدين في نهضة الأمة، ص: 147.
(4) الكواكب الدرية، ص: 213، دور نور الدين في نهضة الأمة، ص: 147.
(5) البداية والنهاية، نقلاً عن دور نور الدين محمود، ص: 147.
(6) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة، ص: 147.

نهائياً، وفي المقابل ارتفعت معنويات المسلمين، وحصل نور الدين على ثقتهم ومحبتهم مما سهل له تحقيق وحدة بلاد الشام وشمال العراق ومصر بسهولة ويسر وبدون قتال، باستثناء ما حصل في مصر[1].

5 ـ اعتماد اللين والمرونة والخدعة لتحقيق ما لا يمكن تحقيقه بالقوة:

كان نور الدين محمود بحكم عقيدته وطبيعته التي تميل إلى الرحمة والرأفة يكره إراقة الدماء على غير طائل، ويسعى لتحقيق أهدافه بأقل الجهد والخسائر، ولا يتردد في أساليب المكر والخداع مع العدو. وصفه المؤرخون بأنه كان في السياسة والدهاء على جانب عظيم[2] وأنه كان يكثر أعمال الحيل والمكر والخداع مع الفرنج، وأكثر ما ملكه من بلادهم بهذه الأساليب[3]، اتبع هذا الأسلوب مع جوسلين الثاني (أمير الرها سابقاً) حتى تمكن من أسره ـ كما مرّ بنا.

وفي عام (561هـ/ 1166م)، شنَّ نور الدين غارة مفاجئة بسرية من الفرسان على حصن المنيطرة شرق طرابلس وتمكن من احتلاله بالرغم من مناعته وقوة الحامية المدافعة عنه، ولكنه بالمفاجأة، ولم يجسُر أمير أنطاكية أو أي من أمراء الفرنجة الآخرين على مهاجمته لتوقعهم أنه احتل الحصن بكامل جيشه وليس بسرية صغيرة فقط[4].

وفي عام (559هـ) عندما حاصر الفرنجة وجيش شاور الوزير المصري أسد الدين وجيشه في بلبيس، اشتد القلق بنور الدين وخشي على قواته في مصر، فأرسل مع بعض جنوده أعلام الفرنجة وسلاحهم وملابسهم مما غنمه في معركة حارم ومعركة طبريا[5]، إلى أسد الدين المحاصر في بلبيس حتى ينشرها في أسواق بلبيس وعلى أسوارها أمام أنظار الفرنجة ليذكرهم بما حل بإمارتهم في بلاد الشام، فلما فعل أسد الدين ذلك اضطر الفرنجة لرفع الحصار والعودة إلى الشام[6]، وكان لسلوك نور الدين مع مجير الدين آبق (حاكم دمشق) على الوجه الذي ذكرناه، أكثر الأثر في تسهيل الاستيلاء على دمشق بدون قتال[7].

6 ـ الاستراتيجية العسكرية لنور الدين:

يعرّف المفكّرون العسكريون في العصر الحديث الإستراتيجية العسكرية بأنها: علم وفن بناء وتطوير واستخدام القوات المسلحة لتحقيق الأهداف الوطنية[8]، فإذا قمنا بتطبيق هذا

(1) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة، ص: 148.
(2) الباهر، ص: 169، دور نورالدين محمود، ص: 148.
(3) المصدر نفسه، ص: 148.
(4) المصدر نفسه، ص: 148.
(5) المصدر نفسه، ص: 148.
(6) المصدر نفسه، ص: 148.
(7) المصدر نفسه، ص: 149.
(8) المصدر نفسه، ص: 192.

التعريف على ما قام به نور الدين في المجال العسكري خلال فترة حكمه، فإننا نجد بأنه كان من أعظم الاستراتيجيين في زمنه، فقد بدأ حكمه لإمارة صغيرة تتألف من مدينة حلب وضواحيها تواجه تهديداً خطيراً من قبل الغزاة الفرنجة، ومنافسة شديدة من قِبل الإمارات الإسلامية الأخرى في بلاد الشام، وبعد ثماني سنوات سنة (549هـ/ 1154م) وبعد استيلائه على دمشق أصبح الحاكم الأقوى في المشرق الإسلامي، ومن أقوى الحكام في العالم الإسلامي، والعالم كله، فلا بد من قوة عسكرية توفرت لنور الدين، ولا بد من أنه أحسن إدارتها واستخدامها حتى تَمَكَّن من تحقيق إنجازه المذكور[1]. وتظهر ملامح إستراتيجية العسكرية في النقاط التالية:

ـ **التركيز على النوعية والفاعلية**: اعتمد نور الدين على جيش نظامي كان صغير الحجم في بداية حكمه، ولكنه كان منظماً وفعّالاً، إن نور الدين بطبيعته يهتم بالنوعية أكثر من اهتمامه بالكمية، رائده في ذلك الحكمة المأثورة: القوة القليلة المنظّمة أفضل من القوة الكثيرة المبعثرة[2]، فكان يُحسن اختيار قادته وجنوده ويحسن إعدادهم وتدريبهم وتسليحهم، فيعوّض النقص في عددهم بزيادة فعاليتهم، وزاد نور الدين في حوافزهم بزيادة مرتباتهم وإقطاعاتهم وتثبيت الإقطاع في أبنائهم في حالة استشهادهم، فكانوا يقولون: إنما هي أملاكنا نقاتل دونها[3]. وإذا كان أبناء الشهيد صغاراً عيّن لهم رجلاً أميناً يشرف على إقطاعهم حتى يكبروا، مما زاد في إخلاص الجند وحماسهم ـ وولائهم ـ فكان نور الدين يواجه أعداءه بجيشه الصغير غير مبال بكثرتهم وتفوقهم العددي، وينتصر عليهم، فقد انتصر في معركة إنّب سنة (544هـ/ 1150م) على جيش إمارة أنطاكية، وقتل أميرها بالرغم من تفوق العدو العددي، وكذلك في معركة حارم سنة (559هـ/ 1165م) حقق انتصاراً ساحقاً على تجمع كبير من جيوش عديدة، وكان هذا شأنه في أغلب معاركه مع الفرنجة، وفي سنة (562هـ/ 1168م) انتصر جيشه في مصر بألفين من الفرسان فقط بقيادة أسد الدين شيركوه على جيش الفرنجة بقيادة ملك القدس عموري، وجيش مصر بقيادة الوزير شاور في معركة البابين، وعندما أظهر بعض الجند تردداً أو تخوفاً قبل بدء المعركة بسبب كثرة عدد العدو وقلة عددهم، قام أحد رجال نور الدين المعروفين بشجاعتهم وصاح فيهم: من يخاف القتل والجراح فلا يخدم الملوك، والله لئن عدتم إلى الملك العادل من غير غلبة ولا عذر ليأخذن إقطاعكم وليعودن عليكم بجميع ما أخذتموه منه مُنذ خدمتموه إلى يومنا هذا، ويقول لكم: أتأخذون أموال المسلمين وتفرون من عدوهم وتسلّمون الديار المصرية يتصرف بها الكفار[4].

---

(1) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة، ص: 192. الأمة، ص: 193.

(2) المصدر السابق، ص: 193. (4) الباهر، نقلاً عن دور نور الدين في نهضة الأمة،

(3) الباهر، ص: 168، دور نور الدين في نهضة ص: 193.

أ ـ إعلان الجهاد (التعبئة العامة للأمة): دعا نور الدين مُنذ بداية حكمه للجهاد في سبيل الله، وأعلن أن هدفه تحرير بلاد المسلمين ومقدساتهم من الاحتلال الفرنجي، وراسل باقي الحكام المسلمين في بلاد الشام وشمال العراق؛ ليساهموا معه في تحقيق هذا الهدف وتعزّزت دعوته هذه بما حققه من انتصارات على الفرنجة وما عرف عنه من عدل وصدق وتقوى وزهد، فاكتسب مصداقية كبيرة وتحققت له شعبية واسعة بين عامة المسلمين في بلاد الشام والعراق والجزيرة بمختلف طبقاتهم واتجاهاتهم، وصار في أعينهم رائد الجهاد ضد الفرنجة وأمل المسلمين في استعادة أرضهم ومقدساتهم المحتلة، واستقطبت دعوة الجهاد أعداداً كبيرة من المتطوعين، كان نور الدين يستفيد منهم في عملياته العسكرية، وأوجدت رأياً عاماً قوياً وضاغطاً على الحكام والأمراء ليستجيبوا لدعوة نور الدين، فمن يتخلف منهم عن تلبية الدعوة يتعرض للنقد حتى من رعيته ويتهم بدينه ووطنيته، ويخشى خروج الحكم من يده.

ونجح نور الدين في استثمار هذا الشعور إلى أبعد الحدود، فكان يخطط للمواجهة مع الفرنجة في الوقت والمكان المناسبين، ويطلب العون من باقي الأمراء والحكام المسلمين فيبادرون لإرسال القوات إليه، وغالباً ما كانوا يحضرون بأنفسهم ويضعون أنفسهم تحت قيادته فيتحقق له التفوق على العدو ويحقق الانتصارات الباهرة، ويحصلون بدورهم على حقهم من الغنائم ويعودون إلى إماراتهم. أدّى تكرار هذا العمل إلى توافر القوة الكافية لنور الدين في الوقت الذي يريد، دون تحمل عبء نفقات إدامة هذه القوات خلال فترات الراحة والهدوء، كما أدّت هذه الظاهرة إلى تحسين العلاقة بين الحكام والأمراء العرب المسلمين، وتمتينها على أساس الثقة والتعاون والتنسيق ضد العدو المشترك، وزوال الخلاف والنزاع والتنافس الذي كان قائماً بينهم فيما سبق، وأصبح النزاع في المنطقة واضحاً محدداً بين جبهتين فقط هما: الجبهة الإسلامية وجبهة الفرنجة، وصار نور الدين زعيم الجبهة الإسلامية بدون منافس[1].

ب ـ التدرُّج في مواجهة العدو: كان نور الدين يستخدم قواته حسب إمكانياتها ولا يكلّفها فوق طاقاتها، ويتجنب التورط في معركة بدون تحضير واستعداد يجعله مطمئناً إلى تحقيق النصر فيها، ويقدر قوة عدوه تقديراً صحيحاً ودقيقاً، كما يقرّ قوّته بالمقابل بالمعيار نفسه، وهو في هذا المجال يطبق الحكمة المشهورة: «اعرف عدوك واعرف نفسك تستطيع خوض مئة معركة دون هزيمة»[2]، وهذا لا يعني التقدير العددي فقط، بل كان يأخذ بالاعتبار العوامل الأخرى: المعنويات، والكفاءة والقيادة والأسلحة، واستفاد نور الدين من تجربة الحملة الفرنجية الثانية درساً مهماً، ذلك أن قوة الفرنجة في المشرق الإسلامي لا تقتصر على

(1) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة، ص: 194. (2) المصدر نفسه، ص: 194.

قوة إماراتهم فيه، وإنما تشمل دعم الدول الأوروبية لهم كلما دعت الحاجة، فقرر ألا يخوض معركة فاصلة معهم إلا بعد أن تتوافر لديه القوة الكافية للقضاء على إماراتهم في بلاد الشام ومواجهة احتمالات التدخل الأوروبي، سواء حصل هذا التدخل قبل الفراغ من تدمير الإمارات أم بعد، وقد شكّل هذا القرار السبب الرئيسي في توجّه نور الدين وسعيه الحثيث لضم مصر إلى دولته، للاستفادة من إمكانياتها البشرية والاقتصادية والحصول على القوّة المطلوبة لمواجهة الموقف المذكور[1].

ج ـ **إنهاك العدو واستنزاف قوّته**: إذا كانت القوة اللازمة للقضاء على ممالك وإمارات الفرنجة غير متوفرة لنور الدين قبل استيلائه على دمشق ومن بعد ذلك على مصر، فإن القوة المتوافرة لديه كافية لإيقاع ضربات موجعة بالعدو يتم من خلالها قتل قادته وأفراده وتدمير اقتصاده وتحطيم معنوياته، واسترجاع ما يمكن من الأرض والقلاع والمدن التي اغتصبها من المسلمين، فقرر شن حرب استنزاف ضد الفرنجة يحقق من خلالها ما ذكر أعلاه، بالإضافة إلى رفع معنويات المسلمين وإثارة روح الجهاد في صفوفهم، وما يتحقق من غنائم ومكاسب مادية تحصل من فداء أسرى العدو، تساعد في رفد موارد الدولة وتغطية نفقات الحرب[2].

7 ـ تطبيق نور الدين لمبادئ الحرب الأساسية:

اكتسب نور الدين خبرة واسعة ومهارة فائقة في إدارة الحرب وتطبيق مبادئها قبل تولّيه السلطة، وكان ذلك من خلال مشاركته في جميع المعارك التي خاضها مع والده عماد الدين زنكي على مدى فترة حكمه التي دامت عشرين عاماً (521هـ ـ 541هـ/ 1127 ـ1147م)[3] ومن الطبيعي أن تزداد خبرته ومهارته في هذا المجال بعد تولّيه الحكم من خلال المعارك الكثيرة التي خاضها ضد الفرنجة وغيرهم وحقق فيها انتصارات باهرة، ولعلّ مبادئ الحرب الأساسية لم تكن تحمل نفس الأسماء المعروفة بها في الوقت الحاضر، إلا أن مضمونها لم يتغير مُنذ العصور القديمة، وإنما تغيّرت الوسائل والأسلحة والمعدات وبعض المصطلحات، وما زالت المبادئ نفسها تدرس في المعاهد العسكرية العليا في هذه الأيام، ومن مبادئ الحرب التي طبقها نور الدين:

أ ـ **تحديد الهدف**: كان نور الدين واضح الرؤية مُنذ حكمه، كان هدفه الاستراتيجي الرئيسي في المجال العسكري تحرير بلاد الشام من الاحتلال الفرنجي، وبما أن الهدف

---

(1) الكواكب الدرية، ص: 201.

(2) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة، ص: 195.

(3) الباهر، ص: 74، دور نور الدين في نهضة الأمة، ص: 195.

يتطلب إمكانيات كبيرة جداً لم تكن متوفرة لنور الدين في بداية حكمه، فقد جعل ـ لتحقيق هذا الهدف على مراحل ـ لكل مرحلة هدفها وخطتها المستقلة، والتي تتكامل كلها مع بعضها في سبيل بناء القوة اللازمة لتحقيق هذا الهدف الإستراتيجي وقد فصلنا ذلك فيما مضى.

ب ـ **العمل التعرضي**: يعني هذا المبدأ مهاجمة العدو أولاً والمحافظة على زمام المبادرة، وذلك بضرب العدو باستمرار، وعدم إعطائه فرصة للاستراحة أو إعادة التنظيم ويظهر من سيرة نور الدين أنه كان مبادراً غالباً، وأنه احتفظ بزمام المبادرة في أغلب مواجهاته مع الفرنجة[1].

ج ـ **الحشد**: يعني هذا المبدأ تجميع قوّة ممكنة في المكان والزمان المناسبين لمواجهة العدو والتفوُّق عليه، وقد طبق نور الدين مبدأ الحشد عدة مرات خلال مواجهاته مع الفرنجة[2].

د ـ **المناورة**: قابلية الحركة: يعني هذا المبدأ قدرة القوات على الانتقال بسرعة من مناطق التجمُّع والحشد إلى ميدان المعركة في الزمان والمكان المناسبَين لها، دون أن يتحقق ذلك للعدو، ثم الحركة ضمن ميدان المعركة بالشكل الذي يوفر للقوات فرصة أفضل لضرب العدو والقضاء عليه، وهذا ما كان يفعله نور الدين باستمرار في إطار تطبيقه لمبدإ العمل التعرُّضي، فكان يختار مكان المعركة ويسبق عدوه إليه، وتميز جيشه بسرعة الحركة وسرعة التجاوب لأمر الحركة؛ لأنه كان في حالة استنفار دائمة كما عبّر عن ذلك بنفسه في جوابه لصديقه الزاهد الذي لامه على ممارسته للعبة كرة البولو وتعذيبه الخيل في اللهو واللعب، فكان من ضمن جوابه قوله: إنما نحن في ثغر والعدو منا قريب فربما وقع صوت فتكون الخيل قد أدمنت على سرعة الانعطاف بالكر والفر، فإذا طلبنا[3] العدو أدركناه[4]. وكان الفرنجة في تنقل بين أطراف مملكته لتفقد أحوالها فهو في حركة مستمرة، وتعتبر حملاته على مصر من أروع الأمثلة على المناورة الإستراتيجية السعيدة، كما أنها تميزت بالجرأة والسرعة وحسن التخطيط ودقة التنفيذ، ومن بين الحملات الثلاثة تميزت الثانية بأنها كانت سباقاً بين جيش نور الدين وجيش مملكة القدس على مصر، فكان السبق لجيش نور الدين الذي عبر النيل وجرَّ العدو إلى المكان الذي اختاره للمعركة، فحقق انتصاراً باهراً، بالرغم من أن المسافة التي قطعها أبعد من تلك التي قطعها الجيش الفرنجي. وأما المناورة في ميدان

---

(1) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة، ص: 196.
(2) المصدر نفسه، ص: 197.
(3) المصدر نفسه، ص: 198.
(4) الكواكب الدرية، ص: 55، الباهر، ص: 164.

المعركة فقد كان نور الدين يوليها اهتماماً كبيراً، فكان يخطط للمعركة ويديرها ويشرف على القتال، فإذا التحم الجيشان واشتد القتال وحمي الوطيس اندفع لمشاركة رجاله مما يثير حميتهم وحماسهم فيتحقق النصر، وكان ينظم جيشه في المعركة ثلاثة أقسام كما هو معروف عن السلاجقة في هذا الأمر، ميمنة وميسرة وقلب، وعند الاصطفاف للمعركة يكون القلب للخلف في خطة مرسومة فيندفع العدو خلفه إلى مسافة محددة ثم يثبت القلب ويضغط الجناحات على جيش العدو الذي يصبح محاصراً من ثلاث جهات، وعندما يزداد الضغط على جيش العدو تضيق فسحة المناورة له فترتبك صفوفه ويسارع للهرب من الجبهة المفتوحة في الخلف بشكل غير منظم مما يجعله فريسة سهلة للقتل والأسر، نفذ نور الدين هذه المناورة في معركة إنَّب عام (544هـ/ 1150م)، ومعركة حارم عام (559هـ/ 1164م) بينما نفذها جيش نور الدين في معركة البابين بمصر وكان بقيادة أسد الدين شيركوه، ولقد حقق نور الدين من خلال تطبيقه لمبدأ المناورة وقابلية الحركة وسرعة الحركة فائدة عظيمة بالإضافة إلى تفوّقه على العدو وانتصاره عليه، تمثَّل ذلك بنقل المعركة إلى أرض العدو، فكان الخراب والدمار يحلّ دائماً في مناطق العدو وعلى أرضه بينما تبقى بلاد نور الدين في أمن وسلام[1].

هـ ـ وحدة القيادة: يؤدي تطبيق هذا المبدإ إلى تجاوز الخلافات وتوحيد الجهود، واختصار الوقت والإجراءات، مما يساعد في تحقيق النصر، جمع نور الدين في شخصه بين القيادة السياسية والقيادة العسكرية، فكان الملك وقائد الجيش في الوقت نفسه، وقاد جيشه إلى النصر في أغلب المعارك التي خاضها ضد الفرنجة، وتمكن من توحيد بلاد الشام وشمال العراق والجزيرة ومصر في دولة واحدة بزعامته، فصارت الجبهة الإسلامية صفاً واحداً متراصاً في وجه الغزاة الفرنجة، بقيادة سياسية واحدة وقيادة عسكرية واحدة فتهيأت الظروف لتحقيق النصر[2].

قال الشاعر:

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم ... ولا سراة إذا جهالهم سادوا

والبيت لا يبتني إلا على عمد ... ولا عماد إذا لم ترس أوتاد

فإن تجمع أوتاد وأعمدة ... ويوماً فقد بلغوا الأمر الذي كادوا[3]

---

(1) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة، ص: 200.
(2) المصدر نفسه، ص: 200.
(3) الشهب اللامعة، ص: 237.

و ـ **عنصر المفاجأة**: حقق نور الدين عنصر المفاجأة في أغلب هجماته على الفرنجة، فكان يربكهم ويفقد سيطرتهم على قوّاتهم ويحتل الموقع حصناً كان أم بلدة، أو يقضي على القوة قبل أن تصل النجدة إليهم، حدث هذا في هجومه السريع على مدينة الرها عام (541هـ/ 1147م) وفي هجومه على حصن أفاميه عام (544هـ/ 1150م)، وفي هجومه على حصن بانياس عام (559هـ/ 1167م)[1].

ز ـ **الخديعة**: كان نور الدين يكثر من أعمال الحيل والمكر والخداع مع الفرنجة، وأكثر ما ملكه من بلادهم بهذه الأساليب[2].

ح ـ **الاستخبارات**: كان لنور الدين عيون يثق بصدقهم وأمانتهم في كل مدينة أو حصن ضمن مملكته، وفي الدول والإمارات المجاورة: الفرنجية والإسلامية يزوّدونه بكل ما يستجدّ من أحداث، فيكون باستمرار مُطلعاً على أحوال رعيته وأحوال الدول الأخرى، فيضع خططه على أساس هذه المعلومات، وكان دائم الحركة بين أقاليم مملكته ليتأكد بنفسه من الأوضاع العامة، ومما ساعد في سرعة نقل المعلومات: استخدامه وسيلة اتصالات سريعة جداً، وهي الحمام الزاجل، فقد وضع نظاماً دقيقاً لاستخدام الحمام الزاجل يغطي أطراف مملكته الواسعة ومدنها الكثيرة، فبنى الأبراج على الحدود، وعلى الطرق المؤدية إلى المدن باتجاه الداخل، وركّز على الحدود مع الإمارات الفرنجية ووضع في هذه الأبراج الرجال المدربين على تربية الحمام الزاجل واستخدامه، فكانت الأخبار تأتيه في وقتها، وساعد هذا النظام في كشف تحركات العدو الفرنجي وفي سرعة الإجراءات للرد عليها.

يقول ابن الأثير في هذا المجال: أمر الملك العادل نور الدين باتخاذ الحمام الهوادي، وهي المناسب التي تطير من البلاد البعيدة إلى أوكارها، واتخذت في سائر بلاده، وسبب ذلك أنه اتسعت بلاده، وطالت مملكته، فكانت من حد النوبة إلى باب همذان لا يتخلّلها إلا بلاد الفرنج، وكان الفرنج ـ لعنهم الله ـ ربما نازلوا بعض الثغور، فإلى أن يصله الخبر ويسير إليهم يكونون قد بلغوا بعض الغرض، فحينئذ أمر بذلك، وكتب به إلى سائر البلاد وأجرى الجرايات لها ولمربيّها فوجد بها راحة كثيرة، فقد كانت الأخبار تأتيه لوقتها، فإنه كان له في كل ثغر رجال مرتبون ومعهم من حمام المدينة التي تجاورهم، فإذا رأوا أو سمعوا أمراً كتبوه لوقته وعلقوه على الطائر وسرّحوه، فيصل إلى المدينة التي هو منها في ساعته، فتنقل الرقعة منه إلى طائر آخر من البلد الذي يجاورهم في الجهة التي فيها نور الدين، وهكذا إلى أن تصل الأخبار إليه، فانحفظت الثغور بذلك[3].

---

(1) دور نور الدين محمود، ص: 200

(2) المصدر نفسه، ص: 200.

(3) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة، ص: 202.

كان نور الدين يدرك أهمية المعلومات وأهمية التأكد من صحتها، لأن نجاح خططه التي يضعها على أساس هذه المعلومات يعتمد على مدى دقتها وصحتها، ولذلك لم يعتمد فقط على العملاء (العيون) الذين كانوا يحصلون على مرتبات ومكافآت وافرة مقابل ما يقدمونه، كوظيفة رسمية، بل كان له أصدقاء كثر من التجار والزهاد المتجولين في البلاد وبين الناس وكانوا يراسلونه باستمرار ويزودونه بالأخبار، والأهم من هذا أنه كان يحصل على المعلومات عن الإمارات الفرنجية بطريقة تعرف في العلم العسكري الحديث باسم: **الاستطلاع بالقوة**، فكان يرسل سرايا من جيشه ينتخبهم من الفرسان الأشداء إلى مناطق العدو ينفذون إغارات سريعة على مواقع العدو وحصونه ويتوغلون في بلاده، وربما أقاموا معسكرات متنقلة سرّية كلما اكتشفهم العدو وطاردهم انتقلوا إلى مكان آخر، ثم يعودون بعد فترة بالكثير من المعلومات، وربما كان معهم بعض الأسرى من العدو يمكن الاستفادة من معلوماتهم أيضاً[1]، ويمكن اعتبار حملته الأولى على مصر من باب الاستطلاع بالقوة، للتعرف على أحوال مصر بالإضافة للمهمة الرئيسية التي كلفت الحملة بها[2].

ط ـ التقرُّب غير المباشر: طبق نور الدين هذا المبدأ عندما قرّر اتباع سياسة التدرّج في مواجهة العدو، فبدأ بأضعف الإمارات الفرنجية، إمارة تل باشر، بقايا إمارة الرها، وبعد أن فرغ منها توجه بقوته نحو إمارة أنطاكية فجرّدها من جميع الأراضي التي كانت تسيطر عليها شرق نهر العاصي، وتحوّل إلى إمارة طرابلس ففعل بها مثل ذلك، وعندما حان وقت توجيه الضربة القاضية لمملكة بيت المقدس كانت خطته تقضي بالبدء من حصن الكرك الذي كان يعد نقطة ضعف بالنسبة لمملكة القدس، بالرغم من مناعته، كحصن، ولكنه يقع في أطراف المملكة، ولا بد لإنقاذه من توجه الجيش الفرنجي إلى منطقة الكرك مما يسهل على نور الدين اختيار مكان المعركة وجرّ العدو إليها[3]، ويظهر بوضوح تطبيق نور الدين لمبدأ التقرب غير المباشر في تعامله مع الإمارات الفرنجية في بلاد الشام، خلال حملاته الثلاث على مصر، فقد كان يستغل توجه جيش مملكة القدس إلى مصر، ويهاجم إمارة أنطاكية أو إمارة طرابلس أو أراضي مملكة بيت المقدس، ليحقق تخفيف الضغط عن جيشه في مصر من جهة، ويحقق انتصارات ومكاسب في موقف يعتبر العدو فيه ضعيفاً من جهة أخرى.

ففي عام (559هـ/ 1164م) وبينما كان جيش مملكة القدس والجيش المصري يحاصران جيش نور الدين في بلبيس، توجه نور الدين بالقوات التي تجمعت لديه من الموصل والجزيرة

(1) دور نور الدين في نهضة الأمة، ص: 202.
(2) المصدر نفسه، ص: 202.
(3) المصدر نفسه، ص: 203.

إلى مدينة حارم وحاصرها، فتجمعت جيوش الفرنجة من أنطاكية وطرابلس بالإضافة إلى الحامية البيزنطية في أنطاكية لإنقاذها، وهذا ما كان يخطط له نور الدين، فسحق هذه الجيوش وأسر جميع الأمراء المشاركين واحتل حارم، ثم استثمر الفوز وتوجه إلى بانياس التي تتبع لمملكة بيت المقدس وحاصرها واحتلّها، فاضطر ملك القدس لرفع الحصار عن جيش نور الدين في بلبيس والإسراع بالعودة إلى مملكته، وكان هذا أيضاً ما خطط له نور الدين وقد حققه بهجوم مفاجئ وسريع على مكان ضعيف وبعيد عن بلبيس حيث يوجد جيش مملكة القدس، وكرّر نور الدين هذه الإستراتيجية عام (562هـ/ 1167م)، عندما حاصر الفرنجة والبيزنطيون مدينة دمياط في مصر، ونجح في المرتين الأخيرتين كما نجح في المرّة الأولى في تحقيق انتصارات باهرة في الشمال وإنقاذ جيشه المحاصر في مصر[1].

ي ـ الجاهزية القتالية: كان نور الدين القدوة الحسنة في تطبيق هذا المبدإ، فقد كان كما قيل: أصبر الناس في الحرب وأحسنهم مكيدة ورأياً وأجودهم معرفة بأمور الأجناد وأحوالهم وبه كان يضرب المثل في ذلك[2]، وكان يتفقد جنوده باستمرار ويطمئن عن أحوالهم ويتفقد سلاحهم ودوابهم ويقول في هذا المجال: «نحن كل وقت بصدد النفير، فإذا لم يكن أجناد كافة الأمراء كاملي العدد والعُدد دخل الوهن على الإسلام»[3]، وعلق ابن الأثير على كلام نور الدين بقوله: «لقد صدق ﷺ فيما قال وأصاب فيما فعل، فلقد رأينا ما خافه علينا»[4]، وقد طبق نور الدين جميع مبادئ الحرب التي لم يرد ذكرها أعلاها كالإدارة والاقتصاد بالجهد، والبساطة والأمن والمعنويات، وقد ورد كثير من هذه المبادئ في ذكر سيرته وصفاته وأدواره السياسية والإدارية[5].

8 ـ الحرب النفسية عند نور الدين:

ركز نور الدين على الحرب النفسية وأحسن استخدامها، فقد وجه حربه النفسية في البداية نحو حكام الإمارات الإسلامية الذين كانوا غارقين في حياة اللهو والترف، غير مهتمين بأحوال رعاياهم السيئة أو بمقاومة التوسع الفرنجي على حساب بلاد المسلمين، ونحو من كان على شاكلتهم من أبناء الأمة من التجار والأثرياء الذين كان همهم جمع الثروات بأية وسيلة، كانت المبادئ التي يدعو إليها نور الدين في حربه النفسية بسيطة وواضحة ومحدّدة

(1) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة، ص: 203.
(2) الباهر، ص: 169، دور نور الدين محمود، ص: 204.
(3) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة، ص: 204.
(4) الباهر، ص: 169.
(5) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة، ص: 204.

هي: دين واحد هو الإسلام السني، دولة واحدة لمحاصرة الفرنجة من كل صوب، هدف واحد هو الجهاد لتحرير الأرض المحتلة[1].

وأما الجهاز الدعائي الذي كان نور الدين يعتمد عليه لبثّ هذه المبادئ بين صفوف الأمة، فيتألف من العلماء والعبّاد والزهاد، فكان يطلب منهم كتابة قصائد ورسائل وكتب تدور كلها حول مضمون المبادئ المذكورة أعلاه مع التركيز على توضيح فضائل القدس ومحاسنها وأهميتها بالنسبة للمسلمين، ثم يتم نشر هذه الرسائل بين الناس وقراءتها في المساجد والأسواق واللقاءات وفي مختلف المناسبات، وكان من الطبيعي أن تشير هذه الرسائل والقصائد والكتب إلى نور الدين باعتباره رائد الجهاد الملتزم قولاً وفعلاً بالمبادئ، وكانت صورة نور الدين التي ترسخت في أذهان الناس تؤيد وتدعم ما تشير إليه الرسائل والقصائد والكتب المذكورة[2]، وقد أسفرت الحرب النفسية المذكورة عن نتائج إيجابية كبيرة، فقد تحوّلت اتجاهات الرأي العام الإسلامي نحو الجهاد لتحرير الأرض المحتلة، واكتسب نور الدين ثقة المسلمين ومحبتهم وتعاطفهم، مما كان له أكبر الأثر في الضغط على باقي الحكام والأمراء للاستجابة لدعوته للجهاد والانضواء تحت لوائه[3].

أما الحرب النفسية الموجهة للفرنجة (العدو) فقد كان مضمونها أن المسلمين بقيادة نور الدين لن يتوقفوا عن الجهاد حتى يحرروا بلادهم ومقدساتهم المحتلة، وأن الإسلام يأمر بالعدل والمساواة والإحسان إلى الأسرى ويحرّم الظلم والعدوان، وأن من يعتنق الإسلام يكتسب من الحقوق ما للمسلمين، فكان لهذه الأفكار وما عرف عن نور الدين من ورع وعدل والتزام بالعهود والمواثيق، وما تحقق له من انتصارات، أثر عميق في نفوس قادة الفرنجة وأفرادهم، فصاروا يرهبونه ويحترمونه في الوقت نفسه، وكانوا يعتقدون أن له سراً مع الله، فإذا طلب منه طلباً استجاب الله لطلبه[4].

9 ـ الإنجازات العسكرية:

كان الموقف العسكري في المشرق الإسلامي راجحاً لصالح الفرنجة عندما تسلم نور الدين حكم حلب عام (541هـ/ 1147م) وبعد عشر سنوات من ذلك التاريخ تغيَّر الموقف العسكري فأصبح راجحاً لصالح المسلمين، وكان التفوُّق العسكري الإسلامي على الفرنجة واضحاً جداً في السنوات الأخيرة من حكم نور الدين، حقق إنجازات عسكرية كبيرة تمثَّلت بشكل عام من ناحيتين:

الأولى: إلحاق هزائم منكرة بجيوش الفرنجة في معارك كثيرة.

---

(1) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة، ص: 204.
(2) المصدر نفسه، ص: 205.
(3) المصدر نفسه، ص: 205.
(4) 1المصدر نفسه، ص: 205.

الثانية: بناء قوة عسكرية كبيرة منظمة وفعّالة، كانت في السنوات الأخيرة من حكمه قادرة على تحرير الأرض الإسلامية المحتلة ومواجهة التحديات الخارجية المحتملة، ومن خلال الناحية الأولى تحققت الإنجازات التالية:

- تحرير الكثير من المدن والمواقع والحصون الإسلامية من الاحتلال الفرنجي.

- تغيير الموقف العسكري في المنطقة لصالح المسلمين والإثخان في الصليبيين، وقتل عشرات الآلاف من رجالهم وأسر أكثر من ذلك وانهيار معنوياتهم.

- بث روح الجهاد في نفوس أبناء الأمة ورفع معنوياتهم وتوحيد جهودهم وتوجيهها نحو تحرير الأرض والمقدسات.

- الإسراع في تحقيق الوحدة السياسية لبلاد الشام وشمال العراق ومصر وشبه جزيرة العرب.

- توفير الأمن والاستقرار، مما هيأ الظروف المناسبة لتحقيق المنجزات الإدارية التي قامت على أساسها نهضة الأمة[1].

10 ـ التشابه في الأسباب بين الغزو الفرنجي والصهيوني:

قد تحدثت فيما مضى عن أسباب الحرب الصليبية من دينية وسياسية واقتصادية واجتماعية في كتابي عن دولة **السلاجقة** وهذه الأسباب تتشابه مع أسباب الاحتلال الصهيوني، فمثلما أفرزت الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية أسباب الغزو الفرنجي للمشرق الإسلامي في نهاية القرن الحادي عشر الميلادي، أفرزت الأوضاع نفسها في المنطقة ذاتها أسباب الغزو الصهيوني للمشرق الإسلامي نفسه في بداية القرن العشرين، ومثلما استخدم الغزو الفرنجي الدين لإثارة حماس الشعوب الأوروبية ودفعها للغزو، استخدم الغزو الصهيوني التستّر بلباس الدين، باعتبار فلسطين التي تشكل قلب المشرق الإسلامي الأرضَ المباركة التي منحها الرب ملكاً لبني إسرائيل قبل ألفين وخمسمائة عام، وأنها كانت موطنهم في ذلك التاريخ، مما يجعل لهم فيها حقاً تاريخياً[2] ومع السبب الديني المحرك للجانب العقائدي، هناك أسباب سياسية واقتصادية، واجتماعية، فقد كانت الأسباب السياسية من وجهة نظر الصهيونية إقامة دولة إسرائيل في فلسطين كمقدمة لإقامة دولة إسرائيل الكبرى، في معظم

(1) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة، ص: 206. الكبرى، ص: 20 ، 21.

(2) حقائق قضية فلسطين، ص: 120، 121، إسرائيل

مناطق المشرق الإسلامي، وذلك كله مرحلة أولى يتبعها السعي للسيطرة على العالم في المرحلة اللاحقة، أما من وجهة نظر شركاء الصهيونية في الغزو: بريطانيا وفرنسا وأمريكا وغيرها فكانت دوافعهم السياسية هي السيطرة على منطقة المشرق العربي الإسلامي بالتفاهم فيما بينهم، وإقامة دول تتبع لهم وتسهل مواصلاتهم مع مستعمراتهم الأخرى في جنوب شرق آسيا[1]، وتمثلت الأسباب الاقتصادية للغزو الصهيوني الأوروبي المشترك بالسيطرة على موارد البلاد الاقتصادية واستغلالها لإدامة صناعاتها وجعل البلاد سوقاً لاستهلاك منتجاتها الصناعية. وأما الأسباب الاجتماعية فقد تمثّلت في خلاص اليهود المقيمين في أوروبا من حياة البؤس والشقاء والعزلة التي كانوا يحيونها بسبب تمسّكهم بمعتقداتهم العنصرية وأساليبهم الاحتكارية التي كرّهت الشعوب الأوروبية بهم وجعلت الدول الأوروبية تسعى للخلاص منهم[2].

11 ـ التشابه في الأهداف بين الغزو الصليبي والاحتلال الصهيوني:

كانت أهداف الغزو الفرنجي واضحة محدّدة، فالهدف الرئيسي هو احتلال المشرق العربي الإسلامي، وتحويله إلى وطن أوروبي فيما وراء البحار[3]. كان هذا الهدف مشتركاً عاماً بين جميع أطراف الغزو: المؤسسة البابوية والقادة والأمراء من الفرنجة والنورمان، أما الأهداف الأخرى الفرعية فهي: **أولاً**: استغلال ثروات الشرق وتحقيق مغانم ومكاسب اقتصادية من التجارة والحروب، وهذا هدف عام مشترك أيضاً لأطراف الغزو جميعهم، شاملاً تجار أوروبا المشهورين في المدن الإيطالية، البندقية، جنوا وبيزا[4]. **ثانياً**: تحقيق سيادة المؤسسة البابوية على العالم المسيحي، وتفوّق مركزها على مركز الإمبراطورية في أوروبا وإقامة كنيسة كاثوليكية في الشرق تتبع كنيسة روما، وتقضي على نفوذ كنيسة القسطنطينية وهذه أهداف خاصة بالمؤسسة البابوية[5]. **ثالثاً**: الاستجابة لطلب إمبراطور بيزنطة ومساعدته في استعادة الأراضي التي احتلها المسلمون الأتراك في الأناضول، ويمكن اعتبار هذا الهدف عاماً للجميع.

من جهة أخرى كانت أهداف الغزو الصهيوني واضحة ومحددة أيضاً، بالرغم من إبقائها طي الكتمان فترة من الزمن لتضليل العرب وخداعهم وكسب مساعداتهم للحلفاء في الحرب العالمية الأولى، وعندما تكشفت هذه الأهداف بعد الحرب كانت كما يلي: الهدف الرئيسي هو احتلال المشرق العربي الإسلامي وتحويله إلى وطن أوروبي فيما وراء البحار،

---

(1) المقصود الهند وفيتنام وكمبوديا ولاوس.
(2) دولة اليهود، ص: 30 ، 31 ، 40.
(3) الحروب الصليبية، سهيل زكار، نقلاً عن دور نور الدين، ص: 221.
(4) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة، ص: 221.
(5) الشرق والغرب في زمن الحروب الصليبية، ص: 82 ، 83.

كان هذا الهدف مشتركاً بين جميع أطراف الغزو الصهيونية العالمية، بريطانيا، فرنسا. أما الأهداف الأخرى فهي: إقامة دولة إسرائيل في فلسطين وتهجير اليهود المقيمين في أوروبا والذين سيهاجرون إلى دولتهم الجديدة في فلسطين، **والجانب الثاني**: هو خلق دولة غربية في قلب المشرق العربي الإسلامي، بل في قلب العالم العربي كله، تكون أداة يستغلها البريطانيون وحلفاؤهم من دول الغرب لمنع قيام الوحدة الإسلامية الكبرى، وإغراق المنطقة كلّها في حروب مستمرة تستنزف طاقاتها، وتسهّل السيطرة الغربية عليها لاستغلال مواردها، علماً بأن الصهيونية كانت وما زالت تعتبر إقامة دولة إسرائيل في فلسطين مرحلة أولى لتتوسَّع في المراحل اللاحقة، وتشمل أغلب منطقة المشرق العربي الإسلامي، وقد احتفظت بهذا الهدف لنفسها دون شركائها في الغزو[1].

قال الجنرال اللنبي قائد القوات البريطانية في فلسطين بعد احتلال القدس عام (1917م): «الآن انتهت الحروب الصليبية»[2]. وقال الجنرال غورو قائد القوات الفرنسية التي احتلت لبنان وسوريا عام (1920م) بعد احتلال دمشق: «ها قد عدنا يا صلاح الدين»[3]، ويظهر من كلام القائدين المذكورين أن فكرة غزو المشرق العربي الإسلامي لم تبارح أذهان الأوروبيين وخاصة البريطانيين والفرنسيين مُنذ الحروب الفرنجية في العصور الوسطى، وأن بريطانيا وفرنسا تعتبران احتلالهما للمشرق الإسلامي خلال الحرب العالمية الأولى امتداداً للحروب الفرنجية. ومن الجدير بالذكر أن الفرنجة أطلقوا على مملكة بيت المقدس اسم: فرنسا ما وراء البحار، باعتبارها امتداد للوطن الفرنسي الأم[4] عِلْماً بأن أغلب جيوش الحملة الفرنجية الأولى خرجت من فرنسا، ولا ننسى أن الفرنسيين أطلقوا على مستعمراتهم في الجزائر والشرق اسم فرنسا ما وراء البحار[5]. ولا بد أن الصهيونية العالمية وبريطانيا وفرنسا استلهمت الكثير من تاريخ الصليبية وأحداثها في تخطيط المشروع الإسرائيلي وتنفيذه.

12 ـ التشابه في الأساليب بين الغزو الصليبي والاحتلال الصهيوني:

أقام الفرنجة إماراتهم في المناطق التي احتلّوها بالقوة العسكرية في بلاد الشام وإمارة الرها في أعالي الفرات، وقاموا بتوسيع إماراتهم على حساب الإمارات الإسلامية المجاورة بفعل العسكرية، وكذلك فعل اليهود الصهاينة، فقد هيأت لهم شريكتهم بريطانيا الظروف المناسبة في فلسطين لبناء قوتهم العسكرية التي مكنتهم من احتلال الأرض وتأسيس دولتهم

(1) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة، ص: 222.
(2) أبعاد في المواجهة العربية الإسرائيلية، ص: 280.
(3) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة، ص: 222.
(4) الحروب الصليبية، د. قاسم عبده، ص: 7.
(5) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة، ص: 222.

عام 1948م، ثم استمروا ببناء قوتهم العسكرية المتفوقة حتى تمكنوا من توسيع رقعة دولتهم على حساب الدول العربية المجاورة عام (1967م)، ولا يزالون حتى الوقت الحاضر حريصين على تحقيق التفوق العسكري في المنطقة؛ لأنهم يعلمون علم اليقين أن تغيير موازين القوى لصالح الدول العربية يعني زوال دولتهم من الوجود، تماماً كما حصل مع الفرنجة الذين قامت إمارتهم بفعل القوة العسكرية، فلما تغيّرت موازين القوة لصالح المسلمين زالت إماراتهم من الوجود، ولذلك تبذل إسرائيل كل جهودها وتسعى الصهيونية العالمية بكل طاقاتها من خلال نفوذها في الدول العظمى، لحرمان الدولة الإسلامية من امتلاك الأسلحة المتطورة أو بناء قوة عسكرية متفوقة يمكن أن تشكل خطراً على إسرائيل، فإذا ما ظهرت قوة إسلامية يمكن أن تشكل خطراً عليها بادرت إسرائيل بشن الحرب لتدمير هذه القوة قبل اكتمال بنائها، حصل ذلك في حرب عام (1956م) وفي حرب عام (1967م)، وفي قصف المفاعل النووي العراقي[1] عام (1981م) وإذا لم تستطع تدمير هذه القوة العربية بنفسها سخرت القوى العظمى لتحقيق ذلك، كما حصل في حرب الخليج بداية التسعينات عندما شجعت الصهيونية العالمية الولايات المتحدة الأمريكية ودول الغرب الأخرى على شن الحرب ضد العراق، وتدمير قوّته العسكرية المتنامية التي كانت في نظرهم تشكل خطراً كبيراً على إسرائيل[2].

ويحتل مبدأ استخدام القوة العسكرية المتفوقة المقام الأول في الإستراتيجية الوطنية الإسرائيلية، وضع هذا المبدأ أحد روّاد الحركة الصهيونية المشهورين، اسمه: آشر غتربرغ، وأطلق على فكرته التي تحولت مع الوقت إلى عقيدة راسخة في الذهنية الصهيونية اسم: (التجمع والاقتحام)، ويقول: بأنه استلهمها من تاريخ بني إسرائيل بعد خروجهم من مصر مع موسى عليه السلام وانقضاء فترة التيه في صحراء سيناء، فقد تشبعوا بروح الاقتحام والفتك التي مكنتهم من احتلال فلسطين[3]. وكان جابوتنسكي أول من طبق عقيدة التجمع والاقتحام في فلسطين عام (1920م) باستخدامه الأسلحة النارية في أول صدام بين العرب واليهود في القدس، وهو أول من دعا إلى تشكيل المنظمات الإرهابية اليهودية التي ارتكبت أبشع المجازر بحق العرب في القرى والمدن الفلسطينية ثم تحولت تلك المنظمات بعد قيام الدولة اليهودية عام (1948م) إلى الجيش الإسرائيلي: يقول مناحم بيغن رئيس الوزراء الإسرائيلي الأسبق، الذي كان عضواً في عصابة أرغون الإرهابية وتلميذاً لجابوتنسكي: إن المبدأ الرئيسي لكل إسرائيل يجب أن يكون: أنا أحارب فأنا موجود[4].

---

(1) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة، ص: 222.
(2) المصدر نفسه، ص: 222، 223.
(3) حرب الخليج وأثرها على العالم الإسلامي، ص: 6.
(4) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة، ص: 223.

ويقول ديفيد بن غوريون أول رئيس وزراء لإسرائيل: سوف نواجه العرب بالقوة، إن النتيجة الوحيدة المتوقعة لهذا الصراع هي النتيجة التي تفرضها القوة، ويقول مائير كهانا أشهر المتطرفين اليهود، وكان عضواً في الكنيست الإسرائيلي: حدود إسرائيل هي حيث يقف الجنود الإسرائيليون[1]، وقد تشابهت أساليب الغزو الصهيوني مع أساليب الغزو الفرنجي في مجالات من أهمها:

أ ـ الاعتماد على المساعدة الخارجية: اعتمدت الإمارات الفرنجية في المشرق العربي الإسلامي في توسعها واستمرارها على الدول الأوروبية وخاصة فرنسا التي كانت تعتبر الدولة الأم لتلك الإمارات. كانت هذه المساعدة تشتمل المال والسلاح والرجال، وكانت تأتي في بعض الأحيان على شكل جيوش متكاملة بقيادة ملوك وأباطرة أوروبا عندما تواجه الإمارات الفرنجية خطراً، كما حصل بعد تحرير مدينة الرها، عاصمة إمارة الرها الفرنجية عام 1145م[2]. وأما اليهود الصهاينة فقد وضعوا خططهم مُنذ البداية: استغلال قوة ونفوذ الدول العظمى في تحقيق أهدافهم[3]، وها نحن نرى الدعم الأمريكي والغربي لإسرائيل.

ب ـ الهجرة والاستيطان: استقرَّت جيوش الحملة الصليبية الأولى في المناطق التي احتلتها من بلاد الشام وأقامت فيها الإمارات الفرنجية المعروفة، بعد ذلك تدفق المهاجرون من أوروبا إلى تلك الإمارات بأعداد كبيرة، ومع أن بعضهم كان يأتي لغرض الحج إلى القدس ويعود بعد إكمال الزيارة إلا أن غالبيتهم كانوا يأتون بقصد الإقامة والاستيطان، كانت هذه الهجرة متواصلة وبأعداد كبيرة زادت في بعض الحالات عن أعداد بعض الحملات المنظمة التي عرفت بأرقام متسلسلة[4]. ساعدت هذه الهجرة على زيادة قوَّة الإمارة الفرنجية، ونوسّعها وصمودها في وجه القوة العربية الإسلامية التي كانت تحاول القضاء عليها[5]، على الجانب الآخر كانت هجرة اليهود إلى فلسطين تشكل الركن الأساسي في المشروع الصهيوني لإقامة دولة اليهود فيها، وحظي موضوع الهجرة من حيث الدعاية لها وتنظيمها وتنفيذها بالقسط الأوفر من اهتمام المفكرين الصهاينة الأوائل، ومن أهمهم: تيودور هرتزل أول زعيم للصهيونية العالمية الذي وضع فصلاً خاصاً في كتابه المشهور: «دولة اليهود» عن الهجرة وأهميتها وتنظيمها وباب الهجرة مفتوح على مصراعيه بعد قيام دولة اليهود[6] إلى يومنا هذا.

---

(1) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة، ص: 224.
(2) دور نور الدين محمود، ص: 224.
(3) المصدر نفسه، ص: 225.
(4) المصدر نفسه، ص: 225.
(5) المصدر نفسه، ص: 225.
(6) المصدر نفسه، ص: 226.

ج ـ تضليل الرأي العام وخداعه: قامت المؤسسة البابوية التي خططت للحروب الفرنجية وأشرفت على تنفيذها بتضليل الرأي العام الأوروبي من خلال الدعاية الكاذبة التي كانت تسبق كل حملة، فقد افتتح البابا أوربان الثاني الحملة الدعائية الكبيرة للحرب الفرنجية في خطابه المشهور عام (1095م) في مجمع كليرمونت، وادّعى فيه: أن المسيحيين في المشرق الإسلامي يتعرضون للاضطهاد والتعذيب والقتل، وأن بيوتهم وكنائسهم تحرق وتُهدم، وأن المسلمين البرابرة المتوحشين، استولوا على مدينة القدس ومنعوا المسيحيين المؤمنين من زيارة قبر السيد المسيح فيها، ولذلك يوجب على مسيحيي أوروبا نجدة إخوانهم مسيحيي الشرق وتخليصهم من الاضطهاد والتعذيب والقتل، وتحرير قبر المسيح من سيطرة البرابرة المسلمين[1].

انتشرت هذه الدعاية الكاذبة المضللة في أوروبا على يد رجال الكنيسة، وكان لها أثر كثير في إثارة الحماس الديني لدى الأوروبيين، فتجمعت حشودهم وتوجهت تحت راية الصليب لحرب المسلمين، وبنفس الأسلوب جرت الدعاية الصهيونية المضلِّلة قبل الغزو الصهيوني للمشرق الإسلامي، فقد قامت وسائل الإعلام الأوروبية الخاضعة لسيطرة الصهيونية العالمية بتصوير المسلمين على أنهم بدو رحّل يعيشون في الصحراء مع مواشيهم، وأن اليهود سيهاجرون إلى تلك البلاد التي تعتبر موطنهم الأصلي لاستصلاح الأراضي وزراعتها وتعميرها ولبناء معبدهم القديم في القدس «هيكل سليمان»[2]. وكانت الدعاية الصهيونية تركز على أوضاع اليهود في مختلف دول العالم باعتبارهم مضطهدين محرومين من أدنى الحقوق الإنسانية، وأن من حقهم أن يعودوا إلى أرض آبائهم «فلسطين» ليقيموا لهم فيها وطناً قومياً كباقي شعوب الأرض[3].

د ـ الإرهاب والعنف: ارتكب الفرنجة مجازر بشعة بحق المسلمين في المدن والقرى التي استولوا عليها، وشكّلوا فرقاً عسكرية خاصة من خيرة فرسانهم، وكانت تقوم بشن الغارات على المدن والقرى الإسلامية، وتقوم بأعمال القتل والسلب والتخريب وتُشيع الخوف والرعب بين السكان، فكانوا لا يتورّعون عن قتل النساء والأطفال والشيوخ، حتى أنهم تعرّضوا لقوافل الحجاج بالقتل والنهب[4].

وقد تبنى الصهاينة الأسلوب نفسه في غزوهم لفلسطين، فشكّلوا مُنذ العشرينات قبل قيام دولتهم، عصابات إرهابية كانت مهمتها اقتحام القرى الآمنة، وإبادة سكانها من الرجال والنساء والأطفال بصورة همجية بشعة، لإثارة الرعب والهلع بين السكان المسلمين،

(1) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة، ص: 226. 227.
(2) دولة اليهود، ص: 49.
(3) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة، ص:
(4) المصدر نفسه، ص: 227.

وإجبارهم على مغادرة مدنهم وقراهم وأرضهم والهجرة إلى خارج فلسطين[1]، واندمجت العصابات الإرهابية اليهودية بعد قيام دولة إسرائيل لتشكيل الجيش الإسرائيلي، الذي تولى مهمة تنفيذ العمليات الإرهابية ضد السكان المسلمين، وأصبحت هذه العمليات سياسية رسمية لإسرائيل، تنفذها وحدات من الجيش الإسرائيلي الذي أطلق عليه قادة إسرائيل اسم: «جيش الدفاع» زوراً وتضليلاً، بينما هو في الحقيقة أكثر جيوش الأرض عدواناً[2]، ولم تقتصر عمليات الإرهاب والقتل والاغتيال على السكان المسلمين في فلسطين بل تعدّت إلى الدول المجاورة وحتى البعيدة، فقد قامت القوات الخاصة الإسرائيلية بتنفيذ عمليات اغتيال لقادة المقاومة الفلسطينية في الأردن ولبنان وتونس، وجرت محاولات اغتيال لقادة المقاومة الفلسطينية في مختلف الدول العربية والأجنبية[3].

المبحث الخامس
فقه نور الدين في التعامل مع الدولة الفاطمية

أولاً: جذور الشيعة الإسماعيلية والدولة الفاطمية:

بعد موت الإمام جعفر بن محمد الصادق افترقت الشيعة إلى فرقتين ممن نسبوا أنفسهم إلى جعفر الصادق: فرقة: ساقت الإمامية إلى ابنه موسى الكاظم، وهؤلاء هم الشيعة الاثني عشرية. وفرقة: نفت عنه الإمامة، وقالت: إن الإمام بعد جعفر، هو ابنه إسماعيل، وهذه الفرقة عرفت بالشيعة الإسماعيلية[4]. قال عبد القاهر البغدادي في شأن الإسماعيلية: وهؤلاء ساقوا الإمامة إلى جعفر وزعموا أن الإمام بعده ابنه إسماعيل[5]. وقال الشهرستاني: الإسماعيلية امتازت عن الموسوية وعن الاثني عشرية بإثبات الإمامة لإسماعيل بن جعفر وهو ابنه الأكبر المنصوص عليه في بدء الأمر. قالوا: ولم يتزوج الصادق رَحِمَهُ اللَّهُ على أمه ـ أم إسماعيل ـ بواحدة من النساء ولا تسرى بجارية كسنة رسول الله في حق خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وكسنة علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في حق فاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا[6].

فالإسماعيلية إحدى فرق الشيعة وهي تنسب إلى إسماعيل بن جعفر الصادق ولهم ألقاب كثيرة عرفوا بها غير لقب الإسماعيلية منها: الباطنية، وإنما أطلق عليهم هذا اللقب لقولهم: بأن لكل ظاهر باطناً، ولكل تنزيل تأويل، ومنهم القرامطة والمزدكية، وقد عرفوا بهذين اللقبين في بلاد العراق، ويطلق عليهم في خراسان: التعليمية الملحدة وهم لايحبون أن

(1) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة، ص: 227.
(2) المصدر نفسه، ص: 228.
(3) المصدر نفسه، ص: 228.
(4) الدولة الفاطمية العبيدية للصَّلابي، ص: 35.
(5) الفرق بين الفِرَق، ص: 62.
(6) الملل والنحل (1/ 191).

يعرفوا بهذه الأسماء، وإنما يقولون: نحن الإسماعيلية لأنا تميزنا عن فرق الشيعة بهذا الاسم[1]. وقد قامت الدولة الفاطمية الرافضية عام (296هـ/ 909م) في الشمال الأفريقي على يدي أبو عبد الله الشيعي بعد سقوط القيروان أمام قواته، وهروب زيادة التغلبي إلى مصر في جمادى الآخرة عام 296هـ[2] وكانت بيعة عبيد الله المهدي في القيروان عام (297هـ/ 910م) وانتهت ولاية أبي عبد الله الشيعي بعد أن دامت عشر سنوات على قول بعض المؤرخين[3].

1 ـ عبيد الله المهدي الخليفة الشيعي الرافضي الأول:

هو عبيد الله أبو محمد أول من قام من الخلفاء العُبيدية الباطنية الذين قلبوا الإسلام، وأعلنوا بالرفض، وأبطنوا مذهب الإسماعيلية وبثوا الدُّعاة يستغوون الجبليَّة والجهلة[4]، وذكر الذهبي ما قيل عنه في نسبه ثم قال: والمحققون على أنه دعيٌّ بحيث إنَّ المعزَّ منهم لما سأله السيد ابن طَبَاطَبا عن نسبه، قال: غداً أخرجه لك، ثم أصبح وقد ألقى عُرَمة من الذهب، ثم جَذبَ نِصْف سيفه من غمدِه فقال: هذا نسبي، وأمرهم بنهب الذهب، وقال: هذا حسبي[5].

وأما مفتي الديار الليبية رَحِمَهُ اللَّهُ الشيخ طاهر الزاوي فقد قال في ترجمة عبيد الله المهدي: هو مؤسس الدولة العبيدية وأول حاكم فيها وهو عراقي الأصل، ولد في الكوفة سنة (260هـ) واختبأ في بلدة سلميّة بؤرة الإسماعيلية الباطنية في شمال الشام. ومن يوم أن ولد إلى أن استقر في سلميّة كان يعرف باسم: سعيد بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن ميمون القداح، وفي منطقة سَلَميّة مقر الإسماعيلية مات علي بن حسن بن أحمد بن محمد ابن إسماعيل بن جعفر الصادق، وأقام له الإسماعيلية مزارات سرية، وقرروا نقل الإمامة من ذرية إسماعيل بن جعفر الصادق إلى ابنهم بالنكاح الروحي[6]، ثم قال: هذا أصل عبيد الله المهدي، وهذا أصل العبيديين المنسوبين إليه[7]. ويذكر أن عبيد الله الشيعي عندما دخل إفريقيا «يعني تونس»: أظهر التشيع القبيح وسب أصحاب النبي ﷺ وأزواجه حاشا علي بن أبي طالب والمقداد وعمار بن ياسر وسلمان الفارسي وأبا ذر الغفاري، وزعم أن أصحاب النبي ﷺ ارتدوا بعده غير هؤلاء الذين ذكروا[8].

---

(1) الملل والنحل (1/ 192).
(2) موسوعة المغرب العربي (2/ 60).
(3) المرجع السابق (2/ 70).
(4) سير أعلام النبلاء (15/ 141).
(5) المصدر نفسه (15/ 142).
(6) تاريخ الفتح العربي في ليبيا، ص: 253.
(7) الدولة الفاطمية العبيدية للصَّلابي، ص: 47.
(8) جهود علماء المغرب في الدفاع عن عقيدة أهل السنة، ص: 291.

وكان أهل السنة بالقيروان أيام بني عبيد في حالة شديدة من الاهتضام والتستر كأنهم ذمة[1] تجري عليهم في كثير من الأيام محن شديدة، ولما ظهر بنو عبيد أمرهم ونصَّبوا حسيناً الأعمى السباب في الأسواق للسب بأسجاع لُقِّنها يتوصل منها إلى سب الرسول ﷺ في ألفاظ حفظها[2]. مثل: العنوا الغار وما وعى، والكساء وما حوى... وغير ذلك. والغار المقصود منه: غار ثور الذي اختفى فيه الرسول ﷺ، وأبو بكر رضي الله عنه عن أعين المشركين التي كانت تطاردهم في قصة الهجرة، وهذا اللفظ فيه سب للنبي ﷺ وأبي بكر على حد سواء، وكذلك فيه سب لآل البيت الذين حواهم الكساء[3]. وعلقت رؤوس الأكباش والحمر على أبواب الحوانيت، عليها قراطيس معلقة مكتوب عليها أسماء الصحابة، واشتد الأمر على أهل السنة، فمن تكلم أو تحرك قتل ومثِّل به[4].

2 ـ من جرائم العبيديين في الشمال الأفريقي:

ارتكب الشيعة الرافضة الإسماعيلية جرائم نكرة منها:

أ ـ غلو بعض دعاتهم في عبيد الله المهدي: حتى أنه أنزله منزلة الإله وأنه يعلم الغيب، وأنه نبي مرسل، يقول بدر الدين بن قاضي شهبة: وكان له (أي المهدي) دعاة بالمغرب يدعون الناس إليه، وإلى طاعته، ويأخذون عليهم العهود ويلقون إلى الناس من أمره بحسب عقولهم، فمنهم من يلقون إليه: أن المهدي ابن رسول الله وحجة الله على خلقه، ومنهم من يلقون إليه أنه الله الخالق الرازق[5]. وأما زعمهم بأنه إله فيظهر من أفعال دعاته وأقوالهم وأشعارهم، فقد كان هناك رجل يدعى: أحمد البلوي النحاس، يصلي إلى رقادة أيام كان عبيد الله بها، وهي منه إلى المغرب، فلما انتقل إلى المهدية وهي منه إلى الشرق صلى إليها[6] باعتبار أنها مكة المكرمة شرفها الله، وهذا الاعتقاد كان سائداً عند كثير من الناس يومها، فهذا أحد شعراء بني عبيد يقول في المهدية بعد انتقال المهدي إليها:

تيهنك أيها الملك الهمام ... قدوم فيه للدهر ابتسام

لقد عظمت بأرض الغرب دار ... بها الصلوات تقبل والصيام

---

(1) ترتيب المدارك (2/ 318).

(2) جهود علماء المغرب في الدفاع عن عقيدة أهل السنة، ص: 291.

(3) المصدر نفسه، ص: 291.

(4) الكواكب الدرية في السيرة النورية، ص: 204، 205.

(5) البيان المغرب (1/ 258، 259).

(6) المصدر نفسه (1/ 221).

هي المهدية الحرم الموقى كما بتهامة البلد الحرام
كأن مقام إبراهيم فيه ترى قدميك إن عدم المقام
وإن لثم الحجيج الركن أضحى لنا بعراص قصركم التثام
لك الدنيا وسلك حيث كنتم فكلكم لها أبداً إمام[1]

ومن الشعر أيضاً في تأليهه ما مدحه به محمد البديل حيث يقول:

حل برقادة المسيح حل بها آدم ونوح
حل بها أحمد المصطفى حل بها الكبش والذبيح
حل بها الله ذو المعالي وكل شيء سواه ريح

وأما زعمهم أنه كان يعلم الغيب، فيظهر من إيمان بعضهم حيث كان إذا أقسم يقول: وحق عالم الغيب والشهادة مولانا الذي برقادة[2]. ومعرفة الغيب من خصوصيات الألوهية ولا يعلم الغيب إلا الله، قال تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النمل: 65] وقال تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: 59]. كما أن الحلف لا يكون بمخلوق وإنما يكون بالخالق، قال رسول الله ﷺ: «**من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت**». وجاءت الأحاديث في النهي عن الحلف بالآباء[3].

ب ـ التسلط والجور: وإعدام كل من يخالف مذهبهم، هذا بالإضافة إلى كل ما ذكرناه آنفاً على لسان القاضي عياض في طعنهم في الصحابة وتعليق رؤوس الأكباش الدالة ـ في زعمهم ـ على أسماء الصحابة وغير ذلك من الأفعال القبيحة والشنيعة التي كانوا يقومون[4] بها، وكانوا يُجبرون الناس على الدخول في مذهبهم بوسيلة التخويف بالقتل، وقد نفذوا حكم الإعدام في أربعة آلاف رجل مرّة واحدة.

قال القابسي: إن الذين ماتوا في دار البحر ـ سجن العبيديين ـ بالمهدية من حين دخل عبيد الله إلى الآن أربعة آلاف رجل في العذاب ما بين عالم وعابد ورجل صالح[5]. هذا عدا من كانوا يقتلون دون سجن، ويُمثَّل بهم في شوارع القيروان، فأثر ذلك على سير الحياة

(1) البيان المغرب (1/ 221).
(2) كتاب التوحيد لمحمد بن عبد الوهاب، ص: 90.
(3) جهود علماء المغرب، ص: 312.
(4) مدرسة الحديث بالقيروان (1/ 76).
(5) رياض النفوس (2/ 56).

العلمية، ومع ذلك فإن هذه المحنة لم تزد أهالي المغرب الإسلامي إلا عزيمة وصبراً واحتساباً وتمسكاً بالكتاب والسنة.

ج ـ تحريم الإفتاء على مذهب الإمام مالك: حرّموا على الفقهاء الفتوى بمذهب الإمام مالك، واعتبروا ذلك جريمة يعاقب عليها بالضرب والسجن أو القتل أحياناً، ويعقب ذلك نوع من الإرهاب النفسي، حيث يدار بالمقتول في أسواق القيروان وينادى عليه: هذا جزاء من يذهب مذهب مالك، ولم يبُيحوا الفتوى إلا لمن كان على مذهبهم، كما فعلوا بالفقيه المعروف بالهزئي: أبو عبد الله محمد بن العباس بن الوليد المتوفى في عام تسع وعشرين وثلاثمائة[1].

د ـ إبطال بعض السنن المتواترة والمشهورة: والزيادة في بعضها كما فعلوا في زيادة: حي على خير العمل: في الأذان، وإسقاط صلاة التراويح[2]، بعد أن تُرك الناس يصلونها عاماً واحداً، ولهذا ترك أكثر الناس الصَلاة في المساجد، ويا ويح مَن يُسقط عبارة: حي على خير العمل من الأذان، من ذلك ما روي أن عروسى المؤذن ت 317هـ، كان مؤذناً في أحد المساجد، شهد عليه بعض الشيعة أنه لم يقل في أذانه: حي على خير العمل، فكان جزاؤه أن قطع لسانه ووضع بين عينيه، وطيف به في القيروان ثم قتل[3]، إلا أن بعض العلماء فطن لكيد العبيديين وأغراضهم الخبيثة من وراء ذلك، وهو إخلاء المساجد من المصلين، ودفعاً لهذه المفسدة أذنوا للمؤذنين أن يزيدوا حي على خير العمل: لأن تركها يؤدي إلى مفاسد أعظم، ومن هؤلاء العلماء: أبو الحسن علي بن محمد بن مسرور العبدي الدباغ ت 359هـ[4]، الذي كان من أهل الورع والعبادة والخشوع، فقد فطن لغرض العبيديين، فكان أن قال للمؤذنين: أذنوا على السنة في أنفسكم، فإذا فرغتم فقولوا: حي على خير العمل، فإنما أراد بنو عبيد إخلاء المساجد لِفعلكم هذا ـ وأنتم معذورون ـ خير من إخلاء المساجد[5].

هـ ـ منع التجمُّعات: حرصت الدولة الفاطمية الرافضية على منع التجمعات خوفاً من الثورة والخروج عليهم، ولذلك جعلوا بوقاً يضربونه في أول الليل فمن وُجد بعد ذلك ضرب عنقه، كما أنهم كانوا يفرقون الناس الذين يجتمعون على جنازة مَن يموت من العلماء[6]،

---

(1) جهود علماء المغرب في الدفاع عن عقيدة أهل السنة، ص: 309.
(2) البيان المغرب (1/ 182، 183).
(3) ترتيب المدارك (2/ 525، 528).
(4) المصدر نفسه (2/ 526).
(5) رياض النفوس (2/ 29).
(6) المصدر نفسه (2/ 423).

وهذا الفعل لا يزال مستمراً في الأنظمة القمعية البوليسية التي لا ترى إلا ما يراه حاكمها وطاغوتها وفرعونها ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر: 29].

و ـ إتلاف مصنفات أهل السنة: أتلفوا مصنفات أهل السنة، ومنعوا الناس من تداولها كما فعلوا بكتب أبي محمد بن أبي هاشم التُّجبي ت 346هـ توفي وترك سبعة قناطير كتب، كلها بخط يده، فرفعت إلى سلطان بني عبيد فأخذها، ومنع الناس منها كيداً للإسلام وبغضاً فيه[1].

ز ـ منع علماء أهل السنة من التدريس: منعوا علماء أهل السنة من التدريس في المساجد، ونشر العلم، والاجتماع بالطلاب، فكانت كتب السنة لا تقرأ إلا في البيوت خوفاً من بني عبيد، فكان أبو محمد بن أبي زيد، وأبو محمد بن التبان وغيرهما، يأتيان إلى أبي بكر ابن اللباد شيخ السنة بالقيروان في خفية، ويجعلان الكتب في أوساطهما حتى تبتل بالعرق خوفاً من بني عبيد[2]. وهذا المسلك لا زالت الدول القمعية في العالم الإسلامي تمارسه على شعوبها فبعضها تمنع هذا الأمر كليًا، وبعضها تسمح ببعض أمور الدين التي لا تصطدم مع مصالح الدول الكبرى.

ح ـ عطلوا الشرائع، وأسقطوا الفرائض عمّن تبع دعوتهم حيث يقع إدخالهم إلى داموس، ويدخل عليهم عبيد الله لابساً فروا مقلوباً داباً على يديه ورجليه فيقول لهم: (بَح) ثم يخرجهم ويفسر لهم هذا العمل بقوله: فأما دخولي على يدي ورجلي فإنما أردت بذلك أن أعلمكم أنكم مثل البهائم لا شيء، ولا وضوء ولا صلاة، ولا زكاة، ولا أي فرض من الفروض، وسقط جميع ذلك عنكم، وأما لباس الفرو مقلوباً فإنما أردت أن أعلمكم أنكم قلبتم الدين، وأما قولي لكم: بَح، فإنما أردت أن أعلمكم أن الأشياء كلها مباحة لكم من الزنى وشرب الخمر[3].

ط ـ إجبار الناس على الفطر قبل رؤية الهلال: وكانوا كثيراً ما يجبرون الناس على الفطر قبل رؤية هلال شوال[4]، بل قتلوا من أفتى بأن لا فطر إلا مع رؤية الهلال، كما فعلوا بالفقيه ابن الحُبلى قاضي مدينة برقة. قال الذهبي في ترجمته: الإمام الشهيد قاضي مدينة برقة، محمد بن الحُبُلى أتاه أمير برقة، فقال: غداً العيد، قال: نرى الهلال، ولا أُفطر الناس، وأتقلّد إثمهم، فقال: بهذا جاء كتاب المنصور ـ وكان هذا من رأي العبيدية يفطّرون

(1) مدرسة الحديث بالقيروان (1/ 76).
(2) رياض النفوس (2/ 504).
(3) مدرسة القيروان (1/ 73).
(4) سير أعلام النبلاء (15/ 374).

بالحساب، ولا يعتبرون رؤية ـ فلم يُر هلال، فأصبح الأمير بالطبول والبنود وأهبة العيد، فقال القاضي: لا أخرج ولا أصلي، فأمر الأمير رجلاً خطب. وكتب بما جرى إلى المنصور، فطلب القاضي إليه، فأحضر، فقال له: تَنصَّلْ، وأعفو عنك، فامتنع، فأمر، فُعلّق في الشمس إلى أن مات، وكان يستغيث من العطش، فلم يُسقَ، ثم صلبوه على خشبة، فلعنة الله على الظالمين[1].

ي ـ إزالة آثار خلفاء السنة: عمل حكّام الدولة الفاطمية في المغرب الإسلامي على إزالة آثار بعض من تقدمهم من الخلفاء السنيين، فقد أصدر عبيد الله أمراً بإزالة أسماء الحكام الذين بنوا الحصون والمساجد وجعل اسمه بديلاً منهم، واستولى هذا الشيعي الرافضي الباطني على أموال الأحباس وسلاح الحصون، وطرد العبّاد والمرابطين بقصر زياد الأغلبي وجعله مخزناً للسلاح[2].

ك ـ دخول خيولهم المساجد: من جرائم عبيد الله الكثيرة أن خيله دخلت المسجد، فقيل لأصحابها: كيف تدخلون المسجد؟ فقالوا: إن أوراثها وأبوالها طاهرة؛ لأنها خيل المهدي، فأنكر عليهم قيِّم المسجد، فذهبوا به إلى المهدي فقتله، يقول ابن عذارى: وامتحن عبيد الله في آخر حياته بِعِلَّةٍ قبيحة: دود في آخر مخرجه يأكل أحشاءه فلم يزل به حتى هلك[3].

إن المسلمين المعاصرين يقرؤون تاريخ الدولة الفاطمية العبيدية لا يعلمون إلا ما كتب لهم عن التاريخ السياسي لهذه الدولة، ذهب فلان وخلفه فلان، وأنها دولة تحب العلم وتنشره، والمقصود نشر كتب الفلاسفة، ولكن القليل من يذكر بطش هؤلاء الباطنية بالعلماء من أهل السنة، بل إن الطلبة الذين يدرسون التاريخ الإسلامي يذكرون المعز لدين الله الفاطمي وكأنه بطل من أبطال التاريخ، وهذا كله نتيجة لغياب التفسير العقدي الإسلامي لتاريخنا، بل إن بعض المؤرخين الذين كتبوا لنا التاريخ تأثّروا بمدارس الاستشراق، أو بالفكر الشيعي الرافضي، وبُذِلت لهم الأموال لطمس الحقائق وتزوير التاريخ، ولا زال الصراع الباطني والإسلامي ممتداً إلى يومنا هذا، فالأفكار لا تموت وإنما تتغير الأشكال والوجوه والمسوح وإن أعداء الإسلام لا يزالون يعملون سراً وإعلاناً ليلاً ونهاراً للقضاء على العقيدة الصحيحة التي تلقتها الأمة من الحبيب المصطفى ﷺ وأصحابه الغر الميامين وأهل بيته الطيبين الطاهرين رضي الله عنهم أجمعين.

---

(1) رياض النفوس (2/ 29).

(2) أيعيد التاريخ نفسه، محمد عبده، ص: 39.

(3) مقدمة حسين مؤنس، على رياض النفوس، ص: 17.

3 ـ أساليب المغاربة في مواجهة الدولة الفاطمية العبيدية:

لقد سلك علماء السنة المغاربة في مقاومة التشيع أساليب عديدة، منها المقاومة السلبية، والمقاومة الجدلية والمقاومة المسلحة، وكانت هناك أنواع أخرى من المقاومة، مثل المقاومة عن طريق التأليف وعن طريق نظم الشعر.. إلخ.

أ ـ المقاومة السلبية: أولى الوسائل التي استعملها علماء المغرب السنة التي قاطع بها علماء المغرب كل ما له صلة بالتشيع، أو بالحكم القائم، وتمثلت تلك المقاطعة في مقاطعة قضاة الدولة وعمالها، ورفض من استطاع منهم دفع الضرائب لها[1]. ومن مظاهر هذه المقاومة مقاطعة حضور صلاة الجمعة التي كانت مناسبة للعن أصحاب رسول الله على المنابر: فتعطلت بذلك الجمعة دهراً بالقيروان[2]، ومنهم من اكتفى بالدعاء عليهم كما فعل الواعظ عبد الصمد[3]، وكما كان يفعل أبو إسحاق السبائي الزاهد إذا رقى رقية يقول بعد قراءة الفاتحة وسورة الإخلاص والمعوذتين: وببغضي في عبيد الله وذريته، وحبي في نبيك وأصحابه وأهل بيته اشف كل من رقيته[4]. ومن مظاهر المقاومة السلبية أيضاً: مقاطعة كل من يسير في ركب السلطان واعتزاله، وكل مَن كانت له صلة بهذا السلطان أو سعى إلى تبرير وجوده عملاً بقوله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: 22]. فهذا خلف ابن أبي القاسم البراذعي (ت نحو 400هـ)[5] قام عليه فقهاء القيروان لصلته بملوك بني عبيد وقبوله هداياهم وتأليفه كتاباً في تصحيح نسبهم، وزادت النقمة عليه عندما وجدوا بخطه الثناء على بني عبيد متمثلاً ببيت[6] الحطيئة:

أولئك قوم إن بنوا أحسنوا البنا ... وإن عاهدوا أوفوا وإن عقدوا شدوا

لذلك كله أفتى فقهاء القيروان بطرح كتبه وعدم قراءتها وإزاء ذلك اضطر هو إلى الهجرة إلى صقلية حيث حصلت له حظوة كبيرة عند أميرها[7].

---

(1) البيان المغرب (1/ 277).
(2) معالم الإيمان (3/ 237).
(3) المصدر نفسه (3/ 71).
(4) جهود علماء المغرب في الدفاع عن عقيدة أهل السنة، ص: 324.
(5) المصدر نفسه، ص: 324.
(6) المصدر نفسه، ص: 324.
(7) ترتيب المدارك (2/ 517، 524)، شجرة النور الزنكية (1/ 95، 96).

ب ـ **المقاومة الجدلية**: كانت المقاومة الجدلية هي أقوى وأوسع أنواع المقاومة التي قام بها علماء السنة المغاربة ضد الشيعة الرافضة المنحرفين، وقد سطع في سماء هذه المساجلات العلمية والمناظرات العقدية عدد كبير من العلماء، وكانوا لسان أهل السنة الناطق والذاب عن بيضة هذا الدين، وممن لمع نجمه في ميدان المناظرة لبني عبيد حتى ضربت إليه أكباد الإبل من الأمصار المختلفة لعلمه بالذب عن مذهب أهل السنة، وكان هذا الإمام ـ فضلاً عن براعته في الجدل والمناورة ـ شجاعاً مقداماً لا يهاب الموت، من ذلك ما ذكره المالكي والدباغ من أن عبد الله المعروف بالمحتال[1] صاحب القيروان قد شدد في طلب العلماء، فاجتمعوا بدار ابن أبي زيد القيرواني فقال لهم ابن تبان: أنا أمضي إليه، أبيع روحي لله دونكم، لأنه إن أتى عليكم وقع على الإسلام وهن عظيم[2]. وفعلاً ذهب إليه وأقام عليه الحجة هو وجماعته الذين جاء بهم ليناظروه، وبعد أن هزمهم في مجلس المناظرة لم يخجلوا أن يعرضوا عليه أن يدخل في نحلتهم، ولكنه أبى وقال: شيخ له ستون سنة يعرف حلال الله وحرامه ويرد على اثنتين وسبعين فرقة يقال له هذا؟ لو نشرتموني في اثنتين ما فارقت مذهبي[3]، ولما خرج من عندهم بعد يأسهم منه تبعه أعوان الدولة الفاطمية العبيدية وسيوفهم مصلتة عليه ليخاف من يراه من الناس على تلك الحال، فإذا به وهو تحت الضغط يهدي الناس ويقدم لهم النصيحة، ويقول لهم دون خوف ولا وجل: تشبثوا، ليس بينكم وبين الله إلا الإسلام، فإن فارقتموه هلكتم[4]. وكان يخشى على العامّة من فتنة بني عبيد ويقول: والله ما أخشى عليهم الذنوب، لأن مولاهم كريم، وإنما أخشى عليهم أن يشكوا في كفر بني عبيد فيدخلوا النار[5].

وممن اشتهروا بالذب عن الإسلام وأشهروا حجج الحق وبراهين العدل وإقامة الحجة على دعاة الدولة الفاطمية: أبو عثمان سعيد بن الحداد (ت 302هـ) لسان أهل السنة وابن حنبل المغرب قال عنه السلمي: كان فقيهاً صالحاً فصيحاً متعبداً أوحد زمانه في المناظرة والرد على الفرقة[6]. وقال عنه الخشني: كان يرد على أهل البدع المخالفين للسنة وله في ذلك مقامات مشهودة وآثار محمودة ناب عن المسلمين فيها أحسن مناب، حتى مثله أهل القيروان بأحمد ابن حنبل[7]. وقال عنه المالكي: وكانت له مقامات في الدين مع الكفرة

---

(1) أحد عمال دولة بني عبيد.

(2) معالم الإيمان (3/ 113).

(3) جهود علماء المغرب في الدفاع عن عقيدة أهل السنة، ص: 327.

(4) المصدر نفسه، ص: 327.

(5) معالم الإيمان (3/ 91).

(6) جهود علماء المغرب في الدفاع عن عقيدة أهل السنة، ص: 328.

(7) طبقات الخشني، ص: 199، معالم الإيمان (2/ 209).

المارقين أبي عبد الله الشيعي وأبي العباس أخيه وعبيد الله أبان فيها كفرهم وزندقتهم وتعطيلهم[1]، حاولت الدولة الفاطمية بالمغرب إخبار الناس على مذهبهم بطريقة المناظرة وإقامة الحجة مرة والتهديد بالقتل مرة أخرى، فارتاع الناس من ذلك ولجؤوا إلى أبي سعيد وسألوه التقية، فأبى وقال: قد أربيت على التسعين، وما لي في العيش حاجة، ولا بد لي من المناظرة عن الدين أو أن أبلغ في ذلك عذراً ففعل وصدق، وكان هو المعتمد عليه بعد الله في مناظرة الشيعة[2]، ومن أشهر هذه المناظرات:

ـ **التفاضل بين أبي بكر وعلي** ﷺ: وأول هذه المناظرات كما يذكر صاحب المعالم حول التفاضل بين أبي بكر وعلي ﷺ فبعد الاجتماع بين ابن الحداد وأبي عبيد الله الشيعي؛ سأل أبو عبد الله الشيعي ابن الحداد: أنتم تفضلون على الخمسة أصحاب الكساء غيرهم؟ يعني بأصحاب الكساء: محمداً ﷺ وعلياً وفاطمة والحسن والحسين ﷺ، ويعني بغيرهم: أبا بكر ﷺ فقال أبو عثمان: أيهما أفضل؟ خمسة سادسهم جبريل عليه السلام؟ أو اثنان الله ثالثهما؟[3] فبهت الشيعي.

ـ **موالاة علي** ﷺ: في هذه المناظرة أراد عبيد الله الشيعي أن يثبت أن الموالاة في قوله عليه الصلاة والسلام: «**من كنت مولاه فعلي مولاه**»[4]. بمعنى العبودية: قال له: فما بال الناس لا يكونون عبيداً لنا، فقال ابن الحداد: لم يرد ولاية رق وإنما أراد ولاية الدين، ونزع بقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا ۚ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [آل عمران: 79، 80] فما لم يجعله الله لنبي لم يجعله لغير نبي، وعلي ﷺ لم يكن نبياً وإنما كان وزيراً للنبي ﷺ[5]. هذه إشارات عابرة وهي جزء صغير من مجموع المناظرات التي دارت بين الفريقين.

ج ـ **المقاومة المسلحة**: لم يكتف علماء المغرب بالمقاومة السلبية والمقاومة الجدلية، بل منهم من حمل السلاح وخرج ليقاتلهم، فهذا جبلة بن حمود الصدفي ترك سكن الرباط

(1) رياض النفوس (2/ 75).
(2) معالم الإيمان (2/ 298)، جهود علماء المغرب، ص: 329.
(3) سنن الترمذي، وتحفة الأحوذي رقم 3797 حسن غريب.
(4) جهود علماء المغرب في الدفاع عن عقيدة أهل السنة، ص: 331.
(5) معالم الإيمان (2/ 185) جهود علماء المغرب، ص: 337.

ونزل القيروان، فلما كلم في ذلك قال: كنا نحرس عدواً بيننا وبينه البحر، والآن حل هذا العدو بساحتنا، وهو أشد علينا من ذلك، وقال: جهاد هؤلاء أفضل من جهاد أهل الشرك[1]. واستدل بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ﴾ [التوبة: 123] ومنهم الإمام: أبو القاسم الحسن بن مفرج (ت 309هـ) الذي كان من أوائل من خرج على الشيعة ومات شهيداً، قتله عبيد الله المهدي وصلب هو ورجل يدعى: أبا عبد الله السدري الذي كان من الصالحين، وكان قد بايع على جهاد عبيد الله وجعل يحث الناس على جهاده فبلغ خبره عبيد الله، فأمر بقتله[2].

ثم إن العلماء خطوا خطوة أكبر بإصدار فتوى بوجوب قتال الدولة الفاطمية العبيدية وكان ذلك بعد اجتماع وتشاور بين علماء السنة وتحالفوا مع أهل القبلة ضد الفاطميين الذين حكموا عليهم بالكفر لمعتقداتهم الفاسدة. قال الشيخ الفقيه أبو بكر بن عبد الرحمن الخولاني: خرج الشيخ أبو إسحاق السبائي رَحِمَهُ اللَّهُ مع شيوخ إفريقية إلى حرب بني عبيد مع أبي يزيد، فكان أبو إسحاق يقول ـ ويشير بيده إلى عسكر أبي يزيد: هؤلاء من أهل القبلة وهؤلاء ليسوا من أهل القبلة ـ يريد عسكر ابن عبيد ـ فعلينا أن نخرج مع هذا الذي من أهل القبلة لقتال من «هو» على غير القبلة فإن ظفرنا بهم لم ندخل تحت طاعة أبي يزيد، لأنه خارجي، والله ﷻ يسلط عليه إماماً عادلاً فيخرجه من بين أظهرنا ويقطع أمره عنا. والذين خرجوا معه من الفقهاء والعباد: أبو العرب ابن تميم، وأبو عبد الملك مروان نصروات وأبو إسحاق السجائي وأبو الفضل وأبو سلمان ربيع بن القطان[3] وغيرهم كثير[4].

وفي الموعد المحدد خرج العلماء ومن ورائهم وجوه القوم وعامتهم في أعداد غفيرة لا يحصيهم عد، ولم يتخلف من العلماء والصلحاء أحد إلا العجزة، ومن ليس عليهم خروج، وكان ربيع القطان في طليعة الصفوف راكباً فرسه، وعليه آلة الحرب متقلداً مصحفه وهو يقول: الحمد لله الذي أحياني حتى أدركت عصابة من المؤمنين اجتمعوا لجهاد أعدائك وأعداء نبيك[5]. وقد أبلى العلماء في تلك المواجهة بلاءً حسناً، وقدموا صوراً حقيقية للجهاد في سبيل الله لأعداء الإسلام، واستشهد منهم ما لا يقل على الثمانين عالماً، منهم ربيع القطان والمميس وغيرهما، وأظهروا شجاعة نادرة وتفانياً لا مثيل له في قتال عدوهم، وحققوا انتصاراً باهراً وكادوا يستولون على المهدية، لولا أن ساعة الغدر حلّت ورجعت الكرة عليهم، حين خدعهم أبو يزيد وأسفر عن وجهه القبيح المناوئ لأهل السنة وأمر جنده أن ينكشفوا عنهم بقوله: أعداؤكم من قتلهم لا نحن فنستريح منهم[6]. وكان غرضه من تلك الفعلة

(1) رياض النفوس (2/ 169، 172).
(2) الدولة الفاطمية العبيدية للصّلاّبي، ص: 78.
(3) المصدر نفسه، ص: 78.
(4) معالم الإيمان (3/ 37، 42).
(5) البيان المغرب (1/ 218).
(6) المصدر نفسه (1/ 218).

الشنيعة والخدعة المنكرة: الراحة منهم لأنه فيما ظن إذا قتل شيوخ القيروان وأئمة الدين تمكن من أتباعهم فيدعوهم إلى ما شاء الله فيتبعونه[1] فهزم شر هزيمة حيث انضم عدد غير قليل من جنده إلى صفوف عدوه ولم يبق له من الجند إلا القليل، وقتل شر قتلة، وكانت نهايته يوم 30محرم سنة (336هـ)[2].

وقد أثرت هذه المواجهة بين السنة والشيعة على الساحة المغربية فيما بعد، حيث استمرت المقاومة فيمن جاء بعدهم حتى بعد خروج بني عبيد من المغرب، فكانوا يبحثون عن مراكز وجود الشيعة، فإذا عثروا عليهم قتلوهم ونهبوا أموالهم، فقد ذكر ابن عذارى في البيان المغرب أنه: كان بمدينة القيروان قوم يتسترون بمذهب الشيعة من شرار الأمة انصرفت العامة إليهم من فورهم، فقتلوا منهم خلقاً كثيراً رجالاً ونساءً وانبسطت أيدي العامة على الشيعة وانتهبت دورهم وأموالهم[3]، ويصف القاضي عياض هذه الحادثة: وكان ابتداء ذلك اليوم الجمعة منتصف المحرم، قتلت العامة الرافضة أبرح قتل بالقيروان وحرقوهم وانتهبوا أموالهم، وهدموا دورهم وقتلوا نساءهم وصبيانهم، وجروهم بالأرجل، وكانت صيحة من الله سلطها عليهم، وخرج الأمر من القيروان إلى سائر بلادهم فقتلوا وأحرقوا بالنار، فلم يترك أحد منهم في إفريقية إلا من اختص[4]. وهكذا كان هذا النوع من المقاومة هو أشد الأنواع وأنكاها، طهر الله به أرض المغرب من بدعة التشيُّع الباطني الرافضي.

د ـ **المقاومة عبر التأليف**: وكانت المقاومة عبر التأليف من الوسائل المجدية والنافعة في مقاومة الشيعة والتي كان لها أثر طيب في إقلاقهم وقضّ مضاجعهم وإعلانهم الحرب على من يفعل ذلك، كما كان لها أثر في تبصير العامة بالحق وإرساء دعائم السنة. وكانت هذه المؤلفات تنقسم إلى نوعين:

ـ **المؤلفات التي تتناول مسائل العقيدة** جملة وفق منهج أهل السنة والجماعة، ومن بين المسائل: تناولها مسألة الإمامة عند أهل السنة، وأفضلية أبي بكر وعمر وعثمان وعلي ﷺ، وشرعية خلافة الثلاثة خلافاً للشيعة الرافضة، والترضي عن أصحاب رسول الله جميعاً من غير تفريق بينهم، واعتبارهم جميعاً عدولاً، خلافاً للشيعة الذين يكفِّرونهم ويفسِّقونهم عدا نفر قليل منهم، فهذا النوع من التأليف كان له أثر عميق في تبصير الناس

---

(1) جهود علماء المغرب في الدفاع عن عقيدة أهل السنة، ص: 344.

(2) البيان المغرب (1/ 268).

(3) ترتيب المدارك (2/ 625).

(4) المصدر نفسه (2/ 625).

بدينهم ونشر المذهب الحق فيهم، حتى أصبحوا يعتبرون كل من خالف هذه العقيدة مخالفاً للإسلام وخارجاً عن جماعة المسلمين يجب فيه كل ما يجب في الكافر من المعاداة والقتال والمقاطعة وغير ذلك من المعاملة، لعله يرتدع ويرجع ويتوب[1].

والنوع الثاني: المؤلفات التي أُلّفت للرد على الشيعة خاصة وعلى عقائدهم الباطلة: وهذا النوع من التأليف ـ كما سبق الحديث عنه ـ جاء نتيجة ظروف خاصة أوجبت على أهل السنة الرد عليهم، وتفنيد شبههم ودحض باطلهم، من هذا الصنف من المؤلفات نذكر كتابيْ «الإمامة» اللذين ألفهما الإمام محمد بن سحنون، وقد سبق الحديث عنهما، وهما أعظم ما ألّف في هذا الفن، يقول عيسى بن مسكين: وما ألف في هذا الفن مثلهما[2]، وكتاب «الإمامة» للإمام إبراهيم بن عبد الله الزبيدي، وكتاب «الرد على الرافضة» له أيضاً، واللذان كانا السبب في محنته وسجنه وضربه من قبل الدولة الفاطمية العبيدية، فهذا النوع كان له أثره في المقاومة[3].

هـ ـ مقاومة شعراء أهل السنة: إلى جانب وسيلة التأليف كانت هناك وسيلة نظم الشعر لهجو بني عبيد وذمهم، وقد برز في هذا الميدان كثير من الشعراء منهم: أبو القاسم الفزاري، فقد وصفهم ووصف سلوكهم فقال:

عبدوا ملوكهم وظنوا أنهم ... نالوا بهم سبب النجاة عموما
وتمكن الشيطان من خطواتهم ... فأراهم عوج الضلال قويما
رغبوا عن الصديق والفاروق في ... أحكامهم لا سلموا تسليما
واستبدلوا بهما ابن الأسود نابحاً ... وأبا قدارة واللعين تميما
تبعوا كلاب جهنم وتأخروا ... عمن أصارهم الإلٰه نجوما
أمن اليهود؟ أم النصارى؟ أم هم ... دهرية جعلوا الحديث قديما
أم هم من الصابئين أم من عصبة ... عبدوا النجوما وأكثروا التنجيما
أم هم زنادقة معطلة رأوا ... أن لا عذاب غداً ولا تنعيما
أم عصبة ثنوية قد عظموا ... النورين عن ظلماتهم تعظيما
سبحان من أبلى العباد بكفرهم ... وَبِشِركهم حقباً وكان رحيما

(1) جهود علماء المغرب في الدفاع عن عقيدة أهل السنة، ص: 349.
(2) المصدر نفسه، ص: 349.
(3) المصدر نفسه، ص: 349.

يـا رب فـالـعـنـهـم ولـقـهـم بـأبـي يـزيـد مـن الـعـذاب أليـمـا[1]

ومن أشهر ما قاله قصيدته الرائية التي انتشرت في الآفاق والبلدان والتي قال فيها:

عـجـبـت لـفـتـنـة أعـمـت وعـمـت يـقـوم بـهـا دعـي أو كـفـور
تـزلـزلـت الـمـدائـن والـبـوادي لـهـا وتـلـونـت مـنـهـا الـدهـور
وضـاقـت كـل أرض ذات عـرض ولـم تـعـن الـمـعـاقـل والـقـصـور
فـنـجـى الـقـيـروان وسـاكـنـيـهـا إلـه دافـع عـنـهـا قـديـر
أحـاط بـأهـلـهـا عـلـمـاً وخـبـراً ومـيَّـز مـا اكـتـنـه الـصـدور
وجـلـلـهـم بـعـافـيـة وأمـن وأسـبـل فـوقـهـا سـتـر سـتـيـر
وأثـبـت جـلـة الـعـلـمـاء فـيـهـا بـحـار لا تـعـد ولا بـحـور
ومـنـهـا سـادة الـعـلـمـاء قـدمـا إذا عُـدوا ولـيـس لـهـا نـظـيـر
وفـيـهـا الـقـوم عـبـاد خـيـارا فـقـد طـاب الأوائـل والأخـيـر
هـم فـتـكـوا سـبـايـا كـل أرض وفـادوا مـا اسـتـبـد بـه الـمـغـيـر
كـفـيـنـاهـم عـطـائـمـهـا جـمـيـعـاً فـزالـت عـنـهـم تـلـك الـشـرور
وسـكـنـا قـلـوبـاً خـافـقـات أمـات عـروقـهـا ضـر ضـريـر
وأويـنـا وآسـيـنـا وكـنـا لـهـم أهـلاً وأكـثـرهـم شـطـيـر
فـبـات طـعـامـنـا لـهـم طـعـامـاً هـنـاك ودُورنـا لـلـقـوم دور
وكـان لـنـا ثـواب الله ذُخـراً وقـام بـشـكـرنـا مـنـهـم شـكـور
ولـولا الـقـيـروان وسـاكـنـوهـا لـغـاب طـعـامـهـم والـمـخ ريـر[2]
ولـيـس لـنـا كـمـا لـهـم حـصـون ولا حـيـل أعـالـيـه وعـور
ولا سـور أحـاط بـنـا ولـكـن لـنـا مـن حـفـظ رب الـعـرش سُـورُ
ولا نـأوي إلـى بـحـر وإنـا إذا قـضـى الـقـضـا تُـتـحَـى الـبـحُـورُ
ولـكـنـا إلـى الـقـرآن نـأوي وفـي أيـمـانـنـا الـبـيـض الـذكـور

(1) رياض النفوس (2/ 494، 495).
(2) المصدر نفسه (2/ 493).

عقائق كالبوارق مرهفات بها تحمي الحرائم والثغور
وسُمر في أعاليهن شهب بها ظمأ مواردها النحور

إلى أن قال:

وإنا بعد من خوف وأمن نحبُّ إذا تشعبت الأمور
رسول الله والصديق حبا به ترجى السعادة والحبور
وبعدهما نحب القوم طُرًا وما اختلفوا فربهم غفور
ألا بأبي وخالصتي وأمي محمد البشير لنا النذير
سأهدي ما حييت له ثناء مع الركبان ينجد أو يغور[1]

4 ـ المعز لدين الله الفاطمي ودخوله مصر:

كان يتابع أحوال حكام وأمراء مصر عن كثب، وأصبحت نفسه تسول له الاستيلاء على مصر، وبموت كافور الإخشيدي في سنة 355هـ اضطربت الديار المصرية، فاقتنص المعز الفرصة ولم يجعلها تمر مر السحاب، فعزم ودبر وأقدم على حفر الآبار والقصور فيما بين القيروان إلى حدود مصر، وحشد الجيوش العظيمة، التي كانت تزيد عن مائة ألف، وأمر المعز كل أمرائه وولاته أن يسمعوا ويطيعوا ويترجلوا في ركاب جوهر الصقلي، وتحركت الجيوش العبيدية لنقل المذهب الباطني إلى مصر ليتخلص من الأزمات والثورات والصراعات العنيفة التي قادها علماء أهل السنة في خمس عقود متتالية في الشمال الإفريقي، رافضين المذهب الباطني معلنين عقائد أهل السنة والجماعة، فاستفاد المعز من ضعف الحكم الإخشيدي التابع للدولة العباسية فرمى بسهامه المسمومة، ودفع إليها جيوشه المحمومة طلباً من أعوانه وسعياً للقضاء على الدولة العباسية، وفي جمادى الآخرة سنة (358هـ) استطاعت جيوش المعز دخول مصر بقيادة جوهر الصقلي الذي لم يجد أي عناء في ضمها لأملاك العبيديين، وجوهر الصقلي هذا هو الذي بنى الأزهر الذي تم بناؤه سنة (361هـ) ليكون محضناً لإعداد دعاة المذهب الإسماعيلي الباطني، وبعد أن مهَّدت مصر للمعز الفاطمي العبيدي جهز جيوشه وحاشيته وأهله وأمواله وسار مفارقاً شمال إفريقيا إلى مصر ليتولى أمرها فأسند زعامة الشمال الإفريقي إلى الأمير الصنهاجي بلكين بن زيري وضم المعز إلى مصر كُلًا من طرابلس وسرت وبرقة، وكان معه شاعره الذي غالى في مدح المعز محمد بن هانئ الأندلسي الذي قال:

(1) رياض النفوس (2/ 494).

فكأنما أنت النبي محمد ... وكأنما أنصارك الأنصار
ما شئت أنت لا ما شاءت الأقدار ... فاحكم فأنت الواحد القهار
هذا الذي تجدي شفاعته غداً ... حقًّا وتُخمد أن تراه النار

ومن شعره في المعز:

النور أنت وكل نور ظلمة ... والفوق أنت وكل فوق دون
فارزق عبادك فضل شفاعة ... وأقرب بهم زُلفى فأنت مكين

ومنه:

تدعوه منتقماً عزيزاً قادراً ... غفاراً موبقة الذنوب صفوحا
أقسمت لولا أن دُعيت خليفة ... لدُعيت من بعد المسيح مسيحا
شهدت بمفخرك السموات العلا ... وتنزل القرآن فيك مديحا

ومنه:

وعلمت من مكنون سر الله ما ... لم يؤت في الملكوت ميكائيلا
لو كان آتى الخلق ما أوتيته ... لم يخلق التشبيه والتأويلا

وكانت بداية رحلة المعز نحو مصر في سنة (362هـ)، وقتل ابن هانئ في برقة في رجب سنة (362هـ) وهو في الثانية والأربعين من عمره، ووجدوا جثته مرمية رمي الكلاب على ساحل بحر برقة وتأسف المعز على قتله، وقال: هذا الرجل كنا نرجو أن نفاخر به شعراء المشرق فلم يقدر لنا ذلك[1]، واستمر المعز في سيره حتى قارب الحدود المصرية، ووصل الإسكندرية يوم 23 من شعبان سنة 362هـ واستقبلته وفود عظيمة من أعيان القادة والزعماء والحكام في مصر، وامتد ملك المعز من سبتة بالمغرب إلى مكة بالمشرق يأتمر بأوامره سكان سواحل المحيط الأطلنطي، وبقي المعز في مصر سنتين ونصف وتوفي بالقاهرة في السابع من ربيع الأول سنة (365هـ)، ودامت ولايته بإفريقية ومصر ثلاثاً وعشرين سنة[2].

قال الذهبي: ظهر في هذا الوقت الرفض وأبدى صفحته وشمخ بأنفه في مصر والشام والحجاز والمغرب بالدولة العُبيدية، وبالعراق والجزيرة والعجم بني بُويه، وكان الخليفة المطيع ضعيف الرتبة مع بني بويه وضعف بدنه ثم أصابه فالج وخَرَسٌ فعزلوه، وأقاموا ابنه الطائع لله، وله السكة والخطبة، وقليل من الأمور، فكانت مملكة المعز أعظم وأمكن[3].

---

(1) الفتح العربي في ليبيا، ص: 362.
(2) المصدر نفسه، ص: 362.
(3) سير أعلام النبلاء (15/ 113 ، 114).

5 ـ زوال الدولة الفاطمية من شمال إفريقيا:

استطاع بعض فقهاء المالكية أن يصلوا إلى ديوان الحكم في دولة ضهاجة التابعة للدولة الفاطمية بمصر، وأثروا في بعض الوزراء والأمراء، الذين كان لهم الفضل بعد الله في تخفيف ضغط الدولة على علماء أهل السنة، واستطاع العلامة أبو الحسن الزجال أن يؤثر في الأمير المعز بن باديس الصنهاجي في تربيته على منهج أهل السنة، وأعطت هذه التربية ثمارها بعدما تولى المعز إفريقية في ذي الحجة سنة (406هـ)، وكان عمل العلامة أبو الحسن في السر بدون أن يعلم به أحد من الشيعة الرافضة، وكان هذا العالم فاضلاً ذا خلق ودين وعقيدة سليمة ومبغض للمذهب الشيعي الباطني، واستطاع أن يغرس التعاليم الصحيحة في نفسية وعقلية وفكر المعز بن باديس الذي تمّ على يديه القضاء على مذهب الشيعة الإسماعيلية في الشمال الإفريقي.

وقد وصف الذهبي المعز بن باديس فقال: وكان ملكاً مهيباً، وسريًا شجاعاً عالي الهمة، محباً للعلم، كثير البذل، مدحه الشعراء. وكان مذهب الإمام أبي حنيفة قد كثر بإفريقية فحمل أهل بلاده على مذهب مالك حسماً لمدة الخلاف، وكان يرجع إلى الإسلام، فخلع طاعة العبيدية وخطب للقائم بأمر الله العباسي، فبعث إليه المستنصر يتهدده فلم يخفه[1]، ورد المعز بن باديس على خطاب المستنصر الفاطمي بمصر الذي هدده فيه وقال له: هلا اقتفيت آثار آبائك في الطاعة والولاء في كلام طويل، فأجابه المعز: إن آبائي وأجدادي كانوا ملوك المغرب قبل أن يتملكه أسلافك ولهم عليهم من الخدم أعظم من التقديم ولو أخّروهم لتقدموا بأسيافهم[2]، وبينت لنا كتب التاريخ أن المعز بن باديس تدرج في عدائه للشيعة الرافضة الباطنية ولحكام مصر، وظهر ذلك في عام (435هـ) عندما وسع قاعدة أهل السنة في جيشه وديوانه ودولته، فبدأ في حملات التطهير للمعتقدات الباطنية ولمن يتلذذ بسبِّ أصحاب رسول الله ﷺ، فأوعز للعامة وللجنود بقتل من يظهر الشتم والسب لأبي بكر وعمر ﷺ فسارعت العامة في كل الشمال الإفريقي للتخلص من بقايا العبيديين ليصفى الشمال الإفريقي من المعتقدات الفاسدة الدخيلة عليه، وأشاد العلماء والفقهاء بهذا العمل الذي أشرف على تنفيذه المعز بن باديس رحمه الله، وذكر الشعراء أشعاراً في مدح المعز، فقد قال القاسم بن مروان في تلك الحوادث:

وسوف يقتلون بكل أرض ... كما قتلوا بأرض القيروان

وقال آخر:

---

(1) سير أعلام النبلاء (18/ 140).

(2) تاريخ الفتح العربي في ليبيا ، لطاهر الزاوي، ص: 289.

يـا مـعـز الـديـن عـش فـي رفـعـة وسـرور واغـتـبـاط وجـذل
أنـت أرضـيـت الـنـبـي الـمـصـطـفـى وعـتـيـقـاً فـي الـمـلاعـيـن الـسـفـل
وجـعـلـت الـقـتـل فـيـهـم سـنـة بـأقـاصـي الأرض فـي كـل الـدول[1]

واستمر المعز بن باديس في التقرب إلى العامة وعلمائهم وفقهائهم من أهل السنة وواصل السير في تخطيطه للانفصال الكلي عن العبيديين في مصر، فجعل المذهب المالكي هو المذهب الرسمي لدولته، وأعلن انضمامه للخلافة العباسية، وغيَّر الأعلام إلى العباسيين وشعاراتهم وحرم أعلام الدولة الفاطمية وشعاراتهم، وأمر بسبك الدراهم والدنانير التي كانت عليها أسماء العبيديين، والتي استمر الناس يتعاملون بها 145سنة، وأمر بضرب سكة أخرى كتب على أحد وجهيها: لا إله إلا الله محمد رسول الله. وكتب على الآخر: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: 85]، وقضى المعز بن باديس على كل المذاهب المخالفة لأهل السنة من الصفرية والنكارية والمعتزلة، والإباضية، وفي سنة 443هـ انضمت برقة كلها إلى المعز بن باديس بعد أن أعلن أميرها جبارة بن مختار الطاعة له. وكان أول من قاد حملة التطهير على الشيعة الإسماعيلية في طرابلس وحارب تقاليدهم الباطلة ودعوتهم المضللة هو العلامة علي بن محمد المنتصر وكنيته: أبو الحسن المتوفى عام 432هـ[2].

6 ـ جهود السلاجقة في حماية العراق من التشيع الرافضي الباطني:

كانت الدولة الفاطمية تسعى للسيطرة على العراق والمشرق ولذلك قامت بإرسال الدعاة إليها، فقد واصل الخلفاء الفاطميون جهودهم في نشر دعوتهم مستغلين الاضطراب الذي ساد بلاد العراق، فأرسل الخليفة الفاطمي الظاهر لإعزاز دين الله الدعاة إلى بغداد سنة 425هـ، فاستجاب لهم كثير من الناس[3]، وازداد نشاط الدعاة في بلاد المشرق الإسلامي على عهد المستنصر بالله الفاطمي، فعهد إلى دعاته بالرحيل إلى فارس وخراسان وما وراء النهر. ومن أشهر دعاة وفلاسفة المذهب الشيعي الإسماعيلي الفاطمي: المؤيد في الدين، هبة الله الشيرازي، وعُرِف أحياناً بالمؤيد فقط، وقد نجح هذا الداعية في التأثير على البساسيري أحد القادة العسكريَين في الدولة العباسية، وقد استطاع البساسيري أن يستولي على بغداد ويزيح الخليفة القائم بأمر الله وإقامة الخطبة فيها للفاطميين، وانقطعت دولة بني العباس من بغداد وأخرج الخليفة وحُمل إلى الأنبار وحبس بالحديثة عند صاحبها مهارش بن مجلي العقيلي

(1) تاريخ الفتح العربي في ليبيا، لطاهر الزاوي، ص: 289.
(2) المصدر نفسه، ص: 290، 291.
(3) دولة السلاجقة للصَّلابي، ص: 54.

فتولى خدمة الخليفة بنفسه وكان أحد وجوه بني عقيل، وخطب لبني عبيد ـ الفاطميين في بغداد أربعين جمعة في ولاية المستنصر[1]. وحاول البساسيري نقض الاتفاق الذي عقده مع قريش بن بدران وعزم على أخذ الخليفة العباسي وترحيله إلى مصر، إلا أن قريشاً تصدى لهذه المحاولة وعهد إلى ابن عمه الأمير محيي الدين بن مهارش العقيلي ـ صاحب حديثة ـ بالتحفظ على الخليفة وتأمين حياته، وعلى الرغم من ذلك فلم يسمح البساسيري للخليفة القائم بأمر الله بالرحيل إلى حديثة إلا بعد أن أرغمه على كتابة اعتراف بعدم أحقية بني العباس في الخلافة الإسلامية مع وجود بني فاطمة الزهراء عليها السلام[2]، ولم يكتف البساسيري بذلك بل استولى على ثوب الخليفة وعمامته وشباكه[3]، وأنفذها إلى الخليفة المستنصر بالله الفاطمي، وكان البساسيري قد شرع في استخدام طائفة من العوام ودفع إليهم السلاح من دار الخلافة العيّارين وأطمعهم في نهب دار الخلافة، ونهب أهل الكرخ ـ الشيعة ـ دور أهل السنة بباب البصرة، ونهبت دار قاضي القضاة الدّمغاني، وهلك أكثر السّجلاّت والكتب الحكيمة وأبيعت للعطارين، ونهبت دور المتعلقين بالخليفة وأعادت الروافض الأذان بحيَّ على خير العمل، وأُذّن به في سائر جوامع بغداد في الجُمعُات والجماعات، وخطب ببغداد وضربت له السّكةُ على الذهب والفضة وحُوصرت دار الخلافة واعتقل رئيس الرؤساء أبو القاسم بن المُسلمة، ووبخه البساسيري ولامه لوماً شديداً، ثم ضربه ضرباً مبرحاً واعتقله مهاناً عنده، ونهبت العامة دار الخلافة، فلا يُحصى ما أخذوا منها من الجواهر والنّفائس والدّيباج والأثاث والثياب وغير ذلك مما لا يُحَدُّ ولا يوُصف، وفي يوم عيد الأضحى في سنة 450هـ ألبس البساسيري الخطباء والمؤذّنين البياض، وعليه هو وأصحابه كذلك وعلى رأسه الألوية المستنصرية والمطارد المصرية، وخطب للمستنصر صاحب مصر، والشيعة الرّافضة في غاية السرور، والأذان في سائر العراق بحيَّ على خير العمل، وانتقم البساسيري من أعيان أهل بغداد انتقاماً عظيماً، وغرَّق خلقاً ممَّن كان يعاديه وبسط على آخرين الأرزاق والعطايا. ولما كان يوم الاثنين لليلتين بقيتا من ذي الحجة أحضر إلى بين يديه الوزير أبو القاسم بن المسلمة الملقّبُ برئيس الوزراء وعليه جُبَّة صوف وطرطور من لبد أحمر وفي رقبته مخنقة من جلود كالتعاويذ، فأركب جملاً[4]، وطيف به في البلد وخلفه من يصفعه بقطعة من جلد، وحين اجتاز بالكرخ نثروا عليه خُلقْان المداسات وبصقوا في وجهه ولعنوه وسبُّوه، وهذه هي عادتهم عندما يتمكنون من مخالفيهم في كل زمان ومكان، وأوقف بإزاء دار الخلافة وهو في

(1) أخبار الدول المنقطعة (3/ 0.43).
(2) الخطط للمقريزي (1/ 439).
(3) الشباك : هو الشرفة التي يجلس فيها الخليفة ويتوكأ بيديه على حافته.
(4) البداية والنهاية (15/ 459).

ذلك يتلو: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: 26] فألبس جلد ثور بقرنيه وعُلّق بكلّوب في شدقيه ورفع إلى الخشبة حيًا، فجعل يضطرب إلى آخر النهار، فمات رحمه الله وكان آخر كلامه: الحمد لله الذي أحياني سعيداً وأماتني شهيداً[1].

من الخصائص النفسية للشيعة الرافضة الباطنية الثابتة عبر التاريخ اتباع أسلوب التذلل والتمسكن والتودد عند الضعف ولكن متى استشعروا القوة، فإنهم يمارسون أشد أنواع الطغيان والنهب والبطش والانتقام. وكان طغرل بك السلطان السلجوقي الذي أزاح البويهيين كان خارج العراق بجيوشه يحارب المنشقين عنه ويمكن لدولته، ولما قضى على الفتن كرّ بجيوشه على بغداد وأعاد الخليفة العباسي إلى الخلافة بعد فكاكه من أسره، واستطاع ملاحقة البساسيري وقتله، وعادت العراق إلى الخلافة العباسية السنية من جديد، وقد فصلت هذه الأحداث التاريخية في كتابي «دولة السلاجقة والمشروع الإسلامي لمقاومة التغلغل الباطني والغزو الصليبي». وقد أدرك السلاجقة الخطر الذي يتهددهم من وراء الدعوة الفاطمية في بلدان الخلافة العباسية، لذلك اتبعوا سياسة حكيمة بعد أن قبضوا على زمام الأمور في بغداد تتمثل في مناهضة الدعوة الفاطمية[2] ودعاتها بالحزم والشدة، فتعقبوا دعاة الفاطمية الذين قاموا بنشر الدعوة الفاطمية في بلاد فارس، كما قاموا بإقصاء المتشيعين للمذهب الإسماعيلي عن دواوين الحكومة والوظائف الدينية وعينوا من أهل السنة بدلاً منهم[3].

7 ـ المدارس النظامية ودورها في الإحياء السني والتصدي للفكر الشيعي الرافضي:

بدأ التفكير الفعلي في إنشاء هذه المدارس النظامية للوقوف أمام المد الشيعي الإمامي والإسماعيلي الرافضي عقب اعتلاء السلطان ألب أرسلان عرش السلاجقة في عام 455هـ، فقد استوزر هذا السلطان رجلاً قديراً وسنياً متحمساً هو الحسن بن علي بن إسحاق الطوسي الملقب بنظام الملك، فرأى هذا الوزير أن الاقتصار على مقاومة الشيعة الإمامية والإسماعيلية الباطنية سياسياً لن يكتب له النجاح إلا إذا وازى هذه المقاومة السياسية مقاومة فكرية، ذلك أن الشيعة إمامية كانوا أو إسماعيلية نشطوا في هذه الفترة وما قبلها إلى الدعوة لمذهبهم بوسائل فكرية متعددة وهذا النشاط الفكري ما كان ينجح في مقاومته إلا نشاط سني مماثل يتصدى له بالحجة والبرهان[4]، فقد كانت الدولة الفاطمية تقوم بإعداد الدعاة من خلال جامع

(1) دولة السلاجقة للصّلّابي، ص: 82.
(2) المصدر نفسه، ص: 68.
(3) المصدر نفسه، ص: 68.
(4) المصدر نفسه، ص: 91، 92.

الأزهر الذي جعلوا منه مؤسسة تعليمية تُعنى بنشر مذهبهم في عام 378هـ[1].

هذا بالإضافة إلى البرامج التعلمية التي كانت تعد بعناية خاصة في عاصمة الدولة الفاطمية لإعداد الدعاة وتثقيفهم ثقافة مذهبية واسعة قبل إرسالهم إلى البلاد الإسلامية لنشر المذهب الإسماعيلي، وكان لذلك أثر في رواج هذا المذهب في بعض مناطق الدعوة[2]. لذلك كله فكّر نظام الملك في أن يقاوم النفوذ الشيعي بنفس الأسلوب الذي ينتشر به، ومع ذلك رأى أن يقرن المقاومة السياسية للشيعة بمقاومة فكرية أيضاً[3]، وتربية الأمة على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وعقيدة أهل السنة والجماعة المستمدة من الوحي الإلٰهي، ومن هنا كان تفكيره في إنشاء المدارس النظامية التى نُسبت إليه، فهو الذي جد في إنشائها وخطط لها، وأوقف عليها الأوقات الواسعة، واختار لها الأكفاء من الأساتذة فكان من الطبيعي أن تنسب إليه من دون السلاجقة[4].

وقد وفق الله نظام الملك توفيقاً قَلَّ نظيره في التاريخ السياسي والعلمي والديني فقد عاشت مدارسه أمداً طويلاً وعلى الخصوص نظامية بغداد التى طاولت الزمن زهاء أربعة قرون إذ كان آخر من عرفنا ممن درس فيها صاحب القاموس الفيروزأبادي المتوفى سنة (817هـ) حيث زالت فى نهاية القرن التاسع الهجري[5] وأدت رسالتها من تخريج العلماء على المذهب السني الشافعي، وزوَّدت الجهاز الحكومي بالموظفين ردحاً من الزمن وبخاصة دوائر القضاء والحسبة والاستفتاء، وهي أهم وظائف الدولة في ذلك العصر. وانتشر هؤلاء في العالم الإسلامي حتى اخترقوا حدود الباطنية فى مصر وبلغوا الشمال الإفريقي ودعموا الوجود السني بها، ولقد تخرج من هذه المدارس جيل تحقق على يديه معظم الأهداف التي رسمها نظام الملك فوجدنا كثيراً من الذين تخرجوا منها يرحلون الى أقاليم أخرى ليقوموا بتدريس الفقه الشافعي والحديث الشريف وينشروا عقيدة أهل السنة في الأمصار التي انتقلوا إليها أو يتولوا مجلس القضاء والفتيا أو يتولوا بعض الوظائف الإدارية الهامة في دواوين الدولة.

وينقل السبكي عن إسحاق الشيرازي ـ أول مدرس بنظامية بغداد ـ بقوله: خرجت إلى خراسان فما بلغت بلدة ولا قرية إلا كان قاضيها أو مفتيها أو خطيبها تلميذي أو من أصحابي[6]، وقد ساهمت هذه المدارس في إعادة دور منهج السنة في حياة الأمة بقوة وكان أبرز آثارها أيضاً تقلص نفوذ الفكر الشيعي، وخاصة بعد أن خرجت المؤلفات المناهضة له من هذه المدارس، وكان الإمام الغزالي على قمة المفكّرين الذين شَنُّوا حرباً شعواء على الشيعة

(1) دولة السلاجقة للصَّلّابي، ص: 291.
(2) التاريخ السياسي والفكري، ص: 179.
(3) المصدر نفسه، ص: 179.
(4) المصدر نفسه، ص: 179.
(5) نظام الملك، ص: 401.
(6) دولة السلاجقة للصَّلّابي، ص: 390.

الرافضة[1]. وقد مهدت المدارس النظامية بتراثها ورجالها وعلمائها السبيل ويسرته أمام نور الدين زنكي والأيوبيين، حتى يكملوا المسيرة التي من أجلها أنشئت النظاميات وتتمثل في العمل على سيادة الإسلام الصحيح، وخاصة فى المناطق التي كانت موطناً لنفوذ الشيعة في تلك المرحلة كالشام ومصر وغيرها ـ إن الأخطاء العظيمة التي تواجه الأمة اليوم المشروع الباطني الجديد النشط في أنحاء المعمورة، وقد استهدف عقيدة الأمة وكتاب ربها وسنة نبيها وتاريخها وعظمائها فهل نستلهم الدروس ونستخرج الصحيح الذي جاء به محمد ﷺ فيكون من حكّامنا مثل ألب أرسلان في شجاعته، ومن وزرائنا كنظام الملك في همته وغيرته، ومن علمائنا كالجويني والغزالي والبغوي والجيلاني في دفاعهم عن الكتاب والسنة والصحابة وقضايا الفكر الإسلامي الصحيح، وتوظيف الوسائل الحديثة فى بث عقائد الإسلام الصحيحة وتاريخه الموثق وفكره البديع من خلال الفضائيات والإنترنت والمطابع والجرائد والمجلات والكتب والندوات و المؤتمرات والمناهج والمدارس والجامعات ووسائل الدعوة بأنواعها، نريد بذلك وجه الله والدار الآخرة ورفقة النبيين والصديقين والشهداء والصالحين جهود الإمام في دحر الشيعة الباطنية إذا كانت إحدى ثمرات المدارس النظامية أنها مهدت الطريق لسيادة المذهب السني كان من أبرز آثارها أيضاً نفوذ الفكر الشيعي، وخاصة بعد أن خرجت المؤلفات المناهضة له من هذه المدارس. وكان الإمام الغزالي ـ العالم السني ـ على قمة المفكرين الذين شنوا حرباً شعواء على الشيعة الرافضة الباطنية إذ يذكر هو أنه ألف فى ذلك كتباً عدة أشهرها: «فضائح الباطنية» الذي كلف بتأليفه في سنة (487هـ) من قبل الخليفة المستظهر[2] على أن الشيء المثير للإعجاب هو شجاعة الإمام الغزالي في حملته على الإسماعيلية الباطنية، حيث جاءت في وقت انتشر فيه دعاتهم في فارس وتزايد خطرهم حتى أقاموا الحصون والقلاع وهددوا أمن الناس وسلامتهم وقاموا بالاغتيالات على نطاق واسع فشملت كثيراً من الساسة المفكرين، وقاموا وعلى رأسهم نظام الملك نفسه، والغزالي قام بهذه الحملة بتوجيه من السلطة مع رغبة الغزالي العالم السني في القيام بواجبة في الدفاع عن الإسلام الحقيقي، ـوهذا شيء جميل عندما تلتقى جهود السلطة السياسية مع علمائها فى تحقيق أهداف الإسلام من خلال مؤسسات نافعة للمجتمع والدولة، كالذي قامت به المدارس النظامية في مقاومة الفكر والنفوذ الشيعي الباطني، فقد كانت الدولة الفاطمية قد تدرعت بالفلسفة والعقيدة الباطنية وظهرت في مظهر ديني سياسي، فكانت كما يقول الأستاذ الندوي ـ أشد خطراً على الإسلام من الفلسفة، فقد كانت الفلسفة تعيش في برجها العاجي بعيداً عن الشعب والجمهور[3]. وأما الباطنية، فكانت تتسرَّب إلى المجتمع وتنفث سمومها فيه، وكان

---

(1) رجال الفكر والدعوة (1/ 204)، الغزالي للقرضاوي، ص: 57.

(2) الجهاد من الهجرة إلى الدعوة والدولة، ص: 147.

(3) المصدر نفسه، ص: 60.

لها الإغراءات المادية القوية، ولم يكن في العالم الإسلامي في آخر القرن الخامس أحد أجدر بالرد عليها والكشف عن أسرارها ونقض ما تبني عليه دعوتها من الغزالي. وكان لكتابات الغزالي أثر قوي في مجال الرد على الباطنية، فقد استطاع بفكره القوي وبما نال من شهرة أن يكون ذا تأثير قوي في مقاومة الباطنية وأن يناصر المذهب السني، فقد استطاع توظيف العلوم الشرعية والعلوم العقلية من الفلسفة والمنطق والكلام في نسف جذور المذهب الباطني، وقال فيهم كلمته التي طار بها الركبان وسارت مسير الأمثال: ظاهرهم الرفض وباطنهم الكفر المحض، فهم يتسترون بالتشيع وما هم من الشيعة من شيء وإنما هو قناع يخفون وراءه كيدهم لأهل الإسلام[1]. ومما يذكر للغزالي: استمراره على نقد هذه الطائفة وكشف اللثام عن تناقض أفكارها وفضائح أعمالها وسوء نواياها، برغم ما كان معلوماً في ذلك الوقت أن هذا النقد يكلفه حياته، وقد رأى بنفسه مصرع رجل الدولة الكبير الوزير نظام الملك، وكان الشيعة الباطنية تهدد كل من يرونه خطراً عليهم من رجال الملك أو رجال العلم بالانتقام في صورة طعنة في خنجر، أو سم يدس في طعام أو غير ذلك من الأساليب التي أتقنوها ونفذوها بكل دقة، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على شجاعة الغزالي في صدعه بالحق، ومواجهة الباطل، مهما تكن النتيجة ولن يصيبه إلا ما كتب الله له[2]. وهذا درس وتذكير للعلماء المعاصرين أن يصدقوا الله في مقاومة الباطنيين الجدد، وقد رأيت بعض المحسوبين على العلماء يخشونهم، ويخافون من القتل والاغتيال أو تهمة الطائفية، وبعضهم وقع تحت تأثير إبر التخدير الباطنية ومجاملات لا وزن لها في ميزان الشريعة أو حسابات دنيوية زائلة، ولذلك تركوهم يعبثون بعقائد الأمة ومقدساتها وساعدهم بعض علماء الأمة في تخدير الجمهور العريض من أبناء المسلمين مع علم هؤلاء العلماء بخطر هؤلاء القوم على عقائد الأمة وأخلاقها، أما يخشى هؤلاء الناس من يوم تقلب فيه القلوب والأبصار، ويسأل الله فيه الصادقين عن صدقهم.

ثانياً: الحملات النورية العسكرية على مصر:

قام الوزير الفاطمي «ابن السلار» السني المذهب بمحاولة الاتصال بنور الدين من أجل شن عمليات حربية مشتركة على أساس أن يتقدم نور الدين بقواته من الشمال ويقوم الأسطول الفاطمي بمهاجمة المدن الساحلية الشامية الصليبية، وتوسط أسامة بن منقذ بين الجانبين وعرض عليه ابن السلار أن يأخذ الأموال والهدايا لسلطان حلب عارضاً عليه القيام بمنازلة طبرية، وفي نفس الحين يقوم الأسطول الفاطمي بمهاجمة غزة، وفي حالة موافقة نور الدين على ذلك يقدم له ابن منقذ الأموال لمساعدته، فإن رفض فعلى الأخير أن يجند بالأموال عدداً من الفرسان لقتال الصليبيين عند عسقلان، غير أنه عندما بلغ بصرى وقابل نور الدين أوضح

(1) الإمام الغزالي بين مادحيه وناقديه، ص: 60. (2) الإمام الغزالي بين مادحيه وناقديه، ص: 62.

له مدى انشغاله بأمر دمشق، وأنها تقف سداً منيعاً دون التعاون المشترك مع الفواطم إذ أنها لم تكن حينذاك قد سقطت بعد في قبضته[1]، ويلاحظ أن ابن السلار استمر في صراعه مع الصليبيين فجهز في عام (546هـ/ 1151م) أسطولاً أنفق عليه مالاً وفيراً وهاجم به المدن الساحلية الصليبية، وقد تحدث الذهبي عن ابن السلار فقال: وكان بطلاً شجاعاً، مقداماً مهيباً شافعياً سنيًا، ليس على دين العُبيدية، احتفل بالسُّلَفي، وبنى له المدرسة، لكنه فيه ظلم وعسف[2] وجبروت وتجددت المحاولات السابقة في عهده وزار طلائع بن رزيك الذي اتصل بنور الدين محمود عن طريق أسامة بن منقذ، غير أن نور الدين لم يتعجل، وكان يرى أن الفرصة المناسبة لم تأتِ بعد، وكانت بين أسامة بن منقذ والملك الصالح أبو الغارات طلائع بن رُزيك مسجلات شعرية منها ما قاله طلائع بن رُزيك:

فقولوا لنور الدين لا فُلَّ خدُّه ... ولا حَكَمت فيه الليالي الغواشمُ

تجهز إلى أرض العدو ولا تَهِن ... وتُظهر فتوراً إن مضت منك حارم

ومنها مما كتبه إلى أسامة بن منقذ:

يا سَيِّداً يسمو بهمَّته ... إلى الرُتب العَليَّه

فينال منها حين يُحرم ... غيره أو في مَزِيَّه

أنت الصديق وإن بعدت ... وصاحب الشَّيَم الرَّضيه

نُنبيك أن جيوشنا ... فعلت فِعال الجاهلية

سارت إلى الأعداء من ... أبطالها مئتا سَرِيَّه

فتُغيرُ هذي بُكرةً ... وتُعاوِدُ الأخرى عَشِيَّه

فالويل منها للفرنج ... فقد لقوا جهد البَليَّه

جاءت رؤوسهمُ تلوح ... على رؤوس الشُّهمَريَّه

وقلائع قد قُسِّمتْ ... بين الجنود على السَّويَّه

وخلائقٌ كثرت من ... الأسرى تقادُ إلى المنيَّه

فانهض فقد أنبيت مجد ... الدين بالحال الجَليَّه

(1) كتاب الروضتين (1/ 370).

(2) فن الصراع الإسلامي الصليبي، ص: 84.

والـمـم بـنـور الـديـن واعـلـمـه بـهـاتـيـك الـقـضـيّـة
فـهـو الـذي مـا زال يـخـلـص مـنـه أفـعـالاً ونـيّـه
ويُبيد جمع الكفر بالبيض الـرُّقَـاق الـمـشـرفـيـه
فـعـسـاه يـنـهـض نـهـضـة يـفـنـي بـهـا تـلـك الـبـقـيّـه
إمـضـا لـنُـصـرة ديـنـه أو مـلـكـه أو لـلـحـمـيّـه

وكتب إلى أسامة بن منقذ أيضاً فقال:

قـل لابـن مـنـقـذ الـذي قـد حـاز فـي الـفـضـل الـكـمـالا
فـلـذلـك قـد أضـحـى الأنـام عـلـى مـكـارمـه عِـيـالاً
كـم قـد بـعـثـنـا نـحـوك الأشـعـار مـسـرعـة عـجـالاً
وصـددت عـنـهـا حـيـن رامـت مـن مـحـاسـنـك الـوِصَـالا
هـلّا بَـذَلْـتَ لـنـا مـقـالا حـيـن لـم تـبـذُل فـعـالا
مـع أنّـنـا نُـولـيـك صـبـراً فـي الـمـودة واحـتـمـالا
ونـبـئُـك الأخـبـار إن أصـخـت قـصـاراً أو طِـوالا
سـارت سَـرايـات لـقـصـد الـشـام تـعـتـسـف الـرِّمـالا
تُـزجـي إلـى الأعـداء جُـرد الـخـيـل أتـبـاعـاً تَـوالَـى[1]

إلى أن قال:

فـلـو أنَّ نـور الـديـن يـجـعـل فـعـلـنـا فـيـهـم مـثـالا
وَيُـسَـيِّـرُ الأجـنـاد جـهـراً كـي يـنُـازِلَـهـم بَـزالا
ووفـى لـنـا ولأهـل دولـتـه بـمـا قـد كـان قـالا
لـرأيـت لـلإفـرنـج طُـرًّا فـي مـعـاقـلـهـا اعـتـقـالا
وتـجـهَّـزوا لـلـسَّـيـر نـحـو الـغـرب أو قـصـدوا الـشـمَّـالا
وإذا أبـى إلّا اطِّـراحـاً لـلـنـصـيـحـة واعـتـزالا

(1) كتاب الروضتين (1/ 368).

عُدنا بتسليم الأمور لحكم خالقنا تعالى[1]

فأجابه ابن منقذ بقصيدة منها:

يا أشرف الوزراء أخلاقاً وأكرمهم فعالا
نَبَّهت عبداً طالما نَبَّهته قدراً وحالا
وَعَتَبْتَه فأَفَلْتَهُ فخراً ومجداً لن يُنالا
لكن ذاك العَتْبَ يُشعِلُ في جوانحه اشتعالا

إلى أن قال:

واشدُد يديك بودِّ نور الدين والقَ به الرِّجالا
فهو المحامي عن بلاد الشام جمعاً أن تُذَالا
ومُبيدُ أملاكِ الفرنج وجمعهم حالاً فحالا
مَلِكٌ يتيه الدهر والدنيا بدولته اختيالا
جمع الخِلال الصَّالحات فلم يَدَع منها جالا
فإذا بدا للنُّاظرين رأت عيونهم الكمالا
فبقيتما للمُسلمين جِمَّى وللدُّنيا جمالا[2]

ولم يدخل نور الدين في تحالف عسكري مع طلائع بن رُزيك إلا أنه اهتم بالاتصالات الدبلوماسية وقد وصلت في عام (552هـ/ 1157م) سفارة من جانب نور الدين وتكرر ذات الأمر في العام التالي أي (553هـ/ 1158م) وردت الدولة الفاطمية على تلك السفارة بأن تم إعادة السفير النوري إلى بلاده، ومعه هدايا وأسلحة تُقدر بثلاثين ألفاً من الدنانير، وعينيات تقدر بسبعين ألفاً من أجل دعم صراع نور الدين مع الصليبيين[3]. ونجد سفارة أخرى من نور الدين في عام (554هـ/ 1159م) ومن جهة أخرى أظهرت الدولة الفاطمية ودها له، فأرسل العاضد في عام (555هـ/ 1160م) بالخلع إليه، والواقع أن التعليل المنطقي لذلك أن الفاطميين بعد أن فقدوا عسقلان عام (548هـ/ 1153م) أدركوا من ذي قبل؛ خطورة الصليبيين عليهم ضرورة الاستفادة من قوة الدولة النورية وثقلها السياسي والعسكري[4].

(1) كتاب الروضتين (1/ 369).
(2) الجهاد والتجديد، ص: 195.
(3) المصدر نفسه، ص: 196.
(4) المصدر نفسه، ص: 197.

1 ـ دوافع فتح مصر عند نور الدين:

كان فتح مصر من أعظم منجزات نور الدين رَحِمَهُ اللَّهُ، فقد تمكن من إسقاط الدولة الفاطمية العبيدية، التي استمرت أكثر من قرنين تنشر الفساد السياسي والخلل العقدي في أنحاء العالم الإسلامي، فهي التي أعانت الصليبيين في احتلال بلاد الشام بتحالفها وتآمرها معهم، وهي التي تبنت المذهب الباطني ونشرته في ديار المسلمين، وعندما سادت الفوضى وإدارة الحكم فيها، وتحكم الوزراء بالأمر دون الخلفاء، طمع الصليبيون بغزو مصر فهاجموها المرة تلو المرة، وعندها جرد نور الدين محمود حملاته العسكرية لتخليص مصر من مطامعهم، ولإعادة أرض الكنانة إلى منهج أهل السنة والجماعة، وجمع كلمة المسلمين[1]، ويمكن تلخيص أبرز الدوافع التي أدت إلى غزو مصر ما يأتي:

الدافع الأول: حالة الفوضى التي سادت مصر آخر أيامها، فقد أصبحت الدولة تعاني كثيراً من مظاهر الانحلال والفساد، حتى صار من الأمور الشائعة أن يصبح الخليفة أو الوزير مقتولاً خلال الصراع الدائر بين الوزراء أنفسهم، أو بين الوزراء والخلفاء، فقد قتل الظافر على يد وزيره، وتحكم الوزراء فيمن جاء بعده وفي اختيار من يشاؤون، وقتل الوزراء بعضهم بعضاً، فقد تولى الوزارة في عام واحد ثلاثة وزراء: العادل بن رزيك، وشاور، وضرغام، فضعفت الدولة وسادت الفوضى في البلاد. ومن أواخر هذا الصراع خروج شاور من مصر، بعد أن طرده «ضرغام» ومن ثم استنجاده بنور الدين محمود، الذي وجد الفرصة مواتية لتحقيق الوحدة الإسلامية في بلاد الشام ومصر.

الدافع الثاني: إن مطامع الصليبيين شجعت القائد المجاهد نور الدين على التفكير جدياً بضم مصر إلى الجبهة الإسلامية، كما أن تلقيه العهد من الخليفة العباسي بإطلاق يده في بلاد الشام ومصر عام 549هـ شد من عزيمته لإنجاز هذا الأمر[2].

الدافع الثالث: من أقوى الأسباب التي أدّت إلى القضاء على الخلافة الفاطمية العبيدية، العامل العقدي، فقد كانت دولة باطنية المعتقد، إسماعيلية المذهب فرقت وحدة المسلمين وتآمرت مراراً مع أعدائهم[3]. فكان لابد من إقامة وحدة قوية في عقيدتها، شرعية في توجهها تضم إلى الخلافة العباسية أرض الكنانة مع بلاد الشام[4].

---

(1) الجهاد والتجديد، ص: 197.
(2) المصدر نفسه، ص: 195.
(3) المصدر نفسه، ص: 196.
(4) مصر والشام في عهد الأيوبيين والمماليك، ص: 13.

وفي هذه الظروف التي كان نور الدين الشهيد يتطلع فيها إلى غزو مصر وصل إلى دمشق عام 559هـ الوزير الفاطمي شاور بن مجير السعدي، طالباً النجدة منه، ضد من سلب منه منصبه قهراً، كما وعد شاور مقابل مساعدة نور الدين له: بثلث دخل البلاد المصرية سنوياً، بعد دفع رواتب الجند، وأن يكون نائباً عن نور الدين بمصر إذا ساعده في التغلب على ضرغام عدوه، ويكون أسد الدين شيركوه مقيماً بعسكره بمصر ويتصرف مع شاور في شؤون البلاد بأمر نور الدين[1]. لكن نور الدين كان متردداً متريثاً: يقدم إلى هذا الغرض رِجْلاً، ويؤخر أخرى، حتى استخار الله في الأمر، على ما هنالك من أخطار جسيمة ممثلة في الصليبيين بالساحل وبيت المقدس، إضافة إلى شكه في إخلاص شاور السعدي[2]. ثم جهز نور الدين الحملات المتوالية، ووجهها نحو مصر مُنذ عام (559هـ حتى 564هـ) بقيادة أسد الدين شيركوه[3].

2 ـ الحملة النورية الأولى: 559هـ:

قرّر نور الدين محمود إرسال حملة عسكرية إلى مصر بقيادة أسد الدين شيركوه لتحقيق هدفين مبدئيين:

ـ الوقوف عن كثب على أوضاع مصر الداخلية تمهيداً لضمِّها، وبخاصة أن شاور وعده إن هو عاد إلى منصبه سيتحمَّل نفقات الحملة ويؤمن إقامة أسد الدين شيركوه وجنده في مصر.

ـ إعادة شاور، الوزير الفاطمي المخلوع إلى منصبه.

وعلم ضرغام بالاستعدادات التي تجري في دمشق لتجهيز حملة لمساعدة شاور، فاحتاط للأمر، واستنجد بعموري الأول في محاولة منه للدخول في لعبة توازن القوى، وعقد معه اتفاقاً لمساعدته ضد نور الدين محمود، وتعهد له بالمقابل أن يدفع جزية سنوية يقررها الملك، كما وافق على أن تدخل مصر في تبعية الصليبيين، وأجبر الخليفة الفاطمي العاضد على توقيع هذا الاتفاق[4]، وكان طبيعياً أن يقبل عموري الأول هذا العرض الذي سيتيح له فرصة لا تُعوَّض لدخول مصر، وهو الأمل الذي سعى إليه الصليبيون مُنذ أكثر من نصف

(1) الكامل في التاريخ نقلاً عن الجهاد والتجديد، ص: 198.
(2) المصدر نفسه، ص: 198.
(3) الجهاد والتجديد، ص: 198.
(4) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام، ص: 328.

قرن، فأعدَّ على الفور حملة عسكرية من أجل الزحف على مصر، وخرج أسد الدين شيركوه على رأس حملته الأولى إلى مصر في شهر جمادى الآخرة 559هـ/ شهر نيسان 1164م بصحبة ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب الذي كان يناهز السابعة والعشرين من عمره، وسار على الطريق المحدّد للحملة، والذي يمر عبر أراضي يسيطر عليها الصليبيون[1] وحتى يصرف أنظارهم عن التعرض للحملة، وتأميناً على حياة أفرادها تصرف نور الدين محمود على محورين:

الأول: أنه رافق الحملة بجيشه إلى ما يلي دمشق للحيلولة دون التعرض لأفرادها.

الثاني: راح يهاجم الأطراف الشمالية لمملكة بيت المقدس المجاورة لدمشق لتحويل أنظار الصليبيين عن مصر[2]، وسار أسد الدين شيركوه على رأس جيشه الكثيف عبر الصحراء، بصحبة شاور، فعبر الكرك ومر بالشوبك ثم أيلة، فالسويس ومنها إلى القاهرة وقد بلغ من السرعة في سيره أنه أجتاز برزخ السويس قبل أن يستعد الصليبيون للتدخل، فأرسل صرغام قوة عسكرية بقيادة أخ له يدعى: ناصر الدين، للتصدي لزحفه، أسفر لقاء الطرفين في بلبيس عن انتصار واضح لأسد الدين شيركوه، وتراجع ناصر الدين مهزوماً إلى القاهرة، فطارده أسد الدين شيركوه ووصل في أواخر جمادى الآخرة إلى العاصمة المصرية، فخرج إليه ضرغام بكل ما يملك من قوة لإدراكه بأن هذه المعركة هي معركته الأخيرة وجرى اللقاء تحت أسوار القاهرة: اتسمت المعركة بالعنف وانتهت بانتصار أسد الدين شيركوه بعد أن تخلّى الجيش والناس والخليفة عن ضرغام، وقتل أثناء محاولته الفرار قرب مشهد السيدة نفيسة ـ المزعوم ـ (في شهر رجب 559هـ/ شهر حزيران 1164م) كما قتل أخوه ناصر الدين ودخل أسد الدين شيركوه القاهرة منتصراً وأعاد شاور إلى منصبه في الوزارة، ثم أقام معسكره خارجها[3].

وبعد أن ضمن شاور عودته إلى منصب الوزارة عاد إلى طبيعته التي اتصف بها ـ من المكر والخداع ـ ليدخل في صراع جديد مع أسد الدين شيركوه، فأساء معاملة الناس وتناسى وعوده لنور الدين محمود بل سرعان ما ظهرت عليه إمارات الغدر فنقض اتفاقيته معه، وطلب من شيركوه الخروج من مصر وأن يعود فوراً مع قواته إلى بلاد الشام، لكن هذا الأخير رفض الاستجابة لطلبه، وردَّ على موقفه المتقلب، فسارع إلى الاستيلاء على بلبيس وحكم البلاد الشرقية[4]، ولم يَسَعْ شاور إلا أن يستنجد بالملك عموري الأول الذي كان يتأهب للزحف على مصر، وأخذ يُخوِّفه من نور الدين محمود وعرض عليه أن:

---

(1) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، ص: 76.
(2) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام، ص: 329.
(3) المصدر نفسه، ص: 329.
(4) الباهر، ص: 121، 122، تاريخ الزنكيين في الموصل، ص: 330.

ـ يؤدي له مبلغ ألف دينار عن كل مرحلة من مراحل الرحلة من بيت المقدس إلى نهر النيل البالغ عددها سبعاً وعشرين مرحلة.

ـ يمنح هدية لكل من يصحبه مَن فرسان الأسبارتية الذين كانوا يشكلون عماد جيش مملكة بيت المقدس، في محاولة منه لإغراء فرسانها بالاشتراك بالحملة.

ـ يتكفَّل بنفقات علف أفراسهم، مقابل مساعدته لإخراج أسد الدين شيركوه من مصر[1] وهكذا انغمس شاور في اللعبة السياسية بين الأعداء الكبار محاولاً بذلك إثارتهم لمصلحته الخاصة، ولا شك بأن عموري الأول كان آنذاك يراقب تطورات الموقف السياسي والعسكري في مصر، فلما علم بزحف أسد الدين شيركوه ازدادت مخاوفه، ولما وصلت إليه دعوة شاور رحَّب بها، وبذلك لم يُضع الفرصة عليه لدخول مصر، وإن اختلف الحليف، الأمر الذي لا يهمه في شيء، فكل ما يعنيه هو دخول مصر[2].

3 ـ حملة عموري الثانية على مصر:

فشلت حملة عموري الأول على مصر واضطر إلى الانسحاب والعودة إلى بيت المقدس، وكانت في عام (558هـ/ 1163م) وعندما أتيحت الفرصة مرّة أخرى لدخول مصر بادر عموري الأول، فور تلقيه دعوة شاور، إلى عقد مجلس في بيت المقدس حضره بارونات المملكة، وتقرَّر فيه تلبية دعوة شاور بعد أن أوضح للمجلس أنّ في قدرته تجهيز حملة لغزو مصر دون أن يضعف من دفاعات المملكة، وبخاصة أنه وصل وقتئذٍ من أوروبا عدد من الحجاج لزيارة بيت المقدس يمكن الاستفادة منهم في المجهود الحربي، وأمل في أن يتمكَّن من احتلال مصر لحساب الصليبيين، وقرَّر بأن يتولى بوهميوند الثالث، أمير أنطاكية، إدارة شؤون المملكة خلال غيابه[3]، وأسرع ملك بيت المقدس بالزحف إلى مصر على رأس قواته للمرة الثانية في شهر رمضان عام (559هـ / شهر آب عام 1164م) واتصل فور وصوله إلى فاقوس[4] بشاور، واتفقا على حصار أسد الدين شيركوه في بلبيس، وصمد هذا الحصن للحصار مدة ثلاثة أشهر دافع أسد الدين شيركوه خلالها عن مواقعه[5]، وفجأة قرَّر عموري الأول الدخول في مفاوضات معه للجلاء المزدوج عن مصر، فما الذي حدث في الأفق

---

(1) تاريخ الزنكيين في الموصل، ص: 330.

(2) المصدر نفسه، ص: 330.

(3) الكامل في التاريخ نقلاً عن تاريخ الزنكيين في الموصل، ص: 331.

(4) فاقوس: مدينة في جوف مصر الشرقي وهي آخر ديار مصر من جهة الشام في الجوف الأقصى الحموي (4/ 232).

(5) تاريخ الزنكيين في الموصل، ص: 331.

السياسي حتى أقدم على هذه الخطوة؟ ـ وهنا تبرز عبقرية نور الدين العسكرية وقيادته الفذة ـ فقد تلقّى عموري الأول أنباء مزعجة من بلاد الشام بتعرض ممتلكاته لضغط من نور الدين محمود، ففضّل العودة للدفاع عنها، وأدرك في الوقت نفسه أن حملته مَقْضي عليها بالفشل في ظل امتناع أسد الدين شيركوه في بلبيس. وكان موقف أسد الدين شيركوه صعباً أيضاً، فالمؤن بدأت بالنفاذ فضلاً عن تفوق القوات الصليبية الفاطمية المشتركة في العدد، وأن الوضع العسكري ليس في صالحه، لذلك قبل الدخول في مفاوضات من أجل الجلاء عن مصر[1].

وفعلاً تمّ الاتفاق بين الرجلين على الخروج من مصر في شهر ذي الحجة، شهر تشرين الأول، وسار الجيشان الإسلامي والصليبي في طريقين متوازيين عبر شبه جزيرة سيناء بعد أن تركا شاور يسيطر على مقاليد الحكم، وكان شيركوه آخر من غادر البلاد للحاق بجيشه[2]. وكان شاور الفائز الحقيقي في هذا الصراع الذي انتهى لمصلحته، فتخلّص من الجيوش الإسلامية الشامية والصليبية على السواء، كما تخلصّ من ضرغام وأضحى طوال العامين التاليين صاحب الأمر والنهي والمتحكّم في مقاليد البلاد[3]، ووضع أسد الدين شيركوه نفسه بعد عودته من مصر تحت تصرُّف نور الدين محمود، وأصبحت مصر محور تفكير أسد الدين شيركوه وحديثه في مجالسه ومحور أفكاره، ولم ينقطع عن تبادل الآراء مع أصدقائه فيها الذين كانوا يزوّدونه بأخبارها، وأرسله نور الدين محمود في تلك الأثناء بمهمة إلى بغداد، فاستغل وجوده في عاصمة الخلافة ليثير حماس الخليفة المستنجد بالله، حيث راح يقص عليه أخبار مصر وأحوالها، وما شاهده وخبره بنفسه، فتأثر الخليفة بما سمعه وشجّعه على العودة إليها[4].

وعلى الرغم من أن حملة أسد الدين شيركوه لم تحقق أهدافها في مصر، إلا أن النتيجة النهائية هي أن أملاك نور الدين محمود قد تدعّمت في بلاد الشام، وارتفع شأنه في العالم الإسلامي، بينما تراجعت أملاك الصليبيين إلى الساحل واستبد اليأس بهم[5]، ومهما يكن من أمر، فقد غادر كل من شيركوه وعموري الأول أرض مصر، وقد وقف كل منهما على أوضاعها السياسية المتردية وسوء أحوالها الاقتصادية، بالإضافة إلى ما تتمتع به من ثروة وفيرة وموارد بشرية هائلة ترجّح كفة من يضع يده عليها. وانتهز شاور فرصة خروجهما فعاد إلى سيرته الأولى، يظلم ويقتل، ويصادر أموال الناس، بحيث لم يبق للخليفة الفاطمي

(1) تاريخ الزنكيين في الموصل، ص: 331.
(2) المصدر نفسه، ص: 331.
(3) المصدر نفسه، ص: 331.
(4) المصدر نفسه، ص: 332.
(5) المصدر نفسه، ص: 332.

العاضد معه أمر ولا نهي، ولما ثقلت وطأته عليه كتب إلى نور الدين محمود يستنجد به ليخلّصه منه[1].

4 ـ الحملة النورية الثانية:

أعدّ نور الدين محمود القوات اللازمة وأرسلها إلى مصر (في شهر ربيع الأول عام 562هـ/ شهر كانون الثاني عام 1167م) بقيادة أسد الدين شيركوه وصحبة ابن أخيه صلاح الدين وسيَّر معه جماعة من الأمراء[2]، وبلغ تعداد هذه القوات ألفي فارس[3]، ورافقه نور الدين حتى أطراف البلاد خوفاً من تعرُّض الصليبيين له[4]، وسار أفراد الحملة في طريق محفوفة بالأخطار، فالصليبيون الذين كانوا على طريقهم رابضين في الكرك والشوبك قد ينقضُّون عليهم وينكّلون بهم، وهم بعيدون عن مناطقهم، والبدو يلاحقونهم وينقلون أخبارهم إلى الصليبيين، وكان عليهم أن يغيّروا طريق سيرهم أحياناً للتّخفي، كما عرقلت الطبيعة زحفهم، إذ أن عاصفة رملية عنيفة هبَّت عليهم وقضت على عدد من الرجال وبعض الزاد وعلى الرغم من ذلك واصلوا رحلتهم إلى مصر، وتوافر لشاور من الوقت ما جعله يستنجد مجدَّداً بعموري الأول، إذ أيقن من استقراء الأحداث، أن أسد الدين شيركوه إذا قدم إلى مصر هذه المرة، فإنه سوف يبقى فيها ولا يغادرها، لذلك، فإنه لم يتوان عن الاتصال بملك بيت المقدس والتفاوض معه، موضحاً له الخطر، الذي يمثله نور الدين محمود على مملكة بيت المقدس لو نجح في امتلاك مصر.

رحَّب عموري الأول بدعوة شاور طمعاً في امتلاك مصر وإبعاد نور الدين محمود وجيوشه عنها، حتى لا يتمكَّن من تطويق مملكته التي ستصبح في وسط ممتلكات نور الدين محمود[5] وقبل أن تستكمل الاستعدادات وردت الأنباء بأن أسد الدين شيركوه يجتاز صحراء سيناء، فلم يسع عموري الأول إلا أن يرسل ما تيسر الحصول عليه من الجند لعرقلة تقدمه، غير أن هذا التدبير جاء[6] متأخراً. وعلى الرغم من أن جيش أسد الدين شيركوه تعرَّض لعاصفة رملية عرقلت تقدمه، وكادت تقضي على أفراده، فإنه وصل سالماً إلى برزخ السويس (في شهر ربيع الآخر/ أوائل شهر شباط) وعلم أسد الدين شيركوه بأن جيشاً صليبياً شرع في الزحف باتجاه مصر، عندئذٍ اجتاز الصحراء باتجاه الجنوب الغربي ليتفادى مواجهة مبكرة مع

---

(1) النجوم الزاهرة (5/ 348).
(2) تاريخ الزنكيين في الموصل، ص: 342.
(3) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (2/ 13).
(4) الكامل في التاريخ نقلاً عن تاريخ الزنكيين في الموصل، ص: 342.
(5) مفرِّج الكروب (1/ 149)، تاريخ الزنكيين في الموصل، ص: 343.
(6) تاريخ الزنكيين في الموصل، ص: 343.

الصليبيين، حتى بلغ نهر النيل عند إطفيح على مسافة أربعين ميلاً جنوبي القاهرة[1] ثم عبر على الضفة الغربية والتزمها في سيره حتى وصل إلى الجيزة وعسكر بمواجهة الفسطاط، وتصرَّف في البلاد الغربية وحكمها نيفاً وخمسين يوماً[2].

أ ـ حملة عموري الثالثة على مصر والمفاوضات الصليبية الفاطمية: خرج عموري الأول من بيت المقدس (في شهر ربيع الأول عام 562هـ شهر كانون الثاني عام 1167م) متوجهاً إلى مصر في حملته الثالثة على هذا البلد، واجتاز الطريق المألوف من غزة إلى العريش، ثم اخترق الصحراء إلى بلبيس، وارتاع شاور من ظهوره المفاجيء وساوره القلق لعدم التنسيق معه، ويبدو أنه لم يكن على علم بوصول شيركوه إلى إطفيح، ولم يطمئن إلا عندما أرسل كشافته إلى الصحراء للوقوف على حقيقة الوضع، عندئذ خرج لاستقبال الملك الصليبي والتقى به، وأنزله عموري الأول في معسكره على الضفة الشرقية لنهر النيل على مسافة ميل واحد من أسوار القاهرة[3]، وأجرى مع شاور مباحثات تعهد شاور خلالها بأن يدفع أربعمائة ألف دينار مقابل طرد أسد الدين شيركوه من مصر، على أن يجري دفع نصف هذا المبلغ على الفور، ثم يبذل النصف الآخر فيما بعد، واشترط أن يُقسم عموري الأول على هذا[4]، ولدعم هذه الاتفاقية، وإعطائها صيغة رسمية، أرسل عموري الأول كلاً من: هيو، سيد قسارية، وجفري، مقدم فرسان الداوية، إلى الخليفة الفاطمي للحصول منه على الموافقة الرسمية عليها، فاستُقبل الرسولان استقبالاً حافلاً في القصر الفاطمي وتمَّ التصديق على المعاهدة[5]. وكان من الطبيعي أن يرحِّب الصليبيون بهذه الاتفاقية التي تجعل منهم حماة لمصر والخلافة الفاطمية، وتُبعد أسد الدين شيركوه بوصفه المنافس الوحيد لهم في السيطرة على هذا البلد[6].

ب ـ معركة البابين: كان أسد الدين والعسكر النُّوري قد ساروا إلى الصَّعيد فبلغوا مكاناً يُعرف بالبابَيْن، وسارت العساكر المصرية والفرنج وراءهم فأدركوهم به في الخامس والعشرين من جُمادى الأولى. وكان قد أرسل إليهم جواسيس، فعادوا وأخبروه بكثرة عَدَدهم وعُددهم، وجدِّهم في طلبه، فعزم على لقائهم وقتالهم، وأن تحكم السيوف بينه وبينهم، إلا أنه خاف من أصحابه أن تضعف نفوسهم عن الثبات في هذا المقام الخطر الذي عطبهم فيه

(1) الكامل في التاريخ نقلاً عن تاريخ الزنكيين في الموصل، ص: 343.
(2) المصدر نفسه، ص: 344.
(3) وليم الصوري (2/ 896).
(4) المصدر نفسه (2/ 899) تاريخ الزنكيين في الموصل، ص: 344.
(5) تاريخ الزنكيين في الموصل، ص: 344.
(6) المصدر نفسه، ص: 344.

أقرب من السَّلامة لقلة عددهم وبُعْدهم عن بلادهم، فاستشارهم فكلُّهم أشار عليه بعبور النِّيل إلى الجانب الشَّرقي والعوْد إلى الشَّام وقالوا له: إن نحن انهزمنا ـ وهو الذي لا شك فيه ـ فإلى أين نلتجىء وبمن نحتمي، وكل في هذه الديار من جندي وعامي وفلاح عدوٌّ لنا، ويَوَدُّون لو شربوا دماءنا؟ وحُقَّ لعسكر عدتهم ألفا فارس قد بَعُدُوا عن ديارهم ونأى ناصرهم أن يرتاع من لقاء عشرات الألوف، مع أن كل أهل البلاد عدوٌّ لهم. فلما قالوا ذلك قام إنسان من المماليك النُّورية يقال له: شرف الدين بُزغُش ـ وكان من الشجاعة بالمكان المشهور ـ وقال: من يخاف القتل والجراح والأسر فلا يخدم الملوك، بل يكون فلاحاً أو مع النِساء في بيته. والله لئن عُدْتُم إلى الملك العادل من غير غَلبة وبلاء تُعذرون فيه؛ ليأخذنَّ إقطاعاتكم وليعودَنَّ عليكم بجميع ما أخذتموه إلى يومنا هذا، ويقول لكم: أتأخذون أموال المسلمين وتفرُّون عن عدوهم، وتسلِّمون مثل هذه الديار المصرية يتصرّف فيها الكُفَّار؟

قال أسد الدين: هذا رأي وبه أعمل. ووافقهما صلاح الدين يوسف بن أيوب، ثم كثر الموافقون لهم على القتال، فاجتمعت الكلمة على اللقاء، فأقام بمكانه حتى أدركه المصريون والفرنج ـ وهو على تعبئة ـ وهنا برزت عقلية أسد الدين شيركوه وخبرته العسكرية، فقد جعل الأثقال في القلب يستكثر بها، ولأنه لم يمكنه أن يتركها بمكان آخر فينهبها أهل البلاد، ثم إنه جعل صلاح الدين ابن أخيه في القلب، وقال له ولمن معه: إن الفرنج والمصريين يظنون أنني في القلب فهم يجعلون جَمْرتهم بإزائه وحملتهم عليه، فإذا حملوا عليكم فلا تصدقوهم القتال، ولا تهلكوا نفوسكم واندفعوا بين أيديهم، فإذا عادوا عنكم فارجعوا في أعقابهم، واختار من شجعان أصحابه جمعاً يثق إليهم ويعرف صبرهم وشجاعتهم، ووقف بهم في الميمنة، فلما تقابل الطائفتان فعل الفرنج ما ذكره أسد الدين، وحملوا على القلب ظناً منهم أنه فيه، فقاتلهم مَنْ به قتالاً يسيراً، ثم انهزموا بين أيديهم، فتبعوهم، فحمل حينئذ أسد الدين فيمن معه على مَن تخلَّف من الفرنج الذين حملوا على القلب ـ من المسلمين والفرنج ـ فهزمهم ووضع السيف فيهم فأثخن، وأكثر القتل والأسر، وانهزم الباقون، فلما عاد الفرنج في أثر المنهزمين الذين كانوا في القلب رأوا مكان المعركة من أصحابهم بَلْقعاً ليس بها منهم ديَّار، فانهزموا أيضاً وكان هذا من أعجب ما يؤرَّخ: أن ألفي فارس تهزم عساكر مصر وفرنج السَّاحل[1].

ج ـ حصار الإسكندرية: ثم سار أسد الدين إلى ثغر الإسكندرية وجبى ما في طريقها من القرى والسواد من الأموال، ووصل إلى الإسكندرية فتسلّمها من غير قتال؛ سلَّمها أهلها إليه فاستناب بها صلاح الدِّين ابن أخيه، وعاد إلى الصَّعيد وتملّكه وجبى أمواله وأقام به حتى

(1) الباهر، ص: 132، 133 ، كتاب الروضتين (2/ 13).

صام رمضان، وأما المصريون والفرنج فإنهم عادوا إلى القاهرة وجمعوا أصحابهم وأقاموا عوض من قُتل منهم، واستكثروا، وحشدوا، وساروا إلى الإسكندرية، وبها صلاح الدين في عسكر يمنعونها منهم، وقد أعانهم أهلها خوفاً من الفرنج، فاشتد الحصار وقَلَّ الطعام بالبلد، فصبر أهله على ذلك، ثم إن أسد الدين سار من الصعيد نحوهم، وكان شاور قد أفسد بعض من معه من التركمان، ووصله رسل المصريين والفرنج يطلبون الصُلح[1].

د ـ المفاوضات النورية ـ الصليبية بشأن الجلاء عن مصر: وبعد مفاوضات بين الطرفين تمّ عقد صلح على الأسس التالية:

ـ رفع الحصار عن الإسكندرية.

ـ تبادل الأسرى.

ـ إطلاق سراح الجند النوري داخل الإسكندرية.

ـ يخرج شيركوه مع عسكره من مصر.

ـ عدم التعرض لهم في الطريق من قِبل القوات الصليبية.

إن قراءة متأنية لسير الوقائع، كما جرت على الأرض، والعروض المتبادلة بشأن عقد الصلح، وما حدث بعد إبرام الاتفاقية يمكن رصد الملاحظات التالية: فقد وافق الجانبان النوري، والصليبي ـ الفاطمي على:

ـ خروج القوات النورية والصليبية من مصر.

ـ تبادل الأسرى.

ـ يتعهد شاور بألّا يُعاقب رعاياه في الإسكندرية وفي غيرها من الجهات الذين ساندوا أسد الدين شيركوه[2].

ومهما يكن من أمر، فقد دخل عموري الأول مدينة الإسكندرية (في شهر شوال/ شهر آب)، في حين غادرها صلاح الدين في موكب عسكري حافل على الرغم مما أصاب السكان من ضيق لرحيله، والتقى الرجلان، وأعجب كل منهما بالآخر، حتى لقد قام ملك بيت

(1) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (2/ 14). (2) تاريخ الزنكيين في الموصل، ص: 350.

المقدس بإمداد صلاح الدين ببعض المراكب لنقل الجرحى المسلمين إلى بلاد الشام[1]. على أن متاعب السكان لم تنته، فلم يكد أتباع شاور يدخلون المدينة حتى ألقوا القبض على كل من جرى الاشتباه في أنه تعاون مع صلاح الدين، وقد احتج هذا الأخير لدى عموري الأول الذي نصح شاور بأن يطلق سراح الأسرى[2]. وكانت هذه هي المرّة الثانية التي يغدر فيها شاور وقد علّمت صلاح الدين درساً قاسياً، حتى إنه لم يتركها تتكرر، واقتصّ بنفسه من شاور عندما عادت القوات الشامية إلى مصر عام (564هـ/ 1168م)[3].

هـ ـ الحماية الصليبية على مصر: غادر كل من أسد الدين شيركوه وصلاح الدين مصر في شهر (ذي القعدة / شهر أيلول) في حين تأخر عموري الأول لبضعة أسابيع، لأنه مرَّ بالقاهرة ليثبّت الحماية الصليبية على الدولة الفاطمية وشاور، وكانت أهم مظاهرها:

ـ دفع جزية سنوية قدرها مائة ألف دينار للصليبيين.

ـ بقاء قوة من فرسانهم تحمي أبواب القاهرة، لتدفع نور الدين محمود إن كرَّر محاولة الهجوم.

ـ إقامة مندوب عن الملك الصليبي في القاهرة يشارك في شؤون الحكم[4].

ـ والراجح أن فكرة تملُّك مصر كانت ناشطة في تفكير عموري الأول السياسي، ولم يعد بوسعه أن يتخلى عنها، وهو ينوي العودة بعد إقرار الأمور في بلاد الشام، وذلك طمعاً في ثروتها وحماية لكيانه في بلاد الشام، ثم عاد الملك إلى فلسطين[5]. وبهذه الإجراءات تأكدت الحماية على مصر، وترتَّب على هذا استمرار التنافس بين نور الدين محمود وعموري[6].

5 ـ الحملة النورية الثالثة على مصر (عام 564هـ):

سبب هذه الحملة أن الفرنجة كانوا قد جعلوا لهم شحنة في القاهرة، وتسلَّموا أبوابها، وحكموا المسلمين حكماً جائراً، فلما رأوا أنه ليس في البلاد من يردهم، أرسلوا إلى ملكهم ـ عموري ـ في القدس، يستدعونه ليملك مصر، وهوَّنوا عليه أمرها، فتردد خوفاً من سوء العاقبة، ثم سار مع فرسانهم على كره منه حتى وصلوا بلبيس مستهل صفر ونهبوها، وقتلوا

(1) تاريخ الزنكيين في الموصل، ص: 351.
(2) تاريخ الفاطميين، ص: 494.
(3) المصدر نفسه، ص: 495.
(4) المصدر نفسه، ص: 495.
(5) النجوم الزاهرة (5/ 349).
(6) تاريخ الفاطميين، ص: 495.

وأسروا من فيها، ثم ساروا إلى «الفسطاط» فأمر شاور بإحراقها، وأمر أهلها بالانتقال منها إلى القاهرة، وأن ينهب البلد خوفاً من أن يملكها الإفرنج، فنهبت المدينة وبقيت النار تحرقها أربعة وخمسين يوماً، ثم حاصر الفرنجة القاهرة وضيقوا على أهلها، وكان شاور هو المتولي للعساكر والقتال، فضاق به الأمر وضعف عن ردهم، فأخلد إلى الحيلة وراسل ملكهم عموري ووعده بمال عظيم ألف ألف دينار مصرية يُعجل بعضها الآن، ودفع لهم منها «مائة ألف دينار» وسألهم الرحيل عنه ليجمع لهم المال، فرحلوا قريباً، وجعل يجمع لهم المال فلم يستطيع أن يجمع إلا خمسة آلاف دينار حيث أن المصريين كانوا قد احترقت دورهم، ونهبت أموالهم[1].

أ ـ العاضد يستنجد بنور الدين محمود: كان حاكم مصر العاضد عقيب حريق مصر أرسل إلى نور الدين يستغيث به ويعرّفه ضعف المسلمين عن الفرنج، وأرسل في الكتب شعور النساء وقال له: هذه شعور نسائي من قصري يستغثن بك لِتُنقِذهُنَّ من الفرنج[2]، وعرض على نور الدين مقابل إنقاذ البلاد من الصليبيين:

ـ منحه ثلث بلاد مصر.

ـ منح قادته الإقطاعات.

ـ يسمح لشيركوه بأن يقيم في مصر[3].

ب ـ أسد الدين شيركوه يزحف إلى مصر ويدخل القاهرة: شرع نور الدين في تجهيز الجيوش وإعدادها إعداداً قوياً، وأعطى قائد الحملة (شيركوه) مائتي ألف دينار، سوى الثياب والدواب والأسلحة، وحكمه في العسكر والخزائن، يأخذ حاجته، فاختار من العسكر ألفي فارس، وجمع من فرسان التركمان ستة آلاف، وسار نور الدين وشيركوه إلى باب دمشق، ورحلوا إلى رأس الماء[4]، وأعطى نور الدين كل فارس منهم عشرين ديناراً، معونة غير محسوبة وأضاف إلى شيركوه جماعة أخرى من الأمراء، منهم صلاح الدين الأيوبي[5]، وسار أسد الدين مجدًّا، فلما قارب مصر رحل الفرنجة إلى بلادهم بخفي حنين، خائبين مما أملوا،

---

(1) كتاب الروضتين، نقلاً عن الجهاد والتجديد، ص: 202.

(2) المصدر نفسه، ص: 202.

(3) تاريخ الفاطميين محمد سهيل طقوس، ص: 504.

(4) الجهاد والتجديد، ص: 202، رأس الماء في منطقة حوران.

(5) الكامل في التاريخ، نقلاً عن الجهاد والتجديد، ص: 202.

وسمع نور الدين بعودتهم فسرّه ذلك، وأمر بضرب البشائر في بلاده، ولما وصل أسد الدين القاهرة، دخلها واجتمع بالعاضد، الذي خلع عليه وفرح به أهل مصر، وأجريت على عساكره الجرايات الكثيرة[1].

ج ـ مقتل شاور: وأما شاور فلم يفصح عما في نفسه، وشرع يماطل أسد الدين فيما وعد به من المال، ورواتب الجند، وعزم على الغدر أيضاً، فقرر أن يقيم وليمة لأسد الدين وأمرائه ثم يغدر بهم ويقتلهم، فنهاه ابنه الكامل عن ذلك، وقال له: والله لئن عزمت على هذا الأمر لأُعرِّفَنَّ أسد الدين. فقال له أبوه: والله لئن لم أفعل لنقتلن جميعاً. فقال: صدقت، ولئن نُقتل ونحن مسلمون والبلاد بين المسلمين خير من أن نقتل وقد ملكها الفرنج، فليس بينك وبين عود الفرنج إلا أن يسمعوا بالقبض على شيركوه، وحينئذ لو مشى العاضد إلى نور الدين لم يرسل فارساً واحداً ويملكون البلاد،فترك ما كان عزم عليه[2]، وأخيراً اتفق صلاح الدين وبعض الأمراء على التخلص من هذا الخائن المراوغ شاور فأسروه، وسمع العاضد بذلك، فأرسل إلى شيركوه يطلب رأسه، وأذن أسد الدين بقتله فقتل، وأرسل رأسه إلى العاضد في السابع عشر من ربيع الآخرة، عام 643هـ[3].

د ـ تولي أسد الدين الوزارة للعاضد: ودخل أسد الدين القاهرة، وقصد قصر العاضد فخلع عليه الوزارة، ولقبه الملك المنصور، وأمير الجيوش، واستعمل على الأعمال مَن يثق به من أصحابه وأقطع البلاد لعساكره، وقد مدح الشعراء أسد الدين شيركوه لما حقق من الانتصارات فقال العماد:

بلغت بالجد ما لا يبلغ البشر ... ونلت ما عجزت عن نيله القُدَر

أصبحت بالعدل والإقدام منفرداً ... فقل لنا: أعليّ أنت أم عمر

افخر فإن ملوك الأرض أذهلهم ... ما قد فعلت، فكلٌ فيك مفتكِرُ

سهرت إذ رقدوا بل هُجْتَ إذ سكنوا ... وصُلت إذ جبنوا، بل طُلت إذ[4] قصروا

هـ ـ وفاة أسد الدين: ولم تطل وزارة شيركوه، حيث توفي في الثاني والعشرين من جمادى الآخرة سنة (564هـ) فكانت ولايته شهرين وخمسة أيام رحمه الله رحمة واسعة، وخلفه في الوزارة ابن أخيه صلاح الدين[5]، وكان أسد الدين من أكبر قادة نور الدين، وقد

---

(1) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (2/ 55).
(2) المصدر نفسه (2/ 56).
(3) الجهاد والتجديد، ص: 203.
(4) كتاب الروضتين، ص: 203 ، 204.
(5) الجهاد والتجديد، ص: 204.

ادخره الملك العادل للخطوة الكبرى التي كان يمهّد لها، وهي ضم مصر إلى بلاد الشام، وكان رحمه الله كريماً على جنده، صارماً يعرف كيف يقر النظام في عسكره، فهابه جنده وأحبوه، وركبوا معه المخاطر في حملات عظيمة[1] نفع الله بها الإسلام والمسلمين وساهمت في تقوية المشروع المقاوم للغزو الصليبي الذي كان يقوده نور الدين ثم من بعده صلاح الدين، وسيأتي التفصيل بإذن الله عن أسد الدين شيركوه وبني أيوب في حديثنا عن عصر الدولة الأيوبية وسيرة صلاح الدين الأيوبي بإذن الله تعالى.

ثالثاً: وزارة صلاح الدين في مصر والمهام التي أنجزها:

كان صلاح الدين قد أظهر كفاءة خلال صحبته لعمه أسد الدين شيركوه أثناء حملاته على مصر، فتولى الوزارة بعد وفاة عمه، وهو في الحادية والثلاثين من عمره، اختاره العاضد لأنه كان أصغر الأمراء سناً، ولعله يكون أكثر طواعيةً له، إلا أن الملك الناصر ـ كما لقبه العاضد ـ خيَّب ظن الفاطميين، فشرع يستميل قلوب الناس إليه كما بذل لهم من الأموال التي قد جمعها عمه، فمال الناس إليه وأحبوه وسيطر على الجند سيطرة تامة[2]، وكانت المهام التي أنجزها صلاح الدين في عهد نور الدين عظيمة وضخمة، واستطاع القضاء على مراكز القوة.

1 ـ مؤامرة مؤتمن الخلافة:

جرى من الأحداث في مصر بعد تولية صلاح الدين منصب الوزارة، أن البلاد كانت تجتاز مرحلة خطيرة في تاريخها، فالدولة الفاطمية، لا زالت موجودة يساندها الجيش الفاطمي وكبار الدولة، والخطر الصليبي لا يزال جاثماً على مقربة من أبواب مصر الشرقية، فكان عليه أن يثبت أقدامه في الحكم؛ ليتفرغ لمجابهة ما قد ينشأ من تطورات سياسية. ولم يلبث أن ظهر مقدرة كبيرة في إدارة شؤون الدولة، وهو عازم على الاستئثار بكافة الاختصاصات حتى التي تخصّ منصب الخلافة، ونفَّذ عدة تدابير كفلت له الهيمنة التامة منها:

ـ استمال قلوب سكان مصر بما بذل لهم من الأموال فأحبوه.

ـ أخضع مماليك أسد الدين شيركوه، وسيطر بشكل تام على الجند بعد أن أحسن إليهم.

---

(1) الجهاد والتجديد، ص: 204.

(2) المصدر نفسه، ص: 205.

ـ قوّى مركزه بما كان يمده به نور الدين محمود من المساعدات العسكرية، وقد وصل أخوه شمس الدولة توران شاه بن أيوب مع إحدى هذه المساعدات العسكرية[1]. وقد أدّت التدابير التي نفّذها صلاح الدين إلى تقوية قبضته على مقدرات الدولة، وزادت من تراجع نفوذ العاضد، وبالتالي مركز الإمامة، وأثارت استياء كبير الطواشية، مؤتمن الخلافة، وهو نوبي، وقائد الجند السودان، وقد أدرك أن نهج صلاح الدين في الحكم سوف يقضي في حال استمراره على الدولة الفاطمية إن عاجلاً أو آجلاً، ويبدو أنه كان من بين الطامعين في خلافة شاور، ولما لم يفلح راح يحيك الدسائس للإطاحة بصلاح الدين، وحاول الاتصال بعموري الأول ملك بيت المقدس، لتحريضه على مهاجمة مصر، آملاً في حالة الاستجابة أن يخرج صلاح الدين إلى لقائه، فيقبض هو على مَن يبقى من أصحابه في القاهرة، ويثبت على منصب الوزارة، ويتقاسم البلاد مع الصليبيين؛ غير أن صلاح الدين علم بخيوط المؤامرة حين ارتاب أحد أتباعه في شكل الخفين اللذين اتّخذهما رسول مؤتمن الخلافة إلى عموري الأول، فأخذهما ونزع خياطتها، فاكتشف الرسالة بداخلها، فقبض على مؤتمن الخلافة، وانتهز الفرصة للتخلص منه، غير أن أنباء اهتزاز مركزه في مصر شجعت النصارى على القيام بمحاولة أخرى لمهاجمة مصر[2]. وقد قام صلاح الدين بإبعاد جميع الخدم من السودان عن قصر الخلافة واستعمل على الجميع في القصر، بهاء الدين قراقوش، فكان لا يجري في القصر صغير ولا كبير إلا بحكمه وأمره[3].

2 ـ وقعة السُّودان:

وذلك أنه لما قتل الطَّواشي[4]، مؤتمن الخلافة الخادم الحبشيُّ، وعزل بقية الخُدَّام؛ غضبوا لذلك واجتمعوا قريباً مِن خمسين ألفاً، فاقتتلوا هم وجيش الملك صلاح الدين بين القَصْرَين، فقتل خلق كثير من الفريقين، وكان العاضد ينظر من القصر إلى المعركة، وقد قُذِفَ الجيشُ الشاميُّ من القصر بحجارة، وجاءهم منه سهامٌ، فقيل: كان ذلك بأمر العاضد، وقيل: لم يكن بأمره، ثم إن أخا الناصر صلاح الدين ـ شمس الدولة تورانشاه ـ وكان حاضراً للحرب ـ قد بعثه نور الدين إلى أخيه ليشُدَّ أزره ـ أمر بإحراق منظرة العاضد، ففتح الباب ونُودِي: إن أمير المؤمنين يأمركم أن تخرجوا هؤلاء السُّودان من بين أظهركم، ومن بلادِكم

(1) تاريخ الفاطميين، ص: 509، البداية والنهاية (16/ 433).

(2) الكامل في التاريخ، نقلاً عن تاريخ الفاطميين، ص: 510.

(3) البداية والنهاية (16/ 434).

(4) الطواش: جمع طواشية وهم الخصيان الذين استخدموا في الطياق المملوكة وفي الحريم السلطاني وكانت لهم حرمة وافرة.

فقوي الشاميون وضعف جأش السودان جدًا، وأرسل الملك الناصر إلى محلتهم المعروفة بالمنصورة التي فيها دورُهم وأهلُوهم بباب زويلة، فأحرقها فولّوا عند ذلك مُدبرين، وركبهم السيف فقتل خلقاً كثيراً، ثم طلبُوا الأمان من الملك صلاح الدين، فأجابهم إلى ذلك، وأخرجهم إلى الجيزة، ثم خرج إليهم شمسُ الدولة تورانشاه أخو الملك صلاح الدين فقتل أكثرهم، ولم يبق منهم إلا القليل ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوٓاْ﴾ [النمل: 52][1] ويبدو أن حاكم مصر الفاطمي كان في ذلك الوقت على علم بمؤامرة مؤتمن الخلافة، لأنه ليس من المتصور أن يجري ذلك في قصره وبدون علمه، ويؤكد ذلك أن قوات صلاح الدين يوسف ابن أيوب تعرضت، وهي تصفي أطراف المؤامرة، لهجمات بالحجارة والسهام صادرة من قصر الحاكم، بل إن العاضد كان يراقب المعركة من القصر[2].

كان اكتشاف المؤامرة من مسؤوليات ديوان الإنشاء، وبالذات القاضي الفاضل الذي كان العقل المفكر للقضاء على النفوذ الفاطمي في مصر وتثبيت المذهب السني، وسيأتي الحديث عنه مفصلاً بإذن الله في حديثنا عن الدولة الأيوبية.

كان القاضي الفاضل يراقب كتّاب ديوان الإنشاء والمسرّحين منهم بصورة خاصة، وكانت العيون مبثوثة في كل ناحية ومنطقة وزاوية، في القصور وبين العساكر، وعلى الحدود، وعلى كل محطة من محطات البريد أو محطّات الاتصال بين مصر والفرنج، وقد كانت هذه العيون على اتصّال مباشر بالقاضي الفاضل تزوّده بتقريرها بواسطة الرسل، وعلى أجنحة حمام الزاجل[3].

3 ـ القضاء على الأرمن:

ولم يتوقف نصر صلاح الدين بالقضاء عل شوكة السودان، بل أتبعه بفلّ شوكة الأرمن، وهم الفرقة التالية للسودان قوة وعدداً، فأحرق داراً للأرمن بين القصرين وفيها عدد كبير من الجنود الأرمن، معظمهم من الرماة ولهم رواتب من الحكومة، وكان هؤلاء قد حاولوا أن يعرقلوا حركة قوات صلاح الدين في أثناء المعركة مع السودان برميهم بالنشّاب، فلقوا جزاءهم، وأما مَن تبقّى منهم فنفاهم صلاح الدين إلى الصعيد[4]. أضعف صلاح الدين

---

(1) البداية والنهاية (16/ 435). ص: 130، 131.

(2) الطريق إلى القدس، ص: 91.

(3) القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني العسقلاني،

(4) المصدر نفسه، ص: 133.

بقضائه على شوكة السودان والأرمن الدولة الفاطمية إلى حد بعيد، بحيث أصبح من الواضح أن القضاء على الدولة الفاطمية نفسها لم يعد بعيداً[1].

4 ـ اهتمام صلاح الدين بتقوية جيوشه:

أخذ صلاح الدين يعمل حال تولّيه الوزارة على إعداد جيش أيوبي ليكون نواة لجيش مصري جديد، يدافع به عن حكمهم وعن مصر من الغزو الإفرنجي، ولم يَخف عليه تدهور وضع الجيش الفاطمي؛ لأنه خبره في أثناء رحلاته الثلاث إلى مصر بين (سنة 559هـ وسنة 564هـ/ 1163م ـ 1168م) وعرفه معرفة جيدة من حيث مصادره البشرية والمالية والحربية، ومن حيث تنظيمه وفِرقه المبنية على أساس عرقي، مثل السودان، والأرمن، والمصريين والديلم والأتراك والعربان. وكان يعرف بالتفصيل وضع كل فرقة من هذه الفرق[2]، وكان القاضي الفاضل قد عمل في إدارة هذه القوات في عهد رزيك بن الصالح، وساهم معها في بعض وقائعها الحربية خلال الحملة الفرنجية الشامية الثانية على مصر ـ كما أشرنا سابقاً ـ وشاهد قادة الفرق المختلفة من هذه القوات وهم يتنافسون في شأن السلطة الأمر الذي أنهك القوات وأضعف مصر إلى حد أصبحت تعجز معه عن الدفاع عن استقلالها، أو حتى عن بقائها. وعرف القاضي الفاضل الكثير عن القوات المصرية عن طريق عمله معها في ديوان الجيش وفي ديوان الإنشاء الذي كان يتعامل مع ديوان الجيش ويشرف على العيون والرسل، فألمّ بهذه القوات وعرف دخائلها واطّلع على كل فرقة منها، وعلى نيات كل قائد من قوّادها، ولم يضنَّ بمعلوماته عنها على صلاح الدين، بل وجهه في تنظيم جيشه الأيوبي وإدارته، وظل طول عمله مع صلاح الدين يشرف على عساكره، ويراقب إعدادها وتنظيمها ومواردها المالية ويصحبها من مصر إلى الشام لتحارب مع صلاح الدين، ومن الشام إلى مصر لتستعد وتتجهز لحملات مقبلة ضد الفرنج، وقد أنشأ صلاح الدين في بداية عهده في الوزارة جيشاً كبيراً ازداد عدداً وعدّة بمرور الوقت واتسعت عملياته الحربية ضد الفرنج، وكان قوام هذا الجيش في مصر الحرس الخاص، والجيش النظامي في مصر، ثم الجيوش الشعبية التي تكوّنت من أمراء الإقطاع وجنودهم، ولاسيما في الشام والجزيرة بعد سنة (570هـ/ 1174م)، والبدو[3]. ويأتي بيان ذلك بإذن الله تعالى مفصلاً في الحديث عن الدولة الأيوبية وصلاح الدين.

---

(1) القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني العسقلاني، ص: 133.

(2) المصدر نفسه، ص: 126.

(3) المصدر نفسه، ص: 127.

رابعاً: التصدي للحملة الصليبية البيزنطية المشتركة وحصار دمياط 565هـ:

أدرك الإفرنج خطورة موقفهم بعد فتح مصر وتولي صلاح الدين وزارتها، فاتفق ملك القدس «عموري» مع إمبراطور بيزنطة على غزو مصر بأساطيلهم، وحاصروا دمياط تنفيذاً لذلك التحالف[1]، وأرسل صلاح الدين قواته بقيادة خاله شهاب الدين محمود، وابن أخيه تقي الدين عمر، وأرسل إلى نور الدين يشكو ما هم فيه من المخافة، ويقول: إن تأخرت عن دمياط ملكها الإفرنج، وإن سرت إليها خلفني المصريون في أهلها بالشر، وخرجوا عن طاعتي، وساروا في أثري، والفرنج أمامي؛ فلا يبقى لنا باقية[2]، وقد قام نور الدين بالدور المتوقع منه، واتخذ القرار السليم فعيّر العساكر ثم سار هو بنفسه إلى بلاد الإفرنج الشامية، وقام بشن الغارات على حصون الفرنجة وقلاعهم، ووصلت سراياه إلى المدى الذي لم تصِله من قبل في بلادهم ليخفف الضغط عن مصر، وفي ذلك تعزيز ودعم لصلاح الدين، حتى يتمكن من إحكام السيطرة على مصر ثم ليتفرَّغ بعد ذلك للمساعدة في تحقيق الهدف الإستراتيجي الكبير المتمثل في تحرير سواحل بلاد الشام من الاحتلال[3] الفرنجي. وقامت حامية دمياط بدور بطولي في الدفاع عن المدينة وألقت سلسلة ضخمة عبر النهر، منعت وصول السفن اليونانية إليها، وأنزل المسلمون المدافعون الخسائر بالأسطول البيزنطي اليوناني، وهطلت أمطار غزيرة حَوَّلت المعسكر الصليبي إلى مستنقع فتهيؤوا للعودة، وغادروا دمياط بعد حصار دام خمسين يوماً، وعندما أبحر الأسطول البيزنطي، هبَّت عاصفة عنيفة، لم يستطع البحَّارة الذين كادوا أن يهلكوا جوعاً، من السيطرة على سفنهم فغرق معظمها، ونصر الله المسلمين، نصراً مؤزراً[4].

1 ـ أسباب فشل الحملة على دمياط:

يعود فشل الحملة الصليبية البيزنطية على دمياط إلى عوامل تتعلق بالمسلمين والصليبيين والبيزنطيين، وبالجانبين الصليبي والبيزنطي معاً:

أ ـ فيما يتعلق بالجانب الإسلامي يمكن رصد العوامل التالية:

ـ صمود سكان دمياط في وجه المعتدين.

ـ سرعة إمداد صلاح الدين المدينة بالمؤن والسلاح، مما رفع معنويات سكانها المحاصرين.

---

(1) الجهاد والتجديد، ص: 207.
(2) المصدر نفسه، ص: 207.
(3) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة، ص: 160.
(4) الجهاد والتجديد، ص: 208.

ـ التعاون الصادق بين القوات الإسلامية في كلٍ من بلاد الشام ومصر بهدف التصدي للمعتدين.

ـ القدرة القتالية للقوات الإسلامية، وحسن تخطيطها وتنظيمها الدقيق[1].

ـ موقف نور الدين محمود الداعم، فقد أرسل بعوث كثيرة يتبع بعضها بعضاً، ثم إن نور الدين اغتنم غيبة الفرنج عن بلادهم فصمد إليهم في جيوش كثيرة فجاس خلال ديارهم، وغنم من أموالهم، وقَتل من رجالهم، وسبى من نسائهم وأطفالهم شيئاً كثيراً، وعندما بلغ الفرنج بدمياط ما فعله نور الدين اضطروا لترك دمياط[2].

ـ استغلال المسلمين الجيد للفرص التي أتيحت لهم فقد استغلوا فرصة معاناة البيزنطيين من الجوع، فشنوا هجوماً عليهم جاء فعّالاً، كما استغلوا هبوب الرياح الجنوبية لإشعال النار في الأسطول البيزنطي بواسطة حرّاقة[3] والأهم من هذا كله توفيق الله وحفظه ومعيته وإنزال نصره على عباده المجاهدين.

ب ـ فيما يتعلق بالجانب الصليبي: لقد أخّر الملك عموري الأول الهجوم على المدينة مدة ثلاثة أيام حتى يصل الأسطول البيزنطي، مما أعطى فرصة طيبة للمسلمين لتحصين المدينة وإمدادها بالرجال والعتاد[4].

إحجام القوات الصليبية عن إمداد القوات البيزنطية بالمؤن عندما تعرّضت لهجوم المسلمين، حيث وقفت موقف المتفرج[5].

ج ـ فيما يتعلق بالجانب البيزنطي فيمكن تدوين العوامل التالية:

ـ عدم استخدام القائد كونتوستيفانوس الأسطول البيزنطي استخداماً عسكرياً، وبدا كأنه قائد بري، وليس قائداً بحرياً.

ـ اقتصر دور الأسطول البيزنطي على نقل القوات حتى ساحل دمياط.

ـ افتقر القائد البيزنطي إلى النظرة العسكرية السليمة عندما ترك السفن البيزنطية متلاصقة في النيل مما سهّل مهمة القوات الإسلامية في إشعال النار في عدد منها.

---

(1) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام، ص: 379، 380.

(2) البداية والنهاية (16/ 440).

(3) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام، ص:

(4) المصدر نفسه، ص: 380.

(5) المصدر نفسه، ص: 381.

ـ تراخي القيادة البيزنطية في تطبيق القواعد العسكرية التي تكفل أمن سفنها حين تركت البحارة يبيتون خارج سفنهم أيام العمليات العسكرية.

ـ انتشار المجاعة بين القوات البيزنطية.

د ـ هناك أسباب مشتركة تتعلق بالجانبين الصليبي والبيزنطي، منها:

ـ سوء اختيار توقيت خروج الحملة، وتنفيذ الحصار الذي جرى في فصل الشتاء، حيث تعرّضت القوات المتحالفة للسيول التي أغرقت معسكراتها، وللعواصف التي كانت تُبْعِد قطع الأسطول عن الشاطئ.

ـ سوء اختيار المكان الذي عسكرت فيه القوات المتحالفة، وهي المنطقة التي تمتد بطول الساحل، والبالغة حوالي الميل الواحد فلم تستوعب أفراد الحملة البالغ عددهم خمسين ألفاً، حيث حشروا في هذا المكان الضيق، ففقدوا حرية الحركة والانتشار الضروريين للدخول في معركة ناجحة.

ـ أدّى سوء اختيار المكان أن أصبحت القوات المتحالفة هدفاً سهلاً لمرمى المسلمين وهجماتهم.

ـ عدم وجود قيادة موحدة، وافتقرت القيادتان الصليبية والبيزنطية إلى التنسيق فيما بينهما، مما تسبّب في فشل عمليات الهجوم على المدينة، وتفشي الشائعات داخل معسكراتها، واتهام كل جانب الجانب الآخر بأنه السبب في فشل الحملة[1].

2 ـ نتائج الحملة على دمياط:

يُعدُّ فشل الحملة الصليبية ـ البيزنطية المشتركة على دمياط نقطة تحوُّل هامة في تاريخ الشرق الأدنى؛ لأنه لو نجح التحالف النصراني في تحقيق غايته؛ لكان من الممكن أن يمنع اتحاد بلاد الشام ومصر، الذي يشكل خطراً مباشراً على أوضاع الصليبيين في بلاد الشام، ويعرقل جهود المسلمين في التصدي للصليبيين، وإخراجهم من المنطقة.

كما يُعدُّ فشل الحملة النصرانية نقطة تحول هامة، في مستقبل صلاح الدين، الذي ظهر بمظهر المتمكّن في حماية مصر، وأقنع الدولة الفاطمية المتداعية، بأنه يستطيع حماية البلد من غارات المعتدين بالإضافة إلى حماية مركزه من دسائس المتآمرين، وبذلك حاز على إعجاب الكثير.

---

(1) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام، ص: 381.

ـ بات المسلمون يهدّدون، بشكل مباشر، الإمارات الصليبية بحيث شعر الصليبيون يوماً بعد يوم بازدياد تضييق المسلمين عليهم، وبعد أن كانوا يحصرون نشاطهم ضد خطر نور الدين محمود من ناحية الشمال، أضحوا يوزعون قواتهم بين الشمال والجنوب لمواجهة نور الدين محمود وصلاح الدين[1].

ـ إذا كانت تولية صلاح الدين منصب الوزارة بداية النهاية للدولة الفاطمية، فإن هزيمة النصارى أمام دمياط، شكّلت خطوة أخرى نحو القضاء على هذه الدولة حيث تطلع الخليفة العاضد إلى التحرر من نفوذ صلاح الدين، ولكن المصير الفاشل الذي آلت إليه، خيّبت أمله، وأتاحت لصلاح الدين فرصة الانفراد بالسلطة في مصر، وتوجيه اهتمامه نحو إضعاف المذهب الشيعي الإسماعيلي، وفقدت الدولة الفاطمية الأمل الأخير في التخلص من قبضته القوية وأضحى سيد مصر دون منازع[2].

3 ـ وصول نجم الدين أيوب مصر:

طلب صلاح الدين من نور الدين إرسال والده إليه، فوافق نور الدين على ذلك، وطلب من نجم الدين أيوب أن يستعد للسفر إلى مصر وحمّله رسالة إلى صلاح الدين يأمره فيها بالتعجيل في إلغاء الخلافة الفاطمية، وإعلان الخطبة للخليفة العباسي[3].

وخرج مع القافلة التي سافر فيها نجم الدين أيوب عدد كبير من التجار وأصحاب المصالح في مصر، فخشي نور الدين على القافلة من الفرنجة وسار بجيشه إلى الكرك، وحاصرها حتى اطمأن إلى اجتياز القافلة لمنطقة الخطر فتركها وعاد إلى دمشق[4]. ووصل والد صلاح الدين نجم الدين أيوب إلى القاهرة في الرابع والعشرين من رجب سنة خمس وستين وخمسمائة وخرج العاضد ـ صاحب القصر ـ لاستقباله وبالغ في احترامه والإقبال عليه واتفق لأيوب مع ولده صلاح الدين يوسف شبيه ما اتفق ليعقوب مع ابنه يوسف عليهما السلام حين قدم على ولده ووجده متملكاً للديار المصرية وقال: ﴿ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [يوسف: 99]. وذكر أنه لما خرج ولده الملك الناصر صلاح الدين والخليفة العاضد إلى لقائه واجتمعا به قرأ بعض المقرئين: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَايَ﴾ [يوسف: 100].

---

(1) تاريخ الزنكيين في الموصل، ص: 381.

(2) المصدر نفسه، ص: 382.

(3) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة، ص: 115.

(4) المصدر نفسه، ص: 116.

ولما اجتمع صلاح الدين بأبيه سلك معه من الأدب ما جرت به عادته وفوَّض إليه الأمر كله، فأبى ذلك عليه أبوه وقال: يا ولدي ما اختارك الله لهذا الأمر إلا وأنت كفؤ له، فلا ينبغي أن تغير مواقع السعادة[1]، فحكَّمه في الخزائن بأسرها وأنزله اللؤلؤة المطلة على خليج القاهرة[2]، وفي ما حدث لصلاح الدين من اجتماعه بوالده وأهله قال عمارة اليماني:

من شاكر والله أعظم شاكر ... ما كان من نعمى بني أيوب
طلب الهدى نصراً فقال وقد أتوا ... حسبي فأنتم غاية المطلوب
جلبوا إلى دمياط عند حصارها ... عزّ القوي وذلة المغلوب
وحلوا عن الإسلام فيها كربة ... لو لم يجلّوها أتت بكروب
فالناس في أعمال مصر كلها ... عُتقاؤهم من نازح وغريب
إن لم تظن الناس قشراً فارغاً ... وهم اللباب فأنت غيرُ لبيب
صحت به مصر وكانت قبله ... تشكو سقاماً لم يعُن بطبيب
عجباً لمعجزة أتت في عصره ... والدهر ولاد لكلّ عجيب
رد الإلٰه به قضية يوسف ... نسقاً على ضرب من التقريب
جاءته إخوته ووالده إلى ... مصر على التدريج والترتيب[3]

وحُكي أنه لما اجتمع صلاح الدين بوالده في دار الوزارة، وقعدا على طراحة واحدة، ذكر نجم الدين أن صلاح الدين ولد ليلة إخراجه من قلعة تكريت قال: فتشاءمت له وتطيرت لما جرى عليَّ، وكان معي كاتب نصراني فقال: يا مولاي مَن يدريك أن هذا الطفل يكون ملكاً عظيماً عظيم الصيت جليل المقدار. قال فعطفني كلامه عليه. فتعجبت الجماعة من هذا الاتفاق رحمة الله عليهم أجمعين[4]. وقد توفي نجم الدين أيوب في سنة (568هـ) فقد ركب نجم الدين أيوب، فشبب به فرسه بالقاهرة عند باب النّصر وسط المحجّة يوم الاثنين الثامن عشر من ذي الحجة، وحمل إلى منزله، وعاش ثمانية أيام، ثم توفي في يوم الثلاثاء السابع والعشرين من ذي الحجة، وكان كريماً رحيماً عطوفاً حليماً وبابه مزدحم بالوفود، وهو متلف الموجود ببذل الجود[5] وكان نجم الدين عظيماً في أنفس الناس بالدين والخير وحسن

(1) مفرج الكروب (1/ 186).
(2) المصدر نفسه، ص: (1/ 186).
(3) عيون الروضتين (1/ 301 ، 302).
(4) المصدر نفسه (1/ 304).
(5) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (2/ 248).

السِّياسة، وكان لا يمرُّ أحدٌ من أهل العلم والدين به إلا حمل إليه المال والضيافة الجليلة، وكان لا يسمع بأحد من أهل الدين في مدينة إلا أنفذ إليه[1]، وكان صلاح الدين غائباً في بلاد الكَرَك والشوبك على الغزاة، فدفن إلى جانب قبر أخيه أسد الدين في بيت في الدَّار السلطانية ثم نقلا بعد سنين إلى المدينة النبوية الشريفة على سكانها أفضل الصَّلاة والسلام، وقبرهما في تربة الوزير جمال الدين الأصفهاني وزير الموصل[2] وقد رثاه عمارة اليماني فقال:

صفوُ الحياةِ وإن طال المدى كَدَرُ ... وحادث الموتِ لا يُبقي ولا يَذَرُ
وما يزال لسانُ الدهر يُنذِرُنا ... لو أَثَّرَت عندنا الآيات والنُّذُرُ
فلا تَقُل غرَّت الدُّنيا مطامعنا ... فما مع الموت لا غش ولا كدر
كأس إذا ما الرّدى حيّا الحياة بها ... لم ينج من سُكرها أنثى ولاَ ذَكرُ
كما شامخِ العز لاقى الذُّل من يَدِها ... ما أضعف القَدر إن أَلوى به القَدَرُ
في كلِّ جيل وعصر من وقائعها ... شعوا يقطر منها النَّاب والظُّفُرُ
أودى علي وعثمان بمخلبها ... ولم يَفُتها أبو بكر ولا عمر
ومن أراد التأسِّي في مصيبته ... فللورى برسول الله معتبرُ[3]

خامساً: إلغاء الخلافة الفاطمية العبيدية:

وتعتبر هذه الخطوة من أعظم المهام التي أنجزها صلاح الدين، فقد كان نور الدين حريصاً كل الحرص على إنهائها ـ فكتب إلى نائبه صلاح الدين يأمر بإقامة الخطبة للخليفة العباسي المستضيء ـ فاعتذر صلاح الدين، بالخوف من قيام أهل مصر ضده لميلهم إلى الفاطميين، وبأنه لم يتهيأ لذلك بعد، إلا أن نور الدين أرسل إلى نائبه: يلزمه بذلك إلزاماً لا فسحة فيه. وكان الخليفة العباسي قد أرسل إلى نور الدين يعاتبه في تأخير إقامة الدعوة له بمصر، فأحضر الملك العادل نجم الدين أيوب، وحمّله رسالة فيها: وهذا أمر تجب المبادرة إليه، لنحظى بهذه الفضيلة الجليلة والمنقبة النبيلة قبل هجوم الموت وحضور الفوت لاسيما وإمام الوقت ـ المستنجد ـ متطلع إلى ذلك بكليته وهو عنده من أهم أمنيته[4].

---

(1) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (2/ 252).
(2) المصدر نفسه (2/ 249).
(3) عيون الروضتين (1/ 259).
(4) كتاب الروضتين، نقلاً عن الجهاد والتجديد، ص: 209.

وكان صلاح الدين متهيباً متردداً في إسقاط تلك الخلافة، حيث أن ميراث العبيديين في مصر، كان عمره أكثر من مائتي سنة، وكان نور الدين يعتبر أن فتح مصر نعمة من نعم الله عليه وعلى المسلمين، من أجل توحيد البلاد على منهج أهل السنة وإزالة البدع والرفض[1]، وكان نور الدين متفهماً لظروف صلاح الدين وكان يخاطبه بالأمير (أسفهلار) ولو أراد لأرسل خطاباً بعزله عن مصر وتوليته قطراً آخر، وهذا ما صرح به نجم الدين لولده صلاح الدين في مصر: إن أراد عزلك.. يأمر بكتاب مع نجّاب حتى تقصد خدمته ويولي بلاده من يريد[2].

ومن دلائل احترام نور الدين لصلاح الدين ما جاء في خطابه لابن أبي عصرون يوليه قضاء مصر ويقول فيه: تصل أنت وولدك حتى أسيركم إلى مصر، وذلك بموافقة صاحبي صلاح الدين، واتفاق منه، وفقه الله فأنا شاكر له كثير كثير، جزاه الله خيراً وأبقاه، ففي بقاء الصالحين والأخيار صلاح عظيم[3]. فحقيقة العلاقة بين القائدين احترام متبادل وتقدير عظيم وسيأتي الحديث عن العلاقة بينهما بإذن الله والرد على الكتّاب الذين تلقوا روايات ابن أبي طيء الشيعي الذي حرص على تشويه وتلطيخ العلاقة بين الرجلين والطعن في سيرتهما كلما أمكنه ذلك.

1 ـ التدرج في إلغاء الخطبة للخليفة الفاطمي:

استفاد صلاح الدين من الرجل الكبير القاضي الفاضل، فقد ساعده على إحكام خطة مدروسة للقضاء على الدولة الفاطمية والمذهب الشيعي الرافضي الإسماعيلي، وشرع صلاح الدين في تنفيذها بدقة متناهية، وبعد أن هيّأ صلاح الدين المصريين للانقلاب وقلّم أظفار المؤسسة الفاطمية، فعزل قضاة الشيعة وألغى مجالس الدعوة وأزال أصول المذهب الشيعي، ففي سنة (565هـ/ 1169م) أبطل الأذان بحي على خير العمل محمد وعلي خير البشر.

ويعلق المقريزي بأن هذه أول وصمة دخلت على الدولة[4]. ثم أمر بعد ذلك، في يوم الجمعة العاشر من ذي الحجة سنة (565هـ/ 1169م ـ 1170م) بأن يذكر في خطبة الجمعة الخلفاء الراشدون أبو بكر وعمر وعثمان ثم علي ﷺ وأمر بعد ذلك بأن يُذكر العاضد في الخطبة بكلام يحتمل التلبيس على الشيعة، فكان الخطيب يقول: اللهم أصلح العاضد لدينك[5]. ووليّ القضاء في القاهرة للفقيه عيسى الهكاري السني، فاستناب القضاة الشافعيين في جميع البلاد، وأنشأ المدارس لتدريس المذاهب السُّنية، وهو في الوقت نفسه يضيّق الخناق على العاضد، فيلغي مخصصاته ويحرمه من المال والخيل والرقيق، ويمنع رسوم

(1) الجهاد والتجديد، ص: 215.
(2) كتاب الروضتين، نقلاً عن الجهاد والتجديد، ص: 215.
(3) المصدر نفسه، ص: 215.
(4) المقريزي «اتعاظ» (3/ 317)، القاضي الفاضل، ص: 137.
(5) القاضي الفاضل، ص: 137.

الخلافة وهي حفلاتها الرسمية في الأعياد وغيرها، ويحتجز الخليفة في قصره فلا يسمح له بمغادرته إلا في مناسبات قليلة منها خروجه لاستقبال نجم الدين أيوب والد صلاح الدين يوم جاء إلى القاهرة، وعمد إلى الخطة نفسها مع أمراء الجيش، فأخذ يحدّ من نفوذهم شيئاً فشيئاً، ثم قبض عليهم في ليلة واحدة وأنزل أصحابه في دورهم وفرّق إقطاعاتهم عليهم[1].

وكان العاضد يتابع ذلك كله بقلب حزين ونفس كئيبة وقد خابت الآمال التي عقدها على صلاح الدين وانزوى في مخدعه فريسة للهمّ والمرض[2]، وأدرك صلاح الدين أن الفرصة باتت مؤاتية للقضاء على الدولة الفاطمية المحتضرة، فعقد مجلساً كبيراً حضره أمراء جيشه وقواده وفقهاء السُنة ومتصوفوها وسألهم الرأي والنصيحة، وقد اتفق رأي الحاضرين على اتخاذ تلك الخطوة الفاصلة في حياة البلاد[3].

وفي بداية سنة (567هـ/ 1171 ـ 1172م) قطع صلاح الدين الخطبة للفاطميين وكان قطعها بالتدريج أيضاً، ففي الجمعة الأولى من محرم سنة (567هـ/ 1171 ـ 1172م) حذف اسم العاضد من الخطبة، وفي الجمعة الثانية خطب باسم الخليفة المستضيء بأمر الله أبي محمد الحسن بن المستنجد بالله، وقطعت الخطبة للعاضد لدين الله فانقطعت ولم تعد بعدها إلى اليوم الخطبة الفاطمية[4] والملاحظ أن الخطبة للعباسيين قد تمت بالإسكندرية قبل القاهرة ومصر بنحو أسبوعين، وذلك لأنها ظلت على المذهب السني طوال العصر الفاطمي[5]، وقد توفي العاضد في العاشر من محرم سنة (567هـ/ 1171 ـ 1172م)[6] ويقال: إن صلاح الدين حين علم بوفاة العاضد الفاطمي بعد أيام ندم على أنه تعجل في قطع خطبته، وقال: لو عرفنا أنه، أي الخليفة العاضد، يموت في هذا اليوم ما غصصناه برفع اسمه من الخطبة، فضحك القاضي الفاضل ورد عليه قائلاً: يا مولاي لو علم أنكم ما ترفعون اسمه من الخطبة لم يمت[7]، فابتسم الحاضرون لهذه المداعبة الكلامية بين الوزير صلاح الدين وكاتبه أو مستشاره التي انطوت فيها آخر صفحة من صفحات تاريخ الدولة الفاطمية العبيدية[8].

2 ـ وفاة العاضد عام 567هـ:

قال ابن كثير: والعاضد في اللغة القاطع: لا يعضد شجرها: فيه قطعت دولتهم

---

(1) الخطط للمقريزي، نقلاً عن صلاح الدين الأيوبي لقلعجي، ص: 161.

(2) صلاح الدين الأيوبي، قدري قلعجي، ص: 162.

(3) المصدر نفسه، ص: 162.

(4) القاضي الفاضل، ص: 137.

(5) تاريخ مصر الإسلامية زمن سلاطين بني أيوب، ص: 59.

(6) القاضي الفاضل، ص: 139.

(7) المصدر نفسه، ص: 139.

(8) المصدر نفسه، ص: 139.

واسمه: عبد الله، ويكنى بأبي محمد بن يوسف الحافظ بن محمد بن المستنصر بن الظاهر بن الحاكم بن العزيز بن المعز بن المنصور بن القائم بن المهدي أوّل ملوكهم، وكان مولد العاضد في سنة سِتٍّ وأربعين، فعاش إحدى وعشرين سنة، وكانت سيرته مذمومة، وكان شيعياً خبيثاً لو أمكنه قتل كلّ من قدر عليه من أهل السنة[1].

3 ـ فرح المسلمون بزوال الدولة الفاطمية:

ولما انتهى الخبر إلى الملك نور الدين بالشام أرسل إلى الخليفة العباسي يعلمه بذلك مع ابن أبي عصرون فزينت بغداد، وغلقت الأبواب وعُملت القباب. وفرح المسلمون فرحاً شديداً، وكانت الخطبة قد قُطعت من ديار مصر سنة تسع وخمسين وثلاثمائة في خلافة المطيع العباسّي حين تغلب الفاطميُّون عليها أيام المعزّ الفاطمي، باني القاهرة إلى هذا الأوانِ، وذلك مائتا سنة وثماني سنين[2]. وقد تفاعل الشعراء مع هذا الحدث المدوّي في أرجاء الدنيا، فقد قال العماد الأصفهاني:

توفي العاضد الدعي مما ... يفتح ذو بدعة بمصر فما
وعصر فرعونها انقضى وغدا ... يوسفها في الأمور محتكما
قد طفئت جمرة الغواة وقد ... داخ من الشرك كل ما اضطرما
وصار شملُ الصلاح ملتئماً ... بها وعقد السداد منتظماً
لما غدا مشعراً شعار بني ... العباس حقًّا والباطل اكتتما
وبات داعي التوحيد منتظراً ... ومن دعاة الإشراك منتقماً
وظل أهل الضَّلال في ظلل ... داجية من غيابه وعمى
وارتبك الجاهلون في ظلل ... لما أضاءت منابر العُلما
وعاد بالمستضيء ممتهداً ... بناء حق قد كان منُهَدِما
واعتلَّت الدّولة التي اضطهدت ... وانتصر الدين بعدما اهتُضما
واهتزَّ عطف الإسلام من جَذَلٍ ... وافترَّ ثغر الإيمان وابتسما
واستبشرت أوجه الهُدى فرحاً ... فليقرعِ الكُفْر سِنَّهُ نَدما
عاد حريمُ الأعداءِ منتهك ... الحِمى وفيءُ الطغاة مقتسماً

(1) البداية والنهاية (16/ 451).
(2) المصدر نفسه (16/ 450).

قصور أهل القصور أخربها عامر بيت من الكمال سَمَا
أزعج بعد السُّكون ساكنها ومات ذُلًا وأنفه رَغِمَا[1]

إن نور الدين محمود كان يرى إزالة الدولة الفاطمية هدفاً إستراتيجياً للقضاء على الوجود النصراني، والنفوذ الباطني في بلاد الشام، ولذلك حرص على إعادة مصر للحكم الإسلامي الصحيح، فوضع الخطط اللازمة وأعد الجيوش المطلوبة وعيَّن الأمراء ذوي الكفاءة المنشودة، فأتمَّ الله له ما أراد على يدي جنديه المخلص، وقائده الأمين صلاح الدين، الذي نفذ سياسة نور الدين الحكيمة الرشيدة، وحق للأمة الإسلامية وزعمائها أن تفرح بهذه البشرى الكبيرة من إزالة دولة الشيعة الرافضة.

4 ـ اعتبار واتعاظ من زوال الفاطميين من مصر:

كانت مدة ملك الفاطميين مائتين وثمانين سنة وكسراً، فصاروا كأمس الذاهب وكأن لم يَغْنَوا فيها، وكان أوّل من ملك منهم المهدي، وكان من أهل سَلَمْيَة حدَّاداً اسمه: سعيد، وكان يهودياً فدخل بلاد المغرب وتسمَّى بعبيد الله، وادَّعى أنَّه شريف علويّ فاطميّ، وقال: إنه المهديُّ، وقد ذكر هذا غير واحد من سادات العلماء الكُبراء كالقاضي أبي بكر الباقلاّني والشيخ أبي حامد الإسفراييني وغير واحد من سادات الأئمة.... والمقصود أنَّ هذا الدّعِيَّ المُدَّعِيَ الكذّاب راج له ما افتراه في تلك البلاد ووازَرَهُ جماعة من جهلة العُبّاد، وصارت له دولة وصولة، فتمكّن إلى أن بنى مدينة سمّاها المهدية نسبة إليه، وصار مَلِكاً مطاعاً يظهر الرفض وينطوي على الكفر المحض، ثم كان من بعده ابنه القائم ثم المنصور، ثم المعز ـ وهو أوّل من دخل مصر منهم، وبنيت له القاهرة ـ ثم العزيز ثم الحاكم، ثم الظاهر، ثم المستنصر ثم المستعلي، ثم الآمر، ثم الحافظ، ثم الظافر، ثم الفائز، ثم العاضد وهو آخرهم، فجملتهم أربعة عشر ملِكاً، ومدتهم مائتان ونيّف وتسعين سنة...

وقد كان الفاطميون أغنى الخلفاء وأكثرهم مالاً، وكانوا من أغنى الخلفاء وأجبرهم وأظلمهم، وأنجس الملوك سيرة وأخبثهم سريرة، ظهرت في دولتهم البدع والمنكرات وكثر أهل الفساد وقلَّ عندهم الصالحون من العلماء والعبّاد، وكثر بأرض الشام النُّصيريَّة والدرزية والحشيشية، وتغلب الفرنج على سواحل الشام بكماله، حتى أخذوا القدس الشريف ونابلس وعجلون والغَوْرَ وبلاد غَزَّة وعسقلان وكرَكَ الشَّوبك وطبرية وبانياس وصور وعشليث وصيدا وبيروت وعكا وصَفَدَ وطرابلس وأنطاكية، وجميع ما وَالىَ ذلك في بلاد آياس[2] وسيس[3]،

(1) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (2/ 195).
(2) أياس: مدينة من بلاد الأرمن على ساحل البحر.
(3) سيس: قاعدة بلاد الأرمن، صبح الأعشى (4/ 134).

واستحوذوا على بلاد آمد والرُّها ورأس العين وبلاد شَتَّى، وقتلوا خلقاً لا يعلمهم إلا الله وسَبَوا من ذراري المسلمين من النساء والولدان ما لا يُحَدُّ ولا يوصَفُ وكادوا أن يتغلبوا على دمشق، ولكن صانها الله بعنايته وسلَّمها برعايته، وحين زالت أيامهم وانتفض إبرامهم أعاد الله هذه البلاد كُلَّها على أهلها من السادة المسلمين، ورد الله الكفرة خائبين، وأركسهم بما كسبوا في هذه الدنيا ويوم الدين[1].

سادساً: القضاء على محاولة انقلابية لإعادة الدولة الفاطمية:

كانت الدولة والمجتمع في مصر في ذلك الوقت في فترة التحول الكبرى في تاريخها من خلافة ونظم ومؤسسات ورجال حكموا البلاد قرنين من الزمان، وأثَّرُوا في كل جوانب حياة مجتمعها، إلى حكم جديد ودولة جديدة لها نظمها ومؤسساتها ورجالها، والتي بدأت بإجراء التغيير بالتدريج، وحاول صلاح الدين اكتساب عامة الناس إلى جانبه ونجح إلى درجة كبيرة، لكنّ بعض مفكري الدولة الفاطميّة ورجالها، وبعض الجماعات التي فقدت نفوذها وامتيازاتها ظلت على ولائها لما كانت تمثله الدّولة السابقة من أفكار وامتيازات[2]، فعملت تلك القوى الموالية للفاطميين من جنود وأمراء وكتاب وموظفي دواوين، ومن عائلات الوزراء السابقين مثل بني رزيك وبني شاور، راحوا يخططون للقضاء على حكم صلاح الدين وإعادة الدولة الفاطمية[3]. وقد وصفهم عماد الدين الأصفهاني بقوله: واجتمع جماعة من دعاة الدولة المتعصّبة المتشددة المتصلبة، وتوازروا وتزاوروا فيما بينهم خيفة وخفية، واعتقدوا أمنية عادت بالعقبى عليهم منيّة، وعيّنوا الخليفة والوزير، وأحكموا الرأي والتدبير، وبيّتوا أمرهم بليل، وستروا عليه بذيل[4].

ويبدو أن مؤامرتهم كانت في غاية التنظيم إذ عينوا خليفة ووزيراً، ثم كاتبوا الفرنج أكثر من مرّة يدعونهم في إحداها إلى الهجوم على مصر، في وقت كان صلاح الدين غائباً في الكرك، والتفّ هؤلاء حول عمارة اليمني، الفقيه والأديب السنيّ المذهب، الفاطمي الولاء الذي تولى مهمة المراسلة مع الفرنج، وظنّ المتآمرون أن سريَّتهم التامة ستقودهم إلى النجاح، ولكنهم لم يعلموا أن القاضي الفاضل عن طريق ديوان الإنشاء كان يراقبهم مراقبة تامة حتى تحين الفرصة المواتية لكشف سرهم، وتذكر المصادر في كشف مؤامراتهم قصتين تختلفان بعض الاختلاف في التفصيلات.

---

(1) البداية والنهاية (16/ 457).
(2) صلاح الدين القائد وعصره، د. مصطفى الحياري، ص: 168.
(3) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (2/ 282).
(4) المصدر نفسه (2/ 282).

أولاهما: أن أحد الكتاب في الديوان وهو عبد الصمد الكاتب، كان يلقى الفاضل بخضوع زائد، يخدمه ويتقرب إليه ويبالغ في التواضع إليه، فلقيه يوماً، فلم يلتفت إليه، فقال القاضي الفاضل: ما هذا إلا لسبب وخاف أن يكون قد صار له باطن مع صلاح الدين، فأحضر ابن نجا الواعظ وأخبره الحال، وطلب منه كشف الأمر، فلم يجد من جانب صلاح الدين شيئاً، فقصد الجانب الآخر، فكشف الحال إليه، فأرسله القاضي الفاضل إلى صلاح الدين، وقال له: تحضر الساعة عند صلاح الدين وتنهي الحال إليه، فحضر عند صلاح الدين وهو في الجامع وذكر الحال، عندئذ استدعاهم صلاح الدين وقرّرهم فأقروا بمؤامرتهم، فاعتقلهم ثم أمر بصلبهم[1].

وتشير الرواية الثانية إلى أن المتآمرين أدخلوا الواعظ زين الدين بن نجا بينهم، فتظاهر بمساندته لهم في البداية ثم أعلم صلاح الدين بأمرهم، وطلب منه أن يعطيه ما لابن كامل من أملاك، فوافق وأمر بمخالطتهم وتعريف شأنهم، فصار يعلمه بما يجدّ من أمرهم، ثم وصل رسول من الفرنج إلى صلاح الدين بهدية ورسالة ظاهرية وبرسالة باطنية للمتآمرين، فوصل خبره إلى صلاح الدين[2]. وقد أشار القاضي الفاضل بنفسه إلى تفصيلات هذه المؤامرة في رسالة كتبها عن صلاح الدين إلى نور الدين بدمشق، وتنمّ عن اطّلاعه الدقيق على المؤامرة، بل اشتراكه في إحباطها، فلعلّه هو الذي دسّ من أعلمه بتفصيلات المؤامرة، كما يشير في رسالته إلى عيون لديوان الإنشاء المصري من الفرنج، وآخرين بينهم على اتصال بالديوان[3]. وجاء في الكتاب الذي كتب بقلم القاضي الفاضل «من صلاح الدين إلى نور الدين» بعدما تمّت التحقيقات التي أجراها صلاح الدين، ولخص الكاتب بتركيز وشمول بدايات المؤامرة وتطوراتها، وكيفيّة كشفها، وصلب رؤوس المتآمرين أمام بيوتهم[4]: أن صلاح الدين كان لا يزال، بعد قضائه على الخلافة الفاطمية يعتبر «جند مصر.. وأهل القصر» الفاطمي أعداء لدولته وضد وجوده ويتوقع منهم القيام بعمل ضّده، ولذلك فقد كان متحرزاً منهم، ووضع عليهم من عيونه ورجاله الموثوقين من يراقبهم باستمرار ومع ذلك فقد استمر عملهم سرياً بمختلف الوسائل التي كانت متاحة لهم. وأنهم كانوا من إعلان الخطبة العبّاسية وحتى القبض عليهم لا يمر عليهم شهر ولا سنة إلا وهم يُدبّرون المكائد ويعقدون الاجتماعات ويبعثون الرُسل إلى الصليبيين لموافقتهم على ما يريدون، وكان أكثر ما يتعللون به، ويستريحون إليه، المكاتبات المتواترة والمراسلات المتقاطرة إلى الفرنج يوسعون لهم فيها سُبُل

(1) القاضي الفاضل، ص: 146.
(2) المصدر نفسه، ص: 146، مفرج الكروب (1/ 244، 245).
(3) القاضي الفاضل، ص: 146.
(4) صلاح الدين القائد وعصره، ص: 169.

المطامع.. ويزينون لهم الإقدام والقدوم[1]. لكن الفرنج لم يستجيبوا بداية؛ لخوفهم من صلاح الدين، وفي ذات الوقت يؤمّلونهم بالمساعدة في الوقت المناسب.

ووصل الأمر إلى أنّهم كاتبوا ملك الصليبيين عندما قام صلاح الدين بحملته الثانية على بلاد الكرك والشوبك في قسم كبير من قوّاته يطلبون منه القيام بالدور المتفق عليه، وقالوا في كتبهم: إنه بعيد، والفرصة قد أمكنت، فإذا تقدم عموري بقواته إلى صَدْر أو أيلة، فإنه سيقطع الطريق على صلاح الدين ويمنعه من العودة، وعند ذلك تثور في القاهرة حاشية القصر، وكافة الجند (الفاطمي السابق في مصر) وطائفة السودان، وجموع الأرمن، وعامة الإسماعيلية، تفتك بأهل صلاح الدين ومعاونيه ورجال دولته في العاصمة[2]. لكنّ يقظة صلاح الدين والتكتيكات والمناورات التي قام بها أدرك عموري الذي كان يحاول جاهداً معرفة حركات صلاح الدين في النقب جنوبي الأردن، وجمدته عند مياه الكرمل في جبال الخليل لخوفه من أن يستغل صلاح الدين فرصة حركة الملك الخاطئة، فيتوجه إلى المناطق غربي نهر الأردن والبحر الميت.

ولم ييأس المتآمرون: فعندما وصل المدعو جِرْج (جورج أو جورجيوس)، كاتب الملك عموري، إلى القاهرة في مراسلة إلى صلاح الدين ويبدو أن الرسائل كانت متصلة في أوقات السلم، اتصلوا به، وأرسلوا معه كتاباً إلى الملك عموري: أنّ العساكر متباعدة في نواحي إقطاعاتهم، وعلى قرب من موسم غلّاتهم، وأنه لم يبق في القاهرة إلا بعضهم، وإذا بعثت أسطولًا إلى بعض الثغور، ففعلنا ما تقدم ذكره في الثورة[3]. وهذا دليل آخر على محاولة استغلالهم لكل الظروف المناسبة، ذلك أن وقت جمع الغلات من الحقول هو الوقت الذي يذهب فيه الأمراء المقطعين وأجنادهم إلى إقطاعاتهم لأخذ حصتهم من الناتج وتوزيعه، وهذه كانت حالة عادية معروفة في تاريخ المنطقة في العصور الوسطى[4].

أن الملك عموري كان كلما أراد التعرف على الأوضاع في مصر والاتصال بالمتآمرين والتفاوض معهم، كان يبعث بـ «جِرْج» رسولاً إلى صلاح الدين: ظاهراً إلينا، وباطناً إليهم، عارضاً علينا الجميل الذي ما قبلته قط أنفسنا، وعاقداً معهم القبيح الذي يشتمل عليه علمنا، ولأهل القصر والمصريين «الجند» في أثناء هذه المُدَد رُسل تتردد، وكتب إلى الفرنج تتجدد[5].

---

(1) كتاب الروضتين (2/ 287).
(2) المصدر نفسه (2/ 288).
(3) المصدر نفسه (2/ 288).
(4) صلاح الدين القائد وعصره، ص: 170.
(5) كتاب الروضتين (2/ 287).

كانت سياسة صلاح الدين أثناء هذه الفترة إذا شك أعوانه بأحد من الجماعات المذكورة وقام باعتقاله ولم يتمكنوا من إثبات التهمة ضده، أطلق سراحهم، وخلّى سبيلهم فلا يزيدهم العفو إلا ضراوة، ولا الرقة عليهم إلا قساوة[1].

واتصل المتآمرون في ذات الوقت «بشيخ الحيل» سنان[2]، زعيم الإسماعيلية النزارية في بلاد الشام، طالبين مساعدته محتجين: بأن الدعوة واحدة، والكلمة جامعة، وأنّ ما بين أهلها خلاف إلا فيما يفترق به كلمة ولا يجب به، فعود عن نُصرة[3]. وطلبوا منه بصورة خاصة اغتيال «الملوك» كما كانت عادتهم أو نصب المكائد لهم وكان الرسول إليهم خال ابن قرجلة[4]، أحد الدولة الفاطمية السابقين، ويبدو أن الاثنين كانوا عند صاحب الحيل عند اكتشاف المؤامرة فالتجؤوا إلى الصليبيين[5].

ولا نعرف إذا كان المتآمرون اتصلوا بملك صقليّة لإرسال الأسطول مباشرة أم عن طريق ملك الصليبيين، لكنّ الأسطول قدم بعد فشل المؤامرة، إلى الإسكندرية، وكان مكوناً من 200 سفينة ويحمل أعداداً كبيرة من الخيالة والرجالة، فَمُني بخسائر كبيرة خاصة وأن الملك عموري لم يتقدم في البرّ كما كان الاتفاق بسبب القضاء على المتآمرين بحزم[6].

وفي المرّة الأخيرة التي قدم فيها «جِرْج» برسالة إلى ديوان صلاح الدين وصل كتاب إلى الديوان ممن لا نرتاب به من قومه «الصليبيون» يذكرون أنه رسول مخاتلة (خداع) لا رسول مجاملة، فاتخذ رجال صلاح الدين الاحتياطات المناسبة لمراقبته دون أن يشعر، ولم يظهروا له أي شكٍ فيه. وقام «جرج» بالاتصال بجماعة القصر الفاطمي، ومدبري المؤامرة، وأمراء الجند الفاطمي السابقين، وجماعة من النصارى واليهود، عند ذلك توصل رجال دولة صلاح الدين إلى إدخال أحد العيون إليهم من جماعته فَدسّنه إليهم من طائفتهم من داخلهم[7]، فصار ينقل إلينا أخبارهم ويرفع إلينا أحوالهم[8].

وبدأت تنتشر الإشاعات والأقاويل بين الناس حول المؤامرة، وخاف رجال دولة

(1) كتاب الروضتين (2/ 287).
(2) المصدر نفسه (2/ 288).
(3) المصدر نفسه (2/ 289).
(4) المصدر نفسه (2/ 289).
(5) المصدر نفسه (2/ 289).
(6) صلاح الدين القائد وعصره، ص: 172.
(7) المصدر نفسه، ص: 172.
(8) المصدر نفسه، ص: 172.

صلاح الدين من انكشاف الأمر، وهرب رؤساء الفتنة، فقرروا اعتقالهم، ثم أحضروا واحداً واحداً أمام صلاح الدين: وقَرَّرَهم على هذه الحالة فأقروا واعترفوا واعتذروا بكونهم قُطِعت أرزاقهم وأخذت أموالهم[1].

وقد تبين من التحقيقات والإقرارات أنهم عَيّنوا خليفة ووزيراً، وأنه وقع خلاف بينهم حول الخليفة وحول الوزير (آل رُزيّك أو آل شاور).

استفتى صلاح الدين العلماء في أمرهم، فأفتوا بقتلهم، وعندما تردد صلاح الدين في التنفيذ، طالب أهل الفتوى وأهل المشورة بالإسراع في التنفيذ، فصَدَر الأمر بقتلهم وصلبهم: وشنقوا على أبواب قصورهم، وصلبوا على الجذوع المواجهة لدورهم[2]. وكان المشهورون الذين شنقوا: الشاعر عمارة بن علي اليمني، وعبد الصمد الكاتب، والقاضي العويرس، وداعي الدعاة ابن عبد القوي. وقد حاول القاضي الفاضل صادقاً الشفاعة لدى صلاح الدين في عمارة، على الرغم من العداوة القديمة بينهما، إلا أن عمارة اعتقد أنها خدعة فرفض قبولها، فتم صلبه مثل غيره[3].

وأما أهل القصر فقد اعتقلوا بداية، ثُم نُقلوا إلى أماكن مختلفة وأعطى القصر إلى أخيه العادل، ذلك أن صلاح الدين رأى: أنهم مهما بقوا فيه بقيت مادة لا تنحسم الأطماع عنها، فإنه «القصر» حبالة للضلال منصوب، وبيعة «مقامٌ» للبدع محجوبة[4].

وشُرّدت طائفة الإسماعيلية من بلاد مصر ونُفُوا، أما البقية فقد أعلن في القاهرة: بأن يرحل كافة الأجناد وحاشية القصر وراجل السُودان إلى أقصى بلاد الصعيد[5].

وكشفت التحريات والبحث في هذه القضيّة عن وجود داعية يُسَمّى: «قُديد القَفّاص» في الإسكندرية، التي كان غالبية أهلها من أهل السنة، وأن دعوته انتشرت في بلاد الشام ومصر، وأن أرباب المعايش (الحرب والصناعات) في ثغر الإسكندرية يحملون إليه جزءاً من كسبهم، والنسوان يبعثن إليه شطراً وافياً من أموالهن[6]. كما وُجد لديه كتب ورقاع تدل على الكفر الصريح[7]. وهكذا فقد تمكن صلاح الدين بفضل الله ثم بصبره وقيادته الحازمة من

---

(1) صلاح الدين القائد وعصره، ص: 172.
(2) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (2/ 289).
(3) صلاح الدين القائد وعصره، ص: 173.
(4) كتاب الروضتين (2/ 290).
(5) صلاح الدين القائد وعصره، ص: 173.
(6) كتاب الروضتين (2/ 290).
(7) المصدر نفسه (2/ 290).

القضاء على هذه المؤامرة الفتنة التي دفعته أخيراً إلى اتخاذ القرار الحاسم بالنسبة لكل بقايا الدولة الفاطمية من بيت الخلافة، وكبار رجالها، والحاشية، والجند والسودان[1].

1 ـ عمارة بن علي اليمني الشاعر:

قال عنه الذهبي: أبو محمد، عمارة بن علي بن زيدان الحكميُّ المذحجي اليمني الشافعي الفرضي، الشاعر، صاحب الديوان المشهور، ولد سنة خمس عشرة وخمس مئة وتفقَّه بزبيد مدةً، وحج سنة تسع وأربعين ونفّذه أمير مكة قاسم بن فليته رسولاً إلى الفائز بمصر فامتدحه بالشعر. وكان واضح الاعتقاد في أبي بكر وعمر، فقد حكى عمارة أن الصالح بن رُزِّيك فاوضه وقال: ما تعتقد في أبي بكر وعمر؟ قلت: أعتقد أنه لولاهما لم يبقَ الإسلام علينا ولا عليكم، وأنّ محبتهما واجبة. فضحك، وكان مُرتاضاً حصيفاً، قد سمع كلام فقهاء السنة، قال الذهبي: هذا حكم من الصالح على رفضه[2].

وقال ابن واصل في سبب موالاة عمارة اليمني للفاطميين: وكان عمارة بن علي اليمني شديد التعصب لهم، لأنه قدم عليهم من اليمن فأحسنوا إليه وخوّلوه، فرعى ذلك ووفى لهم، والإنسان ـ كما قيل ـ صنيعة الإحسان، ولم يكن على مذهبهم وإنما كان شافعياً وسنياً، فلما زال أمرهم رثاهم بأحسن الشعر وذبَّ عنهم باللسان، إذ لم يمكنه الذبّ عنهم باليد؛ ولمّا تحرك جماعة في عَوْد الأمر إليهم، كان من جملة المساعدين على ذلك، شكراً لهم على إحسانهم إليه، فأدى به ذلك إلى أن شنق[3] ـ كما مرّ ذكره ـ وقد ذكر عمارة ميوله لمذهب القوم في قصيدة يقول فيها:

أفاعيلهم في الجود أفعال سُنَّةٍ ... وإن خالفوني في اعتقاد التشيع[4]

وقد علق الذهبي على هذا البيت فقال: يا ليته تشيَّع فقط، بل يا ليته ترفّض، وإنما يقال: هو انحلال وزندقة[5]. وقد قال عمارة في رثاء الفاطميين والعاضد:

أسفي على زمن الإمام العاضد ... أسَفُ العقيمِ على فِراقِ الواحد

جالست من وزرائه وصحبت من ... أمرائه أهل الثناء الخالد

لهفي على حُجُراتِ قصرِك إذ خَلَت ... يا ابن النبي من ازدحام الوافد

وعلى انفرادك من عساكرك الذي ... كانوا كأمواج الخِضَم الرّاكد

---

(1) صلاح الدين القائد وعصره، ص: 173.

(2) سير أعلام النبلاء (20/ 594، 595).

(3) مفرج الكروب (1/ 212).

(4) سير أعلام النبلاء (20/ 596).

(5) المصدر نفسه (20/ 596).

قَـلَّـدْتَ مُـؤتَـمِـنَ الـخـلافـة أمـرهـم فـكـبـا وقـصَّـر عـن صـلاح الـفـاسـد
فـعـسـى الـلَّـيـالـي أن تَـرُدَّ إلـيـكـم مـا عـوّدتـكـم مـن جـمـيـل عَـوَائِـدِ[1]

وله من جملة قصيدة:

يـا عـازلـي فـي هـوى أبـنـاء فـاطـمـة لـك الـمـلامـة إن قـصّـرت فـي عـزلـي
بـالـلـه زُرْ ساحـة الـقـصـريـن وابـك مـعـي عـلـيـهـمـا لا عَـلـى صـفـيـن والـجـمـل
وقـل لأهـلـهـمـا والله مـا الـتـحـمـت فـيـكـم قُـروحـي ولا جُـرْحـي بـمُـنـدمـل
مـاذا تـرى كـانـتِ الإفـرنـج فـاعـلـة فـي نـسـل آلِ أمـيـر الـمـؤمـنـيـن عـلـي[2]

وأنا أستغرب من عمارة اليمني في نعيه لأيام الفاطميين وحنينه إلى بدعهم وأعيادهم وقصورهم وتحديه للدولة السنية الجديدة في مصر ودفاعه عن الفاطميين وأكاذيبهم في زعمهم بأنهم من النسل النبوي الكريم، فهل متاع الدنيا الزائل يفعل بالعقائد الصحيحة ما فعله بعمارة اليماني، وهل العطايا والجاه والمناصب تجعل الإنسان يترك عقيدته الصحيحة ويبكي على أطلال الدولة الفاطمية الشيعية الرافضة؟ وينخرط في بلاد الإسلام؟ إن هذا لشيء عجاب.

2 ـ حصار الإسكندرية:

إن أهل الإسكندرية ساهموا في نجاح المشروع السني بمصر، ودافعوا عن صلاح الدين عندما حوصر بها، وهم يدافعون عن المدينة بشجاعة فائقة ورجولة منقطعة النظير، ومسلمي مصر عموماً وأهل الإسكندرية منهم خصوصاً دائماً وأبداً في الخندق المدافع عن قضايا الأمة قديماً وحديثاً، ولهم من الطاقات الفكرية والإمكانات المادية، والأقلام السيالة وصفاء الفطرة ما يجعلهم في مصاف من يتصدى للمشروع الشيعي الرافضي الباطني، والمشروع الأمريكي الغربي، وقد قاوم المصريون قديماً النفوذ الشيعي الباطني، وتعاونوا مع إخوانهم من أهل السنة، فكرياً وعقائدياً وسياسياً وعسكرياً واقتصادياً وإعلامياً حتى تمّ القضاء على المشروع الشيعي الباطني، ولذلك نجد كتّاب الشيعة الرافضة يقولون عن مصر وأهلها: أبناء مصر؛ لعنوا على لسان داود عليه السلام، فجعل الله منهم القردة والخنازير[3]، وما غضب الله على بني إسرائيل إلا أدخلهم مصر، ولا رضي عنهم إلا أخرجهم منها إلى غيرها[4]، وقالوا:

---

(1) كتاب الروضتين (2/ 293).
(2) المصدر نفسه (2/ 295).
(3) بحار الأنوار (60/ 208)، تفسير القمي، ص: 596.
(4) تفسير العياشي (1/ 304)، البرهان (1/ 456).

بئس البلاد مصر، أما إنها سجن مَن سخط الله عليه من بني إسرائيل[1]، وقالوا: انتحوا مصر ولا تطلبوا المكث فيها لأنه يورث الديائة[2]، وجاءت عندهم عدة روايات في ذم مصر، وهجاء أهلها، والتحذير من سكناها، ونسبوا هذه الروايات إلى رسول الله ﷺ، وإلى محمد الباقر، وإلى علي الباقر، وهذا رأي الشيعة الروافض في مصر في تلك العصور الإسلامية الزاهرة، وقد عقَّب المجلس الشيعي الرافضي على هذه النصوص بقوله بأن مصر صارت من شر البلاد في تلك الأزمنة، لأن أهلها صاروا من أشقى الناس وأكفرهم[3]، ويبدو أن هذه النصوص هي تعبير عن حقد الرافضة وغيظهم على مصر وأهلها بسبب سقوط إخوانهم الإسماعيليين العبيديين على يد صلاح الدين، الذي طهَّر أرض الكنانة من دنسهم ورجسهم، وأين هذه الكلمات المظلمة في مصر، وأهلها الأحبة من وصية حبيبنا محمد ﷺ بأهل مصر[4].

وإليك أيها القارىء الكريم ما قام به أهالي الإسكندرية للدفاع عن الإسلام وعن دولته السنية الجديدة في مصر، فقد تعرضت الإسكندرية لإنزال صقلي في الأيام الأخيرة من عام (569هـ/ نهاية تموز 1174م)، وكان الأسطول النورماندي يتكون من مئتي[5] سفينة، وقيل: من مائة وثمانين سفينة تحمل خمسين ألف رجل بينهم ثلاثين ألف مقاتل تنفيذاً لمخطط واسع النطاق الذي اتفقت عليه العناصر الموالية للفاطميين مع ملكي بيت المقدس وصقلية بهدف إحياء الخلافة الفاطمية في[6] مصر، ورد الدعوة الشيعية الرافضية إلى ما كانت عليه، وقد وصلت الحملة النورماندية أمام الإسكندرية في 16 ذي الحجة بعدما انكشفت المؤامرة وقضي على المتآمرين في الداخل من جهة، وبعد وفاة عموري الأول ملك بيت المقدس من جهة ثانية. وشرع النورمان في مهاجمة الإسكندرية ونجحوا في إغراق بعض المراكب المصرية التي كانت راسية على الساحل[7]، وقد أبدى الجيش الأيوبي وأهالي الإسكندرية شجاعة فائقة، فأحرقوا دبابات العدو التي نصبت قرب السور «وأحسنوا القتال والصبر». وكان صلاح الدين غائباً عن الإسكندرية، وحين وصلها زال ما بالمحاربين من تعب وألم الجراح، وكل منهم يظن أن صلاح الدين معه، فهو يقاتل قتال مَن يريد أن يشاهد قتاله[8]. فما كان على

(1) تفسير العياشي (1/ 305)، البرهان (1/ 457).
(2) بحار الأنوار (60/ 211)، أصول الشيعة (2/ 900).
(3) بحار الأنوار (5/ 208).
(4) مسلم (2/ 2970).
(5) الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين، ص: 382.
(6) تاريخ القبائل العربية في عصر الدولتين الأيوبية والمملوكية، ص: 80.
(7) المصدر نفسه، ص: 81.
(8) الكامل في التاريخ نقلاً عن الجيش الأيوبي، ص: 383.

الصليبيين سوى التسليم وصاروا بين قتيل وأسير[1]. وهكذا وجه جيش صلاح الدين وأهالي الإسكندرية ضربة ماحقة بأصحاب فكرة غزو مصر، بحيث لم يعودوا يفكرون في إعادة التجربة مرّة ثانية في عهد صلاح الدين، على الرغم من أنهم لم يتخلوا عن الفكرة كلياً، إذ أعادوا الكرة بعد وفاة صلاح الدين بربع قرن[2].

سابعاً: الوسائل التي اتخذها صلاح الدين للقضاء على المذهب والتراث الفاطمي:

ليس من السهل اليسير أن يُقتلع مذهب من المذاهب، بمجرد تغيير النظام السياسي في بلد ما من البلاد، إنما يحتاج التغيير إلى سنوات عديدة، وتدابير ليست من تدابير القوة والبطش فحسب[3]، لذلك فالملاحظ أن صلاح الدين قد استخدم وسائل وأساليب عديدة في سبيل القضاء على الدعوة الفاطمية بمصر، جاءت بعض هذه الأساليب تتسم بالشدة والعنف والحسم الفوري المباشر، والبعض الآخر اتخذ وسيلة الحيلة والتدرج، واستخدم بعضها القوى العسكرية، في حين نهج البعض الآخر سبيل الدعوة والتعليم والإقناع، والاستمالة عن طريق المنشآت الاجتماعية الدينية الخيرية، وما يوقف عليها من أوقاف للصرف عليها[4]، وإليك بعض هذه الوسائل:

1 ـ إذلال الخليفة الفاطمي العاضد:

بدأ صلاح الدين بإذلال شخص الخليفة الفاطمي العاضد، للقضاء على فكرة «الولاية» التي تبنى عليها جميع النظريات والعقائد الإسماعيلية ويستمد منها الحكام الفاطميون قداستهم، فأرغم الخليفة العاضد على الخروج بنفسه لاستقبال والده نجم الدين أيوب عند وصوله إلى مصر، رغم ما جرى عليه العرف، وحرصت عليه الرسوم الفاطمية، من استعلاء الخليفة الفاطمي واحتجابه عن الناس، لعدم ابتذاله بكثرة ظهوره أمام الناس ولإكسابه مسحة من القداسة والتعظيم، بل يذكر أبو شامة، أن العاضد قد خرج لتلقيه إلى ظاهر باب الفتوح، ولم يجر بذلك عادة لهم، وكان من أعجب يوم شهده الناس[5]، بل اضطر العاضد إلى مخالفة التقاليد والعرف وقواعد ورسوم الدولة، فمنح صلاح الدين ألقاب وزراء السيوف، إذ خلع عليه، ولقبه الملك الأفضل، وحمل إليه من القصر الألطاف والتحف والهدايا[6]، ثم ما

---

(1) الكامل في التاريخ، نقلاً عن الجيش الأيوبي، ص: 383.
(2) المصدر نفسه، ص: 383.
(3) تاريخ مصر الإسلامية زمن سلاطين بني أيوب، ص: 56.
(4) المصدر نفسه، ص: 56.
(5) كتاب الروضتين، نقلاً عن تاريخ مصر الإسلامية، ص: 56.
(6) المصدر نفسه، ص: 57.

فتيء صلاح الدين يعمل على الاستهانة بالخليفة وابتذال مكانته الروحية بين أتباعه وأنصار دولته، فأخذ يستولي على موجوداته وممتلكاته الشخصية وخيوله، بحجة شدة الحاجة إليها في أمور الجهاد، حتى أن الخليفة في آخر الأمر، عرض على صلاح الدين أن يتنازل له عن فرسه الخاص الذي لا يملك غيره، فأجاب صلاح الدين بالاعتذار عن الحاجة[1]، ولا يخفى أن هذا الابتذال المتكرر المتعمد الموجه للخليفة للاستهانة به أمام رعيته كان يهدف أيضاً إلى إجبار الخليفة على الاعتزال، وتجنب الظهور في المناسبات العامة، حتى ينساه المصريون[2].

2 ـ وضعه من مكانة قصر الخلافة الفاطمي:

عمل صلاح الدين على وضع مكانة قصر الخلافة الفاطمية بأن أسكن فيه أمراء دولته الأكراد، وكان هذا العمل تأكيداً لسقوط الدولة الفاطمية، إذ ظلت الدولة الفاطمية تعرف طوال عصور ازدهارها «بالدولة القصرية»[3] نسبة لسكن خلفاء الفواطم لقصور عاصمتهم القاهرة، ففي سنة (566هـ/ 1170م) قبض صلاح الدين على القصور الفاطمية وسلّمها لمملوكه قراقوش الخادم، ثم أسكنها لجنوده وأهله وأسكن أباه بقصر اللؤلؤة على الخليج، وقد سكن القصور الفاطمية الملك العادل إبان نيابته للسلطان بمصر عن أخيه صلاح الدين[4].

3 ـ قطع الخطبة الجامعة من الجامع الأزهر، وإبطال تدريس الفكر الفاطمي به:

ما لبث صلاح الدين في سنة (567هـ/ 1171م) أن وجه للدعوة الفاطمية بمصر، طعنة قاتلة، كانت كفيلة ولا ريب بالإجهاز عليها، وذلك بقطعه للخطبة الجامعة من الجامع الأزهر الذي اتخذه الفاطميون جامعة لنشر علوم الدعوة الشيعية الإسماعيلية[5]، وذلك بعد أن قلد وظيفة القضاء صدر الدين عبد الملك بن درباس، فعمل بمقتضى مذهبه، وهو امتناع إقامة الخطبتين للجمعة في بلد واحد، كما هو مذهب الإمام الشافعي، فأبطل الخطبة من الجامع الأزهر، وأقر الخطبة بالجامع الحاكمي من أجل أنه أوسع، فلم يزل الجامع الأزهر معطلاً من إقامة الجمعة فيه مائة عام من ذلك التاريخ، إلى أن أعيدت الخطبة في أيام الملك الظاهر بيبرس[6]، وأيد صلاح الدين هذه الخطوة الجريئة، بإزالة الشعائر الشيعية، التي أدخلها الفاطميون إلى مصر، واستمرت بها طوال عصر دولتهم من الآذان، وإبان إقامة الصلوات،

---

(1) كتاب الروضتين، نقلاً عن تاريخ مصر الإسلامية، ص: 57.
(2) المصدر نفسه، ص: 57.
(3) المصدر نفسه، ص: 58.
(4) تاريخ مصر الإسلامية زمن سلاطين بني أيوب، ص: 60، 61.
(5) المصدر نفسه، ص: 93.
(6) الخطط للمقريزي (4/ 53).

فأبطل من الأذان قول «حي على خير العمل» واستمر الآذان في مصر على المذهب السني[1]، ومنع صلاح الدين ما كان قد تعود عليه المؤذنون في العصر الفاطمي، من السلام على الخليفة الفاطمي في الأذان[2]، وأقيمت الخطبة الجامعة بجامع الحاكم على نحو يأخذ الخطيب فيها مأخذاً سنياً يجمع فيه الدعاء للصحابة ﷺ، وللتابعين ومن سواهم، ولأمهات المؤمنين زوجات النبي ﷺ، ولعميه حمزة والعباس ﷺ، ويأتي للخطبة لابساً السواد على رسم العباسية[3]. ومما لا شك فيه أن قطع الخطبة الجامعة من الجامع الأزهر وما صاحب هذا من تعطيل دراسة مذاهب الشيعة بالأزهر، الذي ظل طوال العصر الفاطمي أضخم مراكز الدعوة الإسماعيلية بمصر[4]، ثم تحويل الأزهر إلى جامعة سنية لتدريس علوم السنة ـ وهو ما استمر عليه الحال حتى اليوم ـ وهجرة علماء أهل السنة للتدريس فيه قد أدى إلى نشر علوم السنة بمصر، وفي أغلب أرجاء العالم الإسلامي[5].

4 ـ إتلاف وحرق الكتب الشيعية الإسماعيلية:

عمد صلاح الدين إلى الآلآت الملوكية الفاطمية، وكنوز القصر الفاطمي، فعمل على إفسادها وأهدى بعضها إلى نور الدين زنكي، والبعض الآخر إلى الخليفة العباسي، ثم طرح باقيها للبيع، بحيث دام البيع فيها مدة عشرة سنين[6]، وتنقلت إلى البلاد بأيدي المسافرين الواردين والصادرين[7]، وتحول إلى كتب الدعوة الإسماعيلية، التي احتوت عليها مكتبة القصر الفاطمي، فأحرقها وألقاها على جبل المقطم، ثم فرق الكتب غير المذهبية التي صودرت من مكتبة القصر، على كبار علماء وأنصار دولته، مثل: العماد الأصفهاني والقاضي الفاضل، وأبي شامة الأصفهاني، مما يؤكد أن هدف صلاح الدين كان إحراق كتب الدعوة الشيعية الرافضية فقط[8]. وفي الحقيقة كانت كتب الدعوة الشيعية الإسماعيلية من أهم وسائل التأثير التي يتَّخذها دعاة الفاطميين للترويج لدعوتهم وقامت السلطات الأيوبية بإحراق كتب الإسماعيلية، بحيث لم يتبق من كتب الدعوة الإسماعيلية إلا الكتب التي احتفظ بها أنصار الفاطميين باليمن والهند بعد سقوط دولتهم بمصر[9]، هذا في الغالب.

(1) الخطط للمقريزي (4/46)، تاريخ مصر الإسلامية، ص: 93.
(2) تاريخ مصر الإسلامية، ص: 93.
(3) المصدر نفسه، ص: 94.
(4) تاريخ مصر الإسلامية زمن سلاطين بني أيوب، ص: 97.
(5) المصدر نفسه، ص: 97.
(6) كتاب الروضتين (2/210)، تاريخ مصر الإسلامية، ص: 61.
(7) المصدر نفسه، ص: 62.
(8) المصدر نفسه، ص: 62.
(9) المصدر نفسه، ص: 62.

5 ـ ألغى جميع الأعياد المذهبية للفاطميين:

لم يغب عن فكر صلاح الدين خطورة أثر الأعياد والمآتم والحسينيات المذهبية للشيعة في الترويج لمذهبهم وترسيخ معتقداتهم في نفوس المصريين، فألغى جميع الأعياد المذهبية للفاطميين، مما أدى إلى انقراضها من مصر مُنذ ذلك الوقت، وبدهاء سياسي، ومنطلق عقائدي مبني على محاربة البدع الشيعية الرافضية تمّ القضاء على الأعياد المذهبية المخالفة للكتاب والسنة، واستكمالاً لهذه الخطوة، أقدم الأيوبيون على صبغ الأعياد والمواسم الدينية بمصر بصبغة سنية، بقيت إلى اليوم[1].

6 ـ محو رسوم الفاطمية وعملاتهم:

واقترن بمحو الرسوم الفاطمية بمصر، إبطال التعامل بالعملات الفاطمية، خاصة وأنها كانت تحمل نقش العقيدة الفاطمية المؤيدة لحقهم في الخلافة: «لا إله إلا الله، محمد رسول الله علي ولي الله» وكما أنها كانت تحمل أسماء الخلفاء الفاطميين، وصيغ عقائدية فاطمية، كما أن بعضها كانت عملات تذكارية تفرق في المواسم والأعياد المذهبية الشيعية على المقربين، استمالة لهم لعقيدة الدولة[2].

7 ـ الحفاظ على أفراد البيت الفاطمي:

احتاط السلطان صلاح الدين على أهل العاضد وأولاده في موضع خارج القصر جعله برسمهم على الانفراد وقَرَّر لهم ما يكفيهم وجعل أمرهم إلى قراقوش الخادم، وفرّق بين الرجال والنساء ليكون ذلك أسرع إلى انقراضهم[3]، فكان من دواعي السياسة وطبائع الملك أن يحتفظ الأيوبيون على جميع أفراد البيت الفاطمي، خشية أن يظهر من دعاتهم مَن يجمع حولهم الأتباع والمريدين والراغبين في إعادة دولتهم[4].

8 ـ إضعاف العاصمة الفاطمية:

بعد أن نقل الأيوبيين مقر الحكم بمصر إلى قلعة الجبل، التي كانت عملاً عسكرياً بعيد المدى يهدف إلى تحصين مصر ضد هجمات الفرنج، انتهزوا هذه الفرصة لابتذال مدينة القاهرة، عاصمة الفواطم، التي ظلت طوال مدة دولتهم مدينة ملكية خاصة بسكن الخلفاء، وطوائف العسكر ورجال البلاد، وأرباب الدواوين، كما كانت في نفس الوقت حصناً عسكرياً

---

(1) تاريخ الشعوب الإسلامية، ص: 63 ـ 65.
(2) المصدر نفسه، ص: 66.
(3) كتاب الروضتين (2/ 210).
(4) تاريخ الشعوب الإسلامية، ص: 66.

بحيث كان أغلب أهل مصر، يسكنون مدينة الفسطاط[1]، وقد علق المقريزي على ابتذال عاصمة الفاطميين بقوله: فصارت القاهرة مدينة سكنى، بعدما كانت حصناً يعتقل به، ودار خلافة يلتجأ إليها، فهانت بعد العز، وابتذلت بعد الاحترام، وهذا شأن الملوك، ما زالوا يطمسون آثار مَن قبلهم ويميتون ذكر أعدائهم[2] ولكن ما فعله صلاح الدين كان في سبيل الله ونصرة لنبيه ﷺ.

9 ـ إحياء الأيوبيين لقضية انتحال النسب الفاطمي إلى البيت النبوي:

ارتبط بإبادة الأيوبيين لجميع التراث الفاطمي، إحياءهم لقضية انتحال النسب الفاطمي إلى البيت النبوي، وبيان أن الفاطميين ينحدرون من نسل يهودي أو مجوسي، والاستمرار في هدم السند الشرعي ـ المزيف للخلافة الفاطمية، ولقد قام العلماء المعتمدون بجهود مشكورة في فضحهم، مثل: ابن خلكان، وابن أبي شامة، وابن واصل وغيرهم، وأطلقوا على الفاطميين اسم: «بني عبيد» إشارة إلى انتسابهم إلى عبيد الله بن ميمون القَدّاح المجوسي، بل نجد أبو شامة، يخبرنا بأنه ألف كتاباً منفرداً، يدلل فيه على زيف نسب الفاطميين[3]، ولقد خصص أبو شامة في كتابه «الروضتين»، صفحات طوال في بيان ادّعائهم للنسب النبوي الشريف[4].

10 ـ الاستمرار في ملاحقة بقايا التشيع في الشام واليمن:

هكذا قضى أهل السنة بزعامة نور الدين محمود على الدولة الفاطمية، وأبادوا تراثها، وتتبعوا أتباعها في مصر، وانكمش التشيع ودخل في طور التخفي والتَستّر، وبدأ زوال المذهب الشيعي الإسماعيلي في مصر مع استقرار عساكر نور الدين في مصر عام (564هـ/ 1168م) واستمر الأيوبيون بقيادة صلاح الدين بمواصلة القضاء على الدعوة الإسماعيلية في مصر واليمن والشام، واستكملوا ما بدأه الغزنويون والسلاجقة والزنكيون في محاربة الدعوة الشيعية الإسماعيلية، ونشر الدعوة السنية في إيران والشام، وظل التشيُّع يضعف في مصر شيئاً فشيئاً حتى أصبحت تدين بمذهب أهل السنة والجماعة[5].

والحقيقة أن التدابير التي اتخذها زعماء أهل السنة، كنور الدين وصلاح الدين في

---

(1) العمارة العربية في مصر الإسلامية، ص: 324، 326.

(2) تاريخ مصر الإسلامية، ص: 68.

(3) كتاب الروضتين، نقلاً عن تاريخ مصر الإسلامية، ص: 70.

(4) كتاب الروضتين (2/ 214 ـ 223).

(5) تاريخ مصر الإسلامية، ص: 76.

محاربة المد الشيعي الرافضي آتت أكلها، فانقرض من مصر ذلك المذهب الشيعي الرافضي بشكل كامل، وهو فقه عميق، والأمة بأشد الحاجة إليه. والدرس من ذلك: أن اجتثاث البدع من المجتمعات الإسلامية تحتاج لرؤية شاملة ومشروع متكامل لإحياء الدين الإسلامي الصحيح، والتصدي للفكر الباطني وتربية الأمة على انتزاع حقوقها ومقاومة الغزاة الصليبيين. وفيما مضى تحدثنا عن بعض وسائل صلاح الدين في القضاء على المذهب والتراث الفاطمي العبيدي.

وقد استفاد صلاح الدين والأيوبيون من تجارب نور الدين في الإحياء السني والتصدي للتشيع الرافضي، وإعداد الأمة للمقاومة وانتزاع حقوقها من أعدائها، ولذلك لم يبدأ صلاح الدين من الفراغ، وإنما استفاد من الوسائل النورية والتي من أهمها: استحداث المدارس السنية، ودور الحديث، وجعل القضاء على المذهب السني، وبسط إشرافه على المدارس، واستخدام الحسبة لإعادة مذهب أهل السنة، وتشجيع التصوف السني ورصد الأوقاف لمؤسسات المجتمع المدني، ونشر عقائد أهل السنة، وسيأتي تفصيل ذلك بإذن الله عند حديثنا عن الدولة الأيوبية. وقد قام الباحث محمد حمدان خالد القيسي بتقديم رسالة لاستكمال المتطلبات لدرجة الماجستير في جامعة اليرموك بالأردن حول أثر جهود صلاح الدين التربوية في تغيير واقع المجتمع المصري يمكن الاستفادة منها في هذا الموضوع.

ثامناً: فتوحات صلاح الدين في عهد نور الدين زنكي:

1 ـ جهاد الصليبيين وإخراجهم من بلاد المسلمين:

تحقق هدف نور الدين محمود «المرحلي» وهو الوحدة الكاملة بين شمال العراق وبلاد الشام ومصر، وبعد سنتين أي في عام (569هـ/ 1174م) شملت مملكة نور الدين السودان والحجاز واليمن، فأصبح المشرق الإسلامي كله دولة واحدة تأمر بأمر زعيم واحد ينظر بشوق ولهفة إلى الهدف الإستراتيجي الذي سعى لتحقيقه، مُنذ بداية حكمه، وهو تحرير بلاد الشام من الفرنجة المحتلين[1]، وقد أصبح هذا الهدف يلوح في الأفق، فأمر بصنع منبر فخم للمسجد الأقصى، لكي يأخذه معه عندما يتوجه لفتح القدس[2]، وكتب إلى صلاح الدين يأمره بالمسير على رأس جيش مصر ليلقاه على قلعة الكرك الفرنجية[3]. سار صلاح الدين كما أمره نور الدين وحاصر قلعة الشوبك «جنوب الكرك»، فلما علم نور الدين بذلك خرج من دمشق نحو الجنوب ليلقى صلاح الدين، ولكنه تلقى رسالة منه قبل وصوله إليه يبلّغه

(1) دور نور الدين في نهضة الأمة، ص: 118. الدين في نهضة الأمة، ص: 118.

(2) هكذا ظهر جيل صلاح الدين نقلاً عن دور نور (3) دور نور الدين في نهضة الأمة، ص: 118.

فيها: أن الأمور اضطربت بمصر وأنه يخشى استيلاء المعارضين على الأمور فيها، ولابد له من العودة لضبط الأمور، وأنه سيعود في العام القادم للجهاد مع نور الدين[1]. كان نور الدين مهتماً اهتماماً كبيراً بقلع الكفار من بلاد الشام، وعندما وصله شيء من ذخائر قصور الفاطميين وغرائب المصنوعات من الذهب واللؤلؤ قال: والله ما كانت بنا حاجة إلى هذا المال ولا نسد به خلة الإقلال، فهو ـ صلاح الدين ـ يعلم أنّا ما أنفقنا الذهب في مصر وبنا إلى الذهب فقر.. لكنه يعلم أن ثغور الكفار من بلاد الشام[2]. أي أنه لا يريد من المال والرجال إلا قلع الكفار من سواحل البلاد[3].

وأما صلاح الدين فقد كان يتفق مع نور الدين في الأهداف الإستراتيجية إلا أنه خاف من اضطراب مصر، فكان يهمه ترتيب شؤون مصر أولاً وصرف همه لهذا، ولذلك اضطر للرجوع. ويبدو أن نور الدين فكر بدخول مصر بجيوشه والالتفاف على الصليبيين منها بقبادته، وأحسّ صلاح الدين بنية نور الدين فجمع أهله في مصر وكان من بينهم أبوه نجم الدين وخاله شهاب الدين الحارمي[4]، وبعض قادة الجيش وشاورهم فيما سمعه عن نية نور الدين التوجه لمصر وعزله عنها، فأشار عليه أحد أبناء إخوته ويدعى: عمر بأن يتم الاستعداد لمقاتلة نور الدين إذا حضر لمصر، ووافقه بعض الحاضرين على رأيه، فبادر نجم الدين والد صلاح إلى زجرهم واستنكار قولهم وقال لصلاح الدين: أنا أبوك وهذا خالك شهاب الدين ونحن أكثر محبة لك من جميع من ترى، ووالله لو رأيت أنا وخالك هذا نور الدين لم يمكننا إلا أن نُقَبّل الأرض بين يديه، ولو أمرنا أن نضرب عنقك بالسيف لفعلنا، فإذا كنا نحن هكذا، فما ظنك بغيرنا، وكل من تراه عندك من الأمراء لو رأوا نور الدين وحده لم يتجاسروا على الثبات على سروجهم، وهذه البلاد له، ونحن مماليكه ونوابه فيها، فإن أراد عزلك سمعنا وأطعنا، والرأي أن تكتب كتاباً مع نجاب تقول فيه: بلغني أنك تريد الحركة لأجل البلاد فأي حاجة إلى هذا، يرسل المولى نجاباً يضع في رقبتي منديلاً ويأخذني إليك، وما هاهنا من يمتنع عليك[5]، وقال للجماعة كلهم: قومُوا عنا، فنحن مماليك نور الدين وعبيده، ويفعل بنا ما يريد، فتفرقوا على هذا، وكتب أكثرهم إلى نور الدين بالخبر[6].

ولما خلا نجم الدين أيوب بابنه صلاح الدين قال له: أنت جاهل قليل المعرفة، تجمع هذا الجمع الكثير، وتطلعهم على ما في نفسك، فإذا سمع نور الدين أنك عازم على منعه من البلاد جعلك أهمَّ الأمور إليه وأولاها بالقصد، ولو قصدك لم تَر معك من هذا العسكر أحداً، وكانوا أسلموك إليه، وأما الآن بعد هذا المجلس، فسيكتبون إليه ويعرّفونه

(1) الباهر، ص: 158، دور نور الدين في نهضة الأمة، ص: 118.
(2) كتاب الروضتين نقلاً عن الجهاد والتجديد، ص: 213.
(3) الجهاد والتجديد، ص: 213.
(4) دور نور الدين في نهضة الأمة، ص: 118.
(5) كتاب الروضتين (2/ 228).
(6) المصدر نفسه (2/ 228).

قولي وتكتب أنت إليه وترسل في هذا المعنى وتقول: أي حاجة إلى قصدي؟ يجيء نجاب يأخذني بحبل يضعه في عنقي، فهو إذا سمع هذا عدل عن قصدك، واشتغل بما هو أهمّ عنده[1].

وكان نجم الدين أيوب شديد الحب والولاء والطاعة لنور الدين رحمه الله تعالى، فلما علم أن الأمر هكذا عدل عن قصده، وكان الأمر كما قال نجم الدين[2]. وفي بداية عام (568هـ/ 1173م) وبعد عودة نور الدين من أذربيجان وأرمينية، تسلم منشوراً من الخليفة بالموصل والجزيرة وإربل وخلاط والشام وبلاد قلج أرسلان وديار مصر.

وفي شهر شوال من نفس العام خرج صلاح الدين بجيشه إلى الكرك وحاصرها وأعلم نور الدين بخروجه تنفيذاً لما تمّ الاتفاق عليه في العام السابق، فخرج نور الدين من دمشق بدوره ليلقاه، فلما وصل إلى الرقيم (في وسط الأردن) تلقى رسالة من صلاح الدين يبلغه فيها أن والده بمصر مريض، ويخشى عليه الموت، فيستغل المصريون الفرصة ويستولوا على البلاد ويمتنعوا فيها وأنه مضطر للرحيل إلى مصر[3]. وعندما علم نور الدين بذلك قال: إن حفظ مصر أهم عندنا من غيره[4]، ثم لم تلبث أن جاءت الحوادث مصدقة لمخاوف صلاح الدين، فقامت عليه ثورة كبيرة بقيادة مؤتمن الخلافة جوهر، كما قامت بعدها مؤامرة ضخمة شارك فيها عمارة اليمني، وبقية أنصار المذهب الشيعي الرافضي، وقد بينت ذلك فيما مضى.

وفي عام (568هـ) شن نور الدين الغارات على الصليبيين وكان العماد الأصفهاني راكباً مع الملك العادل، وهو يقول له كيف تصف ما جرى؟ فمدحه بقصيدة: وكان ذلك في دفاع نور الدين عن حوران فقال:

عُـقِـدت بـنـصـرك رايـة الإيـمـان ... وبَـدَت لِـعَـضـرِكَ آيـة الإحـسـان

يـا غـالـب الـغُـلْـبِ الـمـلـوك وصـائـد ... الـصـيـد الـلـيـوث وفـارس الـفُـرسـان

يـا سـالـبَ الـتِّـيـجـان مـن أربـابـهـا ... حُـزت الـفـخـار عـلـى ذوي الـتِّـيـجـان

مـحـمـود الـمـحـمـود مـا بـيـن الـورى ... فـي كـلِّ إقـلـيـم بـكـلِّ لـسـان

يـا واحـداً فـي الـفـضـل غـيـر مُـشَـارَكٍ ... أقـسـمـت مـا لـك فـي الـبـسـيـطـة ثـان

أحـلـى أمـانـيـك الـجـهـاد وإنّـه ... لـك مـؤذِنٌ أبـداً بـكـلِّ أمـان

كـم بـكـر فـتـح ولّـدتـه ظُـبـاك مـن ... حـزبٍ لـقـمـع الـمـشـركـيـن عَـوَان

(1) كتاب الروضتين (2/ 229).
(2) المصدر نفسه (2/ 229).
(3) الباهر، ص: 159.
(4) الكامل في التاريخ نقلاً عن دور نور الدين محمود في نهضة الأمة، ص: 120.

كم وقعةٍ لك بالفرنج حديثها ... قد سار في الآفاق والبلدان
قَمَّصت قُومَصهُم رداء من ردى ... وقرنت رأس برنسهم بسنان
وملكت رِقَّ ملوكهم وتركتهم ... بالذُّل في الأقياد والأسجان
وجعلت في أعناقهم أغلالهم ... وسحبتهم هوناً على الأذقان
إذ في السوابغ تُحطمُ السُّمُر القنا ... والبيض تُخضبُ بالنَّجيع القاني
وعلى غِنَاءِ المشرفيَّة في الطُّلى ... والهام رَقصُ عواليَ المُرَّان
وكأن بين النَّقع لَمْعَ حديدها ... نارٌ تألَّفُ من خلال دُخان
في مأزق وردُ الوريد مُكَفَّلُ ... فيه بريِّ الصَّارم الظمآن
غطّى العجاج به نجوم سمائه ... لتنوب عنها أنجُم الخُرصان
أو ماكَفاهم ذاك حتى عاودوا ... طُرُق الضَّلال ومركب الطُّغيان

ومنها:

وجلوت نور الدين ظُلمةَ كُفرهم ... لمَّا أتيت بواضح البُرهانِ
وهزمتهم بالرَّأي قبل لقائهم ... والرأي قبل شجاعة الشُّجعان
أصبحت للإسلام ركناً ثابتاً ... والكُفرُ منك مضعضع الأركان
قَوَّمت أساس الضَّلال بعزمك ... الماضي وشِدت مباني الإيمان
قل أين مثلُك في الملوك مجاهدٌ ... لله في سرٍّ وفي إعلان
لم تَلْقَهم ثقة بقوة شوكة ... لكن وَثِقت بنصرة الرَّحمٰن
وبلغت بالتَّأييد أقصى مَبْلَغ ... ما كان في وُسع ولا إمكان
دانت لك الدُّنيا فقاصيها إذا ... حقَّقته لنفاذ أمرك داني
فمن العراق إلى الشَّام إلى ذُرا ... مصر إلى قُوص إلى أُسوان
لم تَلْهُ عن باقي البلاد وإنما ... ألهاك فرض الغزو عن هَمَذان
للرُّوم والإفرنج منك مصائب ... بالترك والأكراد والعربان
أذعنت لله المهيمن إذ عنت ... لك أوجه الأملاك بالإذعان
أنت الذي دون المملوكِ وجدته ... ملآن من عُرفٍ ومن عِرفان

في بأس عمرو في بسالة حيدر ... في نطق قُسّي في تُقَى سلمان
سِرٌ لو أنَّ الوحي يَنْزل أُنزلت ... في شأنها سُوَرٌ من القرآن
فاسلم طويلَ العُمرْ ممتدَّ المدى ... صافي الحياة مُخَلَّدَ السُّلطان[1]

2 ـ ضم المغرب الأدنى:

عمل صلاح الدين على تحصين إنجازاته التي حققها في مصر، وذلك بتأمين حدود بلاده حتى لا يؤخذ على غرّة، وأسفرت جهوده عن ضم المغرب الأدنى. فقد كانت شمال إفريقية مرتبطة عضوياً بمصر مُنذ الفتوحات الإسلامية الأولى، فكان من الطبيعي أن تتجه أنظار صلاح الدين إلى ضمّ بلدانها للاستفادة من ثرواتها من جهة، وبفضل موقعها الجيد في حماية حدود مصر الغربية من جهة أخرى، ففي عام (568هـ/ 1173م) أرسل صلاح الدين قوة عسكرية إلى المغرب الأدنى بقيادة شرف الدين قراقوش غلام المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب، فدخل طرابلس وبرقة وبعض بلاد المغرب الأدنى حتى قابس، باستثناء المهدية وسفاقس، وقفصة، وتونس[2].

3 ـ ضم اليمن:

يدخل ضم اليمن ضمن المخطط النوري الهادف إلى توحيد جهة إسلامية واحدة لمقاومة الغزو الصليبي[3]. وقد حققت سياسة صلاح الدين في ضم اليمن إلى:

أ ـ التضييق على أنصار الفاطميين، وبخاصة أن والي اليمن عبد النبي بن مهدي كان شيعياً رافضياً.

ب ـ استطاع صلاح الدين تأمين حدود مصر الجنوبي، لأن ضم اليمن، الذي يُعدُّ مفتاح البحر الأحمر من ناحية الجنوب، يؤمن له السيطرة العسكرية والتجارية على الأقاليم الجنوبية ويُبعد احتمال حدوث تقارب بين الصليبيين الذين يتطلعون للسيطرة على البحر الأحمر وبين الحبشة التي تدين بالديانة النصرانية، حتى لا يقع بين فكي الكماشة الصليبية على سواحل البحر المتوسط في الشمال، والأحباش على سواحل البحر الأحمر في الجنوب.

ت ـ كانت اليمن آنذاك تمر بمرحلة عدم استقرار تتنازعها الأهواء السياسية والدينية

---

(1) كتاب الروضتين (2/ 243، 244).
(2) تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام، ص: 46.
(3) تاريخ اليمن الإسلامي د. محمد عبده السروري، ص: 211.

والمذهبية وبخاصة بين زبيد وصنعاء، كما ظهر دعيٌّ زعم أنه المهدي المنتظر هو عبد النبي ابن مهدي وتغلّب على اليمن، وخطب لنفسه بعد أن قطع الخطبة للعباسيين، وتسمّى بالإمام، وبنى على قبر أبيه قبّة عظيمة، وأمر أهل اليمن بالحج إليها ومنعهم من الحج إلى مكة.

ث ـ أراد صلاح الدين وضع حد لهذه التجاوزات والمساوئ التي تهدد وحدة المسلمين وبخاصة بعد أن أرسل إليه أهل اليمن يستنجدون به لإنقاذهم[1]. ومهما يكن من أمر، فقد وجه صلاح الدين سرية بقيادة أخيه الأكبر شمس الدولة توران شاه الذي ورد مكة فاعتمر بها وسار منها إلى زبيد، فامتلكها كما سار إلى عدن وامتلكها ومنع الجيش من نهبها وقال: ما جئنا لنخرب البلاد، وإنما جئنا لعمارتها وملكها، ثم سار إلى بقية الحصون والمخالف والمعاقل فملكها، واستوثق له ملك اليمن بحذافيره وخطب للخليفة العباسي[2]. وقتل الدعي المسمى بعبد النبي، وصفت اليمن من أكدارها، وعادت إلى ما سبق من مضمارها[3]، وكتب شمس الدولة إلى أخيه الملك الناصر صلاح يخبره بما فتح الله عليه وأحسن إليه، فكتب الملك صلاح الدين بذلك إلى نور الدين، فأرسل نور الدين بذلك إلى الخليفة يبشره بفتح اليمن والخطبة بها له[4].

4 ـ فتح بلاد النوبة:

وكانت وقتها مملكة نصرانية عاصمتها مدينة دنقلة تقع في أعالي النيل، وتربطها بمصر روابط متينة بشكل عام مُنذ الفتح الإسلامي، ولما قامت الدولة الأيوبية في مصر أراد صلاح الدين فتح بلاد النوبة لحماية مصر من التعدّي عليها من ناحية الجنوب وأرسل أخاه تورانشاه في (شهر جمادى الآخرة عام 568هـ/ شهر كانون الثاني عام 1173م) إلى بلاد النوبة، ففتح إبريم، وسبى وغنم، ثم عاد إلى قوص، ودخل الإسلام إلى أماكن لم تطرقها سنابك خيل المسلمين من قبل، وعيَّن إبراهيم الكردي والياً عليها[5]، وكان هذا الفتح سبباً في إزالة الحواجز التي كانت تؤول دون انتشار الإسلام[6] فيها.

تاسعاً: حقيقة الوحشة بين صلاح الدين ونور الدين:

تحدث المؤرخون عن علاقة نور الدين بصلاح الدين، فقد روى ابن الأثير وذكر أبو

(1) تاريخ الأيوبيين في مصر وبلادالشام، ص: 48.
(2) الطريق إلى بيت المقدس، ص: 96.
(3) المصدر نفسه، ص: 96.
(4) المصدر نفسه، ص: 96.
(5) تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام، ص: 49.
(6) جهاد الأيوبيين والمماليك ضد الصليبيين والمغول د. فرست، ص: 52.

شامة نقلاً عن ابن أبي طي أسباب الوحشة بين نور الدين وصلاح الدين التي ابتدأت سنة سبع وستين وخمسمائة. وذلك عندما اتفقا على حصار الكرك ورجع صلاح الدين إلى مصر، قبل أن يلتقي بنور الدين[1]، وأخذ عن ابن الأثير وابن أبي طي عدد من المؤرخين[2]، وتبعهم بعض المؤلفين المعاصرين دون تمحيص، وغالوا في تعليلاتهم وتفسيراتهم لأسباب الوحشة ونتائجها، فوصفوا العلاقة بين نور الدين وصلاح الدين وكأنها علاقة عدائية، ومن ذلك أن كل واحد منهما كان يخاف صاحبه، وأن صلاح الدين أصبح يسعى للتخلص من سيادة نور الدين، ويحبذ أن تظل منطقة الكرك فاصلاً بينه وبين نور الدين، ونور الدين فكّر في أنه أخطأ في إنفاذ أسد الدين وصلاح الدين إلى مصر، ووصف نور الدين بأنه خصم خطير لصلاح الدين إلى ما ذلك[3]، وهذه التصورات الباطلة لا أصل لها إلا عند ابن أبي طيء وابن الأثير:

فأما ابن أبي طيء: فقد حاول بما أتقنه من الدس والكذب أن يطعن في العلاقة بين الرجلين وهو متهم فيما ينسبه إلى نور الدين مما لا يليق به، فإن نور الدين كان قد أَذَلَّ الشيعة بحلب، وأبطل شعارهم وقوّى أهل السنة، وكان والد ابن أبي طيّ كثير التحامل على نور الدين، ويحاول أن يلطخ العلاقة بين الرجلين العظيمين بأكاذيبه التنة[4].

وأما ابن الأثير: فهو متهم فيما يكتبه عن صلاح الدين، فهو يلتمس المناسبات أحياناً لنقد صلاح الدين وتجريحه، وخاصة عند المقارنة بينه وبين نور الدين[5]، فمؤرخ البيت الزنكي في كِتَابَيْه «الكامل في التاريخ» و«الباهر في تاريخ الدولة الأتابكية» قد ذكر الآراء في كِتَابَيْه والتي نقلها عنه عدد من المؤرخين، وفحواها: أن صلاح الدين لم يكن وفياً لأستاذه نور الدين، بل كان يجتهد مُنذ استقرار نفوذه في مصر إلى الاستقلال عنه، ومزاحمته السيادة السياسية ببلاد الشام، فكل هذه الآراء[6]، كتبها ابن الأثير بعد وفاة صلاح الدين، واضطرار صلاح الدين إلى الخروج على رأس عساكره إلى بلاد الشام، وضم ممتلكات أستاذه نور الدين بها إلى ممتلكاته بمصر إذ أن خروج صلاح الدين إلى الشام كان من أجل إعادة الجبهة الإسلامية الموحدة، التي كان عماد الدين زنكي ثم ابنه نور الدين قد أجهدا نفسيهما طويلاً في تكوينها، وكانت بعد وفاة نور الدين على وشك أن تنفصم وترجع الأوضاع إلى ما كانت

---

(1) الباهر، ص: 158، 159، كتاب الروضتين (2/ 227).
(2) نور الدين زنكي في الأدب العربي، ص: 116.
(3) المصدر نفسه، ص: 117.
(4) كتاب الروضتين (2/ 117، 118).
(5) دراسة في تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص: 62.
(6) تاريخ مصر الإسلامية زمن سلاطين بني أيوب، ص: 22.

عليه سابقاً من سوء وتشرذم وضعف، بعد انقسام البيت الزنكي، حزب في دمشق وحزب في حلب، ولم يستطع ابنه الطفل الصالح إسماعيل إعادة توحيد مملكة والده[1]، ولقد كتب صلاح الدين إلى الخليفة العباسي، وإلى ابن نور الدين يخبره أن خروجه للشام هو لتوحيد كلمة المسلمين ضد الفرنج[2]، وأغلب الظن أن هذه الأقوال التي رددها ابن الأثير، ونقلها عنه بعض المؤرخين بخصوص عدم ولاء صلاح الدين للبيت الزنكي، والروايات التي قيلت حول هذا الموضوع، قد صاغها المؤرخون وعلى رأسهم ابن الأثير لتعليل مسلك صلاح الدين بعد وفاة نور الدين، وكان وراءها ولاء ابن الأثير للبيت الزنكي، ثم عدم تعاطفه مع صلاح الدين، الذي قضى على هذا البيت وممتلكاته من ناحية أخرى خاصة وقد لاحظ المؤرخون المحدثون أن ابن الأثير قد تحامل على صلاح الدين في تاريخه الكامل والباهر، وتلمَّس له مواضع الزلل، وأسباب الخطأ[3]. وفي الحقيقة أن صلاح الدين كان نعم الجندي في السمع والطاعة لقائده نور الدين زنكي وإليك الأدلة على ذلك:

1 ـ **قال العماد الأصفهاني**: إن صلاح الدين كان لا يخرج عن أمر نور الدين، ويعمل له عمل القوي الأمين، ويرجع في جميع مصالحه إلى رأيه المتين[4].

2 ـ **وأما أبو شامة**، فقد عمد إلى تفنيد اتهامات ابن الأثير لصلاح الدين بخصوص خروجه عن طاعة نور الدين، وفي رأي أبي شامة: أن نور الدين لم ينتقد على صلاح الدين إلا إسرافه في تفريق الأموال وصرفها واستبداده بذلك من غير مشاورته[5]. ويؤكد أبو شامة رأيه بوثيقة وقف عليها بنفسه، بخط نور الدين، يقرر فيها للقاضي شرف الدين بن أبي عصرون، الذي تولى القضاء له بالشام، ثم لصلاح الدين بمصر إعجابه الشديد بما قام به صلاح الدين من نصرة المذهب السني بمصر، والقضاء على الدولة الفاطمية والمذهب الشيعي، ويطلب من أبي عصرون مساندة صلاح الدين في هذا الأمر الجلل[6].

3 ـ والواقع أن جميع الخطوات الحاسمة التي اتخذها صلاح الدين لإسقاط الدولة الفاطمية بمصر والقضاء على الدعوة الإسماعيلية بها، جاءت بأمر مباشر من نور الدين، ولم

---

(1) تاريخ مصر الإسلامية زمن سلاطين بني أيوب، ص: 22.

(2) مرآة الزمان (8/ 327، 328)، تاريخ مصر الإسلامية، ص: 22.

(3) التعريف بالمؤرخين في عهد المغول والتركمان ص38 ، 39.

(4) كتاب الروضتين، نقلاً عن تاريخ مصر الإسلامية، ص: 23.

(5) المصدر نفسه، ص: 23.

(6) تاريخ مصر الإسلامية، ص: 24.

تتم إلا بعد أن وصل نجم الدين أيوب والد صلاح الدين من طرف نور الدين إلى مصر، ليشرف بنفسه ويساعد ابنه للقضاء على الدعوة الشيعية الإسماعيلية[1].

4 ـ وليس أدل على التبعية الكاملة لصلاح الدين تجاه نور الدين وكونه نائباً عنه في حكم مصر من كونه كان يخطب له على المنابر في أرجاء الدولة الفاطمية إبان وزارته للخليفة الفاطمي العاضد[2]، وأثر نقل الخطبة للعباسيين، كان الخطيب بمصر وأعمالها يدعو لنور الدين بعد الخليفة، وقُرِّرت السكة باسم المستضيء بأمر الله وباسم الملك العادل نور الدين فنُقش اسم كل منهم في وجه[3].

5 ـ وكان مجيء ابن القيسراني وزير نور الدين إلى مصر (سنة 568 ـ 569هـ) لكشف البلاد وارتفاعها ومراجعة حساباتها لتقرير القطيعة أو الوظيفة السنوية التي يدفعها صلاح الدين لنور الدين، أمراً طبيعياً يؤكد تبعية مصر لنور الدين[4].

6 ـ لقد أدركت الخلافة العباسية هذه الحقيقة الجوهرية، فميزت بوضوح بين الخِلع الخليفية لنور الدين وبين الخِلَع الخليفية لصلاح الدين، وجَعلت خِلع صلاح الدين أقل من خلع نور الدين في حين قلّدت نور الدين بالسيفين، إشارة إلى تقليده لقطري الشام ومصر، وفي نفس الوقت أرسل نور الدين من قبله خِلع سيّرها من بلاد الشام إلى صلاح الدين وأهله وأمرائه بمصر[5] تأكيداً لتبعيتهم المباشرة له.

7 ـ كان صلاح الدين يراعي التأدّب في رسوم الملك، فلا يساوي نفسه بسيده نور الدين، فقد أرسل الرُّسل من القاهرة إلى نور الدين لتخبره بلبس صلاح الدين للخلع وباستجابة صلاح الدين على مداومة إرسال ما قُرِّر عليه من مال إلى نور الدين في كل سنة[6].

8 ـ وإذا كانت جميع الإجراءات التي اتخذها صلاح الدين لإسقاط الخلافة الفاطمية والخطبة لبني العباس، والقضاء على الدعوة الإسماعيلية بمصر قد تمّت بتوجيه مباشر من نور

---

(1) كتاب الروضتين نقلاً عن تاريخ مصر الإسلامية، ص: 24.

(2) السلوك للمقريزي (1/ 45)، تاريخ مصر الإسلامية، ص: 24.

(3) تاريخ مصر الإسلامية، ص: 24.

(4) مفرج الكروب (1/ 219) تاريخ مصر الإسلامية، ص: 25.

(5) مفرج الكروب (1/ 47) تاريخ مصر الإسلامية، ص: 26.

(6) مفرج الكروب (1/ 235) تاريخ مصر الإسلامية، ص: 27.

الدين، وبعد إرساله لنجم الدين والد صلاح الدين، فإن ضمّ صلاح الدين لليمن تمّ بإذن نور الدين للقضاء على الدعوة الشيعية الإسماعيلية هناك ـ وضم اليمن لجبهة المقاومة ـ بحيث أرسل نور الدين هذه البشارة بنفسه للخليفة العباسي[1]، وكذلك في ضم المغرب الأدنى وغزو مملكة النوبة، وبُشر الخليفة العباسي بقرب فتح القسطنطينية وبيت المقدس[2]. فقد كتب نور الدين إلى الخليفة العباسي: وقسطنطينية والقدس يجريان إلى أمَد الفتوح في مضمار المنافسة والله تعالى بكرمه يدني قطاف الفاتحين لأهل الإسلام، ويوفق الخادم لحيازة مراضي الإمام، ومن جملة حسنات هذه الأيام الزاهرة، ما تيسر في هذه النَوْبَة من افتتاح بعض بلاد النُوبَة، والوصول إلى مواضع منها، لم تَطرُقها سنابك الخيل الإسلامية في العصور الحالية، وكذلك استولى عساكر مصر أيضاً على برقة وحصونها.. حتى بلغوا إلى حدود المغرب[3].

9 ـ ومُنذ استقرار صلاح الدين بمصر، حتى وفاة نور الدين داوم صلاح الدين على إرسال تحف القصر الفاطمي إلى سيده نور الدين رمزاً للولاء والتَّبعية، كما داوم صلاح الدين على اطلاع نور الدين على كل صغيرة وكبيرة داخل مصر، فنجده مثلاً يرسل إليه كتاباً يتضمن ذكر ثورة بقايا الفاطميين، والتي كان من ضمنها عمارة اليمني[4]، وليس أدلّ على تعاون كل من صلاح الدين ونور الدين من تفاهمهما الإستراتيجي في قتال الفرنج؛ فيذكر أبو شامة أنه في سنة (568هـ/ 1172م) تولى السلطانان نور الدين في الشام، وصلاح الدين من مصر في هذه السنة جهاد الصليبيين، ولقد وصف العماد هذا الحدث بـ جهاد السُلطانين للفرنج[5]، وهذا ما أكّده صلاح الدين في كتاب له للخليفة العباسي بقوله أنه: كان انعقد بينه وبين نور الدين رَحِمَهُ اللَّهُ في أن يتجاذبا طرفيْ الغزاة من مصر والشام، والمملوك (أي صلاح الدين) بعسكره وبرّه وبحره، ونور الدين من جانب سهل الشام ووعره[6].

10 ـ ولقد أبدى صلاح الدين تبعيته لبيت نور الدين حتى بعد وفاته سنة (569هـ/ 1173م)، بحيث خطب صلاح الدين لابنه الصالح إسماعيل، وضرب السكة باسمه[7]، ووافى إرسال الرسائل في العزاء بنور الدين[8]، وعلى هذا الأساس نستطيع أن نقول: أنّه حتى وفاة

---

(1) مفرج الكروب (1/ 235)، تاريخ مصر الإسلامية، ص: 27.

(2) مفرج الكروب (1/ 235)، تاريخ مصر الإسلامية، ص: 27.

(3) مفرج الكروب (1/ 248)، المصدر نفسه، ص: 27.

(4) كتاب الروضتين 02/ 239).

(5) كتاب الروضتين، نقلاً عن تاريخ الشعوب الإسلامية، ص: 27

(6) المصدر نفسه، ص: 27.

(7) السلوك (1/ 55) تاريخ مصر الإسلامية، ص: 28.

(8) كتاب الروضتين، نقلاً عن تاريخ مصر الإسلامية، ص: 28.

نور الدين، كانت مصر والشام قد توحدتا تحت زعامة نور الدين[1]، وهذا ما عبر عنه العماد الأصفهاني حين امتدح نور الدين فقال:

بملك مصر أهنيء مالك الأمم ... فثق وأبشر بنصر الله عن أمم

فملك مصر وملك الشام قد نُظِمَا ... في عقد عز من الإسلام منتظم[2]

وفي كل الأحوال لم تصل علاقة نور الدين بصلاح الدين إلى درجة العداء، ولا مسوّغ لاعتبار الاختلاف في الرأي وحشة ونفرة، كما يقرر ذلك عدد من المؤرخين والكتاب وكل ما هنالك أنّ نور الدين كان يتطلع إلى مصر على أنها مصدر للواردات وسدّ بها نفقات الجهاد ضد الصليبيين في الشام، وأنها مصدر للطاقة البشرية المجاهدة، وكان صلاح الدين أكثر معرفة من نور الدين لما يجري في مصر من أخطار ناجمة عن استعداد أنصار الفاطميين للانضمام إلى الفرنج فوجه اهتمامه إلى بناء جيش قوي، بحيث يستطيع السيطرة على مصر، ورأى أن تثبيت كيان الدولة الجديدة في مصر أولى من الانشغال بمسائل الشام[3]، وهذا يتفق مع ما قاله نور الدين للرسول الذي بعثه صلاح الدين يعتذر عن موقفه من حصار الكرك، حيث قال: حفظ مصر أهم عندنا من غيرها[4].

عاشراً: وفاة نور الدين محمود:

قال العماد الأصفهاني: وأمر نور الدين رحمه الله تعالى بتطهير (ختان) ولده الملك الصالح إسماعيل يوم عيد الفطر، واحتفلنا لهذا الأمر، وغُلقت محالُّ دمشق أياماً.

قال: ونظمت للهناء بالعيد والطُّهر قصيدة منها:

عيدان: فطرٌ وطُهْر ... فتح قريب ونصر

كلاهما لك فيه ... حقاً هناء وأجر

وفيهما بالتَّهاني ... رسمٌ لنا مستمر

طهارة طاب منها ... أصل وفرع وذكر[5]

قال: وفي يوم العيد يوم الأحد ركب نور الدين على الرّسم المعتاد محفوفاً من الله

---

(1) تاريخ مصر الإسلامية، ص: 28.

(2) كتاب الروضتين، نقلاً عن تاريخ مصر الإسلامية، ص: 28.

(3) نور الدين زنكي في الأدب العربي في الحروب الصليبية، ص: 119.

(4) زبدة الحلب (2/ 339) نور الدين زنكي في الأدب العربي في الحروب الصليبية، ص: 119.

(5) كتاب الروضتين (2/ 308).

بالإسعاد، مكنوفاً من السماء والأرض بالأجناد، والقدر يقول له: هذا آخر الأعياد، ووقف في الميدان الأخضر الشمالي لطعن الحلق، ورمي القبق، وكان قد ضرب خيمته في الميدان القبلي الأخضر، وأمر بوضع المنبر. وخطب له القاضي شمس الدين ابن الفرّاش قاضي العسكر، بعد أن صلّى به وذكّر، وعاد القلعة، طالع البهجة بهيج الطلعة، وأنهب سِماطه العام على رَسْم الأتراك، وأكابر الأملاك، ثم حضرنا على خوانه الخَاص، وله عقد كمال مصون من الانتقاض والانتقاص[1]، . . . وفي يوم الاثنين ثاني العيد بكّر وركب وجمّل الموكب. . . ودخل الميدان والعظماء يسايرونه، والفهماء يحاورونه، وفيهم همام الدِّين مودود، وهو في الأكابر معدود، وكان قديماً في أوّل دولته والي حلب وقد جَرَّب الدهر بحنكته. . فقال لنور الدين في كلامه عظة لمن يغتر بأيامه: هل نكون هٰهنا في مثل هذا اليوم في العام القابل؟ فقال نور الدين: قل هل نكون بعد شهر، فإنَّ السنة بعيدة، فجرى على منطقها ما جرى به القضاء السَّابق، فإن نور الدين لم يصل إلى الشهر، والهمام لم يصل إلى العام.

ثم شرع نور الدين في اللعب بالكُرة مع خواصه، فاعترضه في حاله أمير آخر اسمه يَرَنْقُشى وقال له: ياش[2]، فأحدث له الغيظ والاستيحاش، واغتاظ على خلاف مذهبه الكريم، وخلقه الحليم، فزجره وزبره ونهاه ونهره، وساق ودخل القلعة ونزل، واحتجب واعتزل، فبقي أسبوعاً في منزله، مشغولاً بنازله، مغلوباً عن عاجله بحديث آجله والنَّاس من الختان لا هون بأوطارهم في الأوطان، فهذا يروح بجوده، وذاك يجود بروحه، فما انتهت تلك الأفراح إلّا بالأتراح، وما صلح الملك بعده إلا بملك الصالح[3]. قال: واتصل مرض نور الدين وأشار عليه الأطباء بالقصد فامتنع، وكان مهيباً فما روجع، وانتقل حادي عشر شوال يوم الأربعاء من مربع الفناء إلى مرتع البقاء، ولقد كان من أولياء الله المؤمنين وعباده الصالحين[4]، وكانت وفاة نور الدين رحمه الله تعالى بسبب خوانيق اعترته عجز الأطباء عن علاجها[5].

«وقد توفي يوم الأربعاء الحادي عشر من شوّال سنة تسع وستين وخمسة مئة» ودفن بقلعة دمشق ثم نقل إلى تربة تجاور مدرسته التي بناها لأصحاب أبي حنيفة رحمه الله جوار الخوَّاصين في الشارع الغربي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى[6]. وكان رحمه الله حريصاً على الشهادة وكان يقول: طالما تعرضت للشهادة فلم أُدرك. وقال الذهبي: نور الدين الشهيد[7]، وقد رثاه الشعراء بقصائد رائعة من أحسنها ما قاله العماد الأصفهاني:

---

(1) كتاب الروضتين (2/ 308).
(2) المصدر نفسه (2/ 308).
(3) المصدر نفسه (2/ 309).
(4) المصدر نفسه (2/ 310).
(5) المصدر نفسه (2/ 313).
(6) سير أعلام النبلاء (20/ 537).
(7) المصدر نفسه (20/ 537).

الدِّين في ظُلم لغيبة نوره ... والدهر في غُمم لفقد أميره
فلينْدُبِ الإسلامُ حاميَ أهله ... والشام حافظ ملكه وثغوره
ما أعظم المِقدار في أخطاره ... إذ كان هذا الخطب في مقدوره
ما أكثَر المتأسِّفين لفقد من ... قرَّت نواظرُهُم بفقد نظيره
ما أغوصَ الإنسانَ في نسيانه ... أو ما كفاه الموت في تذكيره
من للمساجد والمدارس بانياً ... لله طوعاً عن خُلُوصِ ضَمِيره
من ينصر الإسلام في غزواته ... فلقد أصيب برُكنه وظهيره
من للفرنج ومن لأسر ملوكها ... من للهُدى يبغي فكاك أسيره
من للخطوب مذلِّلاً لجماحها ... من للزمان مُسهِّلاً لوعوُره
من كاشفٌ للمعاضلات برأيه ... من مُشرقٌ في الدَّاجيات بنوره
من للكريم ومن لنعش عِثاره ... من لليتيم ومن لجبر كسيره
من للبلاد ومن لنصر جيوشها ... من للجهاد ومن لحفظ أمُوره
من للفتوح محاولاً أبكارها ... برواحه في غزوه وبكوره
من للعُلا وعُهودها من للنَّدَى ... ووفوده من للحِجا ووفوره
من كنت أحسب نورَ دينِ محمدٍ ... يخبو وليلُ الشرك في دَيْجوره
أعزز عليَّ بليث غاب للهُدى ... يخلو الثَّرى من زوره وزئيره
أَعزِز عليَّ بأن أراه مُغيَّبا ... عن محفل متشرِّفٍ بحضوره
لهفي على تلك الأنامل إنَّها ... مُذ غُيِّبت غاض النَّدى ببحوره
ولقد أتى من كنت تُجري رسمه ... فضع العلامة منك في منشوره
ولقد أتى من كنت تكشف كُرْبَه ... فارفع ظلامته بنصر عشيره[1]
ولقد أتى من كنت تؤمن سِرْبَهُ ... وقِّع له بالأمن من محذُوره
ولقد أتى من كنت تُؤثر قُرْبَه ... فأدِم له التَّقريبَ في تقريره

(1) كتاب الروضتين (2/ 369).

والجيش قد ركب الغَداَة لِعرْضِهِ فاركب لتُبصِرهُ أوان عبوره
أنت الذي أحييت شرع محمد وقضيت بعد وفاته بنشوره
كم قد أقمت من الشَّريعة مَعْلماً هو مُنذ غبتَ مُعَرَّضٌ لدثوره
كم قد أمرت بحفر خندق مَعْقِل حتى سَكَتت اللُّحْدَ في محضوره
كم قيصرٍ للروم رُمْتَ بقسره إرواء بيض الهند من تاوره[1]
أُوتيت فتح حصونه وملكت عَقَر بلاده وسبيتَ أهل قصوره
أَزَهِدْتَ في دار الفناء وأهلها ورَغبت في الخُلْدِ المقيم وحُوره
أوَمَا وعدت القُدْسَ أنك مُنجِزٌ ميعاده في فتحه وظهوره
فمتى تجير القُدْسَ من دَنسِ العِدَى وتُقَدِّسُ الرحمن في تطهيره
يا حاملين سريره مهلاً فمن عَجَبٍ نهوضكم بحمل ثبيره[2]
يا عابرين بنعشه أنشقتُمُ من صالح الأعمال نشر عبيره
نزلت ملائكة السماء لدفنه مستجمعين على شفير حفيره
ومِنَ الجفاء له مقامي بعده هلَّا وفيتُ وسرتُ عند مسيره
حَيَّاك مُغْتَلُّ الصَّبا بنسيمه وسقاك مُنْهَلُ الحيا بدروره
ولبسْتَ رضوان المهيمن ساجِباً أذيال سُندس خزه وحريره
وسكنت علِّيين في فِرْدَوْسِهِ جِلفَ المسَرَّة ظافراً بأجوره[3]

وبعد وفاة نور الدين حمل راية الجهاد تلميذه الذكي وجنديّه المخلص صلاح الدين الأيوبي الذي بنى جهاده على ما أسّسه نور الدين من جهاد المشركين، وقام بذلك على أكمل الوجوه وأتمّها، وهذا ما سوف نعرفه بإذن الله تعالى في كتابنا القادم عن عصر الدولة الأيوبية وسيرة السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي.

آخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

---

(1) التاور: النفس ومهجتها.
(2) ثبير: من أعظم جبال مكة المكرمة.
(3) كتاب الروضتين (2/ 369).

الخلاصة

1 ـ تبلور المشروع الإسلامي المناهض للتغلغل الباطني والغزو الصليبي في عهد السلاجقة السنيين، ونقصد بالسنة فهم الإسلام بفهم رسول الله ﷺ وأصحابه الكرام وعلى رأسهم الخلفاء الراشدين المهديين، أبو بكر وعمر وعثمان وعلي ﷺ.

2 ـ أصبح السلاجقة في عام (447هـ) أكبر قوة في العالم الإسلامي خاصة بعد أن فرضوا سيطرتهم على بلاد فارس وتغلبوا على الغزنويين والبويهيين، وتوغلوا داخل أراضي الدولة البيزنطية واصطدموا بجيش الروم، وبذلك أعطوا دفعة قوية للجهاد ضد الروم الذين عاثوا فساداً أيام البويهيين الشيعة في أراضي الخلافة العباسية، لعدم قدرة الخلافة ولعدم اكتراث أمراء البويهيين بالجهاد، وقد أكسب هذا العمل وبهذه الصورة السلاجقة شعبية كبيرة وسمعة حسنة بين جماهير الناس التي كانت في الماضي القريب ترى وتسمع عن تغطرس الروم، وتنادي السلطة بضرورة مجابهتهم دون جدوى.

3 ـ ساند السلاجقة الخلافة العباسية في بغداد ونصروا مذهبها السنّي بعد أن أوشكت على الانهيار بين النفوذ البويهي الشيعي في إيران والعراق، والنفوذ العبيدي الفاطمي في مصر والشام، فقضى السلاجقة على النفوذ البويهي تماماً في عام (447هـ) وتصدّوا للخلافة العبيدية الفاطمية. لقد استطاع طغرل بك الزعيم السلجوقي أن يسقط الدولة البويهية في عام (447هـ) في بغداد وأن يقضي على الفتن، وأزال من على أبواب المساجد سب الصحابة وقتل شيخ الروافض الشيعة أبي عبد الله الجلاب لغلوه في الرفض.

4 ـ كان النفوذ البويهي الشيعي مسيطراً على بغداد والخليفة العباسي، فبعد أن أزال السلاجقة الدولة البويهية من بغداد، ودخل سلطانهم طغرل بك إلى عاصمة الخلافة العباسية استقبله الخليفة العباسي القائم بأمر الله استقبالاً عظيماً، وخلع عليه خلعة سنية وأجلسه إلى جواره وأغدق عليه ألقاب التعظيم، ومن جملتها أنه لقبه بالسلطان ركن الدين طغرل بك، كما أصدر الخليفة أمره بأن ينقش اسم السلطان طغرل بك على العملة، ويذكر اسمه في الخطبة في مساجد بغداد وغيرها، مما زاد من شأن السلاجقة، ومنذ ذلك الحين حَلَّ السلاجقة محل البويهيين في السيطرة على الأمر ببغداد وتسيير الخليفة العباسي حسب إرادتهم.

5 ـ كانت الدولة الفاطمية تسعى للسيطرة على العراق والمشرق، ولذلك قامت بإرسال الدعاة إليها، فقد واصل الحكام الفاطميون جهودهم في نشر دعوتهم مستغلين الاضطراب الذي ساد بلاد العراق، وقد استجاب لهم كثير من الناس في عهد الظاهر لإعزاز دين الله الفاطمي والمستنصر بالله الفاطمي، وازداد نشاط الدعاة في بلاد المشرق الإسلامي على عهد الأخير، فعهد إلى دعاته بالرحيل إلى فارس وخراسان وما وراء النهر، فلقيت الدعوة الفاطمية في بلاد الفرس تأييداً كبيراً فاستجاب لهم كثير من الناس.

6 ـ من أشهر دعاة الدولة الفاطمية العبيدية المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي، وقد تركت جهوده آثاراً خطيرة على الخلافة العباسية في عهد القائم بأمر الله، إذ انضم إليها كثير من قادة الترك والديلم، وهم يمثلون عماد القوة التي تعتمد عليها البلاد في التصدي لأعداء الخلافة فظلوا يشجعون الدعوة الفاطمية ويقربون إليهم أتباعها، وقد استطاع هبة الله الشيرازي أن يشن حرباً ثقافية فكرية عقائدية على منهج الإسلام الصحيح.

7 ـ كان البساسيري من القواد المقربين من الخليفة العباسي إلا أن الدعوة الفاطمية العبيدية تغلغلت بين الناس وأثرت في بعض الأعيان والقواد، وقد تأثر بهذه الدعوة قائد قواد الجند التركي أبو الحارث أرسلان البساسيري بدعوة هبة الله الشيرازي، وأصبح يكاتب الفاطميين ويعمل على قلب نظام الحكم في بغداد لصالح الدولة الفاطمية، وتدهورت العلاقات بين الخلافة والبساسيري، وفتنة البساسيري تعطينا درساً بليغاً في أهمية الاعتناء بالقادة العسكريين والوزراء السياسيين وأهل الفكر والرأي العام، وتربيتهم على هدي القرآن الكريم وسيرة سيد المرسلين وفقه الخلافة الراشدة، حتى لا يقعوا ضحايا للدعوات المنحرفة والمناهج الضالة والعقائد الفاسدة.

8 ـ دعم هبة الله الشيرازي حركة التمرد التي قادها قائد قواد الجند التركي أبو الحارث أرسلان البساسيري، فقد كان هبة الله الشيرازي يتابع أحداث العراق وبخاصة أنه وقف على المكاتبات التي تبودلت بين الخليفة القائم بأمر الله والسلطان السلجوقي، وأدرك مدى خطورتها على الخلافة الفاطمية، فعوَّل على الاستفادة من الموقف المتدهور بين الخلافة والبساسيري وأصحابه، فأنفذ إليهم كتباً تضمنت تأييد الخليفة الفاطمي وحكومته لهم، واستعدادهم لمدهم بالسلاح والمال، فوصلت إليهم هذه الكتب قبيل رحيلهم إلى واسط، فزادت من ثقتهم بأنفسهم وقويت شوكتهم، ورد البساسيري على مكاتبات الفاطميين برسالة بعث بها إلى المؤيد في الدين شكره فيها على اهتمامه بحركتهم وتأييدهم له ولأتباعه،

والتمس منه الإمداد السريع بالمال والخيل والسلاح، لإظهار الدعوة الفاطمية في بلاد العراق، وقد استجابت الدولة الفاطمية لمطالب البساسيري وحصل على دعمها.

9 ـ استفاد البساسيري من انشغال طغرل بك السلجوقي بأَخيه من أمه إبراهيم ينال الذي خرج على طاعة أخيه، فاضطر طغرل بك لمحاربته وترتب على ذلك خلو بغداد من الحامية السلجوقية مما أتاح للبساسيري الفرصة للاستيلاء على حاضرة الخلافة العباسية، وإقامة الخطبة فيها للفاطميين فزحف إليها على رأس أربعمائة فارس حاملاً الرايات الفاطمية التي طرزت باسم «الإمام المستنصر بالله أبو تميم معد أمير المؤمنين»، والتف حوله أتباع الدعوة الفاطمية الشيعية الرافضية في بلاد العراق. وأقيمت الخطبة للمستنصر بالله الفاطمي بجامع المنصور في يوم الجمعة الثالث عشر من ذي القعدة سنة 450هـ وزيد في الأذان حي على خير العمل.

10 ـ انقطعت دولة بني العباس من بغداد وأُخرج الخليفة وحُمل إلى الأنبار وحبس بالحديثة، عند صاحبها مهارش بن مجلي العقيلي، فتولى خدمة الخليفة بنفسه وكان أحد وجوه بني عقيل، وخُطب لبني عبيد الفاطميين في بغداد أربعين جمعة في ولاية المستنصر وحاول البساسيري أخذ الخليفة العباسي وترحيله إلى مصر إلا أن قريشاً بن بدران تصدى لهذه المحاولة وعهد إلى ابن عمه الأمير محيي الدين بن مهارش بالتحفظ عليه وتأمين حياته بعد أن استنجد به الخليفة قائلاً: عرفت ما استقر عليه العزم من إبعادي عنك وإخراجي من يديك وما سلمت نفسي إليك إلا لما أعطيتني الذمام الذي يلزمك الوفاء به، وقد دخلت إليك ووجب لي ذمام عليك، فالله الله في نفسي، فمتى سلمتني أهلكتني وضيعتني ما ذلك معروف في العرب. وعلى الرغم من ذلك فلم يسمح البساسيري للخلفية القائم بأمر الله بالرحيل إلى الحديثة إلا بعد أن أرغمه على كتابة اعتراف بعدم أحقية بني العباس في الخلافة الإسلامية مع وجود بني فاطمة الزهراء عليها السلام ـ على حد زعمه ـ ولم يكتف البساسيري بذلك بل استولى على ثوب الخليفة وعمامته وأنفذها إلى الخليفة المستنصر بالله الفاطمي.

11 ـ بدأ البساسيري في حملة انتقام واسعة النطاق من أهل السنة واستخدم عوام الشيعة، ودفع لهم السلاح، ونهب الشيعة دور أهل السنة، وتمّ الاعتداء على الرموز السنية والانتقام من أهل السنة في بغداد وتمّ القبض على رئيس الرؤساء أبو القاسم بن المُسلمة، ولامه البساسيري ووبّخه وضربه ضرباً مبرحاً واعتقله. وفي يوم عيد الأضحى من سنة (450هـ) ألبس البساسيري الخطباء والمؤذّنين البياض وعليه هو وأصحابه كذلك وعلى رأسه الألوية المستنصرية والمطارد المصرية، وخطب للمستنصر الفاطمي صاحب مصر، والشيعة

الرَّوافض في غاية السرور، والأذان في سائر بلاد العراق بحيَّ على خير العمل، وانتقم البساسيري من أعيان أهل بغداد انتقاماً عظيماً، وغرَّق خلقاً ممن كان يعاديه وبسط على آخرين الأرزاق والعطايا. ولما كان يوم الاثنين لليلتين بقيتا من ذي الحجة أحضر إلى ما بين يديه الوزير أبو القاسم بن المسلمة المُلقَّبُ برئيس الوزراء، وعليه جُبَّة صوف، وطرطور من لبد أحمر وفي رقبته مخنقة من جلود كالتعاويذ، فأركب جملاً، وطيف به في البلد وخلفه من يصفعه بقطعة من جلد، وحين اجتاز بالكرخ نثروا عليه خُلْقان المداسات، وبصقوا في وجهه ولعنوه وسبُّوه، وهذه هي عادتهم عندما يتمكنون من مخالفيهم في كل زمان ومكان، وأوقف بإزاء دار الخلافة وهو في ذلك يتلو قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: 26]. فألبس جلد ثور بقرنيه وعُلّق بكلّوب في شِدقيه، ورفع إلى الخشبة حيّاً، فجعل يضطرب إلى آخر النهار، فمات رحمه الله وكان آخر كلامه أن قال: الحمد لله الذي أحياني سعيداً وأماتني شهيداً.

12 ـ بقي الخليفة القائم بأمر الله العباسي في اعتقاله يدعو الله ويتضرع إليه وأرسل هذا الدعاء مع بدوي وأمره أن يعلقه على الكعبة وهو في أسره، وإليك نص هذا الدعاء: إلى الله العظيم من عبدك المسكين، اللهم إنك العالم بالسرائر، المحيط بمكنونات الضمائر، اللهم إنك غني بعلمك واطلاعك على أمور خلقك عن إعلامي، بما أن فيه عبد من عبيدك قد كفر بنعمتك وما شكرها، وألقى العواقب وما ذكرها، أطغاه حلمك وتجبر بأناتك حتى تعدى علينا بغياً وأساء إلينا عتواً وعدواناً، اللهم قَلَّ الناصرون لنا، واغتر الظالم وأنت المطلع العالم والمنصف الحاكم، بك نعتز عليه، وإليك نهرب من يديه، فقد تعزز علينا بالمخلوقين، ونحن نعتز بك يا رب العالمين، اللهم إنا حاكمناه إليك وتوكلنا في إنصافنا منه عليك، وقد رفعت ظلامتي إلى جرمك ووثقت في كشفها بكرمك، فاحكم بيني وبينه وأنت خير الحاكمين، وأرنا منه ما نرتجيه فقد أخذته العزة بالإثم، اللهم فاسلبه عزه، ومكنّا بقدرتك من ناصيته يا أرحم الراحمين. فحملها البدوي وعلقت على باب الكعبة. فحسب ذلك اليوم فوجد أن البساسيري قتل وجيء برأسه إلى بغداد بعد سبعة أيام من التاريخ.

13 ـ أرسل الخليفة من أسره إلى السلطان طغرل بك يطلب منه معونته ومناصرته ولبّى السلطان دعوة الخليفة، واستطاع السلاجقة أن يفكوا أسر الخليفة وأن يقضوا على البساسيري والوجود الفاطمي بالعراق، فقد أدرك السلاجقة الخطر الذي يتهددهم من وراء انتشار الدعوة الفاطمية في بلدان الخلافة العباسية، لذلك اتبعوا سياسة حكيمة بعد أن قبضوا على زمام الأمور في بغداد تتمثل في مناهضة الدعوة الفاطمية ودعاتها بالحزم والشدة.

14 ـ حققت دولة السلاجقة انتصارات على المستوى الداخلي وقضوا على البويهيين

والنفوذ الفاطمي بالعراق كما حققوا انتصارات على الجبهات الخارجية ضد الدولة البيزنطية في عهد طغرل بك السلجوقي.

15 ـ تولى ألب أرسلان (محمد) الأسد الشجاع سلطنة السلاجقة بعد وفاة عمه طغرل بك، وكان من عظماء ملوك الإسلام وأبطالهم، ملك بعد عمه طغرل بك وكان عادلاً سار في الناس سيرة حسنة، كريماً رحيماً شفوقاً على الرعية رفيقاً على الفقراء بارّاً بأهله وأصحابه ومماليكه كثير الدعاء بدوام ما أنعم به عليه، كثير الصدقات يتصدق في كل رمضان بخمسة عشر ألف دينار.

16 ـ كان ألب أرسلان كعمه طغرل بك، قائداً ماهراً مقداماً وقد اتخذ سياسة خاصة تعتمد على تثبيت أركان حكمه في البلاد الخاضعة لنفوذ السلاجقة، قبل التطلع إلى إخضاع أقاليم جديدة وضمها إلى دولته، كما كان متلهفاً للجهاد في سبيل الله ونشر دعوة الإسلام في داخل الدولة المسيحية المجاورة له، كبلاد الأرمن وبلاد الروم، وكانت روح الجهاد الإسلامي هي المحركة لحركة الفتوحات التي قام بها ألب أرسلان وأكسبتها صبغة دينية، وأصبح قائد السلاجقة زعيماً للجهاد وحريصاً على نصرة الإسلام ونشره في تلك الديار ورفع راية الإسلام خفاقة على مناطق كثيرة من أراضي الدولة البيزنطية، لقد بقي سبع سنوات يتفقد أجزاء دولته المترامية الأطراف قبل أن يقوم بأي توسع خارجي، وعندما اطمئن على استتباب الأمن وتمكن حكم السلاجقة في جميع الأقاليم والبلدان الخاضعة له أخذ يخطط لتحقيق أهدافه البعيدة، وهي فتح البلاد المسيحية المجاورة لدولته، وإسقاط الخلافة الفاطمية العبيدية، وتوحيد العالم الإسلامي تحت راية الخلافة العباسية السنية ونفوذ السلاجقة، فأعدَّ جيشاً كبيراً اتجه به نحو بلاد الأرمن وجورجيا، فافتتحها وضمها إلى مملكته، كما عمل على نشر الإسلام في تلك المناطق.

17 ـ وضع السلطان ألب أرسلان نصب عينيه تحقيق هدفَي السلاجقة وهما: التوسع باتجاه الأراضي البيزنطية، وطرد الفاطميين من بلاد الشام والحلول مكانهم، ثم استخلاص مصر منهم، وقد أثاره احتمال تقارب بين البيزنطيين والفاطميين فحرص على أن يحمي نفسه من بيزنطة بفتح أرمينية والاستقرار في ربوعها قبل أن يمضي في تحقيق الهدف الثاني، وهو مهاجمة الفاطميين، والواقع أنه كان من الصعب على السلطان السلجوقي من الناحية العسكرية والسياسية أن يتجاوز محور الرها إلى جنوبي بلاد الشام ثم مصر دون تقدير الموقف البيزنطي من جهة، ومواقف أمراء الجزيرة وبلاد الشام من جهة أخرى، إذ أن أي اضطراب في العلاقة مع هذه الأطراف من شأنه أن يهدِّد بقطع خط الرجعة على جيشه الذي سيكون بعيداً عن

قواعده الخلفية واشتدت في هذه الأثناء غارات الأتراك على أراضي الدولة البيزنطية، وتوغلوا فيها.

18 ـ استطاع ألب أرسلان أن يضم حلب ويوسع نفوذه في بلاد الشام وتوجه الأتراك بزعامة أتسز، بعد رحيل السلطان ألب أرسلان عن المنطقة إلى دمشق بهدف ضمِّها، فضربوا عليها حصاراً مركزاً وأغاروا على أعمالها وقطعوا الميرة عنها ورعوا زرعها، وغادروها إلى فلسطين، فضموا الرملة وبيت المقدس بعد حصار، وطردوا منها الحامية الفاطمية وانتزعوا طبرية من أيدي الفاطميين وحاصروا يافا، فهرب حاكمها رزين الدولة الفاطمي وألغيت الدعوة للخليفة الفاطمي، وخطب للخليفة العباسي والسلطان السلجوقي.

19 ـ تصدى ألب أرسلان لجيوش ملك الروم رومانوس في معركة ملاذكرد وانتصر عليه في عام (462هـ)، وكان ألب أرسلان في قلة من أصحابه مقارنة لجيوش الروم، فقد كانوا قرابة خمسة عشرة ألف، وجيوش الروم ثلاثمائة ألف جندي، فاحتسب نفسه ومن معه ونال قولته المشهورة: أنا أحتسب عند الله نفسي، وإن سعدت بالشهادة ففي حواصل الطيور الخضر من حواصل النسور الغبر رمسي، وإن نصرت فما أسعدني وأنا أمسي، ويومي خير من أمسي.

20 ـ تعتبر معركة ملاذكرد من المعارك الفاصلة في التاريخ ويسميها بعض المؤرخين باسم «الملحمة الكبرى» وتعد أكبر نكسة في تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، وأصبحت الأراضي البيزنطية تحت رحمة السلاجقة، وبذلك يكون السلاجقة قد تابعوا الجهاد الذي قام به المسلمون ضد الروم.

21 ـ تعتبر هزيمة البيزنطيين في ملاذكرد نقطة تحول في التاريخ الإسلامي البيزنطي فلأول مرة يقع الإمبراطور نفسه أسيراً في أيدي المسلمين، فهي لا تقل أهمية عن اليرموك ونتائجها، فإذا كانت هذه الأخيرة قررت مصير بلاد الشام، فإن الأولى قد قررت مصير آسيا الصغرى، التي نجح الأتراك السلاجقة في فتحها والتوغل فيها، وكانت بذلك لبنة اجتثت من بناء الدولة البيزنطية، فمهدت لسقوطها فعندما فقدت الإمبراطورية ولاياتها الغنية في آسيا الصغرى أصبحت القسطنطينية رأساً حرم من الجسد الذي يسنده، وبذلك غدت آسيا الصغرى برمتها مكشوفة أمام السلاجقة، وهكذا بضربة واحدة دفعت الحدود التقليدية التي طالما فصلت بين الإسلام والمسيحية 400 ميل إلى الغرب، ولأول مرة استطاع الأتراك السلاجقة أن يحرزوا مكاناً ثابتاً في تلك البقاع، ومُنذ ذلك الحين فقد الرؤساء والجنود شجاعتهم، ولم تحرز الإمبراطورية البيزنطية نصراً على الإطلاق.

22 ـ ومن نتائج ملاذكرد أن قضى السلاجقة على التحالف البيزنطي الفاطمي، واضطرت بيزنطة إلى مصالحتهم، أما أرمينية فقد زالت منها الإدارة البيزنطية بعد أن هجرها سكانها وخضعت المدن الأرمينية للسلاجقة، كما انهار نظام الدفاع البيزنطي الذي تولاه أمراء التخوم.

23 ـ تُعد معركة ملاذكرد أشد ما وقع في التاريخ البيزنطي من كوارث، بل إنها أكبر كارثة حلت بالإمبراطورية البيزنطية حتى نهاية القرن الخامس الهجري.

24 ـ أتاحت معركة ملاذكرد سنة (463هـ) للسلاجقة الانسياب إلى جوف آسيا الصغرى، وشجعتهم النزاعات والحروب الداخلية التي نشبت بين البيزنطيين على الاستقرار في ربوعها وتأسيس سلطنة عرفت في التاريخ باسم سلطنة سلاجقة الروم.

25 ـ ظهرت الدعوة النزارية الإسماعيلية التي تزعمها الحسن بن الصباح في عهد السلاجقة، واستطاع أن يسيطر على قلعة الموت عام (483هـ) في المشرق الإسلامي وجعلها مقراً له ولجماعته وحصَّن نفسه وأتباعه في قلاع متناثرة في أقاليم بحر قزوين وثبَّت مركزه في قلعة الموت بنواحي قزوين، واعتمد في أسلوبه على العنف والاغتيال، وبث الرعب في نفوس الناس، ويعتبر الحسن الصباح من إفرازات المذهب الشيعي الباطني الرافضي، ومن الموالين للدولة الفاطمية.

26 ـ استخدم دعاة الباطنية أساليب عديدة لخداع الجماهير، مثل التظاهر بالإسلام والانتساب إلى آل البيت والدعوة إليهم، والتقية، واستهداف المسؤولين في الدولة العباسية واستخدام الإرهاب والعنف.

27 ـ ظهر في عهد ألب أرسلان وملكشاه الوزير نظام الملك الذي كان من عباقرة عصره وقدم للأمة مشروعاً سنياً متكاملاً للإحياء السني والتصدي للغزو الباطني من خلال المدارس النظامية، وكان الوزير نظام الملك رجل دولة من الطراز الأول في عهده، فضبط أمور الدولة السلجوقية الاقتصادية والإدارية ومؤسساتها.

28 ـ كان نظام الملك عالماً ديّناً وجواداً عادلاً حليماً، كثير الصفح عن المذنبين، طويل الصمت، كان مجلسه عامراً بالقرَّاء والفقهاء، وأئمة المسلمين وأهل الخير والصلاح، كان من حفظة القرآن، ختمه وله إحدى عشرة سنة، واشتغل بمذهب الشافعي، وكان لا يجلس إلا على وضوء، وما توضأ إلا تنفل، وإذا سمع المؤذن أمسك عن كل ما هو فيه وتجنبه، فإذا فرغ لا يبدأ بشيء قبل الصلاة، وكان إذا غفل المؤذن ودخل الوقت أمره

بالأذان، وهذا قمة حال المنقطعين للعبادة في حفظ الأوقات ولزوم الصلوات، وكانت له صلة بالله عظيمة، وكان يواظب على صيام الاثنين والخميس، وله الأوقاف الدّارة والصدقات البارّة.

29 ـ يعتبر فقه نظام الملك في الاقتراب من السلاجقة والوقوف معهم والترقي في مناصب الدولة من فقه النهوض، حيث استطاع من خلال الدولة السلجوقية الوليدة أن يخدم الإسلام والمشروع السني. فقد تولى ولأكثر من عشرين سنة مناصب قيادية في عهد ألب أرسلان وملكشاه. وأصبح الوزير الكبير الذي تولى القيادة الإدارية وأسندت القيادة العسكرية إلى السلاطين السلاجقة، وكانت من حكمة السلاجقة إسناد الأمور الإدارية إلى أهلها، ويعتبر نظام الملك نموذجاً للعالم الذي استطاع أن يحقق الكثير لأهل السنة، ونستفيد من سيرته أهمية دخول العلماء في معمعة الصراع السياسي، وتدافع المشاريع المتناقضة، وتوظيف العلماء والحكام والدعاة لنصرة الإسلام وكسر هيبة الشيعة الباطنية.

30 ـ استخدم السلاجقة القوة العسكرية للقضاء على شوكة المذهب الباطني في قلاعهم ويعتبر السلطان محمد بن ملكشاه من أبرز السلاطين الذين استخدموا القوة لإضعاف شوكتهم ونجح إلى حد كبير.

31 ـ يعتبر نظام الملك عبقرياً في الفكر الإستراتيجي للدول، وقد رأى أن العقائد لا يمكن القضاء عليها بالقوة العسكرية ولا القرار السياسي، وكذلك الأفكار والثقافات، وقد لاحظ اهتمام الدولة الفاطمية بإعداد الدعاة من خلال المعاهد والمناهج، والإنفاق وإرسال الدعاة لنشر الفكر الشيعي الرافضي الباطني، ولا يبدأ الداعي بالتبشير للمذهب الفاطمي إلا بعد خضوعه لبرامج تعليمية تعد بعناية خاصة في عاصمة الخلافة الفاطمية لإعداد الدعاة وتثقيفهم ثقافة مذهبية واسعة قبل إرسالهم إلى البلاد الإسلامية لنشر المذهب الإسماعيلي، وكان لذلك أثره في رواج هذا المذهب في بعض مناطق الشرق الإسلامي نتيجة لهذه الجهود المنظمة المستمرة في نشر هذه الدعوة، لذلك كله فكر نظام الملك في أن يقاوم النفوذ الشيعي بنفس الأسلوب الذي ينتشر به، ومعنى ذلك أنه رأى أن يقرن المقاومة السياسية للشيعة بمقاومة فكرية أيضاً، وتربية الأمة على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وعقيدة أهل السنة والجماعة المستمدة من الوحي الإلٰهي، ومن هنا كان تفكيره في إنشاء المدارس النظامية التي نسبت إليه، لأنه جد في إنشائها وخطط لها وأوقف عليها الأوقاف الواسعة، واختار لها الأكفاء من الأساتذة، فكان من الطبيعي أن تنسب إليه من دون السلاجقة.

32 ـ لقد كان نظام الملك شافعياً سنياً حريصاً على الإسلام الصحيح، وقد عاصرت نظام الملك آراء وأفكار متباينة مختلفة كانت منتشرة في العالم الإسلامي، كالمعتزلة والباطنية

وبقايا القرامطة وغيرهم من أصحاب الملل والنحل، وكان نظام الملك يرمي بدرجة كبيرة إلى توجيه الرعية وجهة تخدم مصلحة الدولة وتبعث على الاستقرار والسكينة والأمن، لذا كان هَمُّ نظام الملك التأكيد على مواضع الدراسة وعلى إفهام الناس عامة ومنتسبي النظامية خاصة أصول الدين الصحيحة، ولما كان نظام الملك شافعياً، كان يرى أن يدرس الفقه والأصول المستمدة من أفكار وآراء الشافعية، وكان من شروط النظامية أن يكون المدرس من الشافعية أصلاً وفرعاً.

33 ـ إن من الأخطار العظيمة التي تواجه الأمة اليوم المد الباطني في أنحاء المعمورة، وقد استهدف عقيدة الأمة وكتاب ربها وسنة نبيها وتاريخها وعظمائها، علماً أن الكثير من رموز الأمة الإسلامية في عالم السياسة والفكر والعلم والتاريخ والثقافة في حالة استرخاء وفتور، والبراكين المدمرة تجري من تحتهم. أفلا نستلهم الدرس ونستخرج العبرة، ونعمل بالسنن والقوانين الإلٰهية في الدعوة إلى الإسلام الصحيح الذي جاء به محمد ﷺ، فيكون من حكامنا مثل ألب أرسلان في غيرته، ومن وزرائنا كنظام الملك في همّته، ومن علمائنا كالجويني والغزالي وابن عقيل والبغوي وغيرهم في دفاعهم عن الكتاب والسنة والصحابة وقضايا الفكر، ونوظف الوسائل الحديثة في بث عقائد الإسلام الصحيحة وتاريخه الموثق وفكره البديع من خلال الفضائيات والإنترنت والمطابع والجرائد والمجلات والكتب والندوات والمؤتمرات والمناهج والمدارس والجامعات ووسائل الدعوة بأنواعها، نريد بذلك وجه الله وأجره ومثوبته ومرافقة النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين.

34 ـ إن من أبرز الأهداف التي عملت المدارس النظامية على تحقيقها: تحقيق العبودية والأداء الأمثل للتكاليف الشرعية المختلفة، وتوفير جو علمي يساعد الأساتذة والمعلمين على أن يفكروا ويؤلفوا ويبتكروا، فيضيفوا كل جديد إلى العلوم المختلفة بصفة مستمرة، والعمل على توسيع الأفق الفكري لدى الطلاب، فالمدرسة لا تكتفي بتنمية الخبرات، بل تعمل على أن تكسب الطالب الخبرات الجديدة الناتجة عن تجارب الأمم السابقة والمعاصرة، وهذا ما يسمى عند علماء التربية الإسلامية: نقل التراث؛ وهذا يكون من خلال اطّلاع على التراث الحضاري والفكري لدى الأمة مما يؤدي إلى توسيع الأفق لديهم نتيجة لاطلاعهم على تلك الخبرات ونشر الفكر السني ليواجه تحديات الفكر الشيعي ويعمل على تقليص نفوذه، وإيجاد طائفة من المعلمين السنيين المؤهلين لتدريس المذهب السني ونشره في الأقاليم المختلفة، وإيجاد طائفة من الموظفين السنيين ليشاركوا في تسيير مؤسسات الدولة؟ وإدارة دواوينها وخاصة في مجال القضاء والإدارة.

35 ـ أبدى نظام الملك اهتماماً كبيراً بوسائل تحقيق أهداف المدارس النظامية، فاختار الممتازين، وأظهر ذكاءً ملحوظاً في تحديد المنهج العلمي الذي تسير عليه، ثم بذل أقصى

جهوده لتوفير الإمكانات المادية التي تعين هذه المدارس على العطاء الفكري السخي.

36 ـ فمن ناحية الأماكن التي أنشئت النظاميات فيها يقول السبكي عن نظام الملك: إنه بنى مدرسة ببغداد، ومدرسة ببلخ، ومدرسة بنيسابور، ومدرسة بهراة، ومدرسة بأصبهان، ومدرسة بالبصرة، ومدرسة بمرو، ومدرسة بآمل طبرستان، ومدرسة بالموصل، فهذه أمهات المدارس النظامية التي أنشئت في المشرق الإسلامي، ويتضح من توزيعها الجغرافي أن معظمها أنشىء إما في بعض المدن التي تحتل مركز القيادة والتوجيه الفكري، كبغداد وأصفهان حيث كانت الأولى: عاصمة للخلافة العباسية السنية، وليتمركز فيها عدد كبير من المفكرين السنيين أيضاً، والثانية: كانت عاصمة السلطنة السلجوقية في عهد ألب أرسلان وملكشاه (عصر نظام الملك)، وإما في بعض المناطق التي كانت مركزاً لتجمُّع شيعي في تلك الفترة كالبصرة ونيسابور وطبرستان وخوزستان والجزيرة الفراتية، فهذا التوزيع الجغرافي يشير بوضوح إلى أن وضع المدارس النظامية في الأماكن السابقة لم يأت اعتباطاً، وإنما كان أمراً مقصوداً ومدروساً حتى تقوم بدورها في محاربة الفكر الشيعي في هذه المناطق وتفتح الطريق أمام غلبة المذهب السني.

37 ـ وإلى جانب الاختيار المدروس لأماكن المدارس النظامية، فإنه تم اختيار أساتذتها بعناية تامة بحيث كانوا أعلام عصرهم في علوم الشريعة، ويشير العماد الأصفهاني إلى دقة نظام الملك في هذه الناحية، فيقول عنه: وكان بابه مجمع الفضلاء، وملجأ العلماء، وكان نافذاً بصيراً ينقب عن أحوال كل منهم، فمن تفرَّس فيه صلاحية الولاية ولّاه ومن رأى الانتفاع بعلمه أغناه ورتب له ما يكفيه حتى ينقطع إلى إفادة العلم ونشره وتدريسه وربما سيَّره إلى إقليم خال من العلم ليحلّي به عاطله، ويحيي به حقه ويميت به باطله. وفي كثير من الأحيان كان نظام الملك لا يعيِّن الواحد منهم إلا بعد أن يستمع إليه ويثق في كفاءته حدث ذلك مع الإمام الغزالي الذي كان يتفقه على إمام الحرمين في نظامية نيسابور، فلما مات أستاذه في عام 478هـ قصد مجلس نظام الملك، فناظر الأئمة العلماء في مجلسه وقهر الخصوم وظهر كلامه عليهم، واعترفوا بفضله وتولاه الصاحب نظام الملك بالتعظيم والتبجيل وولاه تدريس مدرسته ببغداد.

38 ـ حدد نظام الملك منهج الدراسة واعتمد على تراث الشافعي وأبو الحسن الأشعري، ومما لا شك فيه بأن تراث الإمام الشافعي في الفقه والأصول والعقائد وسيرته الذاتية كان لها أثر على تلك المدارس، وليس في الفقه فقط المتعلق بالأحكام الشرعية العملية وقد مرّ أبو الحسن الأشعري في مجال الاعتقاد بأطوار، واستقر في آخر حياته على مذهب السلف.

39 ـ كان اهتمام المدارس النظامية قد انصرف إلى التركيز على مادتين أساسيتين هما: الفقه على المذهب الشافعي، وأصول العقيدة على مذهب الأشعري، وكانت تدرس بعض المواد في الحديث والنحو وعلمَي اللغة والأدب.

40 ـ لم يبخل نظام الملك بتوفير الإمكانات المادية التي تعين هذه المدارس على النهوض برسالتها، ولذلك أنفق عليها بسخاء وخصص لها الأوقاف الواسعة، واهتم بتوفير السكن للطلاب داخل هذه المدارس.

41 ـ كان اختيار الأساتذة للتعليم في النظاميات يجري وفق تقاليد تشبه أرقى الجامعات الحديثة، فقد كان النظام يختبر معلوماتهم خلال المناظرات التي كان يعقدها في المناسبات المختلفة، ويلقي عليهم أسئلة كان قد فكّر وأعدّها، فإذا لمس في أحدهم علماً وذكاء وجّهه إلى المسلك الذي يريده.

42 ـ وفق الله النظام توفيقاً قلّ نظيره في التاريخ السياسي والعلمي والديني، فقد عاشت مدارسه أمداً طويلاً، وعلى الخصوص نظامية بغداد التي طاولت الزمن زهاء أربعة قرون وأدت رسالتها من تخريج العلماء على المذهب السني الشافعي، وزودت الجهاز الحكومي بالموظفين ردحاً من الزمن، وبخاصة في دوائر القضاء والحسبة والاستفتاء، وهم أهم وظائف الدولة في ذلك العصر، وانتشر هؤلاء في العالم الإسلامي حتى اخترقوا حدود الدولة الفاطمية العبيدية في مصر، وبلغوا الشمال الإفريقي ودعموا الوجود السني بها، لقد تخرج من هذه المدارس جيل تحقق على يديه معظم الأهداف التي رسمها نظام الملك، فوجدنا كثيراً من الذين تخرجوا فيها يرحلون إلى أقاليم أخرى، ليقوموا بتدريس الإسلام ونشروا عقائده الصحيحة في الأمصار التي انتقلوا إليها أو يتولوا مجالس القضاء والفتيا، أو يتولوا بعض الوظائف الإدارية العامة في دواوين الدولة.

43 ـ كان اختيار تراث الإمام الشافعي في مناهج المدارس النظامية له مبرراته، حيث أن الشافعي يعتبر من أقرب الأئمة الأربعة لبيت رسول الله، فهو قرشي ولربما كان من أسباب اختيار نظام الملك للمذهب الشافعي قربه من النسب النبوي، حيث أن من أهداف المدارس النظامية تقويض المذهب الشيعي الباطني الذي تبنته الدولة الفاطمية، والتي يزعم مؤسسوها بأنهم من أهل البيت، وأنهم أحق بالخلافة من غيرهم. كما أن لمكانة الإمام الشافعي في المذاهب السنية سبباً في اختيار تراثه وفقهه حيث أن المالكية يفتخرون به لكونه من تلاميذ الإمام مالك، والإمام أحمد يجله ويحترمه ويعتبره من شيوخه، كما أن الشافعي تتلمذ على

يدي محمد بن الحسن الشيباني تلميذ أبي حنيفة، فهو واسطة العقد بين المذاهب السنية الأربعة الشهيرة، كما أن نزعته النقلية وانتصاره للدليل وحدّة ذكائه واستخدامه للعقل في إقامة الحجة على الخصوم، وما تميزت به كتابته في أصول الفقه وبيان الخاص والعام والمطلق والمقيد والمجمل والمفصل. . . إلخ ربما كانت من أسباب اعتماد تراثه في المدارس النظامية.

44 ـ ساهم الإمام أبو الحسن الأشعري بتراثه وأفكاره التي وضعها في كتبه وبواسطة تلاميذه في نشاط المدارس النظامية التي اعتمدت ما وصل إليه من بحوث في عقائد أهل السنة والردود على المعتزلة والمخالفين لأصول أهل السنة والجماعة، وكان الأشعري رَحِمَهُ اللَّهُ من العلماء الذين حملوا لواء العلم في كل ميادينه وصنوفه، ويعد من العلماء الذين جمعوا بين شتّى المعارف والعلوم والفنون، وكانت له تصانيف في الرد على الملاحدة، وغيرهم من المعتزلة والرافضة والجهمية والخوارج وسائر أصناف المبتدعة. قال عنه القاضي عياض: وصنف لأهل السنة التصانيف، وأقام الحجج على إثبات السنة وما نفاه أهل البدع من صفات الله ورؤيته وقدم كلامه وقدرته، وأمور السمع الواردة من الصراط والميزان والشفاعة والحوض وفتنة القبر التي نفت المعتزلة، وغير ذلك من مذاهب أهل السنة والحديث، فأقام الحجج الواضحة عليها من الكتاب والسنة والدلائل العقلية ودفع شبه المبتدعة ومن بعدهم من الملحدة والرافضة، وصنف في ذلك التصانيف المبسوطة التي نفع الله بها الأمة.

45 ـ تكاد أن تجمع كل المصادر التي ترجمت للأشعري على أنه عاش طوره الأول في ظل المعتزلة والاعتزال، وبعد خروجه على المعتزلة سلك طريق عبد الله بن سعيد بن كلاب البصري، وبدأ يرد على المعتزلة معتمداً على القوانين والقضايا التي قالها عبد الله بن كلاب وهي طريقة لم يسبقه إليها غيره ووافقه الأشعري، وردّ من خلالها على الجهمية والمعتزلة ومكث الأشعري زمناً طويلاً على طريقة ابن كلاب يرد على المعتزلة، وغيرهم من خلال ما اعتقده في هذه الطريقة، ولكنّ الله تعالى منَّ عليه بالحق فنوَّر بصيرته، وذلك بالرجوع التام إلى مذهب أهل السنة والجماعة والتزام طريقتهم واتباع منهجهم، وقد صرّح بذلك في قوله: وقولنا الذي نقول به، وديانتنا التي نَدين بها التمسك بكتاب ربنا ﷻ وبسنة نبينا ﷺ، وما رُوي عن الصحابة والتابعين وأئمة الحديث ونحن بذلك معتصمون، وبما كان يقول به أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل ـ نضّر الله وجهه ورفع درجته وأجزل مثوبته ـ قائلون، ولما خالف قوله مخالفون؛ لأنه الإمام الفاضل والرئيس الكامل الذي أبان به الحق ورفع به الضلال وأوضح به المنهاج، وقمع به بدع المبتدعين، وزيغ الزائغين وشك الشاكين، فرحمة الله عليه من إمام مُقَدَّم، وخليل معظم مفخّم.

46 ـ من الإنصاف العلمي القول بأن المذهب الأشعري لم يستقر على ما مات عليه الإمام أبو الحسن الأشعري، بل حدث تطور في المذهب الأشعري بحيث أن أقوال الأشاعرة تعددت واختلفت في مسائل عديدة، ومن أشهر الذين اجتهدوا وخالفوا أبا الحسن الأشعري في بعض المسائل: أبي بكر الباقلاني وابن فورك وعبد القاهر البغدادي، والبيهقي، والقشيري، والجويني، والغزالي، وغيرهم على درجات متفاوتة بينهم في ذلك.

47 ـ كان للأشاعرة جهود مشكورة في الدفاع عن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وقد أشار إلى هذه الجهود ابن تيمية في كتبه، حيث وصفهم بأنهم من أهل السنة في مقابل المعتزلة والرافضة، وقد دافع ابن تيمية عن شيوخ الأشاعرة كأبي الحسن الأشعري، والباقلاني، والغزالي مع نقده العلمي المبني على الإنصاف لبعضهم في بعض المسائل.

48 ـ من أشهر علماء المدارس النظامية أبو إسحاق الشيرازي والإمام الجويني، والغزالي.

49 ـ إذا كانت إحدى ثمرات المدارس النظامية أنها مهدت الطريق لسيادة المذهب السني، فإنه كان من أبرز آثارها أيضاً تقلّص نفوذ الفكر الشيعي، وخاصة بعد أن خرجت المؤلفات المناهضة له من هذه المدارس، وكان الإمام الغزالي ـ العالم السني ـ على قمة المفكرين الذين شنوا حرباً شعواء على الشيعة، وخاصة الباطنية الإسماعيلية، فقد ألف «فضائح الباطنية». وغيرها من الكتب؛ على أن الشيء المثير للإعجاب هو شجاعة الغزالي في حملته على الإسماعيلية الباطنية والتي جاءت في وقت انتشر فيه دعاتهم في فارس، وتزايد خطرهم حتى أقاموا الحصون والقلاع وهددوا أمن الناس وسلامتهم وقاموا بالاغتيالات على نطاق واسع فشملت كثيراً من الساسة والمفكرين وعلى رأسهم نظام الملك نفسه.

50 ـ كان لكتابات الغزالي أثر قوي في مجال الرد على الباطنية، فقد استطاع بفكره القوي وبما نال من شهرة أن يكون ذا تأثير قوي في مقاومة الباطنية، وأن يناصر المذهب السني، فقد استطاع توظيف العلوم الشرعية والعلوم العقلية من الفلسفة والمنطق والكلام في نسف جذور المذهب الباطني، وقال فيهم كلمته التي سارت مسير الأمثال: ظاهرهم الرفض وباطنهم الكفر المحض، فهم يتسترون بالتشيع وما هم من الشيعة في شيء، وإنما هو قناع يخفون وراءه كيدهم لأهل الإسلام.

51 ـ يعتبر الغزالي المنظّر الكبير للدولة السلجوقية، ولم يكن يعيش بعيداً عن

الأحداث وصراعات السلاجقة مع خصومهم الفاطميين الإسماعيليين، فقد كان قبل عزلته وتركه للنظامية مُنَظِّر الدولة الكبير، وانتصر انتصاراً عظيماً لأهل السنة ولعقيدة الدولة السلجوقية السنية واستطاع أن يوجه ضربات قوية لعقيدة الدولة الفاطمية.

52 ـ ساهم الغزالي بتعاليمه وكتاباته وتوجيهاته في مجال الإصلاح وشخّص أمراض المجتمع من فساد رسالة العلماء، ووجود السلاطين الظَلَمة، وانتشار البدع والمنكرات، ولم يكتف بتشخيص الأدواء بل ساهم في علاج الأمراض وتحدث عن ميادين الإصلاح والتي من أهمها:

ـ العمل على إيجاد جيل جديد من العلماء والمربين.

ـ وضع منهاج جديد للتربية.

ـ بناء العقيدة الإسلامية.

ـ ميدان دراسة العلوم الفقهية.

ـ ميدان الحكمة والإعداد الوظيفي.

ـ إحياء رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ـ نقد السلاطين الظلمة.

ـ محاربة المادية الجارفة والسلبية الدينية وتصحيح التصور السائد عن الدنيا والآخرة.

ـ الدعوة للعدالة الاجتماعية.

ـ محاربة التيارات الفكرية المنحرفة.

ـ الإصلاح في ميدان الفكر، كبيانه بأنه لا تعارض بين العقل والشرع، ورفض التقليد، والدعوة إلى الكتاب والسنة، والالتزام بمنهج السلف.

53 ـ يعتبر الإمام البغوي من العلماء الذين ساهموا في إحياء المشروع السني ومحاربة المبتدعة من خلال التدريس والتعليم والتأليف، وكانت لجهوده الأثر الكبير في تعلُّق الناس بكتاب الله وفهمه وتفسيره وهدى سنة رسول الله ﷺ، ومن أشهر كتبه: «معالم التنزيل في التفسير»، و«شرح السنة للحافظ البغوي»، و«مصابيح السنة». وقد وضع الله لكتبه القبول، وبارك الله له في تصانيفه، ورزق فيها القبول التام لحسن قصده، وصدق نيته، وتنافس

العلماء في تحصيلها، وقد ساهمت جهوده العلمية والتربوية في بلورة المشروع السني الكبير الذي توّج بانتصار الإسلام، وتقليص النفوذ الباطني ودحره، وتحرير البلاد من أيدي الصليبيين فيما بعد، ولم يكن الإمام البغوي من ضمن مشائخ المدارس النظامية ومع هذا ساهم في بلورة المشروع السني، وذلك بتنشيطه الدعوة الإسلامية في عهده بالوعظ والإرشاد والتعليم والتربية والتصنيف.

54 ـ لابد لأي مشروع سياسي أو عسكري أو حضاري يراد له النجاح في أوساط المسلمين من أن يهتم بالبعد العقدي والفكري، وأن تكون القيادة السياسية مبدعة في التفكير، وفي تحديد الأهداف، صادقة في الانتماء لعقيدة الأمة وتراثها ودينها وتاريخها، وقادرة على توظيف الطاقات العلمية وتحويلها من أعمال فردية إلى أعمال جماعية، عاملة على وحدة الصف ومحاربة الانشقاق، كما أن قدرة العلماء على النزول بأفكارهم وعلمهم للجمهور الإسلامي العريض من عوامل نهوض الحضارة.

55 ـ في الوقت الذي أحكم فيه نظام الملك مشروعه السني الكبير، كانت أوروبا بقيادة أوربان الثاني قد أعدت مشروعها الصليبي لغزو المشرق الإسلامي ومغربه، وقد ساهمت عوامل وأسباب كثيرة في بروزه لحيز الوجود منها: الدافع الديني، والسياسي والاجتماعي، والاقتصادي، وتبدل ميزان القوى في حوض البحر المتوسط، واستنجاد إمبراطور بيزنطة بالبابا أوربان الثاني.

56 ـ استطاع أوربان الثاني أن يوحّد شعوب الغرب في مشروع عام على الرغم من أن لغات هذه الشعوب وعاداتها المحلية واهتمامات أبنائها كانت تختلف اختلافاً بيناً، وقد تمثل نجاح أوربان الثاني في أن خطبته التي دعا فيها إلى الحملة الصليبية كانت بمثابة بؤرة تجمعت فيها كل الأفكار التي مثلت الإطار الأيديولوجي لحركة المجتمع الغربي آنذاك على الرغم من الاختلافات اللغوية والعادات والتقاليد، وهكذا لم تكن استجابة جماهير المستمعين إلى البابا في كليرمون مجرد رد فعل لبلاغة كلماته، وإنما كانت هذه الاستجابة تعبيراً عن فرحة أولئك المستمعين بالمشروع الذي مس أوتار الآمال التي كانت تداعب آمالهم تقريباً، وجاءت الحرب المقدسة ستاراً مدهشاً يمكن للجميع أن يتحركوا من خلاله؛ لضمان تحقيق أحلامهم الدنيوية وخلاصهم الأخروي بالنسبة لهم.

57 ـ نجحت الحملة الصليبية إلى حد كبير في تثبيت أربع إمارات لاتينية: **الأولى**: في أعالي الفرات وهي الرها. **والثانية**: في أعالي الشام وهي أنطاكية. **والثالثة**: على الساحل الشامي وهي طرابلس. **أما الرابعة**: فكانت قلب فلسطين وهي بيت المقدس، إضافة إلى أربع

بارونيات كبرى وهي: صيدا ويافا وعسقلان والجليل، واثني عشر إقطاعاً تسلمها أصحابها من الملك الصليبي مقابل تقديم فروض الولاء والطاعة له وتتمثل في: أرسوف، حبرون، الداروم، قيسرية، نابلس، بيسان، حيفا، تبنين، بانياس، كيفا، اللد، وبيروت.

58 ـ إن هذا النجاح الذي حققته الحملة الصليبية يرجع إلى عدة عوامل وأسباب ساهمت فيه منها: انعدام الوحدة السياسية في العالم الإسلامي، الصراع على السلطنة داخل البيت السلجوقي، وجود الدولة الفاطمية الرافضية، سقوط الخلافة الأموية بالأندلس، خيانة بعض النصارى ممن كان يعيش في بلاد الشام، موقف بعض الإمارات العربية من الغزو الصليبي، دور الباطنية الإسماعيلية في عرقلة الجهاد ضد الصليبيين، فقد تعاونوا مع الصليبيين، واغتالوا القادة المسلمين، وأشاعوا الرعب والخوف في المجتمع الإسلامي، انتشار الفكر الشيعي الرافضي والباطني، وتدهور الحياة الاقتصادية قبل الغزو الصليبي، ضعف الدولة البيزنطية وتمرس فرسان الفرنج على الحرب، والإمدادات الأوروبية المستمرة لهم.

59 ـ أيقظت صدمة سقوط القدس غفوة العديد من الفقهاء والقضاة. وأدركوا حقيقة ذلك الغزو بعد أن هدد وجودهم ومكانتهم في مدن تلك البلاد، فضلاً عن الأرض والعقيدة الإسلامية، ولذلك بادر فقهاء وقضاة الشام من دمشق وحلب وطرابلس للاستنجاد بالسلطة المركزية ببغداد والإمارات المحلية، باعتبارها تملك القوة القادرة على مواجهة العدو.

60 ـ قام بعض الشعراء بدور كبير في تحريض المسلمين، ووصف أحوال الأمة وطبيعة الغزو الصليبي الذي احتل البلاد وهتك الأعراض، ومن أشهر هؤلاء ما قاله القاضي الهروي وقيل لأبي المظفر الأبيوردي القصيدة التي أولها:

مزجنا دماً بالدموع السواجم ... فلم يبق منا عرضه للمراجم
وشر سلاح المرء دمعٌ يفيضه ... إذا الحرب شُبَّت نارها بالصوارم

وقال شاعر آخر:

أحلَّ الكُفر بالإسلام ضيماً ... يطول عليه للدين النحيب
فحقٌّ ضائع وحمى مباح ... وسيف قاطع ودم صبيب
وكم من مسلم أمسى سليباً ... ومسلمة لها حرم سليب
وكم من مسجد جعلوه ديراً ... على محرابه نُصب الصليب
دم الخنزير فيه لهم خلوقٌ ... وتحريف المصاحف فيه طيب

أمـــور لـــو تـــأمـــلـــهـــن طـــفـــل ... لـطـفّـل فـي عـوارضـه الـمـشـيـب
أتُـسْـبَـى الـمـسـلـمـات بـكـل ثـغـر؟ ... وعـيـش الـمـسـلـمـيـن إذن يـطـيـب
أمـــــا لله والإســـــلام حـــــق؟ ... يـــدافـــع عـــنـــه شـــبـــان وشـــيـــب
فـقـل لـذوي الـبـصـائـر حـيـث كـانـوا ... أجـيـبـوا الله وَيْـحـكـم أجـيـبـوا

وكان لجهود العلماء والفقهاء والقضاة والأدباء والشعراء أثر في تقوية حركة المقاومة المسلحة والتي قادها أمر السلاجقة.

61 ـ من الحقائق المسلَّم بها في تاريخ الحركة الصليبية، أن حركة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين انبعثت لأول مرة في بلاد المشرق الإسلامي من منطقة الجزيرة، وهي تقع بين دجلة والفرات مجاورة لبلاد الشام وتشتمل على ديار مضر، وديار بكر، وسميت الجزيرة لوقوعها بين نهري دجلة والفرات، وتمتاز منطقة الجزيرة بأنها صحية الهواء جيدة الريع والنماء واسعة الخيرات، بها مدن جليلة وحصون منيعة وقلاع كثيرة. ومن أشهر قادة السلاجقة الذين جاهدوا الصليبيين، قوام الدولة كربوقا صاحب الموصل، وجكرمش صاحب الموصل، وسقمان بن أرتق صاحب ماردين وديار بكر، وقلج أرسلان في آسيا الصغرى.

62 ـ ويحتل شرف الدولة مودود بن التونتكين مكانة خاصة في تاريخ الجهاد ضد الصليبيين، وقد أسهمت عوامل عدة من أهمها: الفترة المبكرة التي ظهر فيها، والطابع الإسلامي العميق لشخصيته المتفانية في سبيل أهداف المسلمين الكبرى، وسياسته الداخلية العادلة السمحة وقدرته على تزعم حركة الجهاد، وإيجاد نوع من التنسيق ربما لأول مّرة بين كافة القوى الإسلامية في ساحات الجهاد، وقد استطاع وضع الصليبيين في موضع الدفاع وتحقيقه عدداً من الانتصارات جاء أحدها عند مرتفعات طبرية في قلب فلسطين بعيداً عن الساحة التي درج عليها الصراع بين ولاة الموصل السابقين، ثم جاء مقتله السريع إثر ذلك في جامع دمشق على أيدي الشيعة الباطنية، الأعداء الشرسين لحركة الجهاد والمقاومة، وقد حزن عليه المسلمون حزناً عميقاً، ويعتبر في تاريخ الأمة من أبطال الحروب الصليبية، وكانت فترة إمارته للموصل من عام (501هـ ـ507هـ) وكان عند مقتله صائماً وأراد من حوله تفطيره إلا أنه قال: لا لقيت الله إلا صائماً، ومات من يومه رَحِمَهُ اللهُ.

63 ـ تعتبر حملات مودود نقطة تحول في تاريخ الصراع الإسلامي الصليبي خلال تلك المرحلة المبكرة، فقد صارت فكرة الإسلام حقيقة واقعة، ووجدت فارسها المخلص الذي حمل لواءها ما يقرب من نصف المدة التي تولى فيها إمارة الموصل، ويمكن اعتبار حملات

مودود مقدمة لحملات عماد الدين زنكي مع عدم إغفال الفارق الزمني في صورة الثلاثة عقود الفاصلة بين إنجاز كل منهما، والتي أدت إلى سقوط إمارة الرها الصليبية عام 539هـ حيث أن مودوداً وجه حملاته الأولى إلى الرها وتل باشر، وعمل على إرهاق أهلها، وتعتبر جهوده المقدمة الأولى لجهود زنكي ضدها على اعتبار أن قافلة الجهاد متصلة قائداً من بعد قائد.

64 ـ من القادة السلاجقة المجاهدين نجم الدين إيلغازي صاحب ماردين، الذي استطاع أن يكبد الصليبيين خسائر فادحة في الأرواح في معركة ساحة الدم في عام 513هـ وأسر منهم الكثير، وقد صاحب هذا النصر قيام جبهة إسلامية متحدة من الأمراء المسلمين في الشام والجزيرة إضافة إلى أنها جعلت حلب في منأى عن أخطار الصليبيين خصوصاً بعد استيلاء نجم الدين إيلغازي على حصن قريب من الأثارب.

65 ـ تولي راية الجهاد بلك بن بهرام بن أرتق بعد وفاة عمه نجم الدين إيلغازي صاحب ماردين، وكان خصماً عنيداً للصليبيين، وكان يتطلع للقضاء لا في منطقة الجزيرة فقط، بل في بلاد الشام أيضاً، قد استهل أعماله العسكرية أثناء مرض عمه نجم الدين إيلغازي في رجب سنة (516هـ/ 1122م) بحصار الرها، ودخل في معمعة الجهاد ضد الصليبيين، ووقع في أسره بعض ملوك الصليبيين، كجوسلين وابن خالته جاليران صاحب البيرة سنة (516هـ) ولم يمهل الأجل بلك بن بهرام فبينما كان يحاصر الفرنجة عند قلعة منبج وافته المنية بسهم طائش أصابه فقتله لا يدري من رماه، وفقد المسلمون بمقتله رجلاً أثبتت أعماله، إنه زعيم وقائد حاول جمع كلمة المسلمين في الشام والجزيرة ضد الصليبيين وكان استشهاده 518هـ.

66 ـ ومن قادة الجهاد آق سنقر البرسقي أمير الموصل السلجوقي الذي استطاع أن يفك الحصار عن حلب من قبل الصليبيين في عام (518هـ)، وقد تمّ قتل قسيم الدولة البرسقي صاحب الموصل في سنة (520هـ) بمدينة الموصل، قتلته الباطنية يوم جمعة بالجامع، وكان يصلي مع العامة، فوثب عليه بضعة عشر نفساً وجرحوه بالسكاكين، فجرح هو بيده منهم ثلاثة وقتل رحمه الله، وكان تركياً خيِّراً يحب أهل العلم والصالحين، ويرى العدل ويفعله، وكان من خيرة الولاة يحافظ على الصلوات في أوقاتها ويصلي من الليل متهجداً.

67 ـ أثبت الباطنية عداءهم الكامل لقادة الجهاد الإسلامي في ذلك العصر، وكأن خناجرهم المسمومة كانت تشق للصليبيين طريقاً نحو تثبيت أقدامهم في بلاد الشام والجزيرة على حساب المسلمين.

68 ـ ومن فضل الله على هذه الأمة أن قائمة المجاهدين عامرة ومتأهبة للقتال في سبيل الله ففي ربيع الآخر من عام (521هـ/ 1127م) عهد السلطان محمود السلجوقي إمارة الموصل إلى عماد الدين زنكي، وبظهوره على مسرح الأحداث بدأت صفحة جديدة في ميزان القوى بين المسلمين والصليبيين.

69 ـ وكان من العوامل الرئيسية التي ساعدت على ظهور عماد الدين زنكي، الدور الذي لعبه أبوه آق سنقر في شؤون الدولة السلجوقية السياسية والعسكرية والإدارية.

70 ـ كان للقاضي بهاء الدين الشهرزوري دور كبير في تنصيب عماد الدين زنكي في الموصل لكونه قائد عسكري قوي، ولذلك رشح عماد الدين لقيادة القوى الإسلامية التي كان لها الأثر في التصدي للغزو الصليبي، وكان لهذا الاختيار أثره في إرساء حجر الجهاد في المشرق الإسلامي حيث تمكن من خلاله غرس نواة الوحدة مع حلب عندما أخذها ورحب به أهلها عام (521هـ). وكان لموقع حلب الإستراتيجي بين بلاد الشام ومناطق أعالي الفرات من الأسباب التي جعلتها في قلب الأحداث آنذاك، وقد أدرك عماد الدين أهمية ذلك الموقع بالنسبة لبلاد الشام والموصل والجزيرة الفراتية، واعترافاً من عماد الدين بالجهد الذي قام به بهاء الدين الشهرزوري في تعيينه ورداً لجميله عينه قاضي قضاة بلاده جميعها وما يفتحه من البلاد، وكان يثق فيه وفي آرائه، لذلك كانت منزلته عظيمة عنده، وكان لا يصدر إلا عن رأيه.

71 ـ اتّصف عماد الدين بصفات القادة العسكريين والسياسيين والتي من أهمها: الشجاعة، والهيبة، والدهاء، والمكر، والحيلة، والذكاء، واليقظة والحذر، والقدرة على اختيار الأكفّاء من الرجال، وتقدير الرجال، وقلّة التلوُّن والتنقل، والغيرة على محارم المسلمين، والعدل.

72 ـ اهتم عماد الدين زنكي بضبط إماراته، وكانت النظم التي سار عليها تعتبر امتداداً طبيعياً للسلاجقة في غالب مؤسسات الدولة العسكرية، والإدارية، والمالية والقضائية.

73 ـ عمل عماد الدين على توحيد الجبهة الإسلامية، وذلك بضم المدن التي حوله والقريبة منه بسبب ضعفها وتفرقها وضيق مساحتها، ثم توسع في مناطق الأكراد وضمها لدولته كالأماكن التي كان فيها الأكراد الحميدية والهكارية والمهرانية، والبشنوية، واستطاع عماد الدين أن يضع يده على معظم ممتلكاتها وقواعدها المهمة ويخضعها لسيطرته في أقل

من عقد ونصف ـ بفضل الله ـ ثم قدرته العسكرية وخططه السياسية البارعة التي أتاحت له التغلب على مصاعب القتال في المناطق الجبلية الوعرة.

74 ـ استمر عماد الدين في توسيع نفوذ دولته ولم يقم في بداية حكمه بأي نشاط عسكري ضد الصليبيين قبل أن يثبت أقدامه في إماراته الجديدة، ويُعزِّز إمكاناتها الاقتصادية والعسكرية ويوحِّد ما أمكنه من الإمارة الصغيرة المتناثرة حولها لتأمين خطوط تحركاته في الجزيرة وبلاد الشام إلى الحد الذي يمكِّنه من التصدي لهم، وبعد أن أنهى معظم مشاكله وحروبه ضد أمراء ديار بكر، وانتهت هدنته مع جوسلين أمير الرها، قرر البدء والهجوم على المواقع الصليبية، وبدأ في فتح الحصون وضمها لدولته.

75 ـ ظهرت قدرات عماد الدين ودولته في الدفاع عن حلب أمام الحملة الصليبية البيزنطية، فقد قاومت حلب وأخذ أهاليها يقومون بهجمات سريعة على معسكرات الأعداء أدخلت الرعب وعدم الاستقرار في نفوسهم فآثروا الانسحاب.

76 ـ وعندما توجهت جيوش الصليبيين والإمبراطور البيزنطي إلى شيزر، كان عماد الدين يقود حركة المقاومة للدفاع عن المدينة واستخدم أساليب الحرب النفسية ضد الجيوش الغازية. وأرسل في طلب النجدة من كل المناطق للتصدي للغزاة، وشرع في رمي الأعداء بسهام الحيلة والدهاء وإيجاد فتنة بينهم، فقد اتبع عماد الدين خطة عسكرية، فقد راسل المتحالفين وهم في مواقعهم الحصينة عند المدينة يقول لهم: إنكم قد تحصنتم مني بهذه لجبال فاخرجوا عنها إلى الصحراء حتى نلتقي، فإن ظفرتم أخذتم شيزر، وإن ظفرنا بكم رحت المسلمين من شرِّكم، وكادت الخطة تنجح حين أشار الصليبيون على الإمبراطور بالنزول إليه وقتاله، ولكن يوحنا خشي مغبَّة ذلك وأجاب: أتظنون أنه ليس من العسكر إلا ما ترون؟ وإنما يريد أنكم تلقونه فيجيء إليه من نجدة المسلمين ما لا حدّ عليه. وفي نفس الوقت كان يراسل صليبيي الشام يحذِّرهم من إمبراطور الروم ويعلمهم أنه إذا استولى على حصن واحد من الشام أخذ البلاد التي بأيديهم منهم، ويرسل من جهة أخرى إلى الإمبراطور يخوّفه من أن الصليبيين في بلاد الشام خائفون منه، فلو فارق مكانه لتخلوا عنه فاستنفر كل طرف من الطرف الآخر وسادت الشكوك بينهما.

77 ـ تعتبر من أهم أعمال عماد الدين زنكي فتح الرها في سنة (539هـ) وكان لهذا النصر نتائج هامة على العالمين الإسلامي والنصراني ومن أهم تلك النتائج:

ـ تأكد للمسلمين أن حركة الجهاد الإسلامي وصلت سن الرشد وتجاوزت المراهقة

السياسية والعسكرية دون أن يكون في ذلك إجحاف بإنجازات القادة السابقين على زنكي لاسيما مودود، وإذا كانت أولى الإمارات الصليبية تهاوت تحت أيديهم، فإنها البداية واليوم إسقاط الرها وغداً إسقاط باقي الكيان الغازي الدخيل، وهذا ما حدث فعلاً، ومن الآن فصاعداً لن تعود عقارب الساعة إلى الوراء، بل التقدم إلى الأمام بكل ثقة وإباء وإنجاز.

ـ تأكد منطق التاريخ من أن مثل تلك الكيانات الصليبية الغير شرعية لن تستمر على الأرض، لأن أبناء المنطقة أصحاب الهوية الدينية الموحدة لن يقبلوا بذلك الوضع السياسي والعسكري الدخيل وبالتالي عاد التجانس لمنطقة شمال العراق ولم تعد الرها تمثل دور الفصل والكيان الصليبي الحاجز المانع من الاتصال بين كل من سلاجقة آسيا الصغرى، وسلاجقة العراق، وكذلك بلاد فارس.

ـ أدى إسقاط الرها بمثل هذه الصورة إلى تحرك الحلف الدفاعي الإستراتيجي القائم بين الكيان الصليبي في الشرق، والرحم الأم في الغرب الأوروبي.

78 ـ بعد فتح الرها ارتفع شأن عماد الدين زنكي إلى حد بعيد، فبعد أن كان مجرد حاكم محلي محدود النطاق والفعالية تردد اسمه سريعاً في الحوليات اللاتينية والسريانية ليعكس أنه أحدث تأثيراً كبيراً في مجرى أحداث الشرق اللاتيني، وبصورة غير مسبوقة، أما بالنسبة للمسلمين فقد احتل مكانة بارزة، فقد عزّز فتح الرها مركز عماد الدين تجاه السلطان السلجوقي مسعود والخليفة العباسي المقتفي لأمر الله الذي أنعم عليه بعدد كبير من الألقاب التي حازها عن جدارة، كالأمير المظفر، ركن الإسلام، عمدة السلاطين، زعيم جيوش المسلمين ملك الأمراء، أمير العراقين والشام، وجعل هذا النصر عماد الدين زنكي المدافع الأول عن الدين، والمجاهد في سبيل إعلاء كلمة الله، ودارت في المحافل الإسلامية، أحاديث تمحورت حول شخصيته، تصور لنا مدى التقدير والإعجاب اللذين نالهما إثر تحقيقه هذا النصر الكبير.

79 ـ مدح الشعراء عماد الدين زنكي في فتح الرها، والملفت للنظر أن كثيراً من الباحثين والكتاب لم يهتموا بالأدب في الحروب الصليبية، بل إن الكثير منهم أطلقوا عليه أدب الانحطاط آخذين بأقوال وآراء المستشرقين الذين رغبوا في أن نبتعد عن دراسة تاريخ أدب هذه الحروب لأسباب كثيرة منها رغبتهم في عدم اطلاعنا على وحشية الصليبيين وقسوتهم، ثم حتى لا نشعر بالعز والفخر ونحن نقرأ عن تاريخ الأبطال المسلمين عرباً وأكراداً وأتراكاً ـ يقودون الجيوش وهم يحملون راية الإسلام مجاهدين ويترفعون عن القوميات والوطنيات الجاهلية، ويجمعهم حب الله ورسوله والجهاد في سبيل الله وابتغاء مرضاته، إن أدب هذه الفترة ما زال بحاجة إلى دراسات مستفيضة.

80 ـ استطاع عماد الدين زنكي أن يوجه الظروف التاريخية القائمة لصالح المسلمين، وذلك بتجميعه القوى الإسلامية بعد القضاء على عوامل التجزئة والانقسام وتوحيد المدن والإمارات المنفصلة في نطاق دولة واحدة استطاع بقدرته أن يستغل أقصى ما يمكن أن تقدمه من إمكانات في سبيل تحقيق برنامجه المزدوج من تشكيل الجبهة الإسلامية وضرب الصليبيين. ويظهر أهمية الدور الذي لعبه زنكي في التاريخ الإسلامي، إذ يعتبر أول قائد قام بتجميع القوى الإسلامية وفق برنامج معين ليجابه بها تزايد الخطر الصليبي الذي لم توقفه المحاولات الجدية التي سبقت زنكي، وبخاصة تلك التي تمت على يد كل من مودود بن التونتكين وإيلغازي وبلك الأرتقين سنة (512هـ ـ 518هـ) وآق سنقر البرسقي سنة (518 ـ 520هـ) وقد مهد عماد الدين لابنه نور الدين في توحيده للجبهة الإسلامية وكسر هيبة الصليبيين بفتح الرها.

81 ـ تولى حركة المقاومة ضد الصليبيين بعد وفاة عماد الدين ابنه نور الدين زنكي، وقد تميزت شخصيته بمجموعة من الصفات الرفيعة والأخلاق الحميدة والتي ساعدته ـ بعد توفيق الله ـ على تحقيق إنجازاته العظيمة والتي من أهمها: الجدية والذكاء المتوقد، الشعور بالمسؤولية، وقدرته على مواجهة المشاكل والأحداث، ونزعته للبناء والإعمار، وقوة الشخصية، ومحبة المسلمين له، واللياقة البدنية العالية، وتجرده وزهده الكبير، وشجاعته الفائقة، ومفهومه للتوحيد وتضرعه ودعاؤه، ومحنته للجهاد والشهادة، وعبادته، وإنفاقه وكرمه.

82 ـ اتخذ نور الدين محمود زنكي من سيرة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه نموذجاً يقتدي به في دولته، فقد كتب الشيخ العلامة أبو حفص معين الدين عمر بن محمود الإربلي سيرة عمر بن عبد العزيز لكي يستفيد نور الدين منها في إدارة دولته ولقد آتت معالم الإصلاح والتجديد الراشدي في عهد عمر بن عبد العزيز ثمارها في الدولة الزنكية، فقد اقتنع نور الدين بأهمية التجارب الإصلاحية في تقوية وإثراء المشروع النهضوي وأهميته في إيجاد وصياغة الرؤية اللازمة في نهوض الأمة وتسلمها القيادة، فللتجارب التاريخية دور كبير في تطوير الدول وتجديد معاني الإيمان في الأمة.

83 ـ كانت أهم معالم التجديد والإصلاح التي قام بها نور الدين محمود، الحرص على تطبيق الشريعة، ولقد تحققت في دولة نور الدين محمود آثار تحكيم شرع الله، من التمكين والأمن والاستقرار والنصر والفتح المبين والعز والشرف وبركة العيش ورغد الحياة في عهده وانتشار الفضائل وانزواء الرذائل.

84 ـ اهتم نور الدين في بناء دولته بالعقيدة الصحيحة وكان أظهر ما في شخصيته هو

إيمانه الإسلامي العميق وحرصه على صبغ دولته بمنهج أهل السنة ومواجهة الفكر الشيعي الرافضي، واتخذ خطوات سياسية واكبتها في الوقت نفسه خطوات فكرية هامة، فاهتم بالمدارس السنية ودعمها بالمال والأوقاف، واهتم بعلماء أهل السنة وشجعهم على الهجرة لدولته وفتح أبوابها، وكان لخريجي المدارس النظامية مكانة خاصة، فقد كانت لهم قدرة فائقة على الإحياء السني وقمع شبهات المبتدعة من الشيعة الرافضة وكشف باطلهم بأسلوب علمي رصين.

85 ـ لم تقف جهود نور الدين في حلب عند حد العناية بإنشاء المدارس الحنفية والشافعية، بل إنه كان حريصاً على أن يستفيد من جهود علماء السنة على اختلاف مذاهبهم في محاربة الفكر الشيعي الرافضي والتمكين لمذهب السنة، ولذلك كان يعتني بعلماء المالكية والحنابلة وفقهائهم، ونجح نور الدين في التخفيف من حدة الصراع المذهبي بين المذاهب السنية المختلفة وتوحيدها في جبهة واحدة، ووفقه الله في توحيد جهود علماء السنة لمحاربة الفكر الشيعي.

86 ـ دعم نور الدين التصوف السني وبنى لهم خوانق وربط واستفاد منهم في الدعاء وجمع المعلومات على الأعداء وفي الجهاد، وكان يرحب بهم في بلاطه ويتواصل مع شيوخهم، واستطاع نور الدين أن يستفيد من التصوف السني في محاربة الدولة الفاطمية في بلاد الشام ومصر، واستفاد من هذه الطاقات الكامنة في الأمة ولم يعاديها.

87 ـ اهتم نور الدين محمود بتدريس الحديث الشريف، وكانت من ضمن مشروعه في حركة الإحياء السني ومناهضة الفكر الشيعي، ذلك أن الشيعة لا يعترفون بصحة الحديث إلا إذا كان مروياً عن آل البيت، وكان من الطبيعي أن ينتهي بهم هذا الموقف المجانب للحق والعدل والصواب إلى الطعن في صحاح السنة، ويضاف إلى ذلك أن العناية بالحديث الشريف وعلومه كان استجابة لظرف واقعي تمثل في احتلال الصليبيين لأجزاء واسعة من بلاد الشام من بينها القدس الشريف، فكان على هذه المدارس أن تعبىء الناس للجهاد وتحيي فيهم روح البطولة والاستشهاد عن طريق تدريس الحديث والعناية به خاصة ما يتعلق منه بباب الجهاد في سبيل الله.

88 ـ من العوامل التي ساعدت نور الدين في نجاح برنامجه الإصلاحي، أن جهوده جاءت تالية لجهود المدارس النظامية، فانتفع بما حققته من نتائج وفي مقدمتها تخريج جيل يحمل على عاتقه مهمة الدعوة للمذهب السني، والانتصار له، وقد استفاد نور الدين من عدد كبير تخرجوا من النظاميات، واستطاع نور الدين أن يوظف بذكاء مواهب العلماء البارزين في

عصره ويستعين بهم في دعم المذهب السني، وكانت شخصيته وصفاته التي تميّز بها من أهم العوامل التي ساعدته على النجاح في المهمة التي سعى لتحقيقها.

89 ـ كان نور الدين كقائد سياسي وعسكري على قناعة راسخة بالخطورة العظيمة التي يمثلها المد الشيعي الرافضي في سبيل نهوض الأمة والاستمرار في مقاومة الغزو الصليبي ولذلك جعل من أهدافه القضاء على الدولة الفاطمية التي ترعى الفكر الشيعي الرافضي، والعمل على التصدي لدعاة التشيع الرافضي بالفكر والعلم والثقافة والسياسة والقوة.

90 ـ كان سلوك نور الدين محمود زنكي من عوامل انتصار المذهب السني، لأن أبرز ما كان يستخدمه الشيعة في الدعوة إلى مذهبهم هو التنديد بمسلك حكام السنة المنغمسين في تَرَفهم اللاهين في ملاذهم وشهواتهم، الغارقين في مظالمهم، وكانت النغمة السائدة لدى دعاتهم: أن الإمام المهدي (القائم أو الغائب) سيملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً يستدرجون بهذا المحرومين والمسحوقين حتى يجذبونهم إلى صفوفهم، ويدخلونهم في دعوتهم، فجاء نور الدين يدعم المذهب السني بأخلاقه وسلوكه، وحسن سياسته في رعيته ثم بجهوده الفكرية الرائعة.

91 ـ كان نور الدين محمود زنكي قدوة في عدله، أسر القلوب وبهر العقول، فقد كانت سياسته تقوم على العدل الشامل بين الناس، وقد نجح في ذلك على صعيد الواقع والتطبيق نجاحاً منقطع النظير، حتى اقترن اسمه بالعدل وسمي بالملك العادل، وكان من أسباب نصر الله لهذا الملك العادل على الباطنية والصليبيين إقامته للعدل في الرعية وإيصال الحقوق إلى أهلها، فالعدل في الرعية وإنصاف المظلوم يبعث في الأمة العزة والكرامة ويولد جيلاً محارباً وأمة تحررت إرادتها بدفع الظلم عنها، وقد سجل التاريخ بأن نور الدين محمود ساد العدل في دولته، وتم إيصال حقوق الناس إليهم، فنشطوا إلى الجهاد والدفاع عن دينهم وعقيدتهم، وأوطانهم وأعراضهم، ومن أبرز أعماله التجديدية إقامته للعدل، وقد أولى نور الدين المؤسسة القضائية اهتماماً كبيراً وجعلها قمة أجهزته الإدارية وخوّل القضاة على اختلاف درجاتهم في سلم المناصب القضائية صلاحيات واسعة، إن لم نقل مطلقة، ومنحهم استقلالاً تاماً، لكونهم الأداة التنفيذية لإقرار مبادىء الحق والعدل، وتحويل قيم الشريعة ومبادئها إلى واقع ملتزم، وتوجت جهوده بإنشاء دار العدل التي كانت بمثابة محكمة عليا لمحاسبة كبار الموظفين، وإرغامهم على سلوك المحجة البيضاء أو طردهم واستبدالهم بغيرهم إن اقتضى الأمر.

92 ـ لم يترك نور الدين في بلد من بلاده ضريبة ولا مكساً ولا عشراً إلا ورفعها جميعها من بلاد الشام والجزيرة وديار مصر وغيرها مما كان تحت حكمه، وكانت النتيجة الطبيعية لذلك أن نشط الناس للعمل، فأخرج التجار أموالهم ومضوا يتاجرون، وجاءت الجبايات الشرعية بأضعاف ما كان يجبى من وجوه الحرام. يقول ابن خلدون: العدوان على الناس في أموالهم ذاهب بآمالهم في تحصيلها واكتسابها لما يرونه حينئذ من أن غايتها ومصيرها انتهابها من أيديهم، وإذا ذهبت آمالهم في اكتسابها وتحصيلها، انقبضت أيديهم عن السعي في ذلك، وعلى قدر الاعتداء ونسبته، يكون انقباض أيديهم عن المكاسب، كسدت أسواق العمران وانتقضت الأحوال، ويقول: العدوان على الناس في أموالهم وحرمهم ودمائهم وأسرارهم وأعراضهم يفضي إلى الخلل والفساد دفعة، وتنتقض الدولة سريعاً.

93 ـ فهم نور الدين محمود أن من أسباب النهوض وجود القيادة الربانية فهي التي تستطيع أن تنقل بفضل الله وتوفيقه بالأمة نحو أهدافها المرسومة بخطوات ثابتة، وكان على قناعة تامة بأهمية وجود العلماء الربانيين على رأس القيادة الربانية فهم قلب القيادة الربانية وعقلها المفكّر، فنور الدين زنكي يعرف أن تحرير الأرض وتوحيدها ليس عملاً سياسياً أو عسكرياً فحسب، بل إنه أوسع بذلك بكثير إنه بناء أمة مقاتلة تعرف كيف تحمي وجودها العقائدي وتحفظ حدود شخصيتها الحضارية من أن تتفتت وتضيع، ولذلك قدم العلماء على غيرهم في دولته وبذل لهم العطاء الجزيل، واتصل بالمشهورين من علماء الأمة وأتى بهم إلى بلاده، وجاهدوا معه ضد الصليبيين، وقاموا بسفارات لدولته وتولوا مناصب رفيعة وساهموا في تعليم وتربية الرعية.

94 ـ اهتم الملك العادل نور الدين محمود بالشورى فقد رأى أهميتها في حيوية الأمة واستقرارها وأمنها، فقد كان له مجلس فقهاء يتألف من ممثلي سائر المذاهب السنية ورجال الإدارة والأمراء يبحثون في أمور الإدارة والنوازل والميزانية وكانت له مجالس شورى في القضايا العامة، وأخرى في القضايا المتخصصة، فقد مارس نور الدين زنكي الشورى على أسس صحيحة في دولته.

95 ـ إن من يستعرض إنجازات نور الدين محمود في المجال الإداري يعتقد أن الرجل كان متخصصاً في هذا المجال ومتفرغاً له طول حياته دون غيره من المجالات، ولا يسعه إلا الإعجاب بعقليته القيادية الفذة في بناء قيادات إدارية تحسن تنفيذ الخطط المرسومة، فقد اعتمد نور الدين محمود في إدارة دولته المتنامية على عدد كبير من الرجال الأكفاء فكان يختارهم بعناية فائقة وكان يضع الرجل المناسب في المكان المناسب، ومن بعد ذلك يراقبهم ويشرف عليهم حتى يتأكد من حسن أدائهم واستقامتهم.

96 ـ حرصت القيادات السياسية والإدارية والعسكرية على العموم بالتزامها العقائدي في نشاطاتها وممارساتها، والسبب في ذلك يعود إلى تربيتها الإسلامية وإلى شخصية نور الدين، فقد كان نور الدين زنكي تقياً ورعاً، وعدّه بعض المؤرخين بأنه أفضل مَن جاء بعد عمر بن عبد العزيز من الحكّام، وكان يحافظ على صلاة الجماعة، ويكثر من الصلاة من الليل، عارفاً بمذهب أبي حنيفة، ولكن دون تعصّب على أحد، فالمذاهب عنده سواء ولا تعدو على كونها مدارس في الفقه، وكان ذا تأثير كبير على رجاله ومعاونيه وقادة الجيش، وأصبح بعضهم يقترب من مستوى نور الدين في العلم والأخلاق والتدين، ومن أمثلة ذلك وزيره أبو الفضل محمد بن عبد الله بن القاسم الشهرزوري، ومن الطريف أن هذه القيادات كانت تتخير أسماءهم على نحو يوضح تعلقهم بالدين، فبينما البويهيون ينسبون أنفسهم للدولة فيقولون: عضد الدولة، بهاء الدولة، صمصام الدولة، كان قادة هذه الدولة وأعوانهم والعاملون معهم يختارون عماد الدين، وسيف الدين، وأسد الدين، ونجم الدين، وصلاح الدين ونور الدين، وثمة ملاحظة أخرى تعلق هذا الجيل بالدين جعلهم يحرصون على الجهاد والاستشهاد، فإذا لم يكتب لهم الاستشهاد أوصوا بدفنهم في مدافن المدينة المنورة، كما فعل الوزير جمال الدين الموصلي، وأسد الدين شيركوه وأخوه نجم الدين أيوب والد صلاح الدين.

97 ـ تواترت لدى المؤرخين المعاصرين أخبار الأمن والعدل واحترام الحريات العامة، كحرية الرأي، والمحافظة على كرامة الفرد التي سادت في ذلك المجتمع في الوقت الذي انتفت جميعها في الأقطار الإسلامية المجاورة، ولقد علق ابن الأثير على ذلك فقال: قد طالعت تواريخ الملوك المتقدمين من قبل الإسلام ومنه إلى يومنا هذا فلم أرَ فيه بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز ملكاً أحسن سيرة من الملك العادل نور الدين، ولا أكثر تحرياً للعدل والإنصاف منه. قد قصّر ليله ونهاره على عدل ينشره وجهاد يتجهز له، ومظلمة يزيلها، وعبادة يقوم بها، وإحسان يوليه وإنعام يسديه، فلو كان في أمة لافتخرت به، فكيف في بيت واحد.

98 ـ كانت خزائن دولة نور الدين تحظى دوماً بالقدر الكافي من المال، وكانت الدولة لها القدرة على الإنفاق في المجال العسكري والاجتماعي والتعليمي، وغيرها، فقد كانت مصادر دخل دولة نور الدين متعددة منها: نظام الإقطاع الحربي، والزكاة والخراج والجزية، ولغنائم وفداء الأسرى، والأموال العظيمة التي خلّفها أبوه عماد الدين، والأمانة الكبيرة التي تميز بها نور الدين وحكومته الرشيدة، وساهم استتباب الأمن والاستقرار الداخلي في انتعاش الحركة الاقتصادية للدولة، ومساهمة الأثرياء، ودعم الخليفة العباسي، و... إلخ.

99 ـ سعى نور الدين محمود إلى تقديم أوسع الخدمات الاجتماعية لشعبه وجعل مؤسسات الدولة أدوات صالحة في خدمة الجماهير، وسعت لتغطية شتى الحاجات: ابتداءً من قضايا المسكن والملبس والمأكل، وانتهاءً بقضايا الروح، ومروراً بالحاجات الفكرية والصحية والعمرانية والإنتاجية، وقد أخذت هذه الخدمات أساليب وأشكالاً مختلفة، فهي حيناً تأتي عن طريق التوزيع المباشر للمال، وحيناً عن طريق (الإعانة) على تلبية حاجة معينة أو الفكاك من الأسر، وحيناً ثالثاً عن طريق إنشاء مؤسسات ومرافق كالمستشفيات والملاجىء ودور الأيتام والمدارس ودور الحديث والخانات والربط والجسور، والقناطر والقنوات والأسواق والحمامات والطرق العامة والمخافر والخنادق والأسوار، وحيناً رابعاً تجيء عن طريق نظم (الوقف) التي شهدت في عصر نور الدين قمة نضجها وتنظيمها وازدهارها، وحيناً خامساً: عن طريق عدد من الإجراءات التنظيمية التي استهدفت تحقيق الضمان الاجتماعي لقطاع ما من قطاعات الأمة، كان نور الدين يرى في الدولة جهاز خدمة وإنجاز لا أداة قسر واستنزاف.

100 ـ اهتم نور الدين بالمساجد اهتماماً عظيماً، فقد كان لها دور عظيم عبر التاريخ الإسلامي، فهو أول وأهم أمكنة التعليم على الإطلاق، وقد كان المسجد بالإضافة إلى كونه محل عبادة المسلمين يجتمعون فيه خمس مرات في اليوم لأداء الصلوات المفروضة عليهم وظل المسجد قاعدة مهمة في التربية والتعليم، ويروي العماد الأصفهاني أن نور الدين أمر بإحصاء ما في محلات دمشق من مساجد هجرت أو خربت، فأناف على مائة مسجد فأمره بعمارة ذلك كله وعين له أوقافاً، وأصلح أحوال المسجد الأموي وباقي المساجد في دولته بالتعمير المادي والمعنوي.

101 ـ اهتم نور الدين بمؤسسات المجتمع المدني، كالمدارس، والربط، والكتاتيب وساهمت تلك المؤسسات في تحقيق أهداف الدولة الزنكية، وساند تلك المؤسسات حركة الأوقاف الواسعة التي استخدمها نور الدين لضمان استمرارية وديمومة تلك المؤسسات.

102 ـ لم يكن التعليم لدى دولة نور الدين مجرد نشاط أكاديمي يستهدف توفير الموظفين والمهنيين، وإنما كان بالدرجة الأولى نشاطاً عقائدياً استهدف إعادة صياغة الجماهير المسلمة بما يتفق وأهداف الإسلام والحاجات القائمة، وكانت الصفة الجماعية للنشاط التعليمي الذي رافق الدولة الزنكية تبدو واضحة من تباري الوزراء القادة والأغنياء والرجال والنساء في إنفاق أموالهم في بناء المدارس والمؤسسات التعليمية، وتوفير الفرصة لجميع أفراد الأمة لدخولها والاستفادة منها، فقد أعطت الخطة الزنكية أهمية خاصة لتعليم كافة المسلمين من عمال وفلاحين ومزارعين من الكبار والصغار والرجال والنساء، وعملت الخطة على تعليم الجميع أصول العقيدة وأركان الدين والقيم والمبادئ الإسلامية، كما عمدت الخطة الحكيمة

على تعرية المذاهب الهدّامة، والفرق الضالة من إسماعيلية باطنية، وشيعية إمامية، وشعوبية، وأبانت عن خطرها وضررها على النفس والمجتمع والأمة، وأن لا خروج من المحنة ولا خلاص من الضياع إلا بالعودة إلى روح الدين النقية الطاهرة في صورتها الأولى التي كان عليها سلف هذه الأمة دون زيادة أو نقصان، ودون تعقيدات فلسفية ومجادلات كلامية لا طائل من ورائها ولا خير فيها ولا في مروّجيها.

103 ـ بلغ اهتمام المرأة المسلمة بالدراسات الشرعية درجة كبيرة لتتعرف على تعاليم الإسلام الصحيحة لتطبيقه عملياً، وكانت دراسة الحديث تأخذ القسط الأوفى من هذا الاهتمام حيث بلغ كثير من النساء بهذا العلم درجة عالية ونافسن فيه كبار الحفاظ والمحدثين، وكنّ مثالاً رائعاً للأمانة والعدالة، وقد أشارت كتب التراجم والطبقات إلى النشاط العلمي الملموس لهذه الفئات في العهد الزنكي، حيث ذكرت تلك المصادر أسماء العديد من المقرئات والمحدثات والفقيهات والأديبات والنحويات إلى غير ذلك من العالمات بالعلوم الأساسية الأخرى.

104 ـ شملت النهضة العلمية في العهد الزنكي مختلف العلوم، فلم يقتصر الاهتمام بالعلوم الشرعية واللغوية والأدبية دون غيرها، فقد نالت ميادين علمية كثيرة نصيباً من اهتمامات الدارسين والباحثين، وقدمت فيها دراسات علمية رائدة وصنفت فيها كتب مهمة، اعتمد عليها كثير ممن جاء بعدهم، حيث ظهرت دراسات متخصصة في العلوم التاريخية والجغرافية وعلوم الرياضيات والفلك، وتدريس الطب في كثير من المستشفيات المنتشرة في المدن الزنكية، وظهر من بين المشتغلين بهذه التخصصات علماء كان لهم أثر كبير في إثراء المكتبة الإسلامية بالعديد من المؤلفات المتخصصة التي ظلت رافداً للعلوم الإسلامية حتى الوقت الحاضر.

105 ـ ازداد الاهتمام بالدراسات الاجتماعية في العهد الزنكي وبخاصة في ميداني الدراسات التاريخية والجغرافية، وحيث برز في هذا العهد عدد كبير من المؤرخين الذين تنوعت اهتماماتهم في مختلف صور الكتابات التاريخية، وقد استخدم التاريخ في تقوية الجانب المعنوي لحركة المقاومة ضد الصليبيين، فقد وجد المتخصصون بهذا الفرع من العلوم في الجهاد مادة زخرت بها مؤلفاتهم سواء عن طريق الكتابات التاريخية التي تؤرخ للمعارك بين المسلمين والصليبيين أو في الكتابة في فضائل المدن وتراجم الشخصيات البارزة في مجال الجهاد، ويعدّ الحافظ علي بن الحسن المعروف ابن عساكر من أكبر مؤرخي العهد الزنكي وكذلك العماد الأصفهاني، وابن الأثير، وابن القلانسي.

106 ـ برزت شخصية ابن عساكر إلى جانب السلطان نور الدين محمود في مناصرته

على حركة المقاومة، وتوحيد الجبهة الإسلامية، وطلب نور الدين من ابن عساكر أن يجمع له أربعين حديثاً في الجهاد تكون واضحة المتن متصلة الإسناد تحريضاً للمجاهدين على القتال، فسارع ابن عساكر إلى امتثال ما طلبه نور الدين، وتمّ تعميم تلك الأحاديث على القادة والجنود وقد استفاد نور الدين من جهود ابن عساكر في تعبئة الأمة فكرياً ودينياً.

107 ـ من الملاحظات المهمة في دراستي لفترة الحروب الصليبية أن انتصارات نور الدين وصلاح الدين ساهمت فيها عوامل متعددة منها على مستوى الخلافة نفسها، ومنها على المستوى الشعبي، فقد أخذت مؤسسة الخلافة تسترجع صلاحياتها وتقوى على ما كانت عليه في العهد السلجوقي. وكذلك مؤسسة الوزارة العباسية خصوصاً في عهد يحيى بن هبيرة، كما كان لعبد القادر الجيلاني جهود معتبرة في الدعوة الشعبية والإصلاح العام، فقد كانت حركته الشعبية معاصرة لعماد الدين ونور الدين، وتعتبر حركة عبد القادر الجيلاني من الروافد المهمة في حركة الجهاد والمقاومة التي قادها نور الدين، وخصوصاً في القطاع الشعبي العريض، وفي عاصمة الخلافة العباسية بغداد، فقد استطاع التأثير في المجتمع بدعوته ومواعظه وتزكيته.

108 ـ استفاد عبد القادر الجيلاني من جهود وتراث الإمام الغزالي وحوّل تلك التعاليم إلى مناهج مبسطة يفهمها العامّة وطلاب العلم والعلماء، فقد وضع الشيخ عبد القادر منهجاً متكاملاً بهدف إعداد الطلبة والمريدين علمياً وروحياً واجتماعياً، ويؤهلهم لحمل رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد توفر لهذا المنهاج فرص التطبيق العملي في الرباط المعروف باسم الشيخ عبد القادر، حيث كانت تجري التطبيقات التربوية والدروس والممارسات العملية ويقيم الطلبة المريدون.

109 ـ بيّن الشيخ عبد القادر الجيلاني عقيدته بوضوح، وكان كثيراً ما يردد في مجالس وعظه وحلقات دروسه عبارة: اعتقادنا اعتقاد السلف الصالح والصحابة، وكان يعرض العقيدة بأسلوب بليغ سهل العبارة.

110 ـ تنسب الطريقة القادرية إلى الشيخ عبد القادر الجيلاني الذي يعتبر المؤسس الأول لها خصوصاً بشكلها الجماعي، والمنظم القائم على جميع المريدين وربطهم بمشايخ الطريقة لتأديبهم وتربيتهم، حيث كان التصوُّف في السابق يقوم على أساس فردي لا أثر له للتجمُّع فيه، ولم يظهر في شكل منظم تحت طريقة واحدة إلا في عهد الشيخ عبد القادر الجيلاني، والمتتبع لظهور الطرق الأخرى يرى أنها جميعها إنما ظهرت بعد الشيخ عبد القادر الجيلاني.

111 ـ أكد الشيخ عبد القادر في وصاياه وتوجيهاته على أهمية التمسك بالكتاب والسنة، والتركيز على الاهتمام بالجوانب العملية والابتعاد عن الأفكار والفلسفات السائدة في عصره، وتأكيده على وجوب تعظيم أوامر الله سبحانه وامتثالها.

112 ـ اعتمد الشيخ عبد القادر في حركته الإصلاحية التعليم المنظم والتربية الروحية المنظمة، واهتم بالإعداد الديني والثقافي والروحي، والاجتماعي، وركز على الوعظ وانتقد علماء السوء، والحكام الظلمة، وانتقد في وعظه ومجالسه الأخلاق الاجتماعية السلبية، ودعا إلى إنصاف الفقراء والعامة، وتصدى للتطرف الشيعي الرافضي وللتيارات الفكرية المنحرفة، وبذل جهداً في إصلاح التصوف وإعادته إلى مفهوم الزهد، وتنقيته مما طرأ عليه، وقام بحركة واسعة للتنسيق بين الطرق الصوفية بهدف توحيد الجهود وتنظيم التعاون ونجح إلى حد كبير، وكان أول الاجتماعات التي استهدفت توحيد القيادة عقد في رباط المدرسة القادرية الكائن في منطقة الحلة في بغداد، حيث حضر الاجتماع ما يزيد على الخمسين من شيوخ العراق وخارجه، وكان الاجتماع الثاني في موسم الحج حيث حضره شيوخ الطرق الصوفية من مختلف أرجاء العالم الإسلامي، حضر هذا اللقاء الشيخ عبد القادر الكيلاني من العراق، والشيخ عثمان بن مرزوق القرشي الذي شاعت شهرته وانتهت إليه المشيخة في مصر، والشيخ أبو مدين المغربي الذي يعود إليه نشر الزهد في المغرب في ذلك العصر، كذلك حضر الاجتماع شيوخ من اليمن حيث أرسل معهم الشيخ عبد القادر رسولاً ينظم أمورهم. وفي نفس الوقت جرت اتصالات بين الشيخ عبد القادر والشيخ أرسلان الدمشقي الذي انتهت إليه تربية المريدين ورئاسة المشايخ في الشام، ثم تلا ذلك اجتماع موسع حضره جمع كبير من الشيوخ يمثلون مدارس الإصلاح في مختلف أقطار العالم الإسلامي، واستطاع الشيخ عبد القادر الجيلاني أن ينقل التصوف السني إلى حركة منظمة في العراق وعلى مستوى العالم الإسلامي، ولقد ترتب على هذه اللقاءات المستمرة للمشايخ والعلماء آثاراً هامة ساهمت في نهضة الأمة، وتوسيع جبهة المقاومة ضد الصليبيين.

113 ـ تدل الأخبار المتعلقة بالمدارس الإصلاحية وخصوصاً مدرسة الشيخ عبد القادر أنها لعبت دوراً رئيسياً في إعداد جيل المواجهة للخطر الصليبي في البلاد الشامية، وتدل الشواهد التاريخية على أن الطلاب الشاميين كانوا يشكلون مجموعة كبيرة بين الطلاب الذين يفدون من خارج العراق للدراسة في مدرسة عبد القادر، وقد قامت المدرسة القادرية بدور هام في إعداد أبناء النازحين من مناطق الاحتلال الصليبي، فكانت تستقدمهم وتوفر لهم الإقامة والتعليم، ثم تعيدهم إلى مناطق الثغور والمرابطة، ولقد كان هؤلاء الطلاب يعرفون باسم المقادسة، نسبة إلى مدينة القدس أو بيت المقدس، ويمكن القول إن إرسال هذه

البعوث الطلابية إلى بغداد كان سببه أمران: **الأول**: حاجة الدولة الزنكية إلى نمط معين من القيادات والموظفين والإداريين، **والثاني**: ما اشتهرت به مدرسة عبد القادر آنذاك من تجسيد لسياسات الإصلاح، ولا بد أن إقرار إرسال هذه البعوث نتج عن دراسة ومشورة، فقد توثقت الصلات بين الشيخ عبد القادر ونور الدين، فكان نور الدين يرسل أبناء المقادسة النازحين من القدس إلى بغداد ليدرسوا في مدرسة الشيخ عبد القادر، ثم يعودوا إلى مناطق الثغور قادة ودعاة ومرشدين، كما كان نور الدين يستقدم مشاهير العلماء الذين تخرجوا من المدرسة القادرية، وهاجر بعض العلماء إلى دولة نور الدين زنكي وشاركوا في الجهاد العسكرية، وميادين السياسية، ومن أشهر هؤلاء زين الدين علي بن إبراهيم بن نجا الواعظ الأنصاري الدمشقي الذي أصبح فيما بعد من رجال صلاح الدين وكبار مستشاريه.

114 ـ عاصر نور الدين محمود انتعاش مؤسسة الخلافة العباسية إبان المقتفي لأمر الله سنة (530هـ ـ 555هـ) والمستنجد بالله سنة (555هـ ـ 566هـ) والمستضيء بالله سنة (566 ـ 575هـ) وقد اتسم حكمهم بالحرص الشديد على استعادة التوازن السياسي مع السلاجقة في العراق وإيران على نحو خاص، ومن بعد ذلك كافة البقاع الإسلامية الأخرى، وقد ساعد على تمتع الخلافة العباسية بالنفوذ في هذه المرحلة وجود الوزير الصالح العالم الرباني عون الدين بن هبيرة وتعتبر قوة مؤسسة الخلافة وانتزاع صلاحياتها من السلاجقة في هذه الفترة من أسباب النهوض وقد ساهمت مؤسسة الخلافة في دعم نور الدين محمود، وحركة المقاومة للغزو الصليبي دينياً، واقتصادياً وسياسياً.. إلخ متوازياً ذلك الدعم مع الضخ الكبير لمعاني الإسلام والإيمان والإحسان في قطاعات جماهير الأمة في عاصمة الدولة العباسية وغيرها، وكان من أبرز قيادات الحركة الشعبية الروحية الإيمانية الشيخ عبد القادر الجيلاني، لقد كانت عوامل النهوض، عديدة منها، روح جديدة في مؤسسة الخلافة والوزارة، وقيادة رشيدة في ساحات الوغى، وزعامة شعبية روحية مخلصة لدين الله ساهمت في تقوية المقاومة للصليبيين، وأمدت الأمة بقدرات مادية ومعنوية للتصدي للغزاة، وتحقيق التوازن العسكري، ثم التفوق عليهم وفق رؤية نهضوية متكاملة وضع خطوطها العريضة القادة السياسيون، والعسكريون والعلماء الربانيون.

115 ـ كان نور الدين محمود مُنذ توليه الحكم في الثلاثين من عمره، واضح الرؤية والهدف مُنذ أن تسلم الحكم حتى يوم وفاته، إذ كان عليه واجب الجهاد لتحرير الأرض من الصليبيين المعتدين، وعلى رأسها بيت المقدس، وتوفير الأمان للناس، وأدرك أن الانتصار على الصليبيين لا يتحقق إلا بعد جهاد طويل ومرير، حافل بالتضحيات في خطوات متتابعة تقرّب كل منهما يوم الحسم، فالخطوة الأولى كان قد بدأها والده عماد الدين حين حرّر إمارة

الرها التي تشكل تداخلاً في الأراضي الإسلامية، فتمكن بذلك من تطهير الأرض الداخلية، وحصر الوجود الصليبي في الشريط الساحلي، وعليه أن يخطو الخطوة الثانية، لذلك وضع أسس سياسة متكاملة تتضمّن توحيد بلاد الشام أولاً، ثم توحيد بلاد الشام ومصر التي كانت تعاني من الاضطرابات وفوضى الحكم ثانياً، وطرد الصليبيين في المنطقة ثالثاً، وكان سبيله إلى ذلك مزيجاً من العمل السياسي والمعارك العسكرية والنشاط الثقافي العلمي والتربوي ـ التي تخدم توحيد الصف والهدف.

116 ـ استطاعت دمشق بدعم من نور الدين وسيف الدين زنكي من صد هجوم الحملة الصليبية الثانية، وقد ترتب على فشل الحملة الصليبية الثانية مجموعة من النتائج منها: أججت الغرب الأوروبي تجاه الإمبراطورية البيزنطية، وأثرت على طبيعة الوجود الصليبي، وأوضحت عجز الكيان الصليبي بإمكاناته المحلية عن تغيير واقع عام (539هـ/ 1144م) وحتى مع الاعتماد على الوطن الأم عجز أيضاً، وتعليل ذلك إلى جانب أخطاء الصليبيين القاتلة: أن حركة الجهاد الإسلامي حينذاك وصلت إلى درجة لن تستطيع أن تعود معها عقارب الساعة إلى الوراء بل من الآن فصاعداً الإنجاز وراء الآخر ،حتى يتم طرد الصليبيين نهائياً من المنطقة لتصحيح خطأ الانقسام الإسلامي الذي مهد للغزاة القدوم للمنطقة.

117 ـ حرص نور الدين على ضم دمشق وكانت خطته للاستيلاء على دمشق سلمياً تقتضي العمل على ثلاثة محاور، **فالمحور الأول**: يتمثل على توجيه حملة دعائية عامة إلى أهالي دمشق يتم خلالها إبراز الأحوال السيئة والأوضاع المتردية التي تسود إمارتهم بسبب سوء إدارة حكامها وفسادهم وتعاملهم مع الأعداء. **والمحور الثاني**: العمل على الاتصال سراً بوجوه مدينة دمشق وأعيانها من كبار التجار والقضاة والعلماء وبعض قادة الجند وقادة التنظيمات الشعبية، لاستغلال نفوذهم وتأثيرهم لصالح التغيير المطلوب في الوقت المناسب **والمحور الثالث**: أخذ نور الدين يراسل مجير الدين آبق ويستشيره في أمور المسلمين، ويتقرب إليه بالهدايا حتى اطمأن إليه ووثق به، ثم أخذ يُوقِع بينه وبين قادته وأمرائه، ونجحت المحاور الثلاثة، وتمّ في النهاية ضم دمشق لجبهة المقاومة الإسلامية، وشكل هذا العمل نقطة تحول هامة في تاريخ الحروب الصليبية بفعل أنه ترتب على هذا التحوُّل وحدة بلاد الشام الإسلامية تحت زعامة نور الدين محمود.

118 ـ عمل نور الدين على ضم القوى الإسلامية، وعلى إسقاط نفوذ الأسر الحاكمة في المدن والبقاع الشمالية، فاستطاع ضم شيزر عام (552هـ) بعد الزلزال الذي أصابها، فجدد أسوارها ودخلت شيزر في دولة نور الدين، وضم بعلبك وانتزعها من الأسرة الجندلية

الدرزية، وضمّ حرّان ومنبج، وفتح قلعة جعبر والموصل وتصالح مع سلاجقة الروم، وحقق إلى حد كبير هدفه الإستراتيجي الأول وهو: وحدة الدول والإمارات الإسلامية المواجهة للفرنجة، وأصبح القضاء على الفرنجة مسألة وقت فقط.

119 ـ دخل نور الدين في صراع مع مملكة بيت المقدس واستهدف تحقيق انتصارات في المجال الاقتصادي والسياسي والعسكري وبالمفاوضات أحياناً أخرى، وقد أدركت الدولة النورية أن تجييش الجيوش ضد مملكة بيت المقدس الصليبية خير وسيلة من أجل تحقيق باقي الدوافع السابقة، وكانت هناك صلة وثيقة بين آلة الحرب للدولة النورية وتحركاتها السياسية، وقد حرصت الدولة النورية على الاستيلاء على عدد من القلاع والحصون الإستراتيجية من أجل إضعاف فعاليات المملكة الصليبية عسكرياً ولتأمين حدود الدولة النورية، ولإيجاد توازن عسكري مع المملكة الصليبية يتطور مستقبلاً إلى ما هو أبعد في سبيل تحقيق التفوق العسكري على الوجود الصليبي، وهو ما تحقق في عهد السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي.

120 ـ امتدت ساحة صراع نور الدين مع الصليبيين من إمارة الرها إلى أنطاكية ثم طرابلس وبيت المقدس، وأسقط ما يزيد على الخمسين من الحصون والمعاقل، وتصارع مع جبهتين شمالية وجنوبية في آن واحد وارتبطت طموحاته بحكمته ودهائه السياسي، وحافظ على طاقاته وإنجازاته.

121 ـ تلخصت سياسة نور الدين تجاه إمارة الرها في القضاء على محاولة أميرها السابق استردادها، ثم اتجاهه إلى أسره وإسقاط أملاكه، وطبيعي أن ندرك دوره في هذا المجال كان المحافظة على ما أمكن إنجازه في عهد والده والقضاء على المراكز الحصينة التي سيطر عليها جوسلين الثاني، ويلاحظ أن جهوده نحوها لم تكن على ذلك المستوى الكبير الذي حظيت به إمارة أنطاكية مثلاً، نظراً لانتهاء قوة الرها الصليبية الفعلية في عهده.

122 ـ كانت أهم ملامح العلاقات النورية الأنطاكية انتصارات تلو انتصارات بلغت ذروتها في حارم: ومع ذلك لم تسفر عن تغيُّر حاسم، وكأن الأحداث أثبتت أن جبهة شمال الشام منغلقة أمام أية توسعات نورية حاسمة مستقبلية طالما أن الإمبراطورية البيزنطية تقف حائلاً دون ذلك، ويلاحظ أن الأخيرة كانت حريصة على إضعاف الصليبيين وتفوقها هي عليهم، غير أنها في نفس الوقت لم تكن لتقبل بانتصار حاسم لنور الدين بل أرادت أن يكون الجميع في موقف ضعف حتى يحتاجوا إليها.

123 ـ كانت سياسة نور الدين تجاه إمارة طرابلس تتمثل في الرغبة في السيطرة على قلاعها وحصونها، ولم تحدث معارك كبرى في إمارة طرابلس، كالتي حدثت في مواجهة

أنطاكية، ومما تجدر الإشارة إليه، أن صراع الدولة النورية مع تلك الإمارات قد شهد نوعين من الاحتكاك العسكري معارك كبيرة، مثل: يغرى، وإنب، وحارم، ثم معارك محدودة من أجل إخضاع بعض القلاع والحصون مثل: المنيطرة وأنطرطوس وغيرها، وكانت المعارك جميعها برية، ولم تحدث أية معركة بحرية، وقد غدت تلك الناحية عامل ضعف مؤثر في صراع نور الدين محمود ضد الإمارات الصليبية خاصة إمارتَي أنطاكية وطرابلس اللتين امتلكتا سلاحاً ممتداً من السويدية شمالاً إلى ميناء جونية جنوباً، ونلاحظ أن محاولات نور الدين محمود لإخضاع ميناء السويدية والإمبراطورية البيزنطية لتوسعات الدولة الطموحة في ذلك الاتجاه أدى إلى عدم تملك الدولة النورية أية موانىء.

124 ـ حرص نور الدين محمود على استمرار الصلات التجارية مع الدولة البيزنطية، فقد كانت سوقاً رائجة لمنتجات الشرق، وكانت الدولة النورية طرفاً هاماً في عملية استيرادها وتصديرها من بعد ذلك للقوى الأوروبية.

125 ـ حرصت الدولة النورية على تجنب الصدام العسكري مع البيزنطيين بمفردهم أو من خلال تحالفهم مع الصليبيين، فمختصر سياسة نور الدين تجاه الدولة البيزنطية يهدف إلى تحيدها وعزلها عن بقية القوى الصليبية في المنطقة في بلاد الشام، وفي الاتجاه الجنوبي صوب الدولة الفاطمية.

126 ـ تحالفت الدولة البيزنطية مع الصليبيين وبدأت حشودهم تتحرك باتجاه الطرف الإسلامي، وقد أثارت مخاوف نور الدين محمود، فكتب إلى ولاة الأعمال والمعاقل بإعلامهم ما حدث من الروم ويبعثهم على استعمال التيقظ والتأهب للجهاد فيهم، والاستعداد للنكاية بمن يظفر منهم، وبدأت رسل نور الدين تتردد على معسكر الإمبراطور في عمل دبلوماسي سياسي كبير مع استعداده في الوقت للحرب، وتواصل قدوم الأمراء وولاة الأعمال بجنودهم وكان على أهبة الاستعداد للجهاد.

127 ـ استهدف نور الدين العمل على زعزعة الحلف البيزنطي مع مملكة بيت المقدس وأنطاكية ضده، وحتى لا يجعل دولته بين عدوين: الصليبيين في الجنوب، والبيزنطيين في الشمال، واستطاعت دبلوماسية الدولة النورية أن تصل إلى صلح مع الدولة البيزنطية واستطاعت المهارة السياسية الزنكية أن تدق إسفيناً بين التحالف البيزنطي والصليبي، وهذا لم يأتِ بدون دفع ثمن وإنما لتنازلات غير عادية، فقد اتخذ نور الدين خطوة يصعب تقييمها إلا بوصفها من قبيل القرارات الصعبة المصيرية، فلعلم نور الدين محمود بعداء البيزنطيين للروم والسلاجقة، ولتقديره أن معركته الحالية والمرحلية ضد الصليبيين وليست ضد البيزنطيين، فإنه

وازن بين الإطاحة بمشروعاته على يد الحملة الصليبية البيزنطية، وبين الوقوف ضد سلاجقة الروم، فاختار الخيار الثاني وتفاهم مع الإمبراطور البيزنطي ضد السلاجقة وغيرها من الأمور، فقبل الإمبراطور وانسحب الحلف الصليبي، فأوقف الحملة وزال الخطر.

128 ـ من أهم الدروس والعبر والفوائد من سياسة نور الدين الخارجية، التفكير الإستراتيجي عند نور الدين، وأهمية صلاح أولي الأمر، وشن حرب استنزاف مستمرة ضد الفرنج، واعتماد اللين والمرونة والخدعة لتحقيق ما لا يمكن تحقيقه بالقوة، واهتم نور الدين بالإستراتيجية العسكرية وتظهر ملامحها في النقاط التالية، التركيز على النوعية والفاعلية، إعلان الجهاد والتعبئة العامة للأمة، والتدرج في مواجهة العدو، وانهاك العدو واستنزاف قوّاته، وتطبيق نور الدين لمبادئ الحرب الأساسية، كتحديد الهدف والعمل التعرضي والحشد، والمناورة، وحدة القيادة، وعنصر المفاجأة، والاستخبارات، والتقرُّب غير المباشر، والجاهزية القتالية.

129 ـ ركز نور الدين على الحرب النفسية، وأحسن استخدامها، فقد وجه حربه النفسية في البداية نحو حكام الإمارات الإسلامية الذين كانوا غارقين في حياة اللهو والترف غير مهتمين بأحوال رعاياهم السيئة، أو بمقاومة التوسع الفرنجي على حساب بلاد المسلمين ونحو من كان على شاكلتهم من أبناء الأمة من التجار والأمراء والأثرياء الذين كان همهم جمع الثروات بأية وسيلة، كانت المبادئ التي يدعو إليها نور الدين في حربه النفسية بسيطة وواضحة ومحدّدة، هي: دين واحد وهو الإسلام السني، دولة واحدة لمحاصرة الفرنجة من كل صوب، هدف واحد هو الجهاد لتحرير الأرض المحتلة، وأما الجهاز الدعائي الذي كان نور الدين يعتمد عليه لبثّ هذه المبادئ بين صفوف الأمة، فيتألف من العلماء والعبّاد والزهاد، فكان يطلب منهم كتابة قصائد ورسائل وكتب، تدور كلها حول مضمون المبادئ المذكورة أعلاه مع التركيز على توضيح فضائل القدس ومحاسنها وأهميتها بالنسبة للمسلمين، ثم يتم نشر هذه الرسائل بين الناس وقراءتها في المساجد والأسواق واللقاءات في مختلف المناسبات وكان من الطبيعي أن تشير هذه الرسائل والقصائد والكتب إلى نور الدين باعتباره رائد الجهاد الملتزم قولاً وفعلاً بالمبادئ المذكورة، وكانت صورة نور الدين التي ترسخت في أذهان الناس تؤيد وتدعم ما تشير إليه الرسائل والقصائد والكتب المذكورة.

130 ـ كان الموقف العسكري في المشرق الإسلامي راجحاً لصالح الفرنجة عندما تسلم نور الدين حكم حلب عام (541هـ) وبعد عشر سنوات من ذلك التاريخ تغيَّر الموقف العسكري فأصبح راجحاً لصالح المسلمين، وكان التفوق العسكري الإسلامي على الفرنجة

واضحاً جداً في السنوات الأخيرة من حكم نور الدين، حقق إنجازات عسكرية كبيرة تمثّلت بشكل عام من ناحيتين: **الأولى**: إلحاق هزائم منكرة بجيوش الفرنجة في معارك كثيرة، **والثانية**: بناء قوة عسكرية كبيرة منظمة وفعّالة، كانت في السنوات الأخيرة من حكمه قادرة على تحرير الأرض الإسلامية المحتلة ومواجهة التحديات الخارجية المحتملة.

131 ـ كان فتح مصر من أعظم منجزات نور الدين رحمه الله، فقد تمكن من إسقاط الدولة الفاطمية العبيدية، التي استمرت أكثر من قرنين تنشر الفساد السياسي والخلل العقدي في أنحاء العالم الإسلامي، وقد استخدم نور الدين الدبلوماسية والاختراق الأمني، والدعوة لمذهب أهل السنة، وتوجت جهوده بإرسال الحملات العسكرية مستفيداً من قانون الفرصة الذي أتيح له.

132 ـ تولى أسد الدين ثم بعد وفاته صلاح الدين منصب الوزارة عند الحاكم الفاطمي، واستطاع من خلال هذا المنصب أن يستميل قلوب الناس إليه، وبذل لهم من الأموال، فمال الناس إليه وأحبوه وسيطر على الجند سيطرة تامة، واستطاع القضاء على مراكز القوة في الدولة.

133 ـ نفذ صلاح الدين تعليمات وتوجيهات نور الدين زنكي بمصر، وكانت من أعظم المهام التي أنجزها صلاح الدين، إلغاء الخلافة الفاطمية العبيدية، وقد استفاد صلاح الدين من القاضي الفاضل في إعداد خطة محكمة ومدروسة للقضاء على الدولة الفاطمية والمذهب الشيعي الرافضي الإسماعيلي، وشرع صلاح الدين في تنفيذها بدقة متناهية، فعزل قضاة الشيعة وألغى مجالس الدعوة، وأزال أصول المذهب الإسماعيلي وأبطل الأذان بحي على خير العمل محمد وعلي خير البشر، وأمر في يوم الجمعة العاشر من ذي الحجة سنة (565هـ) بأن يذكر في خطبة الجمعة الخلفاء الراشدون: أبو بكر وعمر عثمان وعلي ﷺ، وأمر بعد ذلك بأن يُذكر العاضد في الخطبة بكلام يحتمل التلبيس على الشيعة، فكان الخطيب يقول: اللهم أصلح العاضد لدينك، وولى القضاء في القاهرة للفقيه عيسى الهكاري السني، فاستناب القضاة الشافعيين في جميع البلاد، وأنشأ المدارس لتدريس المذاهب السنيّة وهو في الوقت نفسه يُضَيِّق الخناق على العاضد فيلغي مخصصاته ويحرمه من المال والخيل والرقيق، ويمنع رسوم الخلافة وهي حفلاتها الرسمية في الأعياد وغيرها، ويحتجز الخليفة في قصره فلا يسمح له بمغادرته إلا في مناسبات قليلة منها خروجه لاستقبال نجم الدين أيوب والد صلاح الدين يوم جاء إلى القاهرة، وعمد إلى الخطة نفسها مع أمراء الجيش، فأخذ يحدّ من نفوذهم شيئاً، ثم قبض عليهم في ليلة واحدة، وأنزل أصحابه في دورهم وفرّق إقطاعاتهم عليهم، وانزوى العاضد في مخدعه فريسة للهمّ والمرض، وأدرك صلاح الدين أن الفرصة باتت

مواتية للقضاء على الدولة الفاطمية المحتضرة، فعقد مجلساً كبيراً حضره أمراء جيشه وقواده وفقهاء السُنة ومتصوّفوها وسألهم الرأي والنصيحة، وقد اتفق رأي الحاضرين على اتخاذ تلك الخطوة الفاصلة في حياة البلاد، وفي بداية سنة (567هـ/ 1171م) قطع صلاح الدين الخطبة للفاطميين، وكان قطعها بالتدرج، ففي الجمعة الأولى من محرم سنة (567هـ) حذف اسم العاضد من الخطبة وفي الجمعة الثانية خطب باسم الخليفة المستضيء بأمر الله.

134 ـ كان نور الدين محمود يرى إزالة الدولة الفاطمية هدفاً إستراتيجياً للقضاء على الوجود النصراني، والنفوذ الباطني في بلاد الشام، ولذلك حرص على إعادة مصر للحكم الإسلامي الصحيح فوضع الخطط اللازمة وأعد الجيوش المطلوبة، وعين الأمراء ذوي الكفاءة المنشودة، فتمّم الله له ما أراد على يدي جنديه المخلص وقائده الأمين صلاح الدين الذي نفذ سياسة نور الدين الحكيمة الرشيدة.

135 ـ استخدم صلاح الدين أساليب عديدة للقضاء على الوجود الشيعي الرافضي بمصر منها: إذلال الخليفة الفاطمي العاضد، وإزالة هيبة قصر الخلافة الفاطمي، قطع الخطبة الجامعة من الجامع الأزهر، وإبطال تدريس الفكر الباطني به، وإتلاف وحرق الكتب الشيعية الإسماعيلية، وألغى جميع الأعياد المذهبية للفاطميين، محو رسوم الفاطميين وعملاتهم، الحفاظ على أفراد البيت الفاطمي، إضعاف العاصمة الفاطمية، الاستمرار في ملاحقة بقايا التشيع في الشام واليمن ومصر.

136 ـ توفي نور الدين يوم الأربعاء الحادي عشر من شوّال سنة تسع وستين وخمسة مئة، ودفن بدمشق، وكان رَحِمَهُ اللَّهُ حريصاً على الشهادة وكان يقول: طالما تعرضت للشهادة فلم أُدرِكها، وقال الذهبي: قد أدركها على فراشه وعلى ألسِنة الناس نور الدين الشهيد، وبعد وفاة نور الدين حمل راية الجهاد تلميذه الفذ صلاح الدين الأيوبي، الذي بنى جهاده على ما أسسه شيخه نور الدين، فأتمه ووصل إلى غايته، بفضل من الله العلي القدير.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

أهم المصادر والمراجع

1 ـ فن الصراع الإسلامي الصليبي ـ السياسة الخارجية للدولة النورية د. محمد مؤنس أحمد عوض، عين للدراسات والبحوث، الطبعة الأولى 1998م، مصر.

2 ـ سير أعلام النبلاء، للذهبي، شمس الدين محمد أحمد الذهبي، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية 1402هـ / 1982م.

3 ـ البداية والنهاية، للحافظ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، تحقيق د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر، مصر، الطبعة الأولى 1419هـ ـ 1998م.

4 ـ سياسة الخليفة الناصر لدين الله الداخلية، أحلام حسن مصطفى النقيب، كلية الآداب جامعة بغداد، رسالة الماجستير عام 1988م.

5 ـ الكامل في التاريخ، عز الدين أبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم عبد الواحد الشيباني، دار المعرفة، الطبعة الأولى 1422هـ/ 2002م.

6 ـ الخلافة العباسية دراسة في الأحوال السياسية والإدارية والاقتصادية، محمد ضايع حسون الجبوري، كلية الآداب، جامعة بغداد عام 1988م، رسالة ماجستير.

7 ـ ذيل طبقة الحنابلة، لأبي الفرج عبد الرحمٰن بن شهاب الدين أحمد بن رجب، صححه محمد حامد الفقي، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، 1952م.

8 ـ نظام الوزارة في الدولة العباسية العهدان البويهي والسلجوقي، د. محمد مسفر الزاهراني، مؤسسة الرسالة الطبعة الثالثة 1406هـ ـ 1986م.

9 ـ أخبار الدول المنقطعة للشيخ الإمام جمال الدين أبو الحسن علي بن منصور ظافر ابن حسين الأزدي، مؤسسة حمادة للخدمات والدراسات الجامعية، أربد الأردن.

10 ـ جهود علماء السلف في القرن السادس الهجري في الرد على الصوفية، د. محمد أحمد الجوير، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى 1424هـ ـ 2003م.

11 ـ صحيح البخاري، لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، دار الفكر، الطبعة الأولى 1411هـ ـ 1991م.

12 ـ الإفصاح في معاني الصحاح، ليحيى بن هبيرة الوزير العباسي.

13 ـ كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تأليف شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي الدمشقي المعروف، بأبي شامة، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى 1418هـ/ 1997م.

14 ـ المنتظم لأبي الفرج عبد الرحمٰن علي بن محمد بن الجوزي، دراسة وتحقيق محمد عبد القادر عطا مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان.

15 ـ المصباح المضيء في خلافة المستضيء، للإمام العلاَّمة أبي الفرج عبد الرحمن علي الجوزي البكري الصديقي البغدادي، تحقيق د. ناجية عبد الله إبراهيم شركة المطبوعات بيروت، لبنان، طبعة أولى 2000م.

16 ـ دور نور الدين محمود في نهضة الأمة ومقاومة غزو الفرنجة، عبد القادر أحمد أبو صيني، رسالة دكتوراه، معهد التاريخ العربي والتراث العلمي للدراسات العليا.

17 ـ الجهاد ضد الصليبيين ـ الشرق الإسلامي، مسفر بن سالم بن عريج الغامدي، دار المطبوعات الحديثة، الطبعة الأولى 1406/ 1986م.

18 ـ حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، جلال الدين عبد الرحمٰن بن أبي بكر السيوطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، طبعة القاهرة 1968م.

19 ـ العلاقات بين الشرق والغرب د. محمد مؤنس عوض، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، الطبعة الأولى 1999/ 2000م.

20 ـ سنا البرق الشامي، للفتح البنداري وهو اختصار للبرق الشامي، تحقيق فتحية النبراوي، طبعة القاهرة 1979م.

21 ـ مرآة الزمان في تاريخ الأعيان سبط بن الجوزي، حيدر آباد الدكن 1951م.

22 ـ زبدة الحلب من تاريخ حلب، كمال الدين أبو القاسم بن العديم، تحقيق سامي الدهان، طبعة دمشق 1954م.

23 ـ الرحلة لابن جبير، أبو الحسن محمد أحمد الكتاني الأندلسي، دار صادر، بيروت 1964م.

24 ـ التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، تحقيق عبد القادر طليمات، طبعة القاهرة 1963م.

25 ـ دول الإسلام للإمام شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى 1999م.

26 ـ التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني في المشرق الإسلامي د. عبد المجيد أبو الفتوح بدوي، دار الوفاء المنصورة، الطبعة الثانية 1408هـ ـ 1988م.

27 ـ تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام، د. محمد سهيل طقّوش، دار النفائس، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى 1419 ـ 1999م.

28 ـ معجم البلدان، شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت الحموي، بيروت، دار صادر 1979م.

29 ـ عيون الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصّلاحيّة شهاب الدين عبد الرحمن ابن إسماعيل المقدسي، تحقيق أحمد البيسومي؛ منشورات وزارة الثقافة بسوريا، دمشق 1991م.

30 ـ تاريخ سلاجقة الروم في آسيا الصغرى د.محمد سهيل طقوش، دار النفائس، الطبعة الأولى 1423هـ ـ 2002م.

31 ـ ذيل تاريخ دمشق، أبو يعلى حمزة بن القلانسي، تحقيق أميدروز طبعة بيروت 1908م.

32 ـ تاريخ سلاجقة الروم في آسيا الصغرى د. محمد سهيل طقوش، دار النفائس، الطبعة الأولى 1423هـ ـ 2002م.

33 ـ ذيل تاريخ دمشق، أبو يعلى حمزة بن القلانسي، تحقيق أميدروز، طبعة بيروت 1908م.

34 ـ تاريخ الحروب الصليبية، رنسيمان، ستيفن، نقله إلى اللغة العربية الدكتور السيد الباز العريني، الطبعة الثالثة 1413هـ ـ 1193م.

35 ـ دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الشرق الأدنى في الجهاد ضد الصليبيين خلال الحركة الصليبية د. آسيا سليمان نقلى، مكتبة العبيكان، الطبعة الأولى 2002م.

36 ـ شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ابن العماد الحنبلي، دار الآفاق الجديدة.

37 ـ رائد نصر المسلمين على الصليبيين نور الدين محمود، سيرة مؤمن صادق، د. حسين مؤنس الدار السعودية، الطبعة الثالثة 1408هـ ـ 1987 السعودية.

38 ـ موقف فقهاء الشام وقضاتها من الغزو الصليبي، جمال محمد سالم خليفة، الجماهيرية العظمى، مركز جهاد الليبيين للدراسات طرابلس 2000م.

39 ـ الدولة العباسية من التخلي عن سياسات الفتح إلى السقوط، نادية محمود مصطفى، المشرف العام، منشورات المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الطبعة الأولى 1996م.

40 ـ الطريق إلى البيت المقدس د. جمال عبدالهادي، د. وفاء محمد رفعت، دار التوزيع والنشر الإسلامية، طبعة ثانية 1422هـ/ 2001م.

41 ـ الكواكب الدرية في السيرة النورية، تقي الدين أحمد ابن قاضي شهبة تحقيق محمود زايد طبعة بيروت 1971م.

42 ـ الشرق الأوسط والحروب الصليبية، السيد الباز العريني، طبعة القاهرة 1317هـ.

43 ـ الحروب الصليبية والأسرة الزنكية، شاكر أحمد أبو زيد الجامعة اللبنانية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية.

44 ـ شعر الجهاد في الحروب الصليبية في بلاد الشام، د. محمد علي الهرفي، الطبعة الثالثة 1400هـ ـ1980م مؤسسة الرسالة.

45 ـ نهاية الأرب في فنون الأدب، شهاب الدين أحمد النويري، تحقيق سعيد عاشور طبعة القاهرة 1980م.

46 ـ البستان الجامع، للعماد الأصفهاني، تحقيق كلود كاهن، مجلة الدراسات الشرقية.

47 ـ البرق الشامي، وقد اختصره الفتح البغدادي تحت عنوان سنا البرق الشامي، تحقيق فتحية النبراوي، طبعة القاهرة 1979م.

48 ـ من أجل فلسطين مواقف وعبر التاريخ الإسلامي حسين أدهم جرّار، مؤسسة الزيتونة، عمّان الأردن، الطبعة الأولى 1419هـ/ 1998م.

49 ـ وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى لأبي الحسن بن عبد الله السَّمهودي، دار المصطفى، طبعة القاهرة 1326هـ.

50 ـ التنظيمات الدينية الإسلامية والمسيحية في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية مؤنس أحمد عوض، رسالة ماجستير، كلية الآداب عين شمس 1984م.

51 ـ صلاح الدين الأيوبي، قدري قلعجي، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت ـ لبنان، الطبعة الثالثة 1997م.

52 ـ إمارة أنطاكية الصليبية، حسين عطية، رسالة ماجستير، كلية الآداب جامعة الإسكندرية لعام 1981م.

53 ـ إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي، دار الحديث، القاهرة.

54 ـ الشهب اللامعة في السياسة النافعة، لعبد الله بن يوسف الفاسي، تحقيق د. سليمان الرّفاعي، المدار الإسلامي لبنان، الطبعة الأولى.

55 ـ الحروب الصليبية مواقف وتحديات، سهيلة الحسيني، الطبعة الأولى (1243هـ/ 2003م) دار التوزيع والنشر الإسلامية، الطبعة الأولى.

56 ـ الحروب الصليبية، سهيل زكار.

57 ـ الشرق والغرب في زمن الحروب الصليبية، كلود كاهن، ترجمة أحمد الشيخ سينا للنشر، طبعة القاهرة، الطبعة الأولى 1995م.

58 ـ الحروب الصليبية د. قاسم عبده.

59 ـ حروب الخليج الثانية وأثرها على العالم الإسلامي عبد القادر أحمد أبو صيني رسالة ماجستير في الدراسات الدفاعية والإستراتيجية إسلام آباد 1992م.

60 ـ الدولة الفاطمية العبيدية للصَّلاَّبي د. علي محمد الصَّلاَّبي، دار البيارق، عمّان ـ الأردن 1999م، الطبعة الأولى.

61 ـ الفرق بين الفِرَق، تأليف ـ عبد القاهر بن طاهر البغدادي، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد ـ طبع دار المعرفة ـ بيروت.

62 ـ الملل والنِحَل، تأليف: محمد بن عبد الكريم الشهرستاني، تحقيق محمد سيد كيلاني، جمع مصطفى البابي الحلبي بمصر (1387/ 1967م).

63 ـ الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس، نجيب زبيب دار الأمير، الطبعة الأولى (1415هـ/ 1995م).

64 ـ تاريخ الفتح العربي في ليبيا، للشيخ الطاهر الزاوي مفتي الديار الليبية.

65 ـ جهود علماء المغرب في الدفاع عن عقيدة أهل السنة، د. إبراهيم التهامي.

66 ـ ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، تأليف القاضي عياض، تحقيق د. أحمد بكير محمود طبعة دار مكتبة الحياة ـ بيروت.

67 ـ البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تأليف ابن عذارى المراكشي: تحقيق ليفي بروفنسال.

68 ـ كتاب التوحيد لمحمد بن عبد الوهاب.

69 ـ مدرسة الحديث بالقيروان، الحسين بن محمد شواط، الدار العالمية للكتاب الإسلامي، الطبعة الأولى 1411هـ.

70 ـ رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية تأليف أبي بكر عبد الله بن محمد المالكي ـ تحقيق بشير البكوش ـ طبعة دار الغرب الإسلامي (1403/ 1983م).

71 ـ أيعيد التاريخ نفسه، محمد عبده، المنتدى الإسلامي طبعة 1411هـ.

72 ـ معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، تأليف عبد الرحمٰن بن محمد الأنصاري الدباغ، تحقيق: إبراهيم سبوح ـ طبعة ـ مكتبة الخانجي بمصر ـ الطبعة الثانية.

73 ـ شجرة النور الزكية في طبقات المالكية تأليف محمد بن محمد مخلوف طبعة دار الكتاب العربي بيروت.

74 ـ سنن الترمذي (الجامع الصحيح)، تأليف: محمد بن عيسى بن سورة الترمذي، تحقيق الشيخ أحمد محمد شاكر ـ مطبعة مصطفى البابي الحلبي ـ الطبعة الأولى 1356هـ.

75 ـ دولة السلاجقة للصَّلاَّبي، مؤسسة، اقرأ القاهرة ـ مصر، طبعة أولى عام 2006م.

76 ـ الخطط للمقريزي، كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، المعروف بـ الخطط المقريزية بيروت، دار صادر.

77 ـ نظام الملك، الحسن بن علي بن إسحاق الطوسي د. عبد الهادي محمد رضا محبوبة الدار المصرية اللبنانية.

78 ـ طبقات الشافعية الكبرى، تأليف، تاج الدين السبكي، تحقيق محمود محمد الطماحي وعبد الفتاح محمد الحلو طبع مطبعة عيسى البابي وشركاؤه.

79 ـ رجال الفكر والدعوة، لأبي الحسن الندوي، دار ابن كثير، دمشق، سوريا.

80 ـ الغزالي بين مادحيه وناقديه، القرضاوي، الطبعة الثالثة 1413هـ ـ 1992م.

81 ـ الجهاد من الهجرة إلى الدعوة والدولة، د. محمد الرحموني، دار الطليعة ـ بيروت، الطبعة الأولى 2002م.

82 ـ اتعاظ الحنفا بأخبار الأمة الفاطميين الخلفاء، تأليف تقي الدين أحمد بن علي المقريزي، تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال: طبعة دار الفكر العربي (1367هـ/ 1948م).

83 ـ الجهاد والتجديد في عهد نور الدين وصلاح الدين، محمد حامد الناصر، مكتبة الكوثر، الطبعة الأولى 1419هـ/ 1998م.

84 ـ مصر والشام في عهد الأيوبيين والمماليك، د. سعيد عبد الفتاح عاشور، دار النهضة العربية.

85 ـ النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، أو سيرة صلاح الدين بن شداد بهاء الدين، تحقيق جمال الدين الشيال مكتبة الخانجي، القاهرة، طبعة 1994م.

86 ـ مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تأليف جمال الدين محمد بن سالم بن واصل، تحقيق د. جمال الدين الشيال.

87 ـ تاريخ الفاطميين في شمالي إفريقية ومصر وبلاد الشام، الطبعة الأولى 1422هـ/ 2001م.

88 ـ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة، ابن تغري بردي جمال الدين أبو المحاسن يوسف.

89 ـ القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني العسقلاني.

90 ـ صلاح الدين القائد وعصره، د. مصطفى الحياري، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى 1415هـ ـ 1994م.

91 ـ الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين، د. محسن محمد حسين، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى 1406هـ ـ 1986م.

92 ـ تاريخ القبائل العربية في عصر الدولتين الأيوبية والمملوكية، د. محمود السيد، مؤسسة شباب الجامعة الإسكندرية، طبعة عام 1998م.

93 ـ تاريخ الشعوب الإسلامية، بروكلمان.

94 ـ هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس، د.ماجد عرسان، دار القلم الإمارات العربية الطبعة الثالثة 1423هـ ـ 2002م.

95 ـ تاريخ اليمن الإسلامي د. محمد عبده السروري، مكتبة خالد بن الوليد، صنعاء، الطبعة الثانية 2003م.

96 ـ جهاد الأيوبيين والمماليك ضد الصليبيين والمغول د. فرست مرعي، صنعاء، طبعة جديدة 2004 ـ 2003، الطبعة الثانية المنتدى الجامعي.

97 ـ نور الدين زنكي في الأدب العربي في عصر الحروب الصليبية، تأليف محمود فايز إبراهيم السرطاوي دار البشير، عمّان الأردن، الطبعة الأولى 1411هـ ـ 1990م.

98 ـ دراسة في تاريخ الأيوبيين والمماليك، تأليف السيد عبد العزيز سالم، سحر السيد عبد العزيز سالم، مؤسسة شباب الجامعة الإسكندرية، طبعة سنة 1999م.

99 ـ التعريف بالمؤرخين في عهد المغول والتركمان، عباس العزاوي طبع ببغداد، 1376هـ/ 1957م.

100 ـ السلوك لمعرفة دول الملوك، تقي الدين أحمد المقريزي، تحقيق مصطفى زيادة.

101 ـ وفيات الأعيان وأنباء الزمان، لابن خلكان أبو العباس شمس الدين أحمد: تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت.

102 ـ عماد الدين زنكي د. عماد الدين خليل، مؤسسة الرسالة، بيروت ـ لبنان، الطبعة الثانية 1402هـ ـ 1982م.

103 ـ إمارة حلب، محمد ضامن.

104 ـ مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية، سهيل زكّار.

105 ـ دخول الترك الغز إلى الشام، مصطفى شاكر.

106 ـ بغية الطالب، كمال الدين أبو القاسم عمر بن أحمد بن هبة الله ابن العديم.

107 ـ الحركة الصليبية سعيد عبد الفتاح عاشور، طبعة القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية 1976م.

108 ـ نور الدين والصليبيون، حسن حبشي، دار الفكر العربي، القاهرة 1948م.

109 ـ الحياة العلمية في العهد الزنكي د. إبراهيم بن محمد المزيني، الطبعة الأولى 1424هـ/ 2003م.

110 ـ تاريخ دولة آل سلجوق لعماد الدين الأصفهاني.

111 ـ العبر في خبر من غبر، للذهبي أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان، تحقيق صلاح الدين المنجد.

112 ـ الاعتبار لابن منقذ.

113 ـ صبح الأعشى في صناعة الإنشاء لأبي العباس أحمد القلقشندي، القاهرة، مؤيد الدولة أسامة بن مرشد بن علي، حرره فيليب حتي ـ مطبعة جامعة برنستون، الولايات المتحدة الأمريكية.

114 ـ تاريخ المماليك البحرية، علي إبراهيم حسن.

115 ـ دولة الأتابكة في الموصل بعد عماد الدين، رشيد عبد الله الجُميلي، بيروت، دار النهضة العربية 1970م.

116 ـ أخبار الدولة السلجوقية، تحقيق: محمد إقبال، دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة الأولى 1981م.

117 ـ واقع التربية الإسلامية في عهد نور الدين في بلاد الشام، محمود عقلة الرفاعي، رسالة ماجستير، جامعة اليرموك ـ الأردن.

118 ـ تاريخ جزيرة ابن عمر مُنذ تأسيسها حتى الفتح العثماني د. محمد يوسف غندور، دار الفكر اللبناني، بيروت ـ لبنان.

119 ـ الأدب العربي من الانحدار إلى الازدهار، د. جودت الركابي، دار الفكر المعاصر، دمشق، الطبعة الثانية 1422هـ/ 2001م.

120 ـ الأدب في بلاد الشام في عصور الزنكيين والأيوبيين والمماليك د. عمر موسى باشا، دار الفكر المعاصر، بيروت ـ لبنان الطبعة الأولى 1409هـ ـ 1989م.

121 ـ محاضرات عن الحروب الصليبية، صالح أحمد العلي.

122 ـ سلاجقة إيران والعراق، عبد المنعم حسين.

123 ـ شعر الجهاد الصليبي د. فؤاد حسين أبو الهيجاء، الطبعة الأولى 1424 ـ 2004م.

124 ـ الحروب الصليبية العريني.

125 ـ نور الدين محمود الرجل والتجربة، د.عماد الدين خليل، دار القلم، دمشق ـ بيروت، الطبعة الأولى 1400هـ، 1980م.

126 ـ الحركة السنوسية، د. علي محمد الصَّلاَّبي، دار المعرفة، بيروت ـ لبنان.

127 ـ فقه النصر والتمكين في القرآن الكريم، علي محمد الصَّلاَّبي، دار المعرفة، لبنان، طبعة عام 2005م.

128 ـ صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي بيروت ـ لبنان، الطبعة الثانية 1992م.

129 ـ من أخلاق النصر في جيل الصحابة، الدكتور السيد محمد نوح، دار ابن حزم، الطبعة الأولى 1415هـ ـ 1994م.

130 ـ ديوان ابن منير الطرابلسي، جمعه وقدم له دكتور عمر عبد السلام تدمري، المكتبة العصرية، صيدا ـ بيروت.

131 ـ مقومات النصر في ضوء القرآن والسنة، د. أحمد عوض أبو الشباب، المكتبة العصرية صيدا ـ بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى 1420هـ ـ 1999م.

132 ـ المستدرك على الصحيحين، للإمام أبي عبد الله النيسابوري بذيله التَّخليص للذَّهبي، طبعة سنة 1390هـ ـ 1970م، دار الفكر.

133 ـ الإعداد المعنوي والمادي للمعركة في ضوء القرآن والسنة، اللواء الدكتور فيصل ابن جعفر بن عبد الله بالي، مكتبة التوبة، الرياض طبعة أولى 1419هـ / 1999م.

134 ـ تاريخ دمشق الكبير، للإمام الحافظ المؤرخ ثقة الدين أبو القاسم علي بن عساكر، دار إحياء التراث، لبنان ـ بيروت، الطبعة الأولى 1421هـ/ 2001م.

135 ـ الكتاب الجامع لسيرة عمر بن عبد العزيز، لأبي حفص عمر بن الخضر المعروف بالملاء، تحقيق د. محمد صدقي اليورنو، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى 1996م.

136 ـ الخليفة الراشد والمصلح الكبير عمر بن عبد العزيز، ومعالم التجديد والإصلاح الراشدي على منهاج النبوة د. علي محمد الصَّلاَّبي دار ابن كثير طبعة أولى 1427هـ/ 2006م.

137 ـ الدارس في تاريخ المدارس، عبد القادر بن محمد بن عمر بن محمد الدمشقي، نشر وتحقيق جعفر الحسين، مطبعة الترقي 1367هـ/ 1948م.

138 ـ الموطأ للإمام مالك بن أنس، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، طبعة دار إحياء الكتب العربية (القاهرة).

139 ـ حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، تأليف الحافظ أبي نعيم الأصبهاني ت 430هـ، دار الفكر، بيروت.

140 ـ الجامع الصغير للسيوطي.

141 ـ معوقات الجهاد في العصر الحاضر، د.عبد الله بن قريح العقلا، مكتبة الرشد، الطبعة الثانية 1424هـ ـ 2003م، الرياض.

142 ـ مختصر صحيح مسلم للمنذري.

143 ـ دروس وتأملات في الحروب الصليبية لأبي فارس دار جهينة، الأردن ـ عمان، الطبعة الأولى 1422هـ/ 2002م.

144 ـ عمران القاهرة وخططها في عهد صلاح الدين الأيوبي، د. عدنان محمد الحارثي، مكتبة زهراء الشرق.

145 ـ المقدمة لابن خلدون.

146 ـ الإسلام والوعي الحضاري، أكرم ضياء العمري، دار المنارة، جدة السعودية، الطبعة الأولى 1407هـ ـ 1987م.

147 ـ أولويات الحركة الإسلامية في المرحلة القادمة، د. يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة القاهرة، الطبعة الثانية 1411هـ.

148 ـ الشورى بين الأصالة والمعاصرة، عز الدين التميمي، مرعي يوسف، دار الفرقان، دار الرسالة، الطبعة الأولى 1404هـ/ 1983م.

149 ـ سورة يوسف، دراسة تحليلية د. أحمد نوفل، دار الفرقان، عمان ـ الأردن، الطبعة الأولى 1409هـ/ 1989م.

150 ـ مقومات حركة الجهاد ضد الصليبيين زمن عماد الدين زنكي وابنه نور الدين محمود، الدكتور عبد الله بن سعيد الغامدي، 1414هـ.

151 ـ جيش مصر أيام صلاح الدين نظير حسان سعداوي، طبعة القاهرة، سنة 1959م.

152 ـ مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك د. سعيد عبد الفتاح عاشور، دار النهضة بيروت ـ لبنان.

153 ـ القبة الخضراء ومحاولات سرقة الجسد الشريف محمد علي قطب، الطبعة الأولى 1419هـ/ 1999م، الدار الثقافية، القاهرة.

154 ـ القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني العسقلاني دوره في التخطيط في دولة صلاح الدين وفتوحاته هادية دجاني شكيل.

155 ـ الخراج لأبي يوسف، يعقوب بن إبراهيم، دار المعرفة، بيروت.

156 ـ اقتصاديات الحرب في الإسلام، د. غازي مكتبة الرشد الرياض، الطبعة الأولى 1411هـ/ 1991م.

157 ـ عمر بن الخطاب للصَّلاَّبي، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الأولى 2004م.

158 ـ سياسة المال في الإسلام في عهد عمر بن الخطاب، عبد الله جمعان السَّعدي، مكتبة المدارس، الدوحة ـ قطر، الطبعة الأولى 1348هـ ـ 1930م.

159 ـ الحدود الإسلامية البيزنطية، فتحي عثمان.

160 ـ تاريخ التجارة.

161 ـ الإشارة إلى محاسن التجارة للدمشقي تحقيق الشوربجي.

162 ـ مملكة بيت المقدس، عمر كمال توفيق.

163 ـ صناعة الحياة، محمد أحمد الراشد، دار البشير، مصر.

164 ـ الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب، لابن الشحنة، أبو الفضل محب الدين الحلبي، نشر يوسف بن إلياس سركيس، دمشق، دار الكتاب العربي.

165 ـ نهر الذهب في تاريخ حلب: المطبعة المارونية كامل بن حسين الغزي.

166 ـ أحياء حلب وأسواقها، خير الدين الأسدي، تحقيق وتقديم عبد الفتاح روّاس قلعجي ـ دمشق وزارة الثقافة والإرشاد القومي 1984م.

167 ـ تاريخ البيمارستانات في الإسلام أحمد عيسى الطبعة الثانية، بيروت، دار الرائد العربي.

168 ـ تاريخ التربية الإسلامية، أحمد شلبي، الطبعة الرابعة، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية.

169 ـ القلائد الجوهرية في تاريخ الصلاحية، شمس الدين محمد بن علي بن أحمد الدمشقي ابن طولون، تحقيق محمد أحمد دهمان ـ دمشق، نشر مكتب الدراسات الإسلامية.

170 ـ المدرسة العمرية بدمشق وفضائل مؤسسها، أبو عمر محمد بن أحمد المقدسي، د. محمد مطيع الحافظ، دار الفكر المعاصر بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى 1421هـ.

171 ـ كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، حاجي خليفة مكتبة الظنون عن أسامي الكتب والفنون، حاجي خليفة مكتبة المثنى، بغداد.

172 ـ معيد النعم ومبيد النقم، تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي، بيروت، مؤسسة الكتب الثقافية 1474هـ/ 1986م.

173 ـ تاريخنا المفترى عليه، د. يوسف القرضاوي، دار الشروف.

174 ـ من روائع حضارتنا، د. مصطفى السباعي.

175 ـ لا طريق غير الجهاد لتحرير المسجد الأقصى د. مجاهد بن مجد الدين بن صلاح الدين، الطبعة الأولى 1414هـ/ 1994م.

176 ـ مدخل الشرع الشريف على المذاهب الأربعة، ابن الحاج أبو عبد الله بن محمد الفاسي المالكي، مطبعة الحلبي.

177 ـ أحكام القرآن، أبو بكر محمد بن عبد الله المعافري الإشبيلي المالكي، تحقيق علي محمد البجاوي؛ القاهرة، مطبعة عيسى الحلبي وشركاه.

178 ـ التربية والتعليم في الإسلام محمد أسعد طلس، بيروت، دار العلم للملايين.

179 ـ تذكرة السامع والمتكلم في أدب العلم والمتعلم لأبي إسحاق إبراهيم ابن جماعة، بيروت، دار الكتب العلمية.

180 ـ الجواهر المضيّة في طبقات الحنفية، محيي الدين أبو محمد عبد القادر الحنفي، تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو، القاهرة، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه 1978م.

181 ـ أدب الدنيا والدين، علي بن محمد الماوردي، تحقيق مصطفى السقا، الطبعة الرابعة، بيروت، دار الكتب العلمية 1398هـ/ 1978م.

182 ـ بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، للحافظ جلال الدين عبد الرحمٰن بن أبي بكر بن محمد السيوطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، مطبعة البابي.

183 ـ التاريخ والمؤرخون العرب، شاكر مصطفى الطبعة الثانية، دار العلم للملايين، بيروت 1980م.

184 ـ تاريخ الأدب الجغرافي العربي ترجمة صلاح الدين هاشم لكراتشكوفسكي، القاهرة 1961م.

185 ـ تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك، قدري طوقان، الطبعة الثالثة، القاهرة، دار القلم 1382هـ/ 1963م.

186 ـ مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم، أحمد مصطفى طاش كبرى زاده، بيروت، دار الكتب العلمية 1405هـ/ 1985م.

187 ـ عيون الأنباء في طبقات الأطباء، أبو العباس موفق الدين أحمد بن القاسم ابن أبي أصيبعة، شرح وتحقيق، نزار رضا، بيروت، دار مكتبة الحياة 1385هـ.

188 ـ المختارات في الطب، أبو الحسن علي بن أحمد بن هبل البغدادي، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، الدكن، الهند 1943م.

189 ـ موارد ابن عساكر في تاريخ دمشق د. طلال بن سعود الدّعجاني.

190 ـ صحيح ابن حبان، لمحمد بن حبان البستي.

191 ـ ابن عساكر ودوره في الجهاد ضد الصليبيين، د. أحمد عبد الكريم حلواني، دار الفداء، دمشق ـ سوريا.

192 ـ سنن النسائي، أحمد بن شعيب بن علي بن بحر بن سنان بن دينار النسائي، بشرح جلال الدين السيوطي وحاشية الإمام السندي، دار الفكر ـ بيروت 1348هـ ـ 1930م.

193 ـ سنن سعيد بن منصور.

194 ـ المجروحين من المحدثين والضعفاء والمتروكين محمد بن حبان البستي، تحقيق محمود إبراهيم زايد دار الوعي، حلب، الطبعة الأولى 1396هـ.

195 ـ التاريخ الكبير لمحمد إسماعيل البخاري.

196 ـ الشيخ عبد القادر الجيلاني سعيد القحطاني، الطبعة الأولى 1418هـ/ 1997م.

197 ـ بهجة الأسرار ومعدن الأنوار، علي بن يوسف الشطنوفي، شركة مصطفى البابي الحلبي.

198 ـ فتاوى ابن تيمية، جمع عبد الرحمٰن بن قاسم، طبعة الرئاسة العامة للحرمين الشريفين.

199 ـ الغنية لطالبي الحق، عبد القادر الجيلاني، دار الألباب، دمشق.

200 ـ مسائل الإمام أحمد لابن هاني تحقيق الشاويش.

201 ـ زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن القيم، تحقيق شعيب وعبد القادر الأرناؤوط، الطبعة الثانية، مؤسسة الرسالة بيروت 1402هـ.

202 ـ قلائد الجواهر في مناقب عبد القادر للتادفي، الطبعة الثالثة، القاهرة 1375 ـ 1956م.

203 ـ التعريفات للجرجاني، علي بن محمد الشريف، بيروت، مكتبة لبنان.

204 ـ مدارج السالكين، لابن القيم الجوزية.

205 ـ السنة، لعبد الله بن أحمد بن حنبل الشيباني.

206 ـ نشأة القادرية د. ماجد الكيلاني، رسالة مقدمة إلى دائرة التاريخ في الجامعة الأمريكية بيروت لإتمام المطلوب للحصول على درجة أستاذ في الآداب.

207 ـ العراق بين احتلالين للعزاوي، عباس العزاوي، بغداد، 1369هـ ـ 1949م.

208 ـ روضات الجنان، للخوانساري محمد بن جعفر تحقيق أسد الله إسماعيليان، طهران 1392هـ.

209 ـ الشيخ عبد القادر الجيلاني، الإمام الزاهد القدوة، الدكتور عبد الرزّاق الكيلاني.

210 ـ بهجة الأسرار ومعدن الأنوار علي بن يوسف الشطنوفي، شركة مطبعة مصطفى البابي الحلبي.

211 ـ السنة النبوية في القرن السادس الهجري د. محمود إبراهيم الديك، الطبعة الأولى 1411هـ/ 1190م.

212 ـ جهود المرأة الدمشقية في رواية الحديث الشريف د. محمد بن عزوز، دار الفكر، الطبعة الأولى جمادى الأولى 1425هـ تموز (يوليو) 2004م.

213 ـ قضاة الشام المسمى، «الثغر البسام فيمن وُلّي قضاء الشام»، تحقيق صلاح الدين المنجد، الطبعة الأولى المجمع العلمي العربي، دمشق (1956م).

214 ـ تراجم النساء من تاريخ دمشق، تحقيق سكينة الشهابي، دمشق 1403هـ/ 1983م.